التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

تأليف

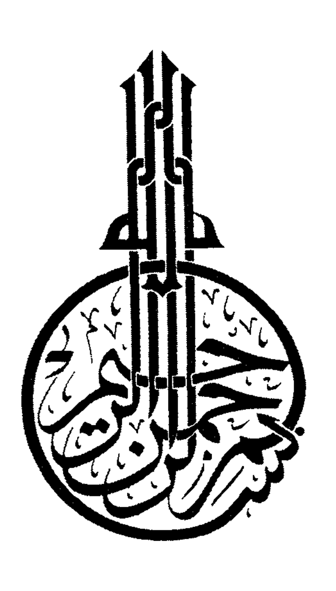
عبد الحميد محمود طهماز

المجلد الثامن :

ويحتوي على تفسير

جزء الذاريات - جزء قد سمع - جزء تبارك - جزء عم




بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

٨



الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤





٥١

تفسير سورة الذاريات

العِبَادَةُ والرِّزْقُ فِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقسمات الرزق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)﴾.

بدأ الله تعالى سورةَ الذاريات بالأقسام التالية:

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١)﴾.

أي: والرياحِ التي تذرو وتفرِّقُ، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقرئت: (**والذاريات ذَّرواً**) بإدغام التاء في الذال.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢)﴾.

أي: فالحاملات حملاً، وهي السحب الحاملة للمطر.

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣﴾.

أي: فالسفنُ الجاريةُ في البحر جرياً سهلاً.

وقال بعضُهم: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ هي النجوم تجري يُسراً في أفلاكها، ليكونَ ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، فالرياحُ فوقها السحاب، وفوق السحاب النجوم، وفوق كل ذلك الملائكة التي تتنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. والمعنى الأول أولى.

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾.

أي: فالملائكةُ التي تقسِّم الأمور من الأمطار والأرزاق كما أمروا به.

أقسم الله بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على عجيب صنعته، وكمال قدرته، ويجوزُ أن يكون القسمُ بالرياح لا غير، فهي التي تنشئ السحابَ وتسيره، ثم تحمله وتقلُّه، ثم تجري به جرياً سهلاً، ثم تقسم الأمطار، ومع تقسيم الأمطار تقسم الأرزاق، فالفاء لترتيب الأفعال والصفات.

وجواب هذه الأقسام:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦﴾.

أي: إنَّما توعدون من الثواب والعقاب يوم القيامة لوعد صادق، وإنَّ الحسابَ والجزاءَ لكائنٌ لا محالةَ.

أو: إنما توعدون من رزق لوعد صادق مؤكد الوقوع.

وفي القسم بهذه الأمور إشارةٌ إلى تحقق مضمون المقسم عليه، فمَنْ قَدَر عليها فهو قادر على غيرها.

* * *

القول المضطرب

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾

ثم أقسم الله تعالى قسماً آخر فقال:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾.

أي: ذات الطرائق؛ وهي الأفلاك التي تسير عليها الكواكب والنجوم.

أو: ذات الخَلْق المستوي المتقن، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [قَ: ٦].

ومنه يقال للنسَّاج إذا نسجَ الثوبَ فأجاد نسجه: حبك الثوب يحبكه حبكاً، قال ابن الأعرابي: كُلُّ شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته.

أو: والسماء التي حبكت بالنجوم وزيِّنت بها(١).

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨﴾.

أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مضطرب متناقض لا يلتئم ولا يجتمع؛ وهو قولهم في حقه عليه الصلاة والسلام، تارة شاعر، وأخرى ساحر، وأخرى مجنون.

(١) تفسير القرطبي: ١٧/ ٣١.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾.

أي: يُصرف عن القرآن مَنْ صُرِفَ، فلا صَرْفَ أفظعُ منه وأشد، فأقوالهم المضطربة لا يقبلها إلا مَنْ هو ضالٌّ في نفسه، لا فهم له ولا عقل.

وكان مشركو مكة يستقبلون القادمين إليها ليصدُّوهم عن الإيمان، ويصرفوهم عن استماع القرآن.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾.

أي: لُعِنَ الكذَّابون من أصحاب القول المختلف.

وأصله الدعاء بالقتل والهلاك أجري مجرى اللعن. ومعنى **الخرص**: الظنُّ والتخمين، وأُطلِقَ على الكذب لأنه في الغالب يكون منشأً له.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾.

الذين هم في غفلة وجهالة عظيمة تغمرهم، لاهون غافلون عما أُمروا به وخُلقوا من أجله.

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: متى وقوع يوم الجزاء؟!.

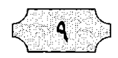
وسؤالهم للاستهزاء والاستعجال لا للاستعلام.

وجاء الجواب على استهزائهم يتوعدهم ويتهددهم:

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: يحرقون ويعذبون، وأصل **الفتن** إذابة المعدن الثمين لاختباره وإظهار غشِّه، ثم استعمل في الإحراق والتعذيب ونحو ذلك.

ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً:



﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾.

أي: ذوقوا عذابكم هذا الذي كنتم تستعجلون به مستهزئين.

* * *

المستغفرون بالأسحار

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾.

وتحوَّلتِ الآياتُ من الحديث عن اللاهين العابثين إلى الحديث عن المتقين العابدين:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥)﴾.

أي: بين جنات وعيون جارية لا تغيب عن أبصارهم.

﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾.

﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: راضين بما أعطاهم ربهم.

فكل ما تفضَّل به عليهم ربُّهم حسن مرضي، مُتَلَقَّى بالقبول والسرور، بينما كثير من الناس لا يرضون بما آتاهم ربهم من الرزق وبما يسَّره لهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: إنهم كانوا في الدنيا قد أحسنوا طاعة ربهم، فتقبَّلها منهم، وأثابهم عليها أحسن الثواب.

ثم بينتِ الآياتُ في معرض الثناء عليهم بعض أعمالهم الحسنة، فأبرزت منها عبادتهم بالليل واستغفارهم بالأسحار:

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾.

أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل.

أو: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً، أو: كان هجوعهم في الليل قليلاً.

والمراد بيان قلَّة نومهم وهجوعهم، وكثرة صلاتهم وعبادتهم.

وقد يكون المراد بيان حرصهم على قيام الليل، فقلَّ أن تمرَّ عليهم ليلة لا يصلون فيها لله ﷻ.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾.

أي: ويداومون على الاستغفار بالأسحار، لأنهم يستشعرون تقصيرهم في العبادة.

فالآية تشيرُ إلى مزيد خشيتهم من عذاب الله، وعدم اغترارهم بعبادتهم.

والسَّحَر: السدس الأخير من الليل، ودلت الآية على فضل الاستغفار فيه، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

* * *

الأسباب السماوية للرزق

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾.

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾.

أي: وفي أموالهم نصيب وافر أوجبوه على أنفسهم قبل أن يوجبه الله عليهم بفريضة الزكاة، للسائل الذي يسأل، وللمحروم المتعفف عن المسألة، فيكون محروماً من قبل نفسه حين لم يسأل، ومن قِبَلِ الناسِ إذ لا يعطونه ولا يفطنون له.

فالقوم جمعوا بين العبادة البدنية والمالية، وعلموا أنَّ الله سخر بعض الناس لبعض، فجعل رزق بعضهم على بعض، وأضافوا إليها أيضاً النظر والتفكير في بدائع المخلوقات:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وفي الأرض علامات وبراهين تدلُّهم على وجود الله ووحدانيته، وكمال علمه وقدرته، وطلاقة مشيئته، وفرط رحمته.

فنظرةُ اليقين هي التي تحيي القلبَ فيرى ويدرك، وتحيي مشاهدَ الأرضِ فتنطق للقلب بأسرارها المكنونة، وتحدِّثه عما وراءها من تدبير وإبداع.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وفي ذواتكم آياتٌ كثيرةٌ لا تُحصى أفلا تنظرون فيها نظر المتفكر المتعظ؟!.. فالآية تعنِّفُ المعرضين عن التفكير والنظر.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وفي السماء أسباب رزقكم من سحاب ومطر، وما توعدون من ثواب وعقاب، فكله مقدر مكتوب في السماء.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فوربِّ السماء والأرض إن ما سبق ذكره في السورة لحق مثل نطقكم، فكما أنه لا شك أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكُّوا في تحقق ذلك، وهذا كقول الناس: إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع، فكل ما أخبر سبحانه عنه من أمر القيامة والبعث والجزاء وتوزيع الأرزاق، كائن لا محالة، وحق لا مرية فيه.

وفي قراءة: (مثلُ) بالرفع صفة لحق.

وخصَّ النطق من بين سائر الحواس لأن غيره من الحواس يدخله التشبيه.

ضيف إبراهيم

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

وتأكيداً لصدق الوعد والوعيد المذكور في صدر السورة عند قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥] ذكرت الآيات أمثلة واقعية من تاريخ الأمم الهالكة المكذبة:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: هل أتاك يا محمد حديثُ ضيف إبراهيم المكرمين؟.

وهم الملائكة الذين أتوا إلى إبراهيم في صورة الضيف، فأضافهم ﷺ، وهو يظنُّ أنهم ضيف، وقام بإكرامهم وخدمهم بنفسه.

وتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ بصيغة الاستفهام تفخيمٌ لشأن الحديث، وتنبيه على أنه ما علمه إلا من طريق الوحي.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: إذ دخلوا على إبراهيم فقالوا: نسلم

عليك سلاماً، فرد إبراهيم قائلاً: عليكم سلام، عدل به إلى الرفع بالابتداء للقصد إلى الثبات والدوام، فكانت تحيتُه أحسنَ من تحيتهم.

وقرئا مرفوعين، وقرئ: **(فقالوا سلام) (قال سلاماً)** والمعنى واحد.

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: قال إبراهيم في نفسه: قومٌ منكرون، لأنَّهم ليسوا ممن عهدهم من الناس. أو: لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾.

فذهب إلى أهله في خفية وسرعة فجاء بعجل سمين مشوي.

فإنَّ من أدب المضيف أن يبادِرَ بتقديم القِرَى، قال تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩].

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

فوضعه بين أيديهم، وحثهم بأدب ولطف على الأكل.

ولما رأى أيديهم ممسكة عن طعامه، أضمر في نفسه خوفاً، لأن من لم يأكل طعامك لا يحفظ ذمامك:

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

وهو إسحاق عليه السلام.

ولما سمعت امرأته سارةُ البشارةَ دنت منهم صائحة متعجبة:

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صيحة من الصرير.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لطمت وجهها متعجبة.

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا عجوز عقيم، كما سبق معنا عند قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: هكذا قال ربك، فنحن لا نقوله من تلقاء أنفسنا، إنه هو الحكيم العليم.
ولما علم إبراهيمُ أنَّهم ملائكة وهم لا ينزلون إلا لأمر عظيم؛ سألهم عنه:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: فما الشأن الخطير الذي أرسلتم لأجله؟.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

هم قوم لوط.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: من طين متحجر.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: معلَّمة في ملك الله وسلطانه للمتجاوزين الحد في الفجور والعصيان.
وانتقلت الآيات من بيت إبراهيم إلى قوم لوط تصف بإجمالٍ ما أنزل الله بهم من العذاب والنكال:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

وهم أهل بيت لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا امرأته، فإنَّها كانت كافرةً.
وفيه دليلٌ على جواز إطلاق العام على الخاص، فإنَّ الإسلامَ أعمُّ من الإيمان.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: تركنا فيها علامة دالة على ما أصابهم من العذاب يعتبر بها الذين يخافون من العذاب الأليم؛ ولا تزالُ قائمة حتى الآن في ما يسمى بالبحر الميت أو بحيرة لوط.

* * *

عبر وعظات

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم أشارت الآيات إلى العبر والعظات في ما حل ببعض المعذَّبين من الأمم السالفة:

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: وجعلنا في قصة موسى موعظةً وعبرةً عندما أرسلناه إلى فرعون بحجة واضحة ومعجزة ظاهرة.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: فأعرض فرعون بجمعه وجنوده الذين يركن إليهم، ووصف موسى بأنه ساحر أو مجنون.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: فأخذنا فرعونَ وجنودَه فطرحناهم في البحر، وهو آتٍ بما يلام عليه من الكفر والعناد.

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾.

التي لا خير فيها.

﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: ما تترك من شيء مرَّتْ عليه إلا جعلته هالكاً بالياً.

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾.

وذلك أنهم لما عقروا الناقة المعجزة قال لهم نبيُّهم صالح: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام.

﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فاستكبروا عن طاعة ربهم، فأخذهم العذاب والهلاك وهم يرونه وينظرون إليه.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: فأصبحوا هامدين، لا حراك بهم، وما كانوا ممتنعين منه.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء المذكورين، إنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة ربهم. وقرئ (من قبلِ) بالجر.

* * *

الفرار إلى الله

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

وبعد بيان العبر والعظات أبرزت الآياتُ كمال قدرة الله في خلق المكونات:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: والسماء بنيناها بقوة وقدرة، وإنا لذو سعة أغنياء قادرون على خلقها وخلق غيرها، لا يمتنع علينا شيء نريده.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

والأرض بسطناها لكم فنعم الماهدون نحن.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أنَّ الخالقَ فردٌ وترٌ، ليس كمثله شيء، فالزوجيةُ مبثوثةٌ في كل المخلوقات كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يسٓ: ٣٦].

وبهذا البيان مهدت الآيات لأمره تعالى للرسول ﷺ بأن يأمرهم باللجوء إليه سبحانه وإلى عبادته وطاعته:

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: فالجؤوا إلى عبادة الله وتوحيده والاعتصام به، إني لكم منه نذير بيِّنُ الإنذار.

وتعليله بأنه ﷺ ينذرهم من جهته تعالى، لا من تلقاء نفسه، وعد كريم بنجاتهم من العقاب وفوزهم بالثواب.

فالفرار بالحقيقةِ من الله إلى الله، من سخطه إلى مرضاته، ومن عقوبته إلى معافاته، كما في الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: فقدتُه ﷺ من الفراشِ، فالتمستُه، فوقعتْ يدي على بطنِ قدميه، وهو ساجدٌ يقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ، وأعوذُ بمعافاتِكَ مِنْ عقوبتِكَ، وأعوذُ بكَ مِنْكَ، لا أحصي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسِكَ**» [رواه الترمذي (٣٥٦٦) وأبو داود (١٤٢٧)].

ثم بينت الآيات أن الفرار الحقيقي لا يكون إلَّا بإخلاص العبادة لله وحده:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

فالإنذار الأول متصل بالأمر، والثاني متصل بالنهي، والغرض من كل ذلك الحث على دوام العبادة والطاعة، والتحذير من الشرك وأسبابه، فتكذيبُ الرسلِ أمرٌ خطيرٌ كبيرٌ شائع بين الأمم.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: كما كذَّبك قومُك وقالوا: ساحر أو مجنون، كذلك فعل الذين من قبلهم فقالوا عن رسولهم: ساحر أو مجنون.

ولهذا استنكر سبحانه اجتماعهم على هذا القول ووبخهم عليه قائلاً:

﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعاً، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان، فالطغيان ومجاوزة الحد هو الذي جمعهم عليه لأنهم لم يتلاقوا في زمن واحد.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: فأعرِضْ عنهم، ولا تبالِ بهم، فلا لوم عليك فقد أديتَ الرسالة وما قصَّرت في التبليغ.

وليس المرادُ من الإعراض عنهم التوقف عن تبليغهم وموعظتهم، فالواجبُ عليه ﷺ وعلى كل داعية أن يستمرَّ في التبليغ والتذكير:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: تنفع من قدَّر الله إيمانه، وتزيد المؤمنين بصيرة وهداية.

* * *

الحكمة من الخلق

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم بينت الآيات في آخر السورة حكمته تعالى في الخلق:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: إلا لأُكلِّفهم بعبادتي وطاعتي، فما خلقتهم عبثاً ولا لعباً ولا لحاجتي إليهم؛ فأنا الغني عنهم وعن عبادتهم.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم، وأسند الإطعام إلى نفسه

سبحانه، لأن الخلق كلهم عياله، ومن أطعم أحداً من عياله فكأنما أطعمه جَلَّلهُ.

وخص سبحانه الإطعامَ بالذكر لأنه المقصد الأساس الأول من الرزق الذي دارت الآيات في فلكه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: إنَّ الله هو الذي يرزق كل مفتقر إلى الرزق، ذو القدرة والقوة الذي لا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء.

وإذا أثبتَ أنه تعالى ما خلقَ الجنَّ والإنسَ إلا ليكلِّفهم بعبادته ويشرِّفهم بطاعته:

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: فإنَّ للذين ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن عبادته تعالى وطاعته، واشتغالهم بغير ما خُلقوا له، نصيباً من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة، فلا يطلبون مني أن أعجِّلَ في الإتيان به، فويل لهم وهلاك إن استعجلوا نصيبهم من الشر.

وأصل **الذَّنوب**: الدلو العظيم الممتلئ ماء، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة، وتُستعار للنصيب مطلقاً، شرّاً كان أو خيراً[1].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.



(١) روح المعاني: ٢٧/ ٢٤.



تفسير سورة الطُّور

مُطَارَدَةُ الضَّلَالِ فِي سُورَةِ الطُّورِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مصير المكذبين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

بدأ تعالى سورة الطُّور كما بدأ سورة الذاريات قبلها بالأقسام التالية:

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾.

وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام، أو هو الجبل الذي تغطِّيه الأشجار، وما لم يكن كذلك لا يسمى طوراً.

والأولُ أولى، أقسم الله به تكريماً له، وتذكيراً بما أوحى الله إلى موسى عليه السلام عنده، ويقوِّيه أنه تعالى أقسم به في **سورة التين** فقال: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢﴾.

أي: مكتوب؛ وهو القرآن الكريم المكتوب في اللوح المحفوظ، أو الذي يسَّر الله كتابته وحفظه في المصاحف. ويمكن أن يكون كتاب الأعمال الذي وصفه سبحانه بقوله: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣﴾.

أي: مبسوط. **والرق**: هو الجلد الرقيق الذي يكتب فيه، وصِف بأنه منشور، للإشارة إلى صحة ما فيه، فجُعل معرضاً لنظر كل ناظر.

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤﴾.

أي: لكثرة الواردين عليه من الملائكة، ذكره النبي ﷺ في حديث الإسراء والمعراج، فقال: «**فَرُفِعَ لي البيتُ المعمورُ، فسألتُ جبريلَ فقال: هذا البيتُ المعمورُ يصلِّي فيه كلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخرَ ما عليهم**» [رواه البخاري (٣٢٠٧)].

وأكثر الروايات أنه في السماء السابعة بحيال الكعبة، حُرْمَتُهُ في السماء كحرمة البيت الحرام في الأرض.

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾.

وهو السماء، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾.

أي: الموقَد ناراً، ويكون ذلك عند قيام الساعة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ [التكوير: ٦].

وجواب هذه الأقسام:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ .

أي: إن عذاب ربك لواقع بالكافرين ما له من مانع.

ولا يخفى أن الأمور المقسم بها تدل على كمال قدرة الله وحكمته وعلمه، وإحاطته بتفاصيل أعمال العباد وضبطها.

ثم وصفت الآياتُ هول ما يحدثُ يوم القيامة عندما تضطرب النظم الكونية، ويختل إحكامها تمهيداً لتبديلها بغيرها:

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾ .

أي: يوم تضطرب السماء اضطراباً هائلاً فظيعاً.

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ .

بنسفها وإزالتها عن أماكنها، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

وتأكيد الفعلين بمصدريهما (**موراً، سيراً**) يدل على غرابتهما، وخروجهما عن الحدود المعهودة المألوفة، وإذا وقع ذلك وحدث:

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾ .

أي: الذين هم منهمكون في الأباطيل والأكاذيب يلهون ويلعبون.

فالخوض: هو الاندفاع في الباطل والكذب دون أناةٍ ونظرٍ في العواقب، ولا شك أنه يؤدي إلى الهلاك والشقاء:

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾ .

أي: يُدفعون إلى نار جهنم دفعاً غليظاً، ويقال لهم عندما يصلون إليها:

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: كنتم تقولون عنه في الدنيا سحر، أفهذا سحر أم أنتم لا تبصرون كما كنتم في الدنيا لا تبصرون الحقائق؟!.

﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ادخلوها وقاسوا حرَّها على أي وجه شئتم من الصبر وعدمه، فإنه لا محيص لكم عنها.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من التكذيب والكفر.

* * *

الفضل والعدل

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾

وبعد أن وصفت الآيات مصير المكذبين وأكدته بالأقسام السابقة، وصفت في مقابله مصير المتقين:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: ناعمين متلذذين بما أعطاهم ربهم. وقرئ: **(فكهين)**.

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: ودفع ربهم عنهم عذاب الجحيم.

وإظهار **(الرب)** في موضع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم للتشريف والتكريم.

ويقال لهم زيادة في تكريمهم وتشريفهم:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: أكلاً وشراباً هنيئاً لا تنغيص فيه، جزاءَ ما كنتم تعملون.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي: مرتبة منسقة على صف بحيث يظل الجالسون عليها متقابلين لا متدابرين.

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ من نساء الجنة.

وحتى يزداد سرورهم يجمع الله بينهم وبين أبنائهم المؤمنين في الجنة فيلحق المقصِّرين بالسابقين، ويجمع بينهم على أحسن الوجوه:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فالله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقرَّ بهم عينه.

وقرئ: **(ذرياتهم)** للمبالغة في الكثرة. كما قرئ أيضاً: **(وأتبعناهم ذريتَهم)** أي: جعلناهم تابعين لهم بالإيمان.

﴿وَمَآ أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً، إنما رفعنا أبناءهم إلى منزلتهم بمحض التفضُّل والإحسان، وقرئ: **(ألتناهم، لتناهم، آلتناهم)** والكل بمعنى واحد.

ولما أخبر تعالى عن مقام الفضل برفع الدرجة أخبر عن مقام العدل:

﴿كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرتهن بعمله، فلا يحمل على أحد ذنب غيره، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وزدناهم على ما هم فيه من النعيم بأنواع شتى من الفاكهة ومما يشتهون من اللحم.

﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: يتعاطون فيها هم وجلساؤهم برغبة واشتياق خمراً، ولا يتكلمون بِلَغوِ الحديث في أثناء شربها، ولا يفعلون الآثام كما هو عادة شاربي الخمر في الدنيا، فخمر الجنة منزهة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها.

وفي قراءة: **(لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ)** بالفتح.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ويطوف عليهم بالكأس مماليك مخصصون بهم، كأنهم في جمالهم اللؤلؤ المصون المخزون، كما في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة].

وعندما تطيبُ المجالسُ يحلو الحديث وتبادل الذكريات:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥)﴾.

أي: يتساءلون عن أحوالهم، ويتراجعون ذكرياتهم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)﴾.

أي: إنا كنا في الدنيا خائفين وجلين من سوء المصير.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧)﴾.

أي: فتفضَّل سبحانه علينا برحمته وتوفيقه، وأجارنا من عذاب النار النافذة في المسام.

وقرئ: **(ووقَّانا)** بتشديد القاف. **والسموم**: ريح حارة معروفة.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨)﴾.

أي: إنا كنا نعبده، ونتضرع إليه، ونرجو رحمته، إنه هو الصادق في ما وعد عباده المؤمنين، المتفضل عليهم بالرحمة، استجابَ لنا، وأعطانا سُؤلنا.

وفي قراءة: **(أنه)** بفتح الهمزة؛ أي: لأنه.

ثم التفتتِ الآياتُ إلى النبي عليه الصلاة والسلام تثبته على طريق الدعوة والتبليغ، وتنفي عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩)﴾.

أي: لست ـ بحمد الله ـ كاهناً ولا مجنوناً، فلا تبال بأقوالهم وأكاذيبهم، واستمر على طريق الدعوة. **والكاهن**: الذي يخبر بالغيب بضرب من الظن.

* * *

المطاردة والحصار

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾

ثم شرعت الآياتُ تستقرئ أقوالهم، وتبيِّن فسادها بأسلوب الإضراب والانتقال من قول إلى قول، كأنها تطاردهم وتحاصرهم، وتسدُّ عليهم كل منفذ للفرار، وتجردهم من كل شبهة يحتجون بها:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)﴾.

أي: ننتظر أن تنزل به حوادث الدهر أو الموت.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)﴾.

أي: إني أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: أتأمرهم عقولهم بهذا التناقض في الأقوال، أم هم مجاوزون الحدود في المكابرة والعناد، محرومون من الرشد والسداد.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: أختلقَ القرآنَ من قِبَلِ نفسه؟ بل لا يؤمنون بسبب كفرهم وعنادهم، فيصفون رسول الله ﷺ بهذه الأباطيل والأكاذيب.

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: فليأتوا بمثل القرآن إن كانوا صادقين في زعمهم.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: أوجِدوا من غير موجد أم هم أوجدوا أنفسهم؟!.

والعقل والمنطق ينفيان هذا وهذا، ويؤكدان وجود خالق خلقهم وأنشأهم من العدم، ولا بد لمن يسمع هذه الحجج القاطعة أن يستجيبَ لداعي الإيمان، ويقرَّ بوجود خالق واحد أحد، فعن **محمد بن جبير بن مطعم**، عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ **كادَ قلبي أن يطير**. [رواه البخاري (٤٨٥٤)].

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: أهم خلقوا السماوات والأرض؟! بل لا يتدبرون في الآياتِ، ولهذا يعرضون عن الإيمان.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: أعندهم خزائن رزقه حتى يضعوا النبوة حيث شاؤوا؟! أم هم الأرباب القاهرون الذين لا يخضعون لأمر ولا نهي ويفعلون ما يشاؤون؟!.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: هل لهم سُلَّمٌ يستمعون بواسطته إلى الملأ الأعلى؟! فليأتِ مستمعهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم عليه من شرك وضلال.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وهو من ضلالهم الذي كانوا عليه.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: لست تسألهم على ذلك أجراً ولا شيء يثقلهم، ويصدُّهم عن الإيمان.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾.

أي: ليس الأمر كذلك، فلا يعلم الغيب إلا الله.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: أيريدون كيداً برسول الله ﷺ، والله سبحانه عاصمه من كيدهم ومكرهم؟ وكيدهم إنما يرجع عليهم.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: أم لهم إلـه غير الله يعينهم ويحرسهم من عذابه؟! سبحان الله عما يشركون.

ثم بعد هذه المطاردة والمحاصرة الشديدة بينتِ الآياتُ شدة عنادهم وطغيانهم:

﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم، وقالوا: هذا سحابٌ مجموعٌ بعضه على بعض.

ولا بد للآيات أن تواسي رسول الله ﷺ عما يلقاه من عنادهم وكيدهم:

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: اتركهم، ولا تبالِ بهم، حتى يلاقوا يومهم الذي يموتون ويهلكون فيه. وفي قراءة: **(يَصعقون)** بفتح الياء.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: لا ينفعهم كيدهم شيئاً عند الموت، ولا يمنعهم من العذاب، بل إن لهم عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

وفيه إشارة إلى أنَّ فيهم من يعلم ذلك، وإنما يصرُّون على الكفر عناداً واستكباراً.

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى اليوم الموعود والأجل المسمى.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ﴾ أي: في حفظنا وحراستنا.

وفائدة الجمع: الدلالة على المبالغة في الحفظ كأن معه من الله تعالى حُفَّاظاً يكلؤونه بأعينهم، وهي من الصفات التي نؤمن بها كما جاءت، مفوِّضين معناها إلى الله تعالى، كما سبق معنا في أكثر من موضع.

وقد مرَّ معنا أنه تعالى قال لنبيه موسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] ومن نظر بعين بصيرته علمَ من الآيتين الفرق بين الحبيب والكليم عليهما أفضل الصلاة وأكمل التسليم(١).

ويا له من تقدير وتكريم! إنها مرتبة عالية عزيزة خصَّ الله بها نبينا عليه أفضل الصلاة والتسليم، ورفعه إليها، والله يؤتي الفضل من يشاء، فيها إعزاز خاص، وأنس خاص، ومع هذا الإعزاز والأنس والتكريم بيان الصلة الدائمة بالله جل جلاله.

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: سبح بحمد ربك حين تقوم من كل مجلس.

أو: حين تقوم إلى الصلاة في الليل.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: ومن الليل فسبحه بالذكر والعبادة، وفي وقت إدبار النجوم في آخره.

وفي الآية إشارة إلى أهمية الركعتين اللتين قبل صلاة الفجر، وقد ثبت في البخاري [١١٦٩] ومسلم [٧٢٥]: من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «**لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ تعاهداً منه على ركعتي الفجر**».

ورواية مسلم [٧٢٥]: عنها: «**ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها**» والله أعلم.



---

(١) روح المعاني: ٢٧/ ٤٠.



تفسير سورة النَّجم

الوَحْيُ وَالإِنْذارُ في سُورَةِ النَّجْمِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

استقامة النبي ﷺ على الحق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ (٣) إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ (٤)﴾

أقسم الله تعالى في أول السورة بالنجم فقال:

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ (١)﴾.

﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ والمراد جنس النجوم، أو نجم معين؛ لعله الشِّعْرَى المذكور في آخر السورة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩]؛ وهو نجمٌ وقادٌ كان طائفة من العرب يعبدونه كما سيأتي معنا. وللخالق أن يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق.

﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي: إذا غاب وأدبر كما سبق معنا في آخر **سورة الطور** عند قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ (٤٩)﴾.

ويدل ظهور النجوم وغيابها في وقت معين على أنها مخلوقة مقهورة محكومة لنظام معين، لا تستحقُّ أن تعبدَ وتعظَّمَ.

ومرَّ معنا أن إبراهيم عليه السلام استدلَّ بظهورها وغيابها على بطلان عبادتها، عندما ناظر عبَدتها من قومه، قال تعالى في **سورة الأنعام**: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

وقيل: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ المقدار النازل من القرآن على النبي ﷺ إذا نزل عليه من ملك الوحي جبريل عليه السلام، وسياق الآيات يقوِّي هذا القول.

وجواب القسم:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾.

أي: ما عدل محمد عن طريق الحق، وما اعتقد باطلاً قط.

فالضلال نقيضُ الهدى، **والغي**: نقيضُ الرشد، فهو عليه الصلاة والسلام في غاية الهدى والرشد، وهو شهادة له بأنه راشد تابع للحق ليس بضال.

ويكون المعنى على القول الثاني: والقرآن الذي هو عَلَمُ الهداية إلى مناهج الدين ومسالك الحق، ما ضلَّ عنه محمدٌ ﷺ وما غوى.

ووصفه عليه السلام بـ **(صاحبكم)** يدلُّ على وقوف قومه على تفاصيل أحواله الشريفة وأخلاقه العالية، وعلى معرفتهم لمحاسن شؤونه النفسية، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

ففي الآية إخبار عن أحواله الشريفة على التعميم، فقد كان عليه الصلاة والسلام على الحقِّ والاستقامة أبداً.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾.

أي: وما ينطقُ بالقرآن عن هواه، إن هو إلا وحي يوحى إليه.

أو: ما يقول قولاً عن هوًى وغرض، إنما يقول ما أُمِرَ به يبلغه الناس كاملاً

من غير زيادة ولا نقصان، ويقوِّيه الحديثُ عن **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنهما قال: كنت أكتبُ كلَّ شيءٍ أسمعه من رسول الله ﷺ، فنهتني قريشٌ فقالوا: إنكَ تكتبُ كلَّ شيءٍ تسمعهُ منْ رسول الله ﷺ، ورسول اللهِ بشرٌ يتكلَّم في الغضبِ والرضا، فأمسكتُ عنِ الكتاب، فذكرتُ ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ: فقال: «**اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا الحق**» [رواه أبو داود (٣٦٤٦) وأحمد (٢/ ١٦٢ و١٩٢)].

* * *

لقاء الأمينين

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾.

وهو جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير].

﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو قوة في العقل والرأي، فبعد أن وصفته الآيات بقوة الفعل وصفته بقوة النظر، أو ذو حكمة، فإن كلام الحكماء متين.

والمِرَّة في اللغة: القوة، كما في الحديث: «**لا تحلُّ الصدقةُ لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**» [رواه أبو داود (١٦٣٤)].

﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: فاستوى جبريل وهو بالأفق الأعلى، فقام في صورته التي خلقه الله عليها لمَّا سأله النبي ﷺ أنْ يريه نفسه على صورته، فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء، فأما التي في

الأرض ففي الأفق الأعلى؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾.

ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فنزل على النبي ﷺ بالوحي، ومن جزالة رأيه وحصافة عقله أن الله ائتمنه على وحيه إلى رسله.

وأصل **التدلِّي**: النزول إلى الشيء حتى يقربَ منه، يقال: تدلَّت الثمرة، وأدلى دلوه. **والدوالي**: الثمر المعلق.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾.

أي: فكان بين جبريل عليه السلام وبين محمد ﷺ لما هبط عليه على الأرض قدر قوسين إذا مُدَّا أو أدنى، وهذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه، ونفي ما زاد عنه، كما في قوله تعالى: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقوله أيضاً: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

فالقريبُ الداني هو جبريل عليه السلام، وهو قول عائشة وابن مسعود وأبي ذر رضي الله عنهم، كما ذكر ابن كثير في تفسير الآية.

وأما ما وردَ في حديث الإسراء كما في البخاري: من حديث **شريك بن عبد الله** قال: سمعت ابن مالك يقول: «ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة... حتى جاء سدرةَ المنتهى، ودنا الجبارُ ربُّ العزَّةِ فتدلَّى، حتى كان منه قابَ قوسينِ أو أدنى، فأوحى الله فيما أوحى خمسينَ صلاةً على أمتك كل يوم وليلة» [رواه البخاري (٧٥١٧)].

قال ابن حجر رحمه الله: «وقد أزال العلماءُ إشكاله؛ فقال القاضي عياض في «الشفا»[(١)]: إضافة الدنو والقرب إلى الله تعالى أو من الله، ليس دنو مكان

(١) الشفا، ص٢٥٦.

ولا قرب زمانٍ، وإنما هو بالنسبة إلى النبي ﷺ إبانةٌ لعظيم منزلته، وشريف رتبته، وبالنسبة إلى الله ﷻ تأنيسٌ لنبيه، وإكرام له، ويتأول فيه ما قالوه في حديث: «**ينزل ربنا إلى السماء**» [رواه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨)].

وكذا في حديث: «**من تقرَّب مني شبراً تقرَّبت منه ذراعاً**» [رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)].

وقال غيره: **الدنو**: مجازٌ عن القرب المعنوي لإظهار عظيم منزلته عند ربه تعالى. **والتدلِّي**: طلبُ زيادة القرب. **وقاب قوسين** بالنسبة إلى النبي ﷺ: عبارةٌ عن لطف المحل وإيضاح المعرفة، وبالنسبة إلى الله: إجابة سؤاله ورفع درجته»[1].

* * *

تحقيق الوحي وتأكيده

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾.

أي: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمدٍ ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده محمدٍ ﷺ ما أوحى بواسطة جبريل، وإبهام الموحى به للتفخيم، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

---

(١) فتح الباري: ١٣/ ٤٨٤.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾.

أي: ما كذب فؤاد محمد عليه الصلاة والسلام ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، فقد عرفه بقلبه، كما رآه ببصره.

وفي قراءة: **(ما كذَّب)** أي: صدَّقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته.

فالآيات تؤكدُ على تحقيق أمر الوحي، ولهذا استنكرت موقف المنكرين له بقوله تعالى:

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾.

أي: أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة، من المراء وهو المجادلة.

وقرئ: **(أَفتَمْرونه)** بفتح التاء وسكون الميم، مضارع مريت، أي: جحدت.

والمراد بما يرى: ما رآه عليه الصلاة والسلام من صورة جبريل عليه السلام، وجِيءَ بصيغة المضارع مع أنَّ الرؤية قد مضت؛ إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعد، فقد نزل جبريل بالقرآن على النبيِّ ﷺ منجَّماً.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣﴾.

أي: ولقد رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ في صورته التي خلقه الله عليها مرة أخرى، والمراد من الجملة القسمية نفيُ الريبة والشك عن المرة الأخيرة التي كانت ليلة الإسراء والمعراج.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤﴾.

أي: وهي شجرة في السماء السابعة، أو في السماء السادسة، إليها ينتهي علمُ كلِّ عالم من المخلوقات، وما وراءها لا يعلمه إلا الله تعالى، ويمكن أن يكونَ أصلها في السماء السادسة وأعلاها في السماء السابعة.

ووقع بيانُ سبب تسميتها **سدرة المنتهى** في حديث **ابن مسعود** رضي الله عنه عند مسلم [١٧٣]، ولفظه: لما أسريَ برسول الله ﷺ قال: «**انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يعرجُ من الأرض فيقبض منها**».

وقال النووي: سُمِّيت **سدرة المنتهى** لأن علم الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها أحدٌ إلا رسول الله ﷺ.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

أي: عند السدرة جنة المأوى التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة.

أو: الجنة التي تأوي إليها أرواح الشهداء.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

إذ يزيد الله في حسنها وزينتها وأنوارها تكريماً لرسول الله ﷺ.

والغشيان: بمعنى التغطية والستر.

وفي إبهام: (**ما يغشى**) من التفخيم ما لا يخفى، وفي بعض الأخبار تعيينُ هذا الغاشي؛ فعن الحسن: غشيها نورُ ربِّ العزة جلَّ شأنه فاستنارت، ونحوه ما روي عن أبي هريرة: يغشاها نورُ الخلّاق سبحانه[1].

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

أي: ما مال بصرُ رسول الله ﷺ وما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها وما جاوزها إلى غيرها، فهو ثناء عظيمٌ من الله جل جلاله على نبيه الكريم بأنه ما جاوز ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي، فقد كان عليه الصلاة والسلام في غاية التمكنِ والأدبِ، وما أحسن قولَ القائل:

رأى جنةَ المأوى وما فوقَها ... ولو رأى غيرُه ما قد رآهُ لتاها

(١) روح المعاني: ٢٧/ ٥١.

أكده تعالى فقال:

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

الدالة على قدرته تعالى وعظمته.

وعن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ قال: رأى رفرفاً أخضرَ قد سدَّ الأفق. [رواه البخاري (٤٨٥٨)].

ويوضح المراد ما أخرجه **النسائي والحاكم**: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أبصرَ نبيُّ الله جبريلَ عليه السلام على رفرفٍ قد ملأ ما بينَ السماء والأرض.

والرفرفُ: كلُّ ما فضل من شيء فعطف وثني، ويقال: رفرف الطائرُ بجناحيه إذا بسطهما، ويحتمل أن يكون جبريل بسط أجنحته فصارت تُشبِهُ الرفرف[1].

وقد اختلف السلفُ في رؤية النبيِّ ﷺ ربَّه، فذهبت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما إلى إنكارها، واختلف عن أبي ذر رضي الله عنه، وذهب جماعة إلى إثباتها، وحكى عبد الرزاق: عن مَعْمَر، عن الحسنِ: أنه حلفَ أنَّ محمداً ﷺ رأى ربه. وأخرج ابنُ خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها، وكان يشتدُّ عليه إذا ذكر له إنكارُ عائشة، وبه قال سائرُ أصحاب ابن عباس، وجزم به كعب الأحبار والزهري وصاحبه معمر وآخرون، وهو قول الأشعري وغالب أتباعه.

ثم اختلفوا: هل رآه بعينه أم بقلبه؟ جاءت عن ابن عباس أخبارٌ مطلقة، وأخرى مقيدة، فيجبُ حمل مطلقها على مقيدها، من هذه الأخبار ما أخرجه مسلم [١٧٦]: من طريق أبي العالية، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ [النجم] قال: رأى ربه بفؤاده مرتين. وله من طريق عطاء، عن ابن عباس قال: رآه بقلبه. وأصرحُ من ذلك ما أخرجه ابن مردويه: من طريق عطاء أيضاً، عن ابن عباس قال: لم يره رسول الله ﷺ بعينه، إنما رآه بقلبه.

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٦١١.

وعلى هذا فيمكن الجمعُ بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يُحْمَلَ نفيُها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب.

ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم، لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام، بل مرادُ منْ أثبتَ له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه كما تخلقُ الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيءٌ مخصوصٌ عقلاً، ولو جرتِ العادةُ بخلقها في العين، وروى ابنُ خزيمة بإسناد قوي: عن أنس قال: رأى محمدٌ ربَّه.

وعند مسلم [١٧٨]: من حديث أبي ذر: أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «نورٌ أنَّى أراه» وبهذا يتبينُ مرادُ أبي ذر من ذكره النور، أي: النورُ حالَ بين رؤيته له ببصره(١).

* * *

صرعى الأوهام والشهوات

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

بعد أن أبرزت الآياتُ حقيقة الوحي، وأكدتْ تحققَ وقوعه للنبي ﷺ في

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٦٠٨.

الأرض وفي السماء، التفتتْ إلى المشركينَ تخاطبهم وهي تقبِّحُ أصنامهم، وتزري بعقولهم التي زيَّنت لهم عبادتها:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾.

اللات: كانت لثقيف في الطائف، وقيل: لقريش بنخلة على طريق الطائف. وعن ابن عباس قال: كان اللاتُ رجلاً يلتُّ سويقَ الحاج. [رواه البخاري (٤٨٥٩)]. أي: كان يجلسُ على صخرة يصنعُ عليها شراباً للحجاج، يخلط معه عدداً من الأشربة، ولما مات قال لهم عمرو بن لحيٍ: إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة. فعبدوها، وبنوا عليها بيتاً، وعمرُو بنُ لحيٍ هو الذي حملَ العربَ على عبادة الأصنام.

وأما **العُزى**: فكانت شجرةً عليها بناءٌ وأستار بنخلة، كان المشركون من قريش يعظمونها، ولهذا قال أبو سفيان يومَ أحدٍ مفتخراً بها: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم. بعث إليها رسولُ الله ﷺ خالدَ بنَ الوليد فهدمها وهو يقول:

يا عزُّ كفرانكِ لا سبحانكِ إني رأيتُ اللهَ قد أهانكِ

وأما **مناةُ**: فكانت في جهة البحر مما يلي قديد بالمُشلّلِ بين مكة والمدينة، وكان الأوسُ والخزرجُ في الجاهليةِ يعظمونها، ويُهلُّون منها بالحجِّ إلى الكعبة. عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: إنما كان مَنْ أهلَّ لمناة الطاغية التي بالمُشلّل لا يطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] فطاف رسول الله ﷺ والمسلمون. [رواه البخاري (٤٨٦١)].

أفرد سبحانه هذه الأصنام الثلاثة بالذكر لأنها كانت أشهر من غيرها.

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

أي: أتجعلون له ولداً، وتجعلون ولده أُنثى، وتختارون لأنفسكم الذكَر.

فلو اقتسمتم فيما بينكم مثل هذه القسمة لكانت قسمة جائرة باطلة، ولهذا قال تعالى عنها:

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾.

وهو ردٌّ لقولهم الباطل: الملائكة بنات الله، كما مرَّ معنا.

وهوَّن سبحانه من شأن هذه الأصنام فقال:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما هي إلا أسماء مجردة، ليس لها مسمَّيات، ما أنزل الله بها أي برهان تتعلقون به.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: ما يتبعون في عبادتها إلا الظن بأنها تجلبُ لهم نفعاً أو تدفعُ عنهم ضرّاً، وما تشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء، فهم صرعى الأوهام والشهوات، ومن أجل هذه الأوهام والشهوات أعرضوا عن الهدى الذي جاءهم من ربهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وهو الرسول المرسل بالحق المنير والحجة القاطعة.

ثم بينتِ الآياتُ ضعفَ الإنسان وأنه مخلوق محدود، لا يستطيع أن يحقق لنفسه كل ما تتمناه وتشتهيه:

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: بل ليس للإنسان كلُّ ما يتمناه وتشتهيه نفسه.

فليس للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعةِ الأصنام ونزول القرآن على رجل من القريتين عظيم ونحو ذلك.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

فهو المالكُ الحقيقي للآخرة والأولى، يتصرف فيهما سبحانه كما يشاء، لا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه ﷻ.

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ فالملائكة مع علوِّ منزلتهم لا تنفعُ شفاعتهم شيئاً، وهذا تأكيدٌ لكمال سلطانه تعالى على جميع المخلوقات الظاهرة والخفية، والأرضية والسماوية، فأمرُ الشفاعةِ منوطٌ بمشيئته وحده وبرضاه.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه].

وعادتِ الآياتُ مرة ثانية تؤكدُ بطلان معتقدهم في أنَّ الملائكة إناثٌ وأنهم بناتُ الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾.

كأن إنكارهم يوم القيامة هو الذي أوقعهم في هذا الضلال، فإنَّ إنكارَ الحقِّ يؤدي إلى الضلال.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

فهم أسرى الضلالاتِ والأوهامِ، والحقُّ لا يُعْرَفُ إلا بالعلم، لا بالظنون والأوهام، فلا تحرص على هداهم، وأعرض عن الذي أعرض عن الحق:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

فإعراضهم عن القرآن الكريم هو الذي أوقعهم في الظنون والأوهام، وجعل

أنظارهم قاصرة على الحياة الدنيا، وهممهم متجهة إليها.

* * *

كبائر الذنوب

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥)﴾.

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠)﴾.

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي: الدنيا منتهى علمهم، لا علم لهم غيرها، وفي الدعاء المأثور: «**اللهمَّ لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا**» [رواه الترمذي (٣٥٠٢)].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ فلا تتعبْ نفسك في دعوتهم، وسلِّم الأمر لله تعالى، فهو العليمُ بأحوال الفريقين، المصرِّين على الضلال، والمتمسكين بالهدى والرشاد، ويوم القيامة يميز بينهم في المصير والجزاء.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١)﴾.

وهي الجنة، فالجزاء من جنس العمل.

ومن صفات المحسنين: أنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ولا يصرُّون على الصغائر:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ **وكبائر الإثم**: هي الشرك وكلُّ ما يؤدي إليه، فهو أكبرُ الآثام، وفي قراءة: **(كبير)**. **والفواحش**: الزنى، وكل ذنب فيه حد. وأما **اللمم**: فهي الصغائر، التي لا يسلمُ منها إلا منْ عصمه الله وحفظه، والتي تكفَّرُ بالصلاة وغيرها من الحسنات، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وحتى لا ييئس أصحاب الكبائر من رحمته ومغفرته قال سبحانه:

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ يغفر ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ﴾ هو أعلم بأحوالكم منكم من حين ابتدأ خلقكم خلقاً إجماليّاً ضمن خلقِ أبيكم آدم، وعندما كنتم في بطون أمهاتكم على أطوار مختلفة.

- **التحذير من كبيرة العُجب:**

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ وإذا كان الأمرُ كذلك، فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة من المعاصي، وتمدحوها، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته وتوفيقه وهدايته، فهو العليم بمن اتقى جميع المعاصي من قبل أن يخلقكم.

ودلَّت الآية على أنَّ العُجبَ من الكبائر المذمومة، وهو استعظام العبادة، والركونُ إليها، والإعجابُ بها، ويدعو الإنسانَ إلى نسيان الذنوب وإهمالها، ويتولدُ الكبْرُ من العُجبِ، ومنه تتولد الآفات الكثيرة، وقد يؤدي العجبُ إلى الانقطاع عن العبادة، والفتور عن الطاعة، وهو ما حذَّرنا سبحانه منه فقال:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣﴾.

أي: أعرَض عن اتباع الحق والثبات عليه.

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾.

وأعطى عطاءً قليلاً ثم قطعه، من قولهم: حفر **فأكدى**، إذا بلغ كدية، وهي صخرةٌ؛ فيقول: أكديت. ويترك العمل.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾.

أي: أعند هذا الذي أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده، فهو يرى ذلك عياناً؟!.

والأمر ليس كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة بخلاً وشحّاً، متأثراً بوساوس الشيطان، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ولهذا كان النبيُّ ﷺ أجودَ الناسِ، يعطي عطاءَ منْ لا يخشى الفقر.

* * *

الانتفاع بسعي الآخرين

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١﴾

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾.

أي: وإبراهيم الذي أتمَّ ما أمر به، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ

ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

فلا تحملُ نفسٌ وزر نفسٍ أخرى، ولا يؤاخذ أحدٌ بذنب غيره، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ﴾ [فاطر: ١٨].

وكما لا يؤخذُ الإنسانُ بذنب غيره، كذلك لا يثابُ بعمل غيره:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: إلا الذي سعى به عمله، وهذا بالعدل، وأما بالفضل فقد ينفعه الله بسعي غيره إذا كان مؤمناً، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

قال ابن عطية: «والتحرير عندي في هذه الآية أنَّ ملاكَ المعنى هو في اللام من قوله تعالى: ﴿لِلْإِنسَـٰنِ﴾ فإذا حققت الشيء الذي حق الإنسان أن يقول فيه: لي كذا، لم تجد إلا سعيه، وما تمَّ بعدُ من رحمةٍ بشفاعةٍ أو رعايةِ أبٍ صالحٍ أو ابنٍ صالحٍ، أو تضعيفِ حسناتٍ أو تغمدٍ بفضلٍ ورحمةٍ، دون هذا كله»(١).

قال في «الدر المختار»: «الأصل أنَّ كلَّ من أتى بعبادة ما، له جَعْلُ ثوابها لغيره، وإن نواها عند الفعل لنفسه، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فمؤولٌ، كما حققه الكمال، حيث قال: حاصله أنَّ الآية وإن كانت ظاهرة فيما قاله المعتزلة، لكن يُحتمل أنها منسوخة أو مقيدة، وقد ثبت ما يوجبُ المصيرَ إلى ذلك، وهو ما صحَّ عنه ﷺ أنه ضحَّى بكبشين أملحينِ؛ أحدهما عنه، والآخر عن أمته، فقد روي هذا عن عدة من الصحابة، وانتشر مخرِّجوه،

---

(١) تفسير ابن عطية: ١٤/ ١٢٢.

فلا يبعدُ أن يكونَ مشهوراً يجوزُ تقييدُ الكتاب به، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلا مِنْ ثلاثٍ...**» [مسلم (١٦٣١)] فلا يدل على انقطاع عمل غيرِهِ، وقوله أيضاً: «**لا يصومُ أحدٌ عن أحدٍ، ولا يصلِّي أحدٌ عن أحدٍ**» فهو في حق الخروج عن العهدة لا في حق الثواب»[1].

ومرَّ معنا الأمرُ بالدعاءِ للوالدين، والإخبارُ باستغفار الملائكة للمؤمنين.

قال القرطبي: وكثيرٌ من الأحاديث يدل على أن المؤمن يصل إليه ثوابُ العمل الصالح من غيره، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ خاصّاً في السيئة، بدليل ما في صحيح مسلم [١٢٨]: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**قال ﷻ: إذا همَّ عبدي بحسنةٍ ولم يعملْها، كتبتُها له حسنةً، فإن عملها كتبتُها له عشرَ حسناتٍ إلى سبعمئةِ ضعفٍ، وإذا همَّ بسيئة ولم يعملْها لم أكتبْها عليه، فإن عملَها كتبتُها سيئةً واحدةً**»[2].

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: يعرَض عليه، ويكشفُ له يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

أي: يُجزى على عمله الجزاء الأتمَّ الأكمل.

* * *

---

(١) انظر: رد المحتار: ٢/ ٢٣٧.

(٢) تفسير القرطبي: ١٧/ ١١٥.

إنذار وسجود

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾.

إليه منتهى الخلقِ ورجوعهم يوم القيامة كما في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢].

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ فكأنه يقول له: لا تحزنْ؛ فإنَّ إلى ربك المنتهى، فهو منتهى الآمال ومحطُّ الرجاء، أو أنَّ منتهى الأفكار إلى الله ﷻ، فلا تزالُ الأفكارُ تسيرُ في بيداء حقائق الأشياء حتى إذا اتجهت إلى ذات الله وحقائق صفاته وقفت وانتهى سيرها.

وفي الحديث: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقولُ: مَنْ خلقَ كذا وكذا؟ حتى يقولَ له: مَنْ خلقَ ربَّكَ؟ فإذا بلغَ ذلك فليستعذْ باللهِ ولينتهِ**» [رواه مسلم (١٣٤)].

ومما يدلُّ على كمال قدرته تعالى وطلاقة إرادته، خلقه المخلوقات المتضادة ذات الأحوال والصفات المختلفة:

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: قضى أسباب الضحك والبكاء.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ .

أي: خلق الموت والحياة.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ .

أي: منْ نطفةٍ واحدة تصب في الرحم، وأشارت الآية إلى حقيقة علمية: أن الذكورة والأنوثة مرتبطة بماء الرجل، وإلى حقيقة ثانية: وهي تعيينها جنسه في أثناء عملية إمناء النطفة.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: الخلق الثاني وهو البعث بعد الموت، وقرئ: **(النشاءة)** بالمد.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ .

أي: أغنى الناس، وأعطاهم القنية، وهو ما يقتنونه ويدَّخرونه.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ .

أي: هو رب معبودهم الذي يعظِّمونه، وهو نجم كانت خزاعة تعبده وتعظِّمه.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ .

وهم قوم هود، وكانوا بالأحقاف.

﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ .

فما أبقى منهم أحداً. وقرئ: **(وثمود)** بتنوين وبغير تنوين. وديار ثمود هي الحِجْر، منها مدائن صالح حيث آثارهم ما زالت قائمة تدل على ما حلَّ بهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾.

من عاد وثمود.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾.

وهي قرى قوم لوط التي ائتفكت بأهلها؛ أي: انقلبت.

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

وهو تهويلٌ وتعظيمٌ لما صُبَّ عليها من العذاب.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

أيها المخاطبُ تتشكك بما أولاك من النعم أو بما كفاك من النقم!.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: هذا القرآن الذي أوحاه الله إلى محمد ﷺ نذيرٌ من الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم.

﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: قربت الموصوفة بالقرب.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾

أي: إذا وقعت لا يدفعها من دون الله أحدٌ، ولا يطّلع على علمها سواه.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: أفمن هذا القرآن تعجبون إنكاراً؟.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾.

﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً.

﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ ولا تبكون على ما فرطتم في شأنه.

أخرج البيهقي في «شعب الإيمان»: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ . . .﴾ بكى أصحابُ الصُّفَّةِ حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلمَّا سمعَ رسولُ الله ﷺ خنينهم بكى معهم فبكينا ببكائه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا يلجُ النارَ مَنْ بكى مِنْ خشيةِ اللهِ تعالى، ولا يدخلُ الجنَّةَ مُصِرٌّ على معصيته، ولو لم تُذْنِبُوا لجاءَ الله تعالى بقومٍ يذنبون، فيستغفرون فيُغْفَرُ لهم**».

وأخرج **أحمد** في «الزهد» وابن **أبي شيبة** و**هناد** وغيرهم: عن صالح أبي الخليل قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ ما ضحك النبي ﷺ بعد ذلك إلا أن يتبسَّمَ(١).

﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۝٦١﴾.

أي: وأنتم لاهون مستكبرون.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۝٦٢﴾.

ويبدو أن المشركين أُخذوا بجلال التنزيل وقوة الإنذار، فمرَّت بهم فترةُ خشوع وخضوع فسجدوا لله، فعن **عبد الله بن عباس** رضي الله عنهما قال: **سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس**. [رواه البخاري (٤٨٦٢)].

---

(١) روح المعاني: ٢٧/ ٧٢.

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: **أولُ سورةٍ أُنْزِلت فيها سجدةٌ (والنجم)، فسجدَ رسولُ الله ﷺ، وسجدَ مَنْ خلفَهُ إلا رجلاً رأيتُه أخذَ كفّاً مِنْ ترابٍ، فسجدَ عليه، فرأيتُهُ بعدَ ذلكَ قُتِلَ كافراً؛ وهو أُميةُ بن خَلَفٍ.** [رواه البخاري (٤٨٦٣)].

وهذه آية سجدة تلاوة عند أكثر العلماء.





تفسير سورة القمر

الإنْذارُ بالسَّاعَةِ في سُورَةِ القَمَرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

انشقاق القمر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

بدأ الله سبحانه سورة القمر بقوله:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾.

وهو إخبار عن اقتراب يوم القيامة، وإخبارٌ عن انشقاق القمر.

والساعة جزءٌ من أجزاء الزمان عبَّر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها، أو لأنها تقوم في آخر ساعةٍ من ساعات الدنيا، أو لأنها ساعةٌ خفيفة يحدث فيها أمر عظيم.

ووقع انشقاق القمر في زمان رسول الله ﷺ، وورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وقد مرَّ معنا قول ابن مسعود رضي الله عنه: خمسٌ قد مضين: الرومُ والدخانُ واللزامُ والبطشةُ والقمرُ.

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أنَّ انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

فعن أنس رضي الله عنه: **أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما**. [رواه البخاري (٣٨٦٨)].

والمراد من قوله: (**أهل مكة**) بعضهم، ولم يعاجل الله المكذبين بالعذاب كما حدث للأمم المكذبة السابقة، لأن إدراكها لم يكن عامّاً، وقد بُعِثَ عليه الصلاة والسلام رحمة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

والنبي عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء، بُعث في الزمن القريب من الساعة، ولهذا كان ﷺ يقول: «**بُعثتُ أنا والساعة كهاتين**» ويشير بأصبعيه فيمدهما. [رواه البخاري (٦٥٠٣)].

ولا يعترضُ بما مضى من بعثته عليه الصلاة والسلام وما يمضي، فإن ذلك قليلٌ بالنسبة لعمر الكون، ولِمَا مضى منه قبل بعثته عليه الصلاة والسلام، ودلَّ الحديث الشريف على أن نسبة تقدم البعثة النبوية على قيام الساعة كنسبة فضل إحدى الإصبعين على الأخرى.

ولا معارضة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] ونحو ذلك، لأن علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها معيناً(١).

ثم إنَّ القمر بعد انشقاقه لم تفارق قطعتاه السماء، بل بقيتا فيها متباعدتين تباعداً ما لحظة ثم اتصلتا.

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٣٥٠.

وقال قوم: لم يقع انشقاق القمر بعد، وهو منتظر، أي: اقترب قيامُ الساعة وانشقاق القمر، وإنَّ الساعة إذا قامت انشقت السماءُ بما فيها من القمر وغيره. . .

قلتُ: وقد ثبتَ بنقل الآحاد العدول أنَّ القمر انشق بمكة، وهو ظاهرُ التنزيلِ، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها، لأنها كانت آية ليلية[1].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: روى حديثَ الانشقاق جماعةٌ؛ منهم: عبدُ الله بن عمر، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عباس، وأنس بن مالك، وعلى هذا جميعُ المفسرين إلا أنَّ قوماً شذُّوا فقالوا: سينشق يوم القيامة، وهذا القول الشاذ لا يقاومُ الإجماع[2].

وأكد وقوع انشقاق القمر وصف الآيات عناد المكذبين وإعراضهم:

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.

أي: إن يروا دليلاً وحجة ومعجزة لا ينقادوا بل يعرضوا ويقولوا: هذا سحر باطل مضمحلٌّ ذاهب، من قولهم: مرَّ الشيء واستمر؛ إذا ذهبَ واضمحلَّ.

﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾.

أي: وكل أمر واقع ينتهي إلى غاية يستقر عليها لا محالة، ومن جملتها أمرُ النبي عليه الصلاة والسلام، فسيصير إلى غاية يتبينُ عندها صدقه وعلو شأنه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾.

أي: ولقد جاءهم من أخبار الأمم السابقة الهالكة ما فيه واعظ لهم عن العناد والتمادي في التكذيب والفساد.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٧/١٢٦.

(٢) زاد المسير: ٨/٨٨.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾.

وفيما جاءهم حكمة بالغة غاية الإحكام والإتقان، ومع ذلك أعرضوا عنها، ولم ينتفعوا بها، فهو استفهام في معنى التوبيخ، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾.

أي: أعرض عنهم، ولا تبال بهم، فإنهم يُدعون يوم القيامة إلى أمر فظيع عظيم. وقرئ: (نُكْر) بإسكان الكاف.

وتأكيداً لفظاعته، وصفت الآية أحوالهم عند خروجهم من القبور:

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: خشَّعاً أبصارهم عند خروجهم من القبور، وأضاف الخشوع إلى الأبصار، لأنَّ أثر العزِّ والذل يتبين في ناظر الإنسان.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي: يخرجون من القبور بعد أن يسمعوا الداعي فيقصدوه كالجراد المنتشر، لأنّ الجراد له جهة يقصدها، وأما عند الخروج من القبور فيخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم في بعض كالفراش المبثوث(١).

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ أي: مسرعين مادِّي أعناقهم إليه.

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: هذا يومٌ صعبٌ شديد كما قال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

* * *

(١) تفسير القرطبي: ١٧/ ١٣٠.

المنتصر بالله تعالى

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦﴾.

ثم شرعت الآياتُ تذكر بإجمالٍ أحوال بعض الأمم المعاندة التي لم تنزجر بالأنباء الموجبة تقريراً لفحوى قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]، وبدأت بقوم **نوح** عليه السلام:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩﴾.

أي: كذبوا نوحاً عليه السلام تكذيباً إثر تكذيب، ولم يقتصروا على التكذيب، بل نسبوه إلى الجنون، وإنه أصرَّ على التبليغ، مع أنه زُجر عنه بأنواع كثيرة من الأذى، أو ازدجرته الجن وتخبطته.

ووصفه عليه السلام بالعبودية مع الإضافة إلى نون العظمة، تفخيماً له، ورفعاً لمحله، وتقبيحاً لمكذبيه.

واستنصر عليه السلام بالله بعد طول صبر ومعاناة على مدى ألف سنة إلا خمسين عاماً:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۝١٠﴾.

أي: مغلوبٌ من جهة قومي، فانتقم لي منهم. وقرئ: **(إني)** بالكسر.

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١﴾.

مطر مُنصب، وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها.

ففي الكلام استعارة تمثيلية بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب الأنهار. وفي قراءة: **(ففتَّحنا)** بالتشديد لكثرة الأبواب.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة. وأصله: فجَّرنا عيون الأرض، فغير إلى التمييز للمبالغة.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: فالتقى ماءُ السماء وماءُ الأرض على أمرٍ كائن لا محالة، قدَّره الله تعالى، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾.

أي: وحملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح عريضة، ومسامير شُدَّت بها.

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾.

أي: تجري ـ بمرأى منَّا، وبحفظنا وكلاءتنا ـ في ذلك الماء، جزاءً لنوح عليه السلام، فإنه كان نعمة أنعم الله بها على قومه فكفروها. أو جزاءً لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح عليه السلام.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥﴾.

أي: جعلنا هذه الواقعة أو السفينة عظة وعبرة يُعتبر بها، فهل من متعظ ومعتبر.

وأصله: **(مذتكر)** مفتعل من الذكر، فقلبت التاء دالاً تخفيفاً على الألسنة، وأُدغمت الذال فيها.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦﴾.

وهو استفهام تعظيم وتعجيب، ولهذا كرر في المواضع التي تستدعي

التعظيم والتعجيب، **والنذر**: جمع نذير بمعنى الإنذار.

* * *

تيسر القرآن للذكر

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

أي: سهَّلنا القرآن للذكر والاتعاظ، فهل من متذكر متعظ؟!.

وفيه حثٌّ على تدبُّر القرآن الكريم، والاعتبار بما فيه من عبرٍ ومواعظ وحكم وأحكام، وأنَّ منْ أراد ذلك فإنه يُعان عليه.

وهو قسَمٌ أورده الله في أواخر القصص الأربع المذكورة في السورة، تنبيهاً على أنَّ كل قصة كافيةٌ في الازدجار، ومع ذلك لم ينزجر المشركون، ولم يتعظوا، وأول هذه القصص قصة قوم نوح التي سبق ذكرها، وثانيها **قصة قوم عاد**:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾.

أي: كذَّبت نبيها هوداً عليه السلام، فكيف كان عذابي ونذري التي أنزلتها بهم؟! كأنه يقول: فاسمعوا كيف كان عذابي وإنذاراتي لهم:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾.

أي: إنا أرسلنا عليهم ريحاً باردة أو شديدة الصوت في يوم شؤم مستمر عليهم حتى أهلكهم، أو مستمر عليهم نحسه لاتصال عذابهم الدنيوي بالأخروي، ولم يكن يوماً واحداً، وإنما استمر الشؤم عليهم في كل أيام العذاب، كما قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

وقوله أيضاً: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: تنزع الناس من أكنانهم وملاذاتهم كأنهم أصول نخل منقلع عن مغارسه، ساقط على الأرض، ويبدو أن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجسامهم بلا رؤوس.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾.

وهو تهويل لهما، وتعجيب من أمرهما، بعد بيانهما، فلا تكرار.

ثم ختم تعالى قصة عاد كما ختم قصة نوح بقوله:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

والقصة الثالثة: قصة ثمود:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾.

فإن تكذيب أحدهم وهو نبيهم صالح عليه السلام تكذيب للكل.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ كأنَّ كونه واحداً من جنسهم يمنعهم من اتباعه، وهم أمة كبيرة.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: إنا إذا اتبعناه لفي ضلال ونيران تتسعَّر في قلوبنا، وهذا يدل على شدة عتوهم واستكبارهم.

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أألقي عليه الوحي وفينا من هو أحق منه بذلك؟! فالحسد هو أيضاً من أسباب تمسكهم بالضلال، وجعلهم يصرُّون على تكذيب رسولهم.

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، بل هو كذابٌ، يريد أن يترفع علينا، ويتعاظم من غير استحقاق. **والأشر**: المرحُ والتجبُّر والنشاط.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: سيعلمون عند نزول العذاب بهم من هو الكذاب الأشر.

وفي قراءة: **(ستعلمون)** بالتاء على أنه من قول صالح عليه السلام لهم على الخطاب.

وقوله: **(غداً)** على التقريب على عادة الناس في تقريب العواقب.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: إنا مخرجو الناقة من الصخرة حسبما سألوا امتحاناً لهم، فانتظرهم، وأبصر ما يصنعون، واصبر على أذاهم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وأخبرهم أن الماء مقسوم، لها يوم، ولهم يوم، كل شرب يحضره صاحبه في نوبته، كما في قوله سبحانه: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾.

فنادوا صاحبهم، وهو أشقاهم، فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم، فعقر الناقة. ومعنى **تعاطى**: تناول الفعل.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

أي: فصاروا كالحشيش اليابس، الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته، وقرئ بفتح الظاء.

وعقَّبت الآيات على القصة بالدعوة إلى الاعتبار والاتعاظ:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

والقصة الرابعة: قصة قوم لوط:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارة.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ في آخر الليل.

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: جعلنا نجاتهم نعمة منَّا عليهم كذلك نجزي من شكر نعمتنا فلا نعذِّبه عذاب الكافرين.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ولقد أنذرهم لوط بطشتنا وعذابنا، فشكُّوا بالإنذار ولم يصدِّقوا وكذَّبوا.

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: ولقد قصدوا الفجور بهم فطمسنا أبصارهم وأعمينا عيونهم.

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي: فَطَمْسُ الأبصار من جملة ما أنذروه من العذاب إذ كان مقدمة العذاب.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: عذاب ثابت لا يفارقهم أنزل عليهم في أول الصبح.

ويقال لهم توبيخاً:

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

وكذلك عقبت الآيات على هذه القصة بالدعوة إلى الاتعاظ والاعتبار كما فعلت بالقصص التي سبقتها:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

والقصة الخامسة: قصة موسى وفرعون:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

أي: والله لقد جاءهم الإنذارات.

وهذا التوكيد القسمي في أول قصَّتهم لإظهار عِظَم ما في الإنذارات من معجزات، ومع ذلك:

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: أخْذَ غالبٍ لا يعجزه شيء، ﷻ.

ثم أقبلت الآياتُ على مشركي مكة توبخهم على عنادهم وإعراضهم:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ أي: أكفاركم يا مشركي مكة أقوى وأشدُّ من أولائكم الذين أحللت بهم نقمتي وعذابي؟!.

وهو استفهام إنكار بمعنى ليسوا بأقوى منهم.

﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: أم أنزل لكم في الكتب أنَّ منْ كفر منكم فهو في أمانٍ من العذاب، فلذلك تصرُّون على الكفر والضلال؟!.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: نحن يدٌ واحدة لا نرام ولا نضام، منتصرون على من عادانا.

وردَّ تعالى عليهم بقوله:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: سيهزمُ جمعهم، ويولُّون الأدبار، وحدث ذلك يوم بدرٍ.

وقد نزلت الآية في مكة قبل الهجرة حتى إنَّ عمر رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ جعلتُ أقولُ: أي جمعٍ يهزم؟ فلما كان يومُ بدرٍ رأيتُ النبي ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: «**سيُهزم الجمع**» [رواه الطبري (٢٧/١٠٨)].

وقد أخرج مسلم عن ابن عباس: حدثني عمر ببعضه.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: ليس هذا تمام عقوبتهم، بل الساعة موعد عقابهم الفظيع، والساعة أشدُّ وأمرُّ مذاقاً من عذاب الدنيا، فهم في عذاب مستمر في الدنيا والآخرة.

وقد نزلت هذه الآية أيضاً في مكة؛ فعن **عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها قالت: لقد أُنزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾. [رواه البخاري (٤٨٧٦)].

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: إنهم في ضلال وهلاك في الدنيا، ونيران مسعَّرة في الآخرة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: يوم يجرُّون في النار على وجوههم، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ذوقوا حرَّ جهنم.

* * *

إثبات القدر

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

ثم قررت الآياتُ في ختام السورة كمال علمه تعالى وقدرته وحكمته:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: إنا خلقنا كل شيء مقدَّراً مرتَّباً كما سبق في علمه تعالى وحكمته، فهو كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

فلكلِّ شيءٍ قدر يحدد حقيقته وصفته وزمانه وارتباطه بما حوله.

وقد يكون المعنى المراد: إنا خلقنا كل شيءٍ بتقدير سابق معلوم ومكتوب في لوح المقادير.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يستدل بهذه الآية الكريمة أئمةُ السُّنَّة على إثبات قدَر الله السابق لخلقه، وهو علمه بالأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء مشركو قريش يخاصمون الرسول ﷺ في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾. [رواه مسلم (٢٦٥٦)].

وعن **عبد الله بن عمر** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي ﷺ: «**كلُّ شيءٍ بقدرٍ حتَّى العجزُ والكيسُ**» [رواه مسلم (٢٦٥٥)].

والعجز: ضد **الكيس**، وهو النشاط والحذق في الأمور.

إنَّ الآية الكريمة تعطينا مسألة من أهم مسائل علم التوحيد، وهي أن كلَّ مقدَّر بقدر حادث ممكن، لا بد له في وجوده واختصاصه بقدَره الذي هو عليه،

من فاعل موجود واجب الوجود، أعطاه وجوده، وخصصه بالقدر الذي هو عليه، وما منْ شيء في العالم إلا وهو ذو قدر معين في ذاته ومكانه وزمانه وصفاته، من صِغَر وكِبَر، وطول وقصر، وخفة وثقل، ونور وظلمة، ولطافة وكثافة، وحركة وسكون. . .وما يستتبع هذا من أشكال وألوان، وطعوم وروائح، وصعود ونزول، وأمكنة وجهات، وقُرب وبعد، إلى سائر خصائص المادة، فكل ذلك تنطقُ الآية الكريمة بأنه مختص بالمخلوقات، يتعالى عن الاتصاف بشيء منه ربها وخالقها. فإنَّ كل ذي قدر مخلوق.

والخلق في اللغة يدور على معنى التقدير والإيجاد على قدر معين، ومرَّ معنا أنَّ فرعون لما سأل موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩] أجابه عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فذو القدر المخصوص ينادي على نفسه بأنه حادثٌ ممكن مخلوق، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر].

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: وما أمرنا لشيءٍ نريد تكوينه إلا أن نقول له: كن؛ فيكون على قدر ما يلمح أحدكم ببصره، فأمره تعالى مرة واحدة لا يتكرر، مما يدل على سرعة نفاذ أمره، وتحقق مراده.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ولقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر فهل من متعظ ومعتبر؟!.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: وكل شيء من خير وشر فعلوه مكتوب في كتب الحفَظة، وفي لوح القدر، سواء كان صغيراً أم كبيراً.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾.

أي: مكتوب.

ثم توَّجت السورةُ خاتمتَها ببيان مصير المتقين، في مقابل ما ذكرت من مصير المجرمين:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤﴾.

أي: في أنهار.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾.

أي: في مكان مرضي، أو حق لا لغو فيه ولا تأثيم، عند من تعالى أمره في الملك والاقتدار، فلا شيء إلا تحت ملكه وقدرته. وقرئ: **(مقاعد)**.

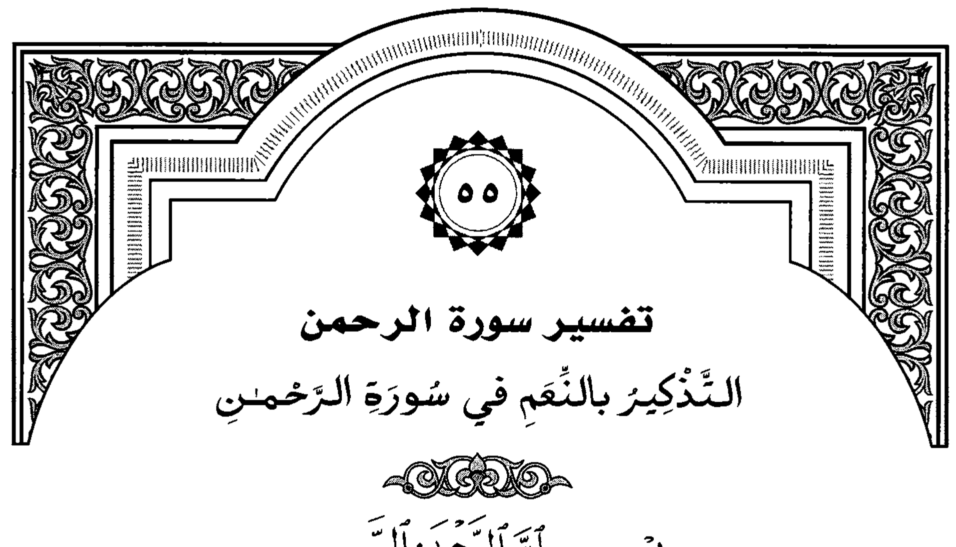
فأيُّ منزلة أكرم من تلك المنزلة، وأجمع للغبطة كلها، والسعادة بأسرها.

قال جعفر الصادق رحمه الله: وصف الله تعالى المكان بالصدق، فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق[١]. أسأل الله أن يجعلنا منهم.



---

(١) تفسير الخازن: ٦/ ١٣٥.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أعظم النعم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾.

بدأ الله تعالى السورة باسم من أسمائه الحسنى الدال على كماله ورحمته وإحسانه:

﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عن فضله ورحمته بخلقه بأنه أنزل عليهم القرآن، ويسَّر تلاوته، وتدبُّر آياته، كما مر معنا في **سورة القمر**: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾.

فالقرآن الكريم أعظم النعم شأناً، وأرفعها مكاناً، فهو مدار السعادة الدينية والدنيوية، وتعلُّمه و تعليمه من أعظم النعم، كما في الحديث الشريف: «**خيرُكم مَنْ تعلَّم القرآنَ وعلَّمه**» [رواه البخاري (٥٠٢٧)].

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾.

أي: علَّمه بيان ما في نفسه، وفهم بيان غيره، وهو الأساس الذي يقوم عليه تعليم القرآن، وفي تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان إشارة إلى أنَّ معنى الإنسان لا يتحقق فيه إلا بتعلم القرآن والعمل به.

ومن نِعَم الله على الإنسان أن نظَّم له شأن الزمان:

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾.

أي: يجريان بحسبان مقدرٍ محكم دون أدنى خلل، بحيث تنتظم به أمور الكائنات، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

ثم أخبرت الآياتُ عن كمال تقديره تعالى وتدبيره وإتقانه وإحكامه:

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾.

أي: والنجم الذي في السماء، والشجر النابت في الأرض، خاضعان لحكمه تعالى وأمره، منقادان لما يريد بهما، فهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ [الحج: ١٨].

وقد يكون المراد بالنجم النبات الذي ينجم ويظهر من الأرض ولا ساق له، وبالشجر النبات الذي له ساق.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي: خلقها مرفوعة ابتداء.

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: وشرع العدل، وأمر به، إذ به يستقيم أمر العالم، وتقوم السماوات والأرض على أبلغ نظام وأتقن إحكام.

فالمراد بالعدل الإحكامُ والإتقانُ وإعطاء كل شيء خلقه، ووضعه في موضعه المناسب له في الزمان والمكان.

أو **المراد**: وَوَضَع في الأرض الشريعة التي هي أساس العدل، فالميزان على هذا المعنى هو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ويقوي هذا المعنى قوله بعد ذلك:

﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾.

أي: لئلا تطغوا فيه. **والطغيان**: مجاوزة الحد إلى الجَوْر والظلم، فالله وضع الميزان، وأمركم ألا تطغوا فيه.

ولا شك أن ذلك من النعم الجليلة، التي تفضَّلَ بها الله على عباده، وأمرهم بها أمر إلزام:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: اعدلوا في جميع أقوالكم وأفعالكم، وحذَّرهم من الإخلال فيه.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: ولا تنقصوه، فإنَّ من حقه أن يسوَّى، إذ هو المقصود من وضعه، وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به، وتأكيداً للأمر باستعماله والثبات عليه.

وكما نظم تعالى الزمان وشرع العدل وحرَّم الظلم، نظَّم أيضاً المكان، وجعله مناسباً لمخلوقاته:

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾.

أي: والأرض خلقها وأوجدها ليعيش عليها الإنس والجن، فهي مُسخَّرة وممهدة لهم، جعل فيها كل ما يحتاجون إليه في حياتهم:

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾.

أي: فيها أنواع كثيرة من الفاكهة والنخل ذات الأوعية التي يكون فيها الثمر، فثمر النخل يكون في غلاف قبل أن ينشق عنه، وخُصَّ النخل بالذكر من بين سائر الشجر لأنه أعظمها وأكثرها نفعاً.

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾.

أي: كالحنطة والشعير ونحوها ذات الورق اليابس، وهو التبن علف الأنعام، والريحان الذي يشم أو ثمرته أو الرزق، والأصل: **(وذو الريحان)** فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، أو فيها الريحان، وفي قراءة: **(والحبَّ ذا العصف والريحان)** أي: وخلق الحب، أو أخص الحب.

* * *

توبيخ وإنكار

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

وبعد أن أجملت الآيات ذكر أعظم النعم وأجلّها، وجهت الخطاب إلى الكفار الجاحدين توبِّخهم على كفرهم وتكذيبهم:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

أي: فإذا كان الأمر كما فُصِّل وذُكر، فبأي فرد من أفراد مالككما ومربيكما

بتلك النعم تكذبان؟! مع أن كل نعمة منها ناطقة بالحق شاهدة بالصدق.

والآلاء: النعم، واحدها: إلْي، وألْي، وإلَى، وألَى، أربع لغات(١).

والخطاب للأنام، وهما الإنس والجن كما مرَّ معنا، وسيأتي التصريح بهما في قوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١].

والفاء: لترتيب الإنكار والتوبيخ على ما ذُكر من النعم العظيمة الموجبة للإيمان والشكر حتماً، وأكد النكير، وشدد التوبيخ، إضافة ضميرهم إلى الاسم الكريم **(الرب)** المنبئ عن كمال سلطانه وتربيته سبحانه، وتكذيبهم بآلائه كفرهم بها، وإعراضهم عن طاعته وعبادته، وإصرارهم على تكذيب رسوله عليه الصلاة والسلام، ولهذا يُندب للمؤمن أن يعلن مخالفته للمشركين الجاحدين ويقول كلما سمع هذه الآية: **لا بشيءٍ من نعمك ربنا نكذِّبُ، فلكَ الحمدُ**.

ففي «**جامع الترمذي**» [٣٢٩١]: عن **جابر** رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم **سورة الرحمن** إلى آخرها فسكتوا، فقال: «**لقد قرأتُها على الجنِّ فكانوا أحسنَ مردوداً منكم، كنتُ كلَّما أتيتُ على قوله تعالى**: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ **قالوا: لا بشيءٍ مِنْ نعمِكَ ربَّنا نكذِّبُ، فلكَ الحمدُ**».

* * *

تفصيل النعم

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾.

ثم شرعت الآيات في تفصيل ما أجملت من النعم تأكيداً لتوبيخ الكافرين الجاحدين لها:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٧/ ١٥٩.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: خلق الله آدم من تراب، ثم جعله طيناً، ثم حمأً مسنوناً، ثم صلصالاً كالفخار، وهو الطين اليابس الذي يصلصل إذا ما نُقر.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

الجان: أبو الجن، أو هو اسم جنس شامل للجن كلهم، خلقهم الله من لهب خالص لا دخان فيه، أو من اللهب المختلط بسواد أو خضرة أو صفرة، من مرجَ الشيءُ إذا اضطرب واختلط.

ففي الحديث: عن **عائشة** رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**خُلِقَتِ الملائكةُ من نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ من نارٍ، وخُلِقَ آدمُ ممَّا وُصِفَ لكم**» [رواه مسلم (٢٩٩٦)].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: تكذبان بما أفاض عليكم في تضاعيف خلقكما من النعم، أو بأي قدرة ربكما تكذبان، فإنَّ له في كل خلقٍ بعد خلقٍ قدرة بعد قدرةٍ، فتكرير الآية للتأكيدِ والمبالغة في التقرير والتذكير، وإقامة الحجة عليهم.

فالله عدَّدَ في هذه السورة نعماءه، وذكَّر خلقه بآلائه، ثم أتبع كل خلَّة وصفها، ونعمة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين، لينبههم على النعم، ويقررهم بها، كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: ألم تكنْ فقيراً فأغنيتُك، أفتنكر هذا؟! ألم تكن خاملاً فعززتكَ، أفتنكر هذا؟! ألم تكن راجلاً فحملتك، أفتنكر هذا؟!... والتكرير حسنٌ في مثل هذا.

قال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة[1].

وهي طريقة من الفصاحة معروفة موجودة في كتاب الله في مواضع، وفي

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١٧/ ١٥٩.

حديث النبي ﷺ، كما أنها شائعة في كلام العرب.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧﴾.

أي: هو ربُّ مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما.

ولا شك أن في ذلك مصالح كثيرة للخلق، ولهذا عقَّب عليها بقوله:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨﴾.

* * *

حاجز بين البحرين

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥﴾.

ومن نعمه وآثار قدرته:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩﴾.

أي: أرسلهما وجعلهما يلتقيان، والمراد بهما: البحر المالح والبحر العذب، لقوله في **سورة الفرقان**: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ٥٣﴾.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ٢٠﴾.

أي: بينهما حاجزٌ من قدرته تعالى، لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية.

فأكثر المياه العذبة تذهبُ في نهاية رحلتها الأرضية إلى البحار، وتلتقي عند مصباتها بالمياه المالحة، ثم تنفصل عنها بتقدير الله تعالى بواسطة الحرارة والتبخر والتكاثف، وتحملها الرياحُ إلى حيث يشاء سبحانه أن تنزل مرَّة ثانية، فما أعظم قدرة الله الذي جعل التوازن بين المياه العذبة والمياه المالحة مستمرّاً، وهو نعمة من نعمه العظمى سبحانه؛ لأنه سبب من أسباب استمرار الحياة على الأرض، ولهذا عقب أيضاً على هذه النعمة بقوله:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾.

ومن نعمه سبحانه في البحار أيضاً:

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾.

كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

فاللؤلؤ والمرجان هما الحلية التي تستخرج من سواحل البحار قرب مصبات الأنهار.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾.

وهي السفن الكبيرة اللواتي أنشئت في البحر بسبب ضخامتها فيما يسمى بالأحواض الجافة، فهي بسبب ضخامتها تبدو كالجبال الشاهقة، فهي له ﷻ لا تخرجُ عن ملكه ﷻ وعن قبضة قدرته.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

ففي تركيب السفن وجريها في البحر أسباب كثيرة لنعم عظيمة، أبدعها

وقدَّرها العليم الحكيم جَلَّ جَلَالُهُ.

* * *

فناء المخلوقات وضعفها

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: كل من على الأرض هالك زائل، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

ويبقى الله ذو الغنى المطلق والفضل التام الذي يجله المؤمنون عن التشبه بخلقه، والمكرِّم لأنبيائه وأوليائه بلطفه وإحسانه.

وفي «**جامع الترمذي**» [٣٥٢٤]: عن **أنس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**ألظُّوا بـ: يا ذا الجلالِ والإكرامِ**» أي: الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

ففي فناء الخلق وبقائه تعالى وحده إيذانٌ بأنه تعالى يفيض عليهم بعد فنائهم أيضاً آثار لطفه وكرمه، فيكرِّمهم بالحياة الأبدية، ويثيبهم بالنعيم المقيم.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ۝٢٩﴾.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: يسأله منْ في السماوات والأرض قاطبة سؤالاً مستمرّاً بلسان المقال أو بلسان الحال كل ما يحتاجون إليه في وجودهم وبقائهم كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ ومن جملتها إعطاء ما سألوا، فهو الغني عما سواه، والكل مفتقر إليه، فمن شأنه أن يجيب داعياً، ويكشف كرباً، ويغفر ذنباً، ويعطي سائلاً، فهو منتهى حاجات الداعين السائلين وصريخهم، ومنتهى شكواهم.

وفي «**صحيح البخاري**»: عن **أبي الدرداء** ﷺ تعليقاً عند تفسير **سورة الرحمن** بعد الحديث رقم [٤٨٧٧] قوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ يغفر ذنباً، ويكشف كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين. شاهد ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾.

أي: سنتجرد لحسابكم وجزائكم، وذلك يوم القيامة عند انتهاء شؤون الخلق المشار إليها بقوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ فلا يبقى حينئذٍ إلا شأن واحد، هو الحساب والجزاء، فعبر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل؛ فهو وعيدٌ من الله تعالى للعباد، ولا يشغله سبحانه شيء عن شيء، وقرئ: (**يَفْرَغ**) و(**يُفْرَغ**) مبنيّاً للفاعل والمفعول.

والثقلان: الإنس والجن، لما في الحديث الصحيح في عذاب القبر:

«**فيصيحُ صيحةً يسمعُه مَنْ يليه غيرَ الثقلينِ**» [رواه البخاري (١٣٣٨)]؛ لأنهما كالثقل على وجه الأرض، أو لأنهما مثقلان بالتكليف والمسؤولية.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢﴾.

فالتكليف فيه تشريف وتفضُّل وإحسان.

ويقال لهم يوم الحساب والجزاء:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣﴾.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ﴾ أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، وهذا الأمر لإظهار عجزهم وضعفهم.

﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر، وأنَّى لكم ذلك؟! فأنتم عن ذلك بمعزل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤﴾

فقد نبَّهكم وحذَّركم وأنذركم.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾.

أي: يرسل عليكما لهبٌ من نار ونحاس، وهو الصَّفر المذاب، وقيل: الدخان، فلا تمتنعان. وقرئ: (**ونحاسٍ**) بالجر عطفاً على نار.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦﴾.

فإن التهديد لطفٌ، والتميزُ بين المطيع والعاصي من النعم والآلاء.

* * *

التذكير بمصير الكافرين ومصير المؤمنين

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)﴾

أكدت الآيات هذا المعنى بالتذكير بمصير الكافرين الجاحدين، ومصير المؤمنين يوم القيامة:

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧)﴾.

أي: فكانت حمراء مذابة كالدهن، وقرئت بالرفع على أنَّ (كان) تامة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾.

فإن التحذير من هذا المصير من نعم الله تعالى علينا.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: فيوم تنشق السماء لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، لأنهم كما سيأتي يُعرفون بسيماهم، وذلك حين يخرجون من قبورهم، ويساقون إلى أرض المحشر حيث يُسألون، فيوم القيامة يوم طويل.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: يُعرف المجرمون بسواد وجوههم، وزرقة عيونهم، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقوله أيضاً: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] فتجمع نواصيهم إلى أقدامهم.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾.

فيعذَّبون تارة بالنار، وتارة بالحميم الذي بلغ النهاية في الحرارة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

فالتخويف بالعذاب من النعم، كما أنَّ الترغيب برحمته وجنته منها أيضاً.

ولهذا أضافت الآيات وصف بعض ما أعد الله للمؤمنين من النعيم في الجنة:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: ولمن خاف قيامه بين يدي ربه للحساب والجزاء، أو خاف قيام ربه عليه واطلاعه على أحواله فأعرض عن المعاصي، وأقبل على عبادته وطاعته بإخلاص، فله يوم القيامة بفضله تعالى عليه جنتان.

وفي الحديث الشريف: عن النبي ﷺ قال: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**» [رواه مسلم (١٨٠)].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات].. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: ذواتا أغصان متشعبة؛ واحدها فنن، أو ذواتا ألوان من الأزهار والثمار.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾.

أي: في كل واحدة من الجنتين عين تجري كما يشاء صاحبها.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: صنفان متقابلان رطب ويابس، حلو وحامض... فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: من ديباج ثخين، فما ظنُّك بظهائرها

إذا كانت بطائنها من إستبرق؟!.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: وما يجتنى من ثمارهما قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع، فالشجرة تدنو منه حتى يجتنيها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: فيهما نساء عفيفات، يقصرن نظرهن على أزواجهن، لم يَمْسَسْهنَّ قبل أزواجهن أحد من الإنس والجن، أو يقصرن طرف الناظر لحسنهن فلا ينظر إلى غيرهن.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: كأنهن في صفاء البشرة الياقوت والمرجان.. فبأي ربكما تكذبان؟..

ثم أخبرت الآيات أن الله تفضَّل عليهم بكل هذا النعيم لأنهم أحسنوا في عبادته وطاعته:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾.

فما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

فالإحسان في الثواب من النعم التي أنعم الله بها عليهم.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: ومن دون هاتين الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين، جنتان أخريان لمن دونهم من أصحاب اليمين.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: عينان فوَّارتان بالماء.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾.

﴿حِسَانٌ﴾ أي: نساء حِسَان الخَلق والخُلق.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ أي: بيض مخدرات ملازمات لبيوتهن.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي: لم يمسهن قبل أزواجهن أحدٌ من الإنس ولا من الجن.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: يتنعمون متكئين على رفرف خضر، وفرش عجيبة نادرة حسان.

والرفرف: ما يطرح فوق الفراش للنوم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾.

فإنَّ في هذا الترغيب والتشويق رحمةٌ عظيمة ونعمة كبيرة.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ .

أي: تعالى اسمه الجليل المنبئ عن إفاضة الرحمات، وزيادة الخيرات ودوامها، وهو الاسم الذي بُدئت به السورة (**الرحمن**) ذي الجلال والإكرام، وقرئ: (**ذو الجلال والإكرام**) على أنه وصف للإلٰه الكريم الرحمن.

أسأله تعالى أن يجعلنا من الشاكرين لا من الكافرين الجاحدين، وأن يكرمنا برحمته وجنته يوم الدين.





تفسير سورة الواقعة

الأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ فِي سُورَةِ الوَاقِعَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تحقيق القيامة وتأكيد وقوعها

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾.

بدأ الله تعالى السورة بقوله:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾.

أي: إذا حدثت القيامة، فالواقعة من أسمائها.

وسُميت بذلك للإيذان بتحقق وقوعها لا محالة، كأنها واقعة في نفسها، وحذف الجواب لتهويل أمرها وتفخيمه. **فالواقعة**: السقطة القوية، وشاعت في وقوع الأمر العظيم المؤكد الذي لا يكذب.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾.

أي: لا يكون عند وقوعها نفس تكذب بها، وتنفي وقوعها، كما هو حال الكافرين بها في الدنيا، فوقوعها أمر محقق، أو ليس فيها ارتداد ولا رجعة.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾.

تخفض أقواماً إلى أسفل أسفلين، وترفع آخرين إلى أعلى عليين، فتخفض المتكبرين، وترفع المستضعفين، والخافض والرافع على الحقيقة هو الله وحده.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾.

أي: حُرِّكَت وزلزلت زلزالاً شديداً، فينهدم كل شيء فوقها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾.

أي: وفُتِّتَتِ الجبال فتّاً، حتى صارت كالدقيق المبسوس، وهو المبلول. أو سيقت وسُيِّرت وقُلعت قلعاً من أماكنها.

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

أي: فكانت غباراً متفرقاً بعد أن كانت راسخة شامخة.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾.

أي: وصرتم يوم القيامة أصنافاً ثلاثة.

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾.

والميمنة: ناحية اليمين، أو اليُمْنُ والبركة.

وهو تعجيبٌ من حالهم يوم القيامة، وتعظيم لشأنهم، ومعناه: أي شيء هم في حالهم وصفتهم؟.

وفي المقابل عجَّبت الآياتُ من شأن الصنف الثاني وفظَّعت حالهم:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩﴾.

والمشأمة: ناحية الشمال أو الشؤم والشر.

فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال، سُمُّوا بذلك لأنهم يؤتَون كتبهم بأيمانهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ [الانشقاق].

وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال، وسُمُّوا أيضاً بذلك لأنهم يؤتَون كتبهم بشمالهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥] فهم المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة.

وفي «**صحيح مسلم**» [١٦٣]: من حديث الإسراء، عن **أبي ذر** ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**فلما علونا السماء الدنيا، فإذا رجلٌ عن يمينه أسودةٌ، وعن يساره أسودةٌ؛ فإذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابن الصالح، قلتُ: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا آدم** ﵇، **وهذه الأسودة التي عن يمينه وعن شماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار**».

* * *

مصير المقربين يوم القيامة

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾.

وهو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، أَخَّرَ ذكرهم مع كونهم أسبق الأصناف وأفضلهم ليردف ذكرهم بمحاسن أحوالهم، فهم الذين اشتهرت أحوالهم، وعرفت محاسنهم، ويكفي وصفهم بهذا الوصف للدلالة على علوِّ فضلهم، واستغنائهم عن أي وصف آخر، فهم السابقون إلى طاعته ورحمته وجنته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: أولئك المقربون عند ربهم، رفع منازلهم، وأعلى مراتبهم.

ولا يخفى ما في الإشارة إليهم بـ (**أولئك**) وما فيها من معنى البعد مع قرب العهد بذكرهم، من بيان لرفعة منزلتهم بالفضل.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: هم أمة كثيرة من الأمم السالفة، وقليل من أمة محمد ﷺ.

والظاهر على هذا المعنى أنَّ سابقي الأمم أكثرُ من سابقي هذه الأمة، بينما

تابِعو هذه الأمة أكثر من تابعيهم، ولعل سبب ذلك أن الذين عاينوا جميع الأنبياء من الأمم الماضية أكثر ممن عاين النبي ﷺ وآمن به.

رجَّح هذا المعنى ابنُ جرير الطبري، واستأنس له بالحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نحن الآخِرون ونحن السابقون يوم القيامة، بيد أنَّ كلَّ أمة أُوتيت الكتابَ من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، ثم هذا اليوم الذي كتبه الله علينا، هدانا الله له، فالناسُ لنا فيه تبعٌ، اليهودُ غداً والنصارى بعد غدٍ**» [رواه مسلم (٨٥٥)].

لكن ابن كثير رحمه الله عَقَّبَ على ذلك فقال عند تفسيره لهذه الآية: وهذا الذي اختاره ابن جرير فيه نظر، بل هو قول ضعيف، لأنَّ هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أنَّ المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم والله أعلم، فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من صدر هذه الأمة. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ من هذه الأمة أيضاً.

ويقوي رأي ابن كثير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التَّوبة: ٢٠].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ويقوِّيه أيضاً الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**عُرِضَتْ عليَّ الأممُ؛ فأخذَ النبيُّ يمرُّ معه الأمة، والنبيُّ يمرُّ معه النفر، والنبيُّ يمرُّ معه العشرة، والنبيُّ يمرُّ معه الخمسة، والنبيُّ يمرُّ وحده، فنظرتُ فإذا سوادٌ كثير، قلتُ: يا جبريلُ هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأُفق، فنظرتُ فإذا سوادٌ كثيرٌ قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدَّامهم، لا حسابَ عليهم، ولا عذابَ، قلتُ: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يَسْتَرْقون، ولا يتطيَّرون، وعلى ربِّهم يتوكَّلون**» فقام إليه عكَّاشة بن محصن فقال: ادعُ الله

يجعلني منهم؟ قال: «**اللهم اجعله منهم**» ثم قام إليه رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «**سبقك بها عكاشة**» [رواه البخاري (٦٥٤١)].

فالجميع من هذه الأمة، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن تنسحبَ الآية على جميع الأمم، كل أمة بحسبها، وهذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها، وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها عليه الصلاة والسلام.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

أي: منسوجة بالذهب، مشبكة بالدرر والياقوت.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

لا ينظر بعضُهم إلى أقفاء بعض، وهو وصف لهم بحسن العشرة وجمال الأخلاق.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ويطوف عليهم للخدمة ولدان لا يهرمون، ولا يموتون، باقون على طراوتهم، لا يتحوَّلون عنها.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

أي: من خمر جارية من العيون.

والأكواب: الآنية التي لا عرًى لها ولا خراطيم، **والأباريق**: ذات عرًى وخراطيم، وأفرد الكأس لأنها مملوءة، فلا تسمى كأساً إلا إذا كانت مملوءة.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: لا يصيبهم صداع بسببها، ولا يسكرون كما هو الحال في خمر الدنيا.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠﴾.

أي: ويطاف عليهم أيضاً بفاكهة مما يختارون ويشتهون.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾.

أي: ولهم حور عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون في الصفاء. وهو الذي لم تمسه الأيدي.

وقرئ بالجر (وحورٍ) عطفاً على (جناتٍ) بتقدير مضاف، أي: هم في جنات ومصاحبة حور.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾.

أي: فعلنا ذلك بهم جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا بطاعتنا.

فلا يسمعون في الجنة إلا ما يؤنسهم من الكلام ويسرُّهم:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾.

فلا يسمعون لغواً باطلاً، ولا كلاماً فيه إثم، كما هو حال أهل الدنيا، ولكن يسلِّم بعضهم على بعض، وتسلِّم الملائكة عليهم، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد].

* * *

أحوال أصحاب اليمين في الجنة

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (٤٠)﴾.

ثم شرعت الآيات تصف أحوال الصنف الثاني، وهم أصحاب اليمين، والنعيم الذي يكرمون به في الجنة:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧)﴾.

وهي جملة استفهامية ذُكرت لتفخيم حالهم والتعجيب منه.

﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨)﴾.

أي: هم في سدر غير ذي شوك كسدر الدنيا، أو ثُنيت أغصانه لكثرة ثمره.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩)﴾.

نضد حمله من أسفله إلى أعلاه، كأنه لا ساق له، وهو شجر الموز.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠)﴾.

ممتد منبسط لا يتقلص، وفي الحديث الشريف: عن **سهل بن سعد** رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ في الجنَّةِ لشجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلِّها مئة عام ما يقطعُها**» [رواه البخاري (٦٥٥٢)].

وعن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ في الجنَّةِ**

لشجرةً يسيرُ الراكبُ الجوادُ، أو المضمَّرُ السريعُ مئة عام وما يقطعُها» [رواه البخاري (٦٥٥٣)].

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾.

يسكب لهم أينما شاؤوا وكيفما أرادوا، بلا تعب، قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]. أو يجري على الأرض في غير أخدود.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾.

أي: لا تنقطع في بعض الأوقات كفاكهة الدنيا، ولا تمنع عن متناوليها.

وفي قراءة: **(وفاكهةٌ)** بالرفع بتقدير: وهناك فاكهة.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤﴾.

رفيعة القدر، أو مرفوعة على الأسرَّة، ويكنى بالفراش عن المرأة، وارتفاعها كونها على السرير مع زوجها، قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يسٓ: ٥٦].

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥﴾.

أي: إنا ابتدأنا خلقهن ابتداء جديداً، أو أبدعناهن من غير ولادة.

لكن الأخبار دلت على أن المراد بهنَّ المؤمنات من نساء الدنيا، فقد أخرج الترمذي في «السنن» [٣٢٩٦]: عن **أنس** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المنشآتِ اللاتي كنَّ في الدنيا عجائز عُمشاً رُمْصاً**».

وأخرج أيضاً في «الشمائل» [٢٤٠]: عن **الحسن** قال: أتت عجوزٌ فقالت: يا رسول الله، ادْعُ الله أن يدخلني الجنة، فقال: «**يا أمَّ فلان، إنَّ الجنةَ لا تدخلها**

عجوزٌ» فولَّت تبكي، قال: «**أخبروها أنها لا تدخلُها وهي عجوزٌ، إن الله تعالى يقول:** ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾». والحديث مرسل.

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

متحببات إلى أزواجهن، في سن واحدة، كأنهن شُبِّهن في التساوي بالترائب التي هي أضلاع الصدر، أو كأنهن وقعن على تراب الأرض معاً وهنَّ يلعبن صغيرات، أو أتراب في الأخلاق ليس بينهن تباغض وتحاسد كما يكون بين الضرائر في الدنيا، فهن العواشق لأزواجهن، المتحابات بينهن.

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: أنشئن لأصحاب اليمين.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وكلهم من هذه الأمة كما مرَّ معنا في المقربين، وقد أخرج ابن جرير: عن **سعيد بن جبير، عن ابن عباس**: أن رسول الله ﷺ قال: «**هما جميعاً من أمتي**».

والظاهر أنَّ ما ذكر من أصحاب اليمين هو حالهم الذي ينتهون إليه، فلا ينافي أن يكون منهم من يعذب لمعاصٍ فعلها ومات وهو غير تائب عنها، ثم يدخل الجنة، فإن أصناف أصحاب الشمال الآتية تدل على أنهم كانوا كافرين.

* * *

الترف والضلال في أصحاب الشمال

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾.

وهي جملة استفهامية ذُكرت لتهويل حالهم وعذابهم.

﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: في ريح حارة تنفذ في المسام، وماء شديد الحرارة يقطِّع الأمعاء، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ٥١].

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: ودخان أسود يغطِّيهم ويظللهم.

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

لا بارد كغيره من الظلال، ولا نافع لمن يأوي إليه من أذى الحر.

ففي الآية تهكُّم مُرٌّ بهم، فهم لا يستحقون الظل الذي فيه برد وإكرام، بل يستظلون بظل وهم مهانون معذبون.

ثم بيَّن سبحانه سبب عذابهم:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: كانوا منهمكين في الشهوات، أترفتهم النعمة وأبطرتهم، فجحدوا فضل الله عليهم.

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

وكانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك والكفر.

أو: هو القسَم على إنكار البعث، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨] وهو المعنى المشهور للحنث.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يقولون ذلك مكذبين به، مستبعدين وقوعه.

﴿أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: أيبعث آباؤنا أيضاً فهم أقدم، وبعثهم أبعد وأبطل؟!.

وفي قراءة: **(أوْ آباءنا)** بإسكان الواو.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

قل ردّاً لإنكارهم، وتحقيقاً للحق: إن الأولين والآخرين، ومن جملتهم آباؤكم؛ لمجموعون بعد البعث إلى وقت معلوم معين هو يوم القيامة، فإليه الغاية والانتهاء، ولهذا عُدِّي بـ **(إلى)**.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ثم إنكم أيها الضالُّون عن الهدى المكذِّبون بالبعث.

﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾.

وهو الشجر الذي ينبت في أصل الجحيم، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات].

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

من شدة الجوع.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: فشاربون بعده من الحميم.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

الإبل العطاش التي أصيبت بداء يجعلها تشرب فلا ترتوي، أو شُرب الرمال التي لا تمسك الماء، وفي قراءة: **(شَرْب)** بفتح الشين وهما مصدران.

وشربهم للحميم المتناهي في حرارته الذي يقطع أمعاءهم أمر عجيب يدل على أنهم ابتلوا بالعطش الشديد الذي حملهم على شرب الحميم.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: هذا أول ما أُعِدَّ لهم يوم الدين، فما ظنك بما بعده من العذاب؟!.

وفي قراءة: **(نُزْلهم)** بتسكين الزاي.

* * *

الإيجاد والإمداد

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤)﴾.

مهدت الآيات النفوس بهذه الإثارة الوجدانية الشديدة للمحاكمة العقلية الملزمة بالإيمان بيوم الحساب والجزاء، فوجَّهت خطابها إلى الكافرين الجاحدين قائلة لهم:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧)﴾.

فهلا تصدِّقون بالبعث.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨)﴾.

ما تقذفون في الأرحام من النطف.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩)﴾.

أأنتم تخلقونه بشراً سويّاً أم نحن الخالقون؟!.

فمن خلق الخلق أول مرة قدِر عليه مرة ثانية.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: نحن قدَّرنا الموت، وقسمناه عليكم بوقت معين، وما يسبقنا أحدٌ فيهرب من الموت، أو يغير وقته المحدد له.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ ونحن قادرون أيضاً على أن نذهبكم، ونخلق مكانكم أشباهكم، فوجودكم منوط بمشيئتنا وقدرتنا، قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم].

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصفات والأحوال، فنحن قادرون على خلق ما يماثلكم، وما لا يماثلكم؛ فكيف نعجز عن إعادتكم بعد الموت؟!.

فالآية تدل على كمال قدرته تعالى، وطلاقة مشيئته، فهم دائماً وأبداً في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته في الحياة وبعد الممات.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى. وفي قراءة: **(النشاءة)**.

ودلت الآية على حجية القياس، وأنه مصدر للأحكام الشرعية.

ثم أضافت الآيات تذكِّرهم بأهم أسباب استمرار حياتهم ومعاشهم من طعام وماء ونار، وهي الطاقة الضرورية لذلك، لتؤكد أن إيجادهم وإمدادهم بقدرته ومشيئته سبحانه:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وهو شقُّ الأرض وإثارتها والبذر فيها للزراعة.

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

أأنتم تنبتونه أم نحن المنبتون لا أنتم؟!.

أضافت الآية أسباب الزراعة إليهم بينما أضافت التأثير والخلق والإيجاد إلى الله وحده.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أي: نحن أنبتناه بقدرتنا ومشيئتنا، ولو نشاء لأيبسناه وأهلكناه قبل استوائه ونضجه واستحصاده.

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: فصرتم بسبب ذلك تتعجبون من سوء حاله، أو تندمون وتأسفون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

أو تقولون: إنا لآسفون على ما أنفقنا، أو: إنا لمهلكون بهلاك رزقنا، بل نحن محرومون لا حظَّ لنا، كأنهم لمَّا قالوا: إنا لمهلكون؛ أضربوا عنه، وقالوا: بل هذا أمر أُصبنا به لنحوسة طالعنا وعدم بختنا.

وأصل **التفكه**: التنقل بصنوف الفاكهة، وقد استعير للتنقل بالحديث، وقرئ (**فَظِلْتُم**) بالكسر و (**فظللتم**) على الأصل[1].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: الماء العذب الذي تشربون.

وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافع الماء، لأن الشرب أكملها.

(١) تفسير البيضاوي: ٦/ ١٦٣.

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ وهو السحاب، واحدها مزنة.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ له بقدرتنا ومشيئتنا.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: لو نشاء جعلناه شديد الملوحة غير صالح للشرب، فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله عَذْباً فراتاً.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: تقدحون وتوقدون.

﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أأنتم خلقتم شجرتها، أم نحن الخالقون لها؟!.

والظاهر أن المراد جميع الشجر الذي توقد منه النار، وجمهور المفسرين على أن المراد شجرتان مخصوصتان تسميهما العرب: المرخ والعَفار، تقدح منهما النار وهما رطبتان، ومن المعلوم أن الاحتكاك بين أي قطعتين من الخشب يولِّد حرارة قد تؤدي إلى اشتعال النار.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: جعلناها تذكيراً لنار جهنم، كما في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**نارُكم هذه التي يُوْقِدُ ابن آدم جزءٌ من سبعين جزءاً من حَرِّ جهنم**» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله،

قال: «**فإنَّها فُضِّلتْ عليها بتسعةٍ وستين جزءاً كلُّها مثلُ حرِّها**» [رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣)].

﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي: وجعلناها منفعة للمسافرين الذين ينزلون القواء، وهي الأرض المقفرة، فهم أحوج إلى النار من المقيمين.

ولعل في الآية إشارة إلى أهمية الطاقة الحرارية في حياة الإنسان التي ازدادت في العصر الحاضر، فأصبحت الطاقة الأساسية التي يعتمد عليها في دفع مركباته التي يستعملها في أسفاره وتنقلاته.

فالطعام والماء والنار أهم أسباب حياة الإنسان، ولهذا حَثَّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام على بذلها لمن يحتاج إليها، وفي الحديث الشريف: «**المسلمون شركاء في ثلاثة: النار والكلأ والماء**».

وفي رواية: «**ثلاثة لا يمنعن: الماء والكلأ والنار**» [رواه أحمد (٢٢٩٧٧) وقال محقق المسند: إسناده صحيح، وأبو داود (٣٤٧٧)].

قال ابن حجر: «إسناده صحيح، قال الخطابي: معناه الكلأ الذي ينبت في موات الأرض، والماء الذي يجري في المواضع التي لا تختص بأحد، وقيل: المراد بالنار: الحجارة التي توري النار، قال غيره: المراد: النار حقيقة، والمعنى: لا يمنع من يستصبح منها مصباحاً، ويدني منها ما يشعله منها. وقال الخطابي أيضاً: والنهي عند الجمهور للتنزيه، فيحتاج إلى دليل يوجب صرفه عن ظاهره، وظاهر الحديث أيضاً وجوب بذله مجاناً وبه قال الجمهور»[1].

وبعد أن بينت الآيات بعض البراهين الدالة على كمال قدرته تعالى وفضله وإحسانه، أمرت أمراً قطعيّاً بتسبيحه وتنزيهه عما يقوله الجاحدون المكذبون ليوم الحساب والجزاء، فإنهم عندما يكذِّبون بالبعث بعد الموت يصفون الله تعالى بصفات لا تليق بكماله وقدرته وحكمته.

---

(١) فتح الباري: ٥/ ٣٢.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

نزِّه ربك العظيم وسبِّحه بذكره بهذا الاسم، فهو المربِّي الذي أوجدكم وأمدكم بأسباب حياتكم، فمنه سبحانه الإيجاد والإمداد، أو قل: سبحان ربي العظيم.

وفي الحديث الشريف: عن **عقبة بن عامر** رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ قال: «**اجعلوها في ركوعكم**» ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «**اجعلوها في سجودكم**» [رواه أحمد (١٧٣٤٥) وأبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧)].

وعن **حذيفة** رضي الله عنه: أنه ﷺ كان يقول في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**» وفي سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**» [رواه الترمذي (٢٦٢) وصححه].

* * *

القسم العظيم

﴿۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

وفي مقابل عناد الضالِّين المكذبين بيوم القيامة، والذين كانوا يصرون على إنكاره كما سبق معنا عند قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦] أقسم الله جل وعلا على تأكيد وقوع الواقعة، وصدق النبي ﷺ في كل ما أخبر به ودعا إليه:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: ليس الأمر كما تقولون: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] أُقسم بمواقع النجوم، أو فلأنا أقسم، فحذف المبتدأ، وأشبع فتحة

لام الابتداء، ويعضده قراءة مَنْ قرأ: (فلأقسم). **ومواقع النجوم**: منازل النجوم وأفلاكها التي تجري عليها.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾.

وإن هذا القسَم الذي أقسمتُ به لقسم عظيم لو تعلمون، عِظم مواقع النجوم، فهي أجرام عظيمة كثيرة، لا يعلم عددها إلا الله تعالى، كما مر معنا عند قوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [قٓ: ٦].

فكلما زادت معرفة الإنسان بضخامة هذه الأجرام وكثرتها وعِظم مواقعها والمسافات الهائلة بينها، ازداد علمه بعظمة هذا القسم الذي أقسم الله به، ولله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته، وليس لنا أن نقسم بغيره تعالى، ويذكِّرنا هذا القسم ببعض الدلائل الدالة على كمال قدرته ﷻ وكمال حكمته.

وقد يكون المراد من النجوم نجوم القرآن الكريم، فقد كان ينزل منجَّماً مفرَّقاً على النبي ﷺ. **ومواقع النجوم**: أوقات نزولها. وجواب القسم:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾.

أي: كريم معظَّم عند الله تعالى، لا افتراء فيه، جعله سبحانه دليلاً قاطعاً يدل على صدق النبي ﷺ، وممَّا يؤكد ذلك أنه كائن:

﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾.

مصون محفوظ عن التبديل والتغيير، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج].

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾.

أي: لا يمسه إلا الملائكة، وهم السفرة الكرام البررة، الذين ذكرهم

سبحانه في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس].

وقيل: المراد بالكتاب: المصحف الذي بأيدينا، وهو الأظهر، وقد روى مالك وغيره: أن في كتاب **عمرو بن حزم** الذي كتبه له رسول الله ﷺ: «**ألا يمسَّ القرآن إلا طاهرٌ**».

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «**لا تمسَّ القرآنَ إلا وأنتَ طاهرٌ**» [رواه الطبراني].

وقالت أخت عمر لعمر رضي الله عنه عند إسلامه، وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾، فقام واغتسل وأسلم.

وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحداث والأنجاس[(١)].

وقول قتادة هذا أحدُ أقوال العلماء في الآية، والذي عليه التعويل ـ كما قال سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله ـ هو قولُ الأكثرين أن الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ، وعليه فالآية هنا تشاكل قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج].

وهذه الآية وإن قيل: إن المراد لا يمس اللوح المحفوظ إلا الملائكة، لكن ظاهره منع غير الطاهر من مسِّ القرآن، لأنه سيق لمدح القرآن بأنه مُعظم مُصان عن غير المطهرين، ففهم منه وجوب تعظيمه وصيانته عن مس من ليس بمطهَّر[(٢)].

فالمس بغير طهارة نوع استهانة لا تليق بالمصحف الكريم، وأنه أيضاً:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٢٥؛ والفقه الحنفي في ثوبه الجديد، للمؤلف: ١/ ١٢٠، دار القلم بدمشق.

(٢) إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

أي: منزل من رب العالمين، وقرئ بالنصب؛ أي: نزل تنزيلاً، وصف بالمصدر لأنه نزل نجوماً من بين سائر الكتب، فكأنه في نفسه تنزيل، ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه، فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل.

* * *

توبيخ الضالين المكذبين وتحدِّيهم

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

والتفتت الآيات بعد هذا التقرير المؤكد بالقسم العظيم إلى الضالِّين المكذبين توبِّخهم وتتحداهم:

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾.

أي: أنتم متهاونون به؛ كمن يدهن بالأمر ولا يتصلب فيه تهاوناً به.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به، وكان الحسن يقول: بئس ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب[١].

وقد يكون المعنى المراد: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب، فالمشركون

---

(١) تفسير النسفي: ٦/ ١٦٧.

وضعوا التكذيب موضع الشكر، وينسحب هذا المعنى على كل من يقول: مُطِرْنا بنوء كذا، ولا يرده إلى فضل الله تعالى ورحمته.

وفي الحديث الشريف: عن **زيد بن خالد الجهني** رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب**» [رواه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١)] وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت بهذه المناسبة.

ثم ذكَّرتهم الآيات بشدة ضعفهم عند الموت، فوجهت خطابها لمن يكون حول المحتضِر بأسلوب التحدي:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم.

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: تنظرون حالكم، فإن مثل هذا المصير ينتظركم.

أو: تنظرون إلى المحتضر.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: ونحن أقرب إليه علماً وقدرة منكم، ولكن لا تعرفون من حقيقة حاله إلا ما تشاهدون.

أو: نحن أقرب إليه منكم بملائكتنا، ولكن لا ترونهم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: فهلا إن كنتم غير محاسبين يوم القيامة.

أو: إن كنتم أقوياء غير مقهورين أذلاء.

﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: تردُّون روح هذا الميت إلى جسده بعد أن بلغت الحلقوم إن كنتم صادقين في إنكار البعث والحساب، وهذا جواب الشرطين الأول والثاني.

* * *

أحوال المحتضرين

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

وأخيراً وصفت الآيات أحوال الأصناف الثلاثة عند احتضارهم ونزول الموت بهم:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

فأما إن كان المحتضر من المقرَّبين عند ربهم، الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلهم روح وريحان.

وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

فالرَّوْح: الراحة أو الرحمة أو الفرح والسرور. **والريحان**: الرزق أو الرخاء، وكلها أقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقرَّباً حصل له جميع ذلك.

روى **الإمام أحمد** [١٥٧١٦ و١٥٧١٨]: عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن **كعب بن مالك**، عن رسول الله ﷺ قال: «**إنما نسمةُ المؤمنِ طائرٌ يعلقُ في شجر الجنة، حتى يرجعَه الله إلى جسده يوم يبعثه**».

وعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «**من أحب لقاءَ الله، أحبَّ الله لقاءه، ومن كره لقاءَ الله، كره الله لقاءه**» قالت: إنا لنكره الموتَ! قال: «**ليس ذلك، ولكنَّ المؤمنَ إذا حضره الموتُ بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شأنٌ أحبَّ إليه مما أمامه، فأحبَّ لقاء الله، وأحبَّ الله لقاءَه، وإن الكافر إذا حضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيءٌ أكرَهَ إليه مما أَمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه**» [رواه مسلم (٢٦٨٤)].

ولقاء الله غير الموت، لكن لما كان الموت وسيلة إلى لقاء الله عبَّر عنه بلقاء الله، فكراهة الموت وشدته لا يكاد يخلو عنه أحد، ولكن المذموم من ذلك إيثار الدنيا، والركون إليها، وكراهية أن يصير إلى الله والدار الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس].

وقال النووي: معنى الحديث: أنَّ المحبة والكراهة التي تعتبر شرعاً هي التي تقع عند النزع في الحالة التي لا تقبل فيها التوبة، حيث ينكشف الحال للمحتضر، ويظهر له ما هو صائر إليه.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾.

وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين، فتبشره الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين، أو تبلغه سلام إخوانه عليه من أصحاب اليمين.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾.

أي: كان من المكذبين بالبعث، والضالِّين عن الهدى، وهم أصحاب الشمال.

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾.

فالذي يعد لهم حميم جهنم.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

ومقاساة نار عظيمة هي نار جهنم.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: إن ما ذكر من أحوال المحتضرين لهو حق اليقين لا شك فيه يدل دلالة قاطعة على كمال قدرته تعالى وحكمته.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

فنزِّه ربك العظيم عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله جل جلاله.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة الحديد

الإِنْفَاقُ وَالإِمْسَاكُ فِي سُورَةِ الحَدِيدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تسبيح المخلوقات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)﴾.

بدأ الله تعالى سورة الحديد بقوله:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾.

أخبر سبحانه أن كل المخلوقات تُنَزِّهه عمَّا لا يليق بكماله وجلاله، وتسبيح كل مخلوق بحسبه، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

واختلاف المخلوقات في الصفات والخصائص يجعلنا لا نفقه تسبيحها؛ ألا ترى أن اختلاف الناس في الأجناس واللغات يجعلهم لا يفهمون كلام بعضهم، ومرَّ معنا أن الجبال والطير كانت تردد التسبيح مع داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النُّور: ٤١].

وفي الحديث: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. [رواه البخاري (٣٥٧٩)].

وعن **جابر** رضي الله عنه قال: كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِعَ له المنبر، فكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار، حتى جاء النبيُّ ﷺ، فوضع يده عليها فسكنت. [رواه البخاري (٣٥٨٥)].

قال ابن حجر: «وفي الحديث دلالة على أن الجمادات قد يخلق الله لها إدراكاً كالحيوان بل كأشرف الحيوان. وفيه تأييد لقول من يحمل: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] على ظاهره»[١].

واللام في (لله) للتأكيد، كما تقول: نصحتُ له، وشكرتُ له. أو: للتعليل أي فعل التسبيح لأجل الله تعالى خالصاً لوجهه الكريم.

ومجيءُ فعل التسبيح في بعض فواتح السور ماضياً، وفي بعضها الآخر مضارعاً، للإيذان بتحققه في جميع الأوقات، وفيه تنبيهٌ على أنَّ حَقَّ مَنْ شأنُه التسبيحُ الاختياري أن يسبِّحه تعالى في جميع الأوقات، كما عليه الملأ الأعلى الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون[٢].

فالمكونات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود وإلى الأبد تسبِّحه

(١) فتح الباري: ٦/ ٦٠٣.

(٢) تفسير أبي السعود: ٨/ ٢٠٣.

مقدسةً لِذَاته جل وعلا قولاً وفعلاً، طوعاً وكرهاً، لأنه العزيز الغالب على كل شيء، الحكيم في جميع أقواله وأفعاله.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾ أي: له التصرف الكامل فيهما، فهو الخالق والمدبِّر ﷻ، ومن آثار ملكه وسلطانه فيهما: أنه يحيي ويميت.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن جملتها الإحياء والإماتة.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ أي: هو السابق على جميع الموجودات، فهو موجود قبل كل شيء حتى الزمان، إذ هو المبدع له، والباقي بعد فنائها كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله أيضاً: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾ أي: والظاهر وجوده لكثرة دلائله، فكل شيء يدل عليه، والباطن حقيقة ذاته، فلا تدركه العقول فهو الظاهر بالعقل، الباطن بالحس، أو الظاهر على كل شيء، والباطن العالم بكل شيء.

وفي الحديث الشريف: أنه ﷺ كان يقول عند النوم: «**اللهم رب السماوات ورب الأرض رب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخِرُ فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنا الدَّين، وأغننا من الفقر**» [رواه مسلم (٢٧١٣)].

قال ابن كثير: قد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً.

وقال البخاري: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً. قال ابن حجر: ويحيى هذا هو ابن زياد الفراء النحوي المشهور، ذكر ذلك في كتاب «معاني القرآن» له[١].

ومهما تعددت أقوال المفسرين وعباراتهم فكلها تدل على كمال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله جل جلاله.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر والخفي.

وأبرزت الآيات كمال علمه تعالى بمخلوقاته:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾ على الوجه اللائق بجلاله وكماله كما مرَّ معنا.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ﴾ كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ أي: رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم في برٍّ أو بحر، وفي الليل أو النهار، وفي البيوت أو في القفار، لا تغيبون عن علمه وقدرته بحال من الأحوال.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على حسب أعمالكم.

---

(١) فتح الباري: ١٣/ ٣٦٣.

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥﴾.

فإليه وحده لا إلى غيره ترجع الأمور.

ومن دلائل قدرته وبديع حكمته:

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾.

أي: وهو عليم بمكنوناتها اللازمة لها، فلا يغيب عن علمه شيء، فهو محيط بأعمالهم التي يظهرونها؛ وبنياتهم التي يضمرونها.

* * *

الإنفاق في سبيل الله

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠﴾.

وإذا كان الأمر كذلك:

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ﴾ فإن إنفاق المال في الطرق

المشروعة دليل على صدق الإيمان، فالأموال التي بأيديكم لله تعالى، وأنتم مستخلفون فيها، فالآية تحثُّهم على الإنفاق وترغبهم فيه.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ونكَّر الأجر تعظيماً له وتفخيماً، كما قرنت الآية الإنفاق مع الإيمان إظهاراً لأهميته وضرورته.

ثم وبَّخت الآيات المعرضين عن الإيمان والمتثاقلين بأسلوب الاستفهام الإنكاري:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ فأي عذر لكم في ترك الإيمان، والرسول ﷺ يدعوكم إليه بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة؟!.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ﴾ أي: وقد أخذ ربكم ميثاقكم بتمكينكم من النظر.

أو: ميثاق الفطرة الذي أُخذ عليكم في عالم الذر، والذي أخبر سبحانه عنه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فأحرى الأوقات للإيمان هي هذه الأوقات، لتوفر دواعي الإيمان، وقيام الحجج وظهورها، فبادروا إلى الإيمان.

وفي قراءة: (**أُخذ ميثاقُكم**) على البناء للمفعول.

لقد توفرت ببعثة النبي ﷺ ونزول القرآن دواعي الإيمان:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

حيث بعث إليكم الرسولَ ﷺ بالآيات البينات ولم يقتصر على ما نصب لكم من الأدلة العقلية، وما أخذ عليكم من ميثاق الفطرة.

وبعد أن وبختهم الآيات على ترك الإيمان، وبختهم على ترك الإنفاق في سبيل الله بقوله:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يرث كلَّ شيء فيهما، فلا يبقى لأحد مال، فالأولى أن تنفقوها في سبيل الله.

ثم بينت فضل السابقين إلى الجهاد والإنفاق في سبيل الله:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ فالمتفاضلون لا يستوون، فلا يستوي في الفضل من أنفق ماله، وقاتل العدو قبل فتح مكة، مع من أنفق ماله، وقاتل بعد الفتح، فقد كان الحال قبل فتح مكة شديداً، وأما بعده فقد ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ولهذا قال:

﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾، وفي الحديث: أنه كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فقال رسول الله ﷺ لَمَّا بلغته: «**دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهباً، أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم**» [رواه أحمد (١٣٧٤٧) ورجاله رجال الصحيح].

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: وعد الله كلّاً من الفريقين الحسنى، وهي الجنة.

وفي قراءة: (كلٌّ) بالرفع على الابتداء.

ودرجات الجنة متفاوتة؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ

دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]، فالذين أنفقوا قبل الفتح في أفضلها.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم على قدر أعمالكم.

* * *

الأجر والنور

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

وبعد التوبيخ على ترك الإنفاق حثت الآيات عليه وحببت به:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

فمن ينفق ماله في سبيل الله فإنه كمن يقرضه سبحانه، فيرده عليه أضعافاً كثيرة في الدنيا، وله جزاء جميل يوم القيامة في الجنة.

وقرئ: (**فيضاعفُه**) بالرفع عطفاً على (**يُقرض**).

ومع الأجر الكريم النور العظيم:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ أي: يوم القيامة ترى المؤمنين والمؤمنات يسير نورهم أمامهم وعن أيمانهم.

وخصَّت الأيمان بالنور دون غيرها لشرفها، ويقال لهم:

﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أعظم منه.

وعندها يتوجهون إلى الجنة تسير معهم أنوارهم، ويمتاز المنافقون عنهم:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: انتظرونا نستضئ من نوركم، وهذا يدل على أن الظلمة تغشى الناس يوم القيامة.

وقرئ: (**أَنْظِرونا**) بقطع الألف وكسر الظاء؛ أي: أمهلونا.

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي: يقال لهم تهكُّماً: ارجعوا وراءكم إلى المكان الذي كنتم فيه، أو إلى الدنيا، فاطلبوا النور بتحصيل أسبابه من الإيمان والأعمال الصالحة، ولعلهم أرادوا بالنور الظلمة الكثيفة التي وراءهم تهكماً.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾ أي: فجُعل بين الفريقين حائط له باب.

﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي: باطن السور أو الباب، وهو الجانب الذي يلي الجنة، فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي النار من جهته العذاب. وقرئ: (فَضَرَب) على البناء للفاعل.

وينادي المنافقون والمنافقات المؤمنين بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب:

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤)﴾.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: ألم نكن في الدنيا معكم؟! والمراد موافقتهم في الظاهر.

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قالوا: بلى كنتم معنا بحسب الظاهر، ولكنكم عرَّضتم أنفسكم للفتنة والكفر، واستعملتموها في المعاصي والشهوات، وتربصتم بالمؤمنين الدوائر.

أو: أخرتم التوبة، وشككتم في الإيمان، وغرتكم الأماني الباطنة، بانتصار الكافرين، وهلاك المؤمنين، حتى جاءكم الموت، ومن المعلوم: أن من أطال الأمل، نسي العمل، وغفل عن الأجل.

﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي: وغرَّكم الشيطان، وأخبركم بأن الله عفو كريم لا يعذبكم. وقرئ: **(الغُرور)** بالضم.

وواضح أن المؤمنين قالوا ذلك للمنافقين على وجه التقريع والتوبيخ، ولهذا أضافوا قائلين:

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)﴾.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ لتفتدوا بها من عذاب الله. وقرئ: **(تؤخذ)** بالتاء.

﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولا تؤخذ أيضاً من الذين كفروا ظاهراً وباطناً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: هي أولى بكم، وساءت مرجعاً ومصيراً.

* * *

طول الأمل وقسوة القلوب

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

دلَّت الآيات على أن طول الأمل أمر خطير، يؤدي إلى الغفلة عن الله تعالى والفتور في العبادات، فحذرت المؤمنين منه بأسلوب لطيف غير مباشر:

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ألم يجئ وقت أن تخشع قلوب المؤمنين لذكره تعالى، وما نزل من الحق في القرآن، فيسارعون إلى طاعته من غير توانٍ ولا فتور؟!.

و **(يَأْنِ)** من أنى الأمر، إذا جاء إناهُ، أي: وقته، وقرئ: **(ألم يَئِنْ)** من آن يئين بمعنى أنى.

ولا يخفى ما في الآية من عتاب للمؤمنين لطيف، ولهذا أخرج **ابن أبي حاتم وابن مَرْدَويه**: عن **ابن عباس** قال: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن.

وهي سنة الهجرة إلى المدينة بلغ فيها المؤمنون ذروة الخشوع والخضوع والمسارعة إلى طاعة الله تعالى.

ولعل الأصح ما روى **ابن مردويه**: عن **أنس**: أنَّه بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن.

لكن أخرج مسلم [٣٠٢٧] وابن ماجه [٤١٩٢] وغيرهم: عن ابن مسعود رضي الله عنه: **ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى بهذه الآية إلا أربع سنين.**

وهذا يجعلنا نصرفُ المراد من الآية عن ظاهرها الذي هو العتاب، إلى أنَّه تهييج للمؤمنين على المزيد من طاعته تعالى، ورفعٌ لهممهم، وشحذٌ لعزائمهم، فإنَّ التحديات التي كانوا يواجهونها في ذلك الوقت كبيرة وكثيرة وخطيرة، فهو حضٌّ لهم على المسارعة إلى الطاعة في أكمل وجوهها، أتبعه تعالى بتحذيرهم من الفتور والتراخي فقال:

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم اليهود والنصارى، الذين انهمكوا في الشهوات والمعاصي، وطال ما بينهم وبين أنبيائهم من الزمان، فقست قلوبهم بسبب إدمانهم على المعاصي، حتى صاروا لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً.

فللمعاصي آثار سيئة على القلوب، كما جاء في الحديث الشريف: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوبِ كالحصيرِ عُوْداً عُوْداً، فأيُّ قلبٍ أشربَها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرَها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاءُ، حتى يصيرَ على قلبين: على أبيضَ مثل الصفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامتِ السماواتُ والأرضُ، والآخرَ أسودَ مربادّاً كالكوزِ مُجَخِّياً (مائلاً) لا يعرفُ معروفاً، ولا ينكِرُ منكراً إلا ما أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**» [رواه مسلم (١٤٤)].

ففي الآية نهي للمؤمنين عن التشبه بأهل الكتاب في قسوة القلوب، ويؤيده قراءة: **(ولا تكونوا)** بالتاء.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة ربهم، بينما قليل منهم مطيعون خاشعون.

فقسوةُ القلوبِ مبدأُ الشرور، تنشأ من طول الغفلة، لا دواء لها إلا الإكثار من ذكره تعالى القائل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ولهذا قال تعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهو تمثيلٌ لإحياء القلوب القاسية بذكر الله كما تحيا الأرض اليابسة بالغيث.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: قد بينا لكم الآيات لكي تعقلوا ما فيها من مواعظ وزواجر، فتقبلوا على الله، وتكثروا من ذكره.

وقد ذكروا أنَّ هذه الآية كانت سببَ توبة **عبد الله بن المبارك** رحمه الله عندما سمعها، كما كانت أيضاً سبباً لتوبة **الفُضَيْل بن عياض**، فقد سمعها وهو يرتقي الجدرانَ إلى لقاءِ جاريةٍ يعشقُها واعدته ليلاً، فلما سمع القارئَ يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ رجع القهقرى، وهو يقول: بلى واللهِ، قد آنَ، وجعلتُ توبتي إليك جوارَ بيتك الحرام[١].

* * *

الصديقون والشهداء

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

ومن المعلوم أنَّ طولَ الأمل وقسوة القلب يؤديان إلى البخل والامتناع عن إنفاق المال في الوجوه المشروعة، ولهذا عادت الآيات تحثُّ المؤمنين والمؤمنات على الإكثار من الصدقات:

(١) انظر تفصيل ذلك في: تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٥١.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ أي: إن المتصدقين والمتصدقات، وقد قرئ بها، وقرئ بتخفيف الصاد؛ أي: الذين صدَّقوا الله ورسوله.

﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: وأقرضوا الله بالصدقة قرضاً حسناً خالصاً له سبحانه.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: يضاعَفُ لهم ذلك القرض، ولهم ثوابٌ حَسَنٌ، وهو الجنة. وقرئ: (**يضعَّفُ**) بتشديد العين، و(**يُضَاعِفُ**) بالبناء للفاعل، أي: يضاعف الله ﷻ لهم ثواب صدقتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: والذين آمنوا بالله ورسله أولئك عند ربهم وفي حكمه وعلمه هم الصديقون والشهداء، فهم في حكم الله تعالى بمنزلة الصدِّيقين والشهداء، المشهورين بعلوِّ الرتبةِ، ورفعةِ المحل، وهم الذين سبقوا إلى التصديق، ورسخوا فيه، واستشهدوا في سبيل الله، وسمي مَنْ قُتِلَ مجاهداً في سبيله تعالى شهيداً، لأنَّ الله سبحانه وملائكته شهودٌ له بالجنة، أو لأنه حي لم يمت، كأنه شاهد؛ أي حاضر، أو لأنَّ ملائكة الرحمة تشهده، أو لأنه شهد ما أعدَّ الله تعالى له من الكرامة[1].

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾ أي: أولئك لهم مثل أجر الصدِّيقين والشهداء ونورهم، وحُذفت أداةُ التشبيه تنبيهاً على قوَّة المماثلة وبلوغها حد الكمال.

أو: أولئك هم المبالِغون في الصدق، والقائمون بالشهادة لله بالوحدانية وسائر صفات الكمال، لهم الأجر والنور الموعودان لهم.

(١) روح المعاني: ٢٧/ ١٨٣.

ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ كُلَّ مؤمن صدِّيقٌ شهيدٌ، ولا يتحقق ذلك إلا بالمؤمن الصادق المخلص في إيمانه، وبعيدٌ أن يكون المؤمن المنهمك في الشهوات الغافل عن الطاعات صدِّيقاً شهيداً.

وقيل: الكلام قد تمَّ عند قوله تعالى: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ ففرَّق بين الصدِّيقين وبين الشهداء، فدل على أنهما صنفان.

ولا شك أن الصدِّيق أعلى مقاماً من الشهيد، فقد جاء في الحديث الشريف: عن **أبي سعيد الخدري** ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أهلَ الجنَّةِ ليتراءَونَ أهلَ الغرفِ مِنْ فوقِهِم كما تتراءَونَ الكوكبَ الدرِّيَّ الغابرَ من الأُفُقِ من المشرقِ أو المغربِ لتفاضُلِ ما بينهم**» قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلكَ منازلُ الأنبياءِ لا يبلغُها غيرُهم؟ قال: «**بلى والذي نفسِي بيدِهِ رجالٌ آمنوا باللهِ وصدَّقوا المرسلين**» [رواه مسلم (٢٨٣١)].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: أولئك الموصوفون بالكفر والتكذيب أصحاب الجحيم فلا يفارقونها أبداً.

* * *

حقيقة الحياة الدنيا

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

وحتَّى لا تطولَ آمالُهم في الدنيا، وتقسو قلوبُهم بسبب التعلق بها والركون

إليها، زهَّدتهم الآياتُ بها، وبيَّنت لهم سرعة زوالها، فوصفتها بأسلوب التقرير المؤكد بالأوصاف التالية:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)﴾.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ فهي.

- **لعبٌ** لا ثمرةَ فيها سوى التعبِ والنصبِ.
- **ولهوٌ** يشغلُ الإنسان عمَّا يفيده ويهمُّه.
- **وزينةٌ** برَّاقةٌ خادعةٌ تلهي وتطغي.
- **وتفاخُرٌ** بينكم، يفخر بعضُكم على بعض بها، وفي «**صحيح مسلم**» [٢٨٦٥]: عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ أوحى إليَّ أَنْ تواضعوا حتَّى لا يبغي أحدٌ على أحدٍ، ولا يفخَرَ أحدٌ على أحدٍ**».
- **ومباهاة** بكثرة الأموال والأولاد.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ أي: مثل الدنيا في سرعة زوالها كمثل غيثٍ أعجبَ الكفَّارَ الجاحدينَ لنعمةِ اللهِ ما نبتَ بذلك الغيث، أو أعجبَ الزرَّاع نباته، وسُمِّيَ الزرَّاع كفاراً لسترهم البذرَ بالأرضِ، ثم ييبس فتراه مصفرّاً بعد خضرته ونضرته، ثم يتحطَّم ويتكسَّر.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن كانت حياته لعباً ولهواً وزينة وتفاخراً وتكاثراً.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي: من الله أيضاً؛ وهما لأوليائه وأهل طاعته، وفي ترك وصف العذاب بكونه من الله مع وصف المغفرة والرضوان بذلك، إشارة إلى أنهما هما المقصد الأول.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ فلا تغتروا بها، ولا تطمئنوا إليها.

وما أكثرَ الآياتِ التي حذرت الناسَ من الاغترار بالدنيا، وبينت لهم

حقيقتها! منها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقوله أيضاً: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

فالدنيا حقيرةٌ زائلةٌ، لا ينبغي المفاخرة والمكاثرة بها والمسابقة إلى تحصيل متاعها، بل ينبغي أن تكونَ المسابقةُ والمنافسةُ للوصول إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته:

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: سارعوا مسارعةَ المتسابقين إلى مغفرةٍ من ربِّكم، وإلى جنة واسعة كبيرة عرضها كعرض السماء والأرض، فالمرادُ بيان سعة الجنة على طريقة التمثيل، فشُبِّهت بأوسع ما علِمه الناس من المخلوقاتِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فالمسابقة إلى تحصيل متاع الدنيا وحطامها أمر مذموم، وأما المسارعةُ للوصول إلى مغفرة الله وفضله فأمرٌ محمود مطلوب شرعاً لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقوله أيضاً: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: هيِّئت وخلقت للذين آمنوا بالله ورسله.

وفي ذلك أعظم رجاء وأقوى أمل، فلم يذكر مع الإيمان شيئاً آخر. ثم قال:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فلا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله تعالى لا بعمله، وفي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**ما مِنْ أحدٍ يُدْخِلُه عَمَلُهُ الجنَّة**» فقيل: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني ربِّي برَحْمَةٍ**» [رواه مسلم (٢٨١٦)].

* * *

الرضا بالقدر

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

وقد يصابُ الإنسانُ وهو في مضمار المنافسة ببعض البلايا والمصائب، أو يظفر ببعض حظوظ الدنيا ومتاعها، فعليه في كلا الحالين الرضا بقدر الله، فلا يَعْظُمُ جزعُه على ما فاته من الدنيا عند المصاب، ولا فرحه بما نال من حظوظها ومتاعها:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كجدب ونقص في الزروع والثمار.

﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كالأوجاع والأمراض.

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: إلا مكتوبة مثبتة في علم الله تعالى من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن علمه تعالى بالأشياء قبل خلقها سهل عليه، فهو يعلم ما كان وما يكون، وسِع علمه كل شيء.

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ أي: أعلمناكم بتقدم علمنا، وسبق كتابنا للأشياء قبل خلقها، وبتقديرنا للكائنات قبل وجودها، لكي لا تحزنوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا فَرَحَ البطر والأشر بما أنعم الله عليكم، فتتكبروا، وتفخروا بها على الناس. وفي قراءة: **(أتاكم)** أي: جاءكم.

فالمرادُ نفيُ الأسى المانع عن التسليم لأمر الله تعالى، والفرح الموجب للبطر والاختيال، ولذلك ختم الآية بقوله:

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: لا يحب الله كلَّ مختال في نفسه، متكبر فخور على غيره، فإنَّ مَنْ فرح بالحظوظ الدنيوية، وعظمت في نفسه، اختال وافتخر بها لا محالة، وغالباً ما يضنُّ بها، ويبخل، ويأمر غيره بالبخل، وهو الحال الذي حذَّرتهم الآيات منه.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ﴾ أي: لا يحبُّ الله المختالين، الذين يبخلون، ويأمرون الناس بالبخل، فالله غني عنهم. وقرئ: **(بالبَخَل)** بفتحتين.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: ومن يعرض عن الإنفاق فإنَّ الله غنيٌّ عنه وعن إنفاقه، محمود في ذاته، لا يضره إعراض المعرضين عن شكره، ولا تنفعه عبادة الطائعين، فالأمر بالإنفاق لمصلحة المنفقين. وفي قراءة: **(فإن الله الغني)**.

* * *

الحق والقوة

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وتأكيداً لغناه سبحانه بقدرته وعزَّته عن عباده أخبر ببعض ما تفضَّل به عليهم لتنظيم حياتهم الاجتماعية:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والمعجزات.

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: وأنزلنا معهم الكتاب المتضمِّن للأحكام، وأمرنا بالعدل، أو الميزان الآلة المعروفة بين الناس، أمرنا باستعماله ليقومَ الناسُ بالعدلِ، فلا يظلِمُ بعضُهم بعضاً.

ولا بد للحق من قوة تحميه وتلزم الناس به:

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: وخلقنا الحديدَ فيه قوة، فإن أكثرَ آلاتِ الحرب تُتخذ منه، وفيه أيضاً منافع للناس في كثير من شؤون حياتهم ومعاشهم.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وليعلمَ اللهُ مَنْ نيته في حمل السلاح الجهادُ في سبيله، ونصرة رسُله، وهو غائب عنهم، أو ينصرهم بإخلاص.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ لا يحتاجُ إلى نصرتهم، وإنَّما كلَّفهم بالجهاد ليثيبهم عليه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فما أرسل الله بعد إبراهيم عليه السلام رسولاً ونبيّاً إلا من ذريته.

﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: فمِن المرسل إليهم مهتدٍ إلى الحق، وكثيرٌ منهم خارجون عن الطريق المستقيم، وهذا يبين حكمته تعالى في تشريع الجهاد، وخلق أسباب القوة من سلاح وعتاد.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أرسلنا رسولاً بعد رسول، حتى انتهت إلى عيسى ابن مريم، وأصل التقفية جعل الشيء خلفَ القفا.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: وفَّقناهم للتراحم والتعاطف فيما بينهم.

والرأفة في المشهور: الرحمةُ، ويراد بها إذا ذكرت مع الرحمة ما فيه دَرْءُ الشرِّ ورأبُ الصدعِ، وبالرحمة ما فيه جلبُ الخير، ولهذا نرى في الأغلب تقديمَ الرأفة على الرحمة، لأنَّ درءَ المفاسد أهم من جلب المصالح(١).

---

(١) روح المعاني: ٢٧/ ١٩٠.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ابتدعوا رهبانية ما فرضناها عليهم، ولكنَّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله. وهي المبالغة في العبادة والانقطاع عن الناس، منسوبة إلى الرهبان.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، فهي كالنَّذْر يجب الوفاء به، وهذا ذم لهم من وجهين:

أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.

والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وهذا يبين لنا ضرورة الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو سبيلُ السلامة والاستقامة.

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا الإيمانَ الصحيحَ، وثبتوا على الحق.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: كافرون، وهم الذين خالفوا ما جاء به عيسى عليه السلام.

* * *

البخل والحسد

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

وجهت الآيات في ختام السورة نداءها للمؤمنين تدعوهم إلى تقوى الله والالتزام بكتابه وسنَّة نبيه عليه الصلاة والسلام:

﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: ضعفين من رحمته، فمضاعفة الثواب ليس لمن آمن من أهل الكتاب فقط، كما ذكر بعض المفسرين، قال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنَّهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية في حَقِّ هذه الأمة(١).

وما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف لا يفيدُ الحصرَ، وهو الحديثُ الذي رواه **أبو موسى الأشعري** رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**أيّما رَجُلٍ كانت عِنْدهُ وليدةٌ، فعلَّمَها فأحسن تعليمها، وأدَّبها فأحسنَ تأديبَها، ثم أعتقَها وتزوَّجها، فله أجرانِ. وأيّما رجلٍ مِنْ أهلِ الكتابِ آمن بنبيِّه، وآمن بي، فله أجرانِ. وأيّما مملوكٍ أدَّى حق مواليه، وحَقَّ ربِّه، فله أجران**» [رواه البخاري (٥٠٨٣)].

قال ابن حجر بعد أن ذكر عدداً من الأحاديث في الذين يؤتَوْن أجرهم مرتين: «وقد يحصلُ بمزيدِ التتبُّع أكثر من ذلك، وكل هذا دالٌّ على أَنْ لا مفهومَ للعددِ المذكورِ في حديث أبي موسى»(٢).

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أي: تمشون به على الصراط يوم القيامة كما سبق عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

أو: يجعل لكم نوراً في الدنيا تميِّزون به بين الحق والباطل كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير للآية.

(٢) فتح الباري: ٩/ ١٢٧.

ولا مانعَ من الجمع بين المعنيين، فالله سبحانه ينوِّر قلوبَ المتقين في الدنيا، وينور طريقهم على الصراط يوم القيامة.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فتفضل سبحانه عليهم بالنور والمغفرة.

ثم ردَّ تعالى على أهل الكتاب الذين حملهم البخلُ على حَسَدِ الأمة المسلمة، بسبب ما تفضَّلَ الله عليها ببعثة النبيِّ ﷺ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

فأخبر سبحانه أنهم لا يقدرون على ردِّ ما يعطي، ولا إعطاء ما يمنع، فقال:

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: لئلا يعلمَ أهلُ الكتابِ أنهم لا يقدرون على شيء من فضله تعالى، فضلاً أن يتصرفوا فيه.

﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: وأنَّ الفضل في ملكه وتصرفه لله سبحانه، يؤتيه من يشاء.

ففي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَثَلُكُم ومَثَلُ أهلِ الكتابينِ كمثلِ رجلٍ استأجرَ أُجراءَ، فقال: مَنْ يَعْمَلُ لي مِنْ غَدْوَةٍ إلى نصفِ النهارِ على قيراطٍ؟ فعملتِ اليهودُ. ثم قالَ: مَنْ يعملُ لي مِنْ نصفِ النهارِ إلى صلاةِ العَصْرِ على قيراطٍ؟ فَعَمِلتِ النصارى. ثم قال: مَنْ يَعْمَلُ لي مِنَ العَصْرِ إلى أنْ تغيبَ الشمسُ على قيراطين؟ فأنتم هُم، فغضبتِ اليهودُ والنصارى، فقالوا: ما لنا أكثرُ عملاً وأقلُّ عطاءً؟ قال: هل نقصتُكم مِنْ حقِّكم؟ قالوا: لا، قال: فذلك فَضْلِي أوتيه مَنْ أشاءُ**» [رواه البخاري (٢٢٦٨)].

❁ ❁ ❁



تفسير سورة المجادلة

الشَّكْوَى والنَّجْوَى في سُورَةِ المُجَادِلَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السميع البصير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾

بدأ الله تعالى سورة المجادلة بقوله:

﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾.

﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: قد سمع الله قول التي تراجِعُكَ الكلامَ في شأن زوجها معها، وفي ما صدر عنه في حقِّها، وتشتكي إلى الله في شدة حالها وضعفها.

وقد شهدت السيدة عائشة رضي الله عنها سببَ نزول هذه الآية فقالت: الحمد لله الذي وسع سمعُه الأصواتَ، لقد جاءت المجادِلةُ خولةُ إلى رسول الله ﷺ في جانب البيتِ ما أسمعُ ما تقول، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي

زَوْجِهَا. . .﴾ الآية. [أخرج بعضَه البخاري في صحيحه (كتاب الطلاق، باب ٢٣) تعليقاً، والنسائيُّ (٣٤٩٠)، وتمامه عند أحمد (٢٤٠٧٧) وغيرهم. وهذا أصحُّ ما وردَ في قصة المجادلة وتسميتها].

وقد أخرج **أبو داود** [٢٢١٤] وصححه **ابن حبان** [٤٢٦٥]: عن خويلة بنت مالك بن ثعلبة، وفي رواية أبي عبيدة بن معن: أنها كانت تقول: أكلَ شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبرتْ سنِّي، وانقطعَ ولدي؛ ظاهرَ مني[١].

﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: والله يسمع مراجعتكما الكلامَ، إنَّ الله سميعٌ بأقوالكم، بصيرٌ بأحوالكم.

ودلَّتِ الآيةُ على إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى، فصحَّ أن كونه سميعاً بصيراً يفيدُ قدراً زائداً على كونه عليماً، وكونه سميعاً بصيراً يتضمَّنُ أنه يسمع بسمعٍ، ويبصرُ ببصرٍ، كما يتضمن كونه عليماً أنه يعلم بعلم، ولا فرق بين إثبات كونه سميعاً بصيراً وبين كونه ذا سمع وبصر، وهذا قول أهل السُّنَّة قاطبة.

وذكر هذا ابن حجر في «فتح الباري» عن ابن بَطَّال، ثم قال بعده: «ولا يرادُ بذلك الجارحة، فإنَّ الله منزَّه عن مشابهة المخلوقات، فالله سبحانه يسمع المسموعات من دون الوسائط، وكذا يرى المرئيات من دون المقابلة وخروج الشعاع، فذات الباري مع كونه حيّاً موجوداً لا تشبه الذوات، فكذلك صفات ذاته لا تشبه الصفات»[٢].

* * *

(١) فتح الباري: ١٣/ ٣٧٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

الظهار وحكمه

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ أي: الذين يقولون لنسائهم: أنتنَّ كظهورِ أمهاتنا، ويسمِّيه الفقهاء: الظِّهار، ويعرِّفونه بأنَّه **تشبيهُ الزوجةِ بقريبٍ محرَّمٍ عليه على التأبيد، أو بعضوٍ منه، يحرم عليه النظرُ إليه**. وقرئ: **(يظَّهَّرون)** بتشديد الظاء والهاء، و**(يظَّاهرون)** مضارع اظَّاهر.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ أي: ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة، فهو كذب بحت، وقرئ: **(أمهاتُهم)** بالرفع، قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ أي: ما أمهاتهم إلا اللائي ولدن المظاهِرين، فالوالداتُ على الحقيقة هنَّ الأمهات، وألحق الشرعُ بهنَّ في الحرمة أزواج الرسول ﷺ والمرضعات.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: وإنهم ليقولون قولاً أنكره الشرع، وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحقيقة.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ مبالغ في العفو والمغفرة.

ودلت الآيات على أنَّ الظهارَ حرامٌ، بل قالوا: إنَّه كبيرةٌ، لأنَّ فيه إقداماً على إحالة حكم الله تعالى وتبديله من دون إذنه، ومن ثَمَّ وجبت فيه الكفارة.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي: ثم يعودون لنقض ما قالوا، أو يعودون لتحليل ما حرَّموه على أنفسهم باستباحة الوطء، والملامسة، والنظر إليها بشهوة، أو يعزمون على الوطء.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ أي: فعليه إعتاقُ رقبةٍ من قبل أن يستمتع المظاهِرُ والمظاهَرُ منها بالآخر، فلا يحلُّ ذلك قبل التكفير، فالتماسُّ كنايةٌ عن الجماع، فيحرمُ قبل التكفير، وكذا دواعيه من التقبيل ونحوه.

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: ذلكم الحكم توعظون به حتى تتركوا الظهار، ولا تعودوا إليه.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافية.

وإذا امتنع المظاهِرُ من الكفَّارة فللمرأة أن ترافعه إلى القاضي ليجبره على الكفارة، وإن مسَّ قبل أن يكفِّر استغفر الله، ولا يعود حتى يكفِّرَ.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ فمن لم يجد الرقبةَ فعليه

صيامُ شهرين متتابعين من قبل أن يتماسَّا، فإن أفطر بغير عُذْرٍ لزمه الاستئنافُ، وإن أفطر لعذر ففيه خلاف.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ فمن لم يستطع الصومَ لهرم أو مرضٍ مزمن، أو شهوةٍ مفرطة، فعليه إطعامُ ستين مسكيناً.

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: ذلك البيانُ للأحكام لتصدِّقوا بالله ورسوله ﷺ في العمل بأحكامه التي شرعها، ورفض ما كنتم عليه في الجاهلية.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: وتلك حدود الله التي لا يجوز تعدِّيها، وللكافرين الذين لا يقبلونها عذاب أليم.

ثم بيَّن تعالى حكم الذين يعاندون شرعه ولا يُذعنون لأحكامه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: الذين يعادونهما ويشاقونهما، فإنّ كلًّا من المتعاديين يكونُ في حَدٍّ غير حَدِّ الآخر، وورود المحادَّة في أثناء ذكر الله من حسن الموقع ما لا غاية وراءه[1].

﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: خُذِلوا وأُذِلُّوا، أو أهينوا ولُعِنوا وأُخذوا، كما فُعِلَ بمن أشبههم ممن كان قبلهم، والمراد: سيكبتون، على طريقة قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١].

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: وقد أنزلنا آياتٍ واضحات لا يعانِدُها ولا يخالِفُها إلا كافر فاجر مكابر، وللكافرين بتلك الآيات عذاب يهينهم، ويذهب بعزِّهم وكبرهم.

(١) تفسير أبي السعود: ٨/ ٢١٧.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ من القبائح والذنوب على رؤوس الأشهاد تشهيراً بحالهم وتشديداً لعذابهم.

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي: أحاط الله به عدداً فلم يفته منه شيء، ونسوه لكثرته، أو لتهاونهم به، ففيه مزيدُ توبيخٍ وتنديمٍ غير التخجيل والتشهير.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيبُ عنه أمر من الأمور.

* * *

النجوى المحرمة

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

ومما يؤكد شمول شهادته سبحانه وكمال علمه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ألم تعلم علماً يقينياً أنَّ الله

يعلمُ كلَّ ما بين السماوات والأرض من الموجودات.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي: ما يقعُ من تناجي ثلاثة يسارِر بعضُهم بعضاً إلا اللهُ رابعُهم، يعلم نجواهم، كأنَّه سبحانه حاضر معهم، ومشاهدهم.

والنجوى: السِّرار، وهو مصدرٌ، يقال: قوم نجوى، أي: ذوو نجوى، وقيل: النجوى ما يكونُ من خلوة ثلاثةٍ يسرُّون شيئاً، ويتناجون به، والسِّرَارُ ما كان بين اثنين(١).

فسمعُ الله محيط بكل كلام، ومرَّ معنا أنه سمع مجادلة المرأة التي ظاهر منها زوجها.

﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ فالله مع كلِّ عددٍ قل أو كثر، يعلم ما يقولون سرّاً وجهراً، ولا تخفى عليه خافية، فالعدد غيرُ مقصودٍ، ولذلك اكتفى بذكر بعض العدد دون بعض.

﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟ۖ﴾ فعلمه سبحانه ليس بقرب مكانٍ، حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة، وقد تعالى عن المكان علوّاً كبيراً، ولهذا حكى غيرُ واحدٍ الإجماعَ على أنَّ المراد بهذه الآية معيَّةُ علمه تعالى.

وقرئ: **(ولا أكثرُ)** بالرفع عطفاً على محل **(من نجوى)**، أو محل **(لا أدنى)** إن جعلت **(لا)** لنفي الجنس.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ فيجازيهم عليه.

وكما افتتح سبحانه الآية بالعلم ختمها بالعلم أيضاً فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وكان بين النبي ﷺ وبين اليهودِ موادعةٌ، وكانوا إذا مرَّ بهم الرجلُ من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظنَّ المؤمنُ أنهم يتناجون بقتله، أو بما يكره، فإذا رأى ذلك خشيَهُم، فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبيُّ ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا، وأصروا عليها فأنزل الله تعالى:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٩٠.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، والهمزةُ للتعجيبِ من حالهم، ودلَّت صيغةُ المضارع على تكرر عودهم إلى النجوى، وإصرارهم عليها.

﴿وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: ويتناجون بما هو إثمٌ في نفسه، ووبال عليهم، وعدوان على المؤمنين، وتواصٍ بمخالفة الرسول ﷺ، ولا شكَّ أنَّ مخالفته أمرٌ قبيحٌ وعظيمٌ. وقرئ: **(وينْتَجون)** مضارع انتجى.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وفي الحديث: أن **عائشة** رضي الله عنها قالتْ: دخلَ رهطٌ من اليهودِ على رسولِ الله ﷺ فقالوا: السامُ عليكم، ففهِمْتُها فقلتُ: عليكُمُ السامُ واللعنةُ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مهلاً يا عائشةُ، فإنَّ اللهَ يحبُّ الرفقَ في الأمرِ كُلِّه**» فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أو لم تسمعْ ما قالوا؟! قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**فقد قلت: وعليكُم**» [رواه البخاري (٦٢٥٦)].

والسام: يعنون به الموتَ بغير همزٍ، وفي رواية مهموزاً ومعناه: تسأمون دينكم.

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: ويقولون في ما بينهم: هلَّا يعذبنا الله بسبب ذلك لو كان محمَّدٌ نبيّاً، لأنه يعلم ما نسرُّه!.

وجهلوا أنه تعالى حليمٌ، لا يعاجِلُ مَنْ سبَّه، فكيف من سبَّ نبيه، ولا شك أنَّ كَشْفَ سرائرهم، وفَضْحَ بواطنهم في هذه الآية معجزةٌ لرسول الله ﷺ.

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: يكفيهم عذاب جهنم يقاسون حرها، فبئس هذا المصير.

ثم قال تعالى يؤدب عباده المؤمنين ويحذرهم من التشبه باليهود والمنافقين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: إذا تناجيتم في أنديتكم وفي خلواتكم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول كما يفعل الكفار المنافقون. وقرئ: **(فلا تنتجوا)** و**(فلا تناجوا)**.

﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ أي: وتناجوا بما يتضمن خير المؤمنين، والاتقاء عن معصية الرسول ﷺ.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فيخبرُكم بجميع أعمالكم وأقوالكم.

وفي الحديث: أنَّ رجلاً سأل **ابنَ عمر** رضي الله عنه: كيف سمعتَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ في النجوى؟ قال: «**يدنو أحدُكُم من ربِّه، حتى يضعَ كنفه عليه، فيقولُ: عملتَ كذا وكذا، فيقول: نعم، ويقول: عملتَ كذا وكذا، فيقول: نعم، فيقرِّرُهُ ثم يقول: إنِّي سترتُ عليكَ في الدنيا فأنا أغفرُها لكَ اليومَ**» [رواه البخاري (٦٠٧٠)].

ثم كشفت الآيات مصدر النجوى المحرمة:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: إنما النجوى بالإثم والعدوان من الشيطان، لا من غيره، فإنه المريدُ لها، والحاملُ عليها.

﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: إنما يفعل ذلك ليحزنَ المؤمنون، وليس بضارِّهم شيئاً إلا بعلمه تعالى وقدرته أو بمشيئته.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فلا يكترث المؤمنون بتناجي اليهود والمنافقين، وليتوكلوا على الله ﷻ، ويستعيذوا به من الشيطان.

فالآيةُ مواساةٌ من الله تعالى للمؤمنين لإزالةِ حزنهم.

والجديرُ بالذكر: أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام نهى عن التناجي إذا كان يؤذي المؤمنين؛ ففي الحديث عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**إذا كنتمُ ثلاثةً فلا يتناجى رجلانِ دونَ الآخرِ، حتَّى تختلطوا بالناسِ، مِنْ أجْلِ أنَّ ذلك يُحْزِنُهُ**» [رواه البخاري (٦٢٩٠)].

ومثل التناجي في ذلك الحكم أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث إن كان يحزنه ذلك.

* * *

من آداب المجلس

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ولما نهى سبحانه عن المناجاة المحرمة بيَّن لهم آداب الجلوس مع الآخرين، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ أي: توسَّعوا في المجالس، وليفسح بعضكم لبعض، فإن الله يفسحُ لكم فيما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والقبر وغير ذلك.

وفي قراءة: (**المَجْلِس**) والمراد مجلس رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا

يتضامُّون فيه تنافساً على القرب منه، وحرصاً على استماع كلامه، ولا شك أنَّ الآية عامة في كل مجلسٍ من مجالس الخير، فإنَّ كلَّ واحد أحق بمجلسه الذي سبق إليه، وعليه أن يوسِّعَ لأخيه ما لم يتأذَّ بذلك، فيخرجه الضيق عن مجلسه.

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عمر** رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: **أنه نهى أن يُقَامَ الرَّجُلُ مِنْ مجلسِهِ، ويجلسَ فيه آخرُ، ولكنْ تفسَّحُوا وتوسَّعُوا. وكان ابنُ عمرَ يكرهُ أن يقومَ الرجلُ مِنْ مجلسِه، ثم يُجْلِسَ مكانه.** [رواه البخاري (٦٢٧٠)].

والحكمة من هذا النهي منع انتقاص حَقِّ المسلم المقتضي للضغائن، والحَثُّ على التواضع المقتضي للمودة، وأيضاً فالناسُ في المباحِ كلُّهم سواءٌ، فمن سبقَ إلى شيءٍ استحقَّه، ومن استحقَّ شيئاً فأخذ منه بغير حق فهو غصبٌ، والغصبُ حرامٌ(١).

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ أي: وإذا قيل: انهضوا للتوسعة على القادمين، فانهضوا ولا تتثاقلوا.

أو: إذا دُعِيْتُم إلى القيام عن مجلس النبي ﷺ فقوموا، وهذا لأنَّه عليه الصلاة والسلام قد يؤثرُ أحياناً الانفراد لأداءِ وظائفَ تخصُّه.

وعمم الحكم فقيل: إذا قال صاحبُ المجلس لمن في مجلسه: قوموا؛ ينبغي أن يُجابَ. وقرئ: (**انشِزوا، فانشِزوا**) بكسر الشين.

﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ أي: إن تنشزوا يرفع الله المؤمنين منكم في الآخرة لطاعتهم لله ورسوله ﷺ، وامتثال أوامره في قيامهم من مجالسهم، وتوسعتهم لإخوانهم، ويرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين بفضل علمهم درجات على من سواهم.

وفي **الدرجات** قولان:

أحدهما: في الدنيا في المرتبة والشرف.

والآخر: في الآخرة.

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٦٣.

ويمكنُ أن يكونَ المرادُ الرفعة في الدنيا والآخرة، فالله سبحانه يرفعُ المؤمنَ بإيمانه أولاً، ثم بعلمه ثانياً.

وفي الحديث: **عن أبي الدرداء** رضي الله عنه قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**مَنْ سلكَ طريقاً يلتمِسُ فيه عِلْماً سَهَّلَ الله له طريقاً إلى الجنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَها لطالبِ العِلْم رضاً بما يصنعُ، وإنَّ العالِمَ ليستغفرُ له مَنْ في السماواتِ ومَنْ في الأرضِ حتَّى الحيتانُ في الماءِ، وفضلُ العالِم على العابدِ كفضلِ القمرِ على سائر الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلمَ، فمَنْ أخذَهُ أخذَ بحظٍّ وافرٍ**» [رواه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) وابن حبان (٨٨)].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وهو تهديدٌ لمن لم يمتثل لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام. وقرئ: **(يعملون)** بالياء.

ثم حثَّتهم الآيات على تعظيم الرسول ﷺ وطاعته، وزجرتهم عن الإفراط في توجيه الأسئلة إليه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ أي: إذا أراد أحدُكم أن يناجيَ رسولَ اللهِ ﷺ ويحدِّثه سرّاً، فعليه أن يقدِّمَ بين يدي ذلك صدقة تطهِّره وتزكيه، وتؤهله لمناجاة الرسول ﷺ.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ أي: تقديم الصدقة خيرٌ لكم في دينكم، وأطهرُ لقلوبكم ونفوسكم، فهي طُهْرَةٌ لكم، كما قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي: إلا مَنْ عَجزَ عن ذلك لفقره، فلا يكلَّف بها إلا مَنْ قدر عليها، وفي هذا الأمر تعظيمُ الرسولِ عليه الصلاة والسلام،

ونفعُ الفقراء، وزجرٌ عن الإفراط في السؤال، وتمييز بين المخلص والمنافق، ومحب الآخرة ومحبِ الدنيا، ثم رفع تعالى عنهم هذا التكليف بقوله:

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم؟! فإذ لم تفعلوا ما أمرتم به، ورخص لكم في المناجاة من غير تقديم صدقة، فأقيموا الصلاةَ، وآتوا الزكاة، وأطيعوا الله ورسوله ﷺ، فإنَّ القيامَ بذلك يَجْبُرُ ما وقعَ من التفريط، والله خبيرٌ بما تعملون ظاهراً وباطناً.

وأشعرتِ الآيةُ بأن إشفاقهم من استمرار الحكم عليهم ذنب تجاوز الله عنه.

* * *

حزب الشيطان

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وبعد أن بينت الآيات كمال علمه تعالى، وأنه يسمعُ الشكوى، ويعلم النجوى، عجبت من حال المنافقين، الذين كانوا يوالون اليهودَ ويناصحونهم، ويطلعونهم على أسرار المؤمنين:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي: ألم تر إلى الذين والوا قوماً غضب الله عليهم، وهم اليهود.

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: هم منافقون مذبذبون، لا هم من المؤمنين ولا من اليهود.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهؤلاء المنافقون يحلِفُون على الكذب، وهم عالمون بأنَّهم يكذبون، وهي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في نار جهنم.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أعد الله لهم عذاباً شديداً يوم القيامة، إنهم في ما مضى من الزمان قد أدمنوا سوءَ العمل، وأصرُّوا عليه.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾.

أي: جعلوا أيمانهم الكاذبة دون أموالهم وأنفسهم، فصدوا الناس عن سبيل الله، وظنَّ الذين لا يعرفون حقيقتهم صدقَهم، ولهم عذابٌ فيه خزي وإذلال لهم، لأنَّهم امتهنوا اسمَ اللهِ العظيم في أيمانهم الكاذبة.

وفي قراءة: **(إيمانهم)** بكسر الهمزة، أي: إيمانهم الذي أظهروه.

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لن تدفع عنهم أموالهم وأولادهم شيئاً من عذاب الله عندما ينزل بهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها أبداً.

لقد أدمنوا الأيمانَ الكاذبةَ، حتى إنَّهم يحلفون لله تعالى يوم القيامة كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ﴾ أي: ويحسبون أنهم يخدعون الله بحلفهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: المبالغون في الكذب حتى تجاسروا على الكذب أمام الله علام الغيوب، فما أجهلهم!.

ثم بينت الآيات سبب شدة جهلهم بالله تعالى:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: استولى عليهم الشيطانُ وملكهم، بحيث غفلوا عن الله، فلم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم، وذلك بما زين لهم من الشهوات.

يقال: حاذَ الإبل يحوذُها، ساقها سوقاً عنيفاً، وفي الوزن: استفعل من المبالغة ما ليس في حاذ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ أي: جنوده وأتباعه.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الخسران الذي لا غاية وراءه.

* * *

حزب الله تعالى

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وكيف لا تكون خسارتهم جسيمة وهم يعادون الله ورسوله؟!:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: أولئك معدودون في جملةِ مَنْ هو أذلُّ خلق الله تعالى من الأولين والآخرين.

ومن المعلوم أنَّ ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزَّة الآخر، وعزة الله غيرُ متناهيةٍ، فذلةُ من حادَّه كذلك.

وهو قدر كتبه الله تبارك تعالى وتعلق به منذ الأزل:

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي: كتب الله في لوح القدر، أو قضى الله ذلك قضاءً ثابتاً، فمن كُلِّف من الرسل بالحرب فهو غالب بالحرب، ومن لم يُؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة. وقرئ: (ورسليَ) بفتح الياء.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: إنَّ الله قويٌّ على نصر رسله وأوليائه، غالب على أعدائه.

ثم بينت الآيات موالاة المؤمنين لله تعالى في مقابل موالاة المنافقين لليهود، فالإيمان والكفر لا يجتمعان في قلب واحد:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: لن تجدَ قوماً مؤمنين يوالون الكافرين، فمثل ذلك ممتنع، ولا يوجد بحال من الأحوال، فمن أحبَّ الله ورسوله ﷺ امتنعَ أن يحبَّ عدوَّ الله ورسوله.

فإن قلتَ: قد أجمعتِ الأمةُ على أنه تجوزُ مخالطتهم ومعاملتهم ومعاشرتهم، فما هذه المودة المحظورة؟.

قلتُ: المودةُ المحظورةُ هي مناصحتهم، وإرادة الخير لهم ديناً ودنيا على كفرهم، فأمَّا ما سوى ذلك فلا حظر فيه[1].

﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: ولو كان من حادَّ الله ورسوله أقربَ الناس إليهم، وأمسَّ رحماً، فليس المراد بمن ذُكر خصوصهم، وإنَّما المراد الأقارب مطلقاً، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أثبته الله تعالى فيها، وزينه فيها أيضاً، فهي مؤمنة موقنة مخلصة، والقلوبُ محلُّ الإيمان وموضعه، كما قال

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٢١٢.

تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وفي قراءة: (كُتب) بالبناء للمفعول.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: من عنده ﷻ، والمراد **بالروح**: نور يقذفه تعالى في قلب مَنْ يشاءُ من عباده تحصل به الطمأنينة، أو قوَّاهم بنصر منه، أو بروح من الإيمان، فإنَّه سببٌ لحياة القلب، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

هذا فضله تعالى في الدنيا، وأما فضله عليهم في الآخرة:

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ أي: أحلَّ عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم بعده أبداً، ورضوا عنه، فابتهجوا بما أنعم تعالى عليهم في الجنة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ﴾ وهو تشريفٌ عظيم لهم ببيان اختصاصهم به تعالى، ذكره في مقابل قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ [المجادلة: ١٩].

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم المختصون بالفلاح في الدنيا والآخرة، أسأله سبحانه أن يجعلنا منهم.

وذكروا في سبب نزول هذه الآية عدداً من الأقوال:

فقد أخرج **ابن المنذر**: عن ابن جريج: أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه صكَّ أباه قبل أن يسلم، لأنه سبَّ رسولَ الله ﷺ.

وأخرج **ابنُ أبي حاتم والطبراني وأبو نُعيم في «الحلية» والبيهقي في «سننه»**: عن عبد الله بن شوذب: أنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح قال: جعل والدُ أبي عبيدة يتصدَّى له يومَ بدرٍ، وجعل أبو عبيدة يحيدُ عنه، فلمَّا أكثرَ قصدَهُ

أبو عبيدة فقتله، قال الواقدي: كذلك يقول أهل الشام، وقد سألتُ رجلاً مِنْ بني فهرٍ، فقالوا: توفِّي أبوه قبلَ الإسلام في الجاهلية[1].

قال ابن حجر: «قُتِلَ أبوه كافراً يوم بدر، ويقال: إنَّه هو الذي قتله، ورواه الطبراني وغيره من طريق عبد الله بن شوذب مرسلاً»[2].

وقيل غير ذلك. والظاهر أنَّها متصلة في المنافقين الموالين لليهود، فحكمها عام، وإن نزلت في أناس مخصوصين، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) روح المعاني: ٢٨/ ٣٧.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٩٣.



تفسير سورة الحشر

أَحْدَاثٌ وعِبَر في سُورَةِ الحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحشر الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)﴾

بدأ الله تعالى سورة الحشر كما بدأ **سورة الحديد** فقال:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾.

وكرر الاسم الموصول (ما) هنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كلٍّ من الفريقين في التسبيح.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ وهم بنو النضير؛ ففي «**صحيح البخاري**» [٤٠٢٩]: عن سعيد بن جُبير قال: قلتُ لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل سورة بني النضير.

وبوَّب البخاري في «صحيحه» في المغازي فقال:

[١٤] باب حديث بني النضير، ومَخْرجُ رسول الله ﷺ في دية الرجلين، وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ. قال الزهري عن عروة: كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أُحد، وقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ﴾ وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونة وأُحد.

وحديث عروةَ وصَلَه عبد الرزاق في «مصنفه» عن الزهري عن عروة: ثم كانت غزوةُ بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من غزوة بدر، وكانت منازلُهم ونخلُهم في ناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتَّى نزلوا على الجلاء، وعلى أنَّ لهم ما أقلَّتِ الإبلُ من الأمتعة والأموال إلا الحَلَقة، يعني: السلاح[(١)].

﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ﴾ أي: في أول حشرهم إلى بلاد الشام، فاللام للتوقيت كالتي في قولهم: كتبت لعشرٍ خلَونَ. ونبه بالأولية على أنَّهم أول محشورين من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى بلاد الشام، فهذا أول حشرهم، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله عنه إياهم.

أو: أول حشرهم أنهم أُخرجوا إلى خيبر، وآخره إخراجهم من خيبر.

ولعلَّ في الآية إشارة إلى حشرهم واجتماعهم في أرض فلسطين في العصر

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٣٢٩.

الحاضر وقتال المسلمين لهم كما في الحديث الشريف: عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتَّى تقاتلوا اليهودَ، حتَّى يقولَ الحجرُ وراءه اليهوديُّ: يا مسلمُ هذا يهوديٌّ ورائي فاقْتُلْهُ**» [رواه البخاري (٢٩٢٦)].

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ أي: ما ظننتم أيها المسلمون أن يخرجوا لشدة بأسهم وقوة حصونهم.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: وظنَّ اليهودُ أن حصونهم تمنعُهم من بأس الله.

وفي الآيةِ إشارةٌ إلى تفاوت الظنَّين، فظنُّ اليهودِ قاربَ اليقين، ودلَّتِ الآيةُ على فرط وثوقهم بما هم فيه، وذلك بتقديم الخبر على المبتدأ في ﴿مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾؛ فأفاد التقديمُ الحصرَ والاختصاص، فكأنه لا حصنَ آمنُ من حصونهم، وأكد هذا المعنى ضمير (هم) فالقومُ كانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة.

﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: أتاهم أمرُهُ تعالى من داخلِ أنفسهم لا من داخلِ حصونهم، فقذف في قلوبهم الرعبَ، فكانت النتيجة:

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لما صالحهم على أنَّ لهم ما أقلَّتِ الإبلُ، كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها، وينزعون ما استحسنوه منها، ضنّاً بها على المسلمين وبُغضاً، وكان المسلمون في أثناء حصارهم يخرِّبون ما يواجههم منها. وقرئ: (**يخرِّبون**) بالتشديد.

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: فاتعظوا يا أصحابَ العقولِ والبصائر، خذوا العبرَ والمواعظ من هذه الأحداث، واحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم فتُعاقبوا بمثل عقوبتهم. ودلَّت الآية على جواز القياس.

﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: ولولا أنه تعالى قدَّر

عليهم الخروج من البيوت والحصون لعذَّبهم في الدنيا بقتلهم وسبيهم، كما فعل بغيرهم، ولعلَّ في ذلك إشارة إلى ما حدث لبني قريظة بعدهم.

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ فالعذاب لازم لهم، فإن نجوا منه في الدنيا لم ينجوا منه في الآخرة. والسبب:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: عادوا الله ورسوله بمخالفة أمره تعالى وأمر رسوله ﷺ.

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ولكلِّ من يشاقِّ الله كائناً مَنْ كان عقاب شديد.

ولا يخفى ما في الآيةِ من تعظيم لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام فمخالفته مخالفةٌ لله تعالى.

واضطر المسلمون في أثناء الحصار إلى قطع بعض نخلهم، فأنزل تعالى في ذلك قوله الكريم:

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: أيُّ شيءٍ قطعتم من نخلةٍ أو تركتموها على حالها من غير أن تتعرَّضوا لها بشيء فقطعُها وتركُها بأمر الله تعالى ومشيئته. **واللينة**: النخلةُ الكريمةُ.

﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: ولأجل أن يذلَّهم ويغيظهم أذن في قطعها، فهي تدل على جواز هدم ديار الكفار، وقطع أشجارهم إذا كان للمسلمين مصلحةٌ في ذلك.

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: حَرَّقَ رسولُ اللهِ ﷺ نخلَ بني النضيرِ وقطعَ، وهي البويرةُ، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. [رواه البخاري (٤٠٣١)].

* * *

أموال بني النضير

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾.

وبعد أن بينت الآياتُ ما حلَّ بديارهم ومزارعهم من التخريب والقطع بينت ما حل بأموالهم:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ أي: وما ردَّ الله على رسوله ﷺ من يهود بني النضير فما أجريتم على تحصيله خيلاً ولا ركاباً، ولا نالكم مشقةٌ في تحصيله، فقد كانوا على ميلين من المدينة، فمشوا إليهم مشياً، ولم يركب رسولُ اللهِ ﷺ فإنه ما ركب حماراً أو جملاً، فما حصَّلوا هذه الأموال بكدِّ يمينٍ، وعرق جبينٍ.

وأشارت الآيةُ إلى أنّ الأموال التي تكون في أيدي الكفار لا حقَّ لهم فيها، فالله تعالى ما خلق الخلقَ إلا لطاعته وعبادته، وخلق لهم المال ليتوصلوا به إلى طاعته، فهو جديرٌ بأن يكون للمطيعين من عباده.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: وسننه تعالى جارية أن يسلِّط رسله على من يشاء من أعدائهم، ولهذا سلَّط الرسول عليه الصلاة والسلام على بني النضير.

﴿يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ يفعل ما يشاء كما يشاء.

فأموالُ بني النضير خاصةٌ لرسول الله ﷺ يضعها حيث يشاء، وأمرها

مفوَّضٌ إليه، فقسمها عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين، ولم يعطِ الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم: أبو دجانة سِماكُ بنُ خَرَشة، وسَهْلُ بنُ حنيف، والحارثُ بن الصِّمَّةِ.

ثم بيَّن تعالى حكم ما أفاء على رسوله ﷺ من أموال الكفار على العموم بعد بيان حكم ما أفاء عليه من أموال بني النضير، ولذا بيَّنه دون عطف على ما تقدم فقال:

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وذكره تعالى في افتتاح الكلام للتيمُّن والتبرُّك، فإنَّ لله تعالى ما في السماوات والأرض، وفيه تعظيم لشأن الرسول ﷺ، وقيل: سهمُ اللهِ ثابتٌ، يصرَفُ إلى بناء الكعبة المشرفة والمساجد، وكان سهمُ الرسول ﷺ له في حياته بالإجماع، وهو خُمس الخُمس، وكان ينفقُ منه على نفسه وعياله، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين، وسقط بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، والمرادُ بذي القربى: قرابته؛ وهم بنو هاشم وبنو المطلب، والباقي سهمٌ لليتامى الفقراء، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل.

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ وقرئ: (**دُولةٌ**) بالرفع على أنَّ (**كانَ**) تامةٌ، أي: كي لا يقع دولة، وقرئ بفتح الدال، **والدُّولة**: اسم الشيء الذي يتداوله القوم بينهم، والمراد: حتى لا يكون الفيءُ الذي حقه أن يُعطى الفقراء ليستعينوا به في معاشهم، يتداوله الأغنياء بينهم ويتكاثرون به كما كان أهل الجاهلية، كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ الرئيسُ ربعها لنفسه، وهو المِرْباع، ثم يصطفي بعدُ ما يشاء، فجعله الله لرسوله عليه الصلاة والسلام يقسمه كما أمره تعالى، ولهذا قال:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ أي: وما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه هو حلال لكم.

﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ وما نهاكم عن أخذه أو عن إتيانه فانتهوا عنه.

والآية وإن كانت في أموال الفيء فهي عامةٌ في كل ما أمر به النبيُّ ﷺ أو نهى عنه، فيدخل فيها الفيء وغيره.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**دعوني ما تركتُكُمْ، فإنَّما أهلكَ مَنْ كان قبلكُم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتُكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتُكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتُم**» [رواه البخاري (٧٢٨٨)].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: واتقوا الله في مخالفة رسوله، إن الله شديد العقاب.

* * *

المستحقون للفيء

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

ثم بينت الآيات من له الحق في مال الفيء:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ سمَّاهم الله فقراء، مع أنَّه كانت لهم ديار وأموال؛ لأن المشركين في مكة استولوا عليها.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: خرجوا من ديارهم يطلبون الجنة ورضوان الله وينصرون الله ورسوله ﷺ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم وهجرتهم وجهادهم.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهم الأنصار الذين توطَّنوا المدينة، واتخذوها سكناً، وأخلصوا في الإيمان، وتمكنوا فيه قبل هجرة المهاجرين إليهم. أو: تبوَّؤوا دار الهجرة ودار الإيمان، فالمدينةُ المنورة هي دار الهجرة ودار الإيمان.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حتى إنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم، وأشركوهم في أموالهم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: ولا يجدون في صدورهم غيظاً وحسداً مما أعطى المهاجرون من فيء بني النضير دونهم، حيث خصَّ النبيُّ ﷺ المهاجرين به، ولم يعطِ الأنصار شيئاً إلا ثلاثة كما ذكرنا، فطابت أنفسُ الأنصارِ بذلك مما يدل على شرف أنفسِهم وكرمِهم.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: ويؤثر الأنصارُ المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم، ولو بهم فاقةٌ وحاجةٌ إلى ما يؤثِرون به.

والإيثار: هو تقديمُ الغيرِ على النفسِ وحظوظِها الدنيوية رغبةً في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة[١].

وفي الحديث: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ رسولَ اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ أصابني الجهدُ. فأرسلَ إلى نسائِهِ فلم يجدْ عندهنَّ شيئاً، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ألا رجلٌ يضيفُهُ الليلةَ يرحمه اللهُ؟**».

فقام رجلٌ مِنَ الأنصارِ فقال: أنا يا رسولَ اللهِ، فذهبَ إلى أهلِهِ فقال لامرأتِهِ: ضيفُ رسولِ اللهِ ﷺ لا تدَّخريه شيئاً، فقالت: واللهِ ما عندي إلا قوتُ الصبيةِ، قال: فإذا أرادَ الصبيةُ العَشَاء فنوِّميهم، وتعالي فأطفئي السراجَ، ونطوي بطوننا الليلةَ، ففعلتْ. ثم غدا الرجلُ على رسولِ اللهِ ﷺ فقال: «**لقد عَجِبَ اللهُ** ﷻ **- أو ضحِكَ - من فلانٍ وفلانةٍ**» فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. [رواه البخاري (٤٨٨٩)].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالفلاح.

والشحُّ: البخلُ مع الحرص. وفرَّق بعضُ العلماء بين البخل والشح فقال: البخل نفسُ المنع، والشحُّ هو الحالة النفسية التي تقتضي ذلك المنعَ، فهو من صفاتِ النفس، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾.

وقال ابن عمر: ليس الشحُّ أن يمنعَ الرجلُ ما له، إنَّما الشحُّ أن تطمعَ عينُ الرجلِ في ما ليسَ له.

فهو الحرصُ الشديدُ الذي يحمل صاحبه على ارتكاب المحارم، كما ورد في الحديث الشريف: عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلمَ، فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ، واتقوا الشُّحَّ، فإن الشحَّ أهلكَ مَنْ كانَ قبلكم، حملَهم على أنْ سَفَكُوا دماءَهم، واستحلُّوا محارِمَهم**» [رواه مسلم (٢٥٧٨)].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/٢٦.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: بعد المهاجرين والأنصار، وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ يدعون لأنفسهم بالمغفرة وللمهاجرين والأنصار الذين سبقوهم بالإيمان، فالآيةُ تمدحُهم لمحبةِ الصحابة ومراعاتهم لحقوقِ السبق بالإيمان والأخوة في الإسلام.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ولا تجعل في قلوبنا حقداً وحسداً للذين آمنوا.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في الرأفة والرحمة، فحقيق أن تجيبَ دعاءنا.

وقد استوعبت هذه الآيةُ جميع المؤمنين، ومدحتهم لمراعاتهم حقوق الأخوة في الدين، والسبق في الإيمان، وما أحسنَ ما استنبطه الإمامُ مالكٌ رحمه الله من هذه الآية أنَّ الرافضيَّ الذي يسبُّ الصحابةَ ليس له في مال الفيء نصيبٌ لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء، وهذه الآيةُ تدل على أنَّ الصحيحَ من أقوال العلماء قسمة المنقول وإبقاء العقار والأرض شملاً بين المسلمين أجمعين، كما فعل عمر رضي الله عنه[١].

* * *

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ٣٢.

كذب وخذلان

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

وبعد أن بينت الآياتُ أحوالَ المؤمنين وأقوالهم الحسنة على اختلاف طبقاتهم، عقَّبت عليه ببيان أحوال الكفار والمنافقين الفاسدة لكي تكون عبرة لغيرهم:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم يهود بني النضير.

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: لئن أُجبرتم على الخروج والجلاء لنخرجنَّ معكم، ولا نطيعُ أحداً يمنعنا من الخروج معكم أبداً.

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي: لننصرنكم على عدوكم.

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في مواعيدهم المؤكدة بالأيمان الفاجرة.

وبعد أن كذَّبهم الله تعالى جملة بيَّنَ كذبَ أقوالهم على التفصيل:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمرُ كذلك، فابنُ أبيٍّ وأصحابه أرسلوا إلى بني النضير يُعْلِمُونهم بذلك سرّاً، ثم أخلفوهم، وخذلوهم، ففي الآية دليلٌ على أنَّ القرآنَ الكريمَ هو كلام الله علّام الغيوب.

ثم أضافت الآيات تبشر المؤمنين:

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: ولئن نصروهم على الفرضِ والتقدير ليولُّنَّ الأدبار فراراً، ثم لا يُنصر المنافقون بعد ذلك، ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم، أو ليهزمنَّ اليهود ولا ينفعهم نصرُ المنافقين، وهي بشارة للمؤمنين مستقلة بنفسها.

ثم وصفت الآيات شدة جبنهم وخوفهم من المؤمنين:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ فهم يرهبونكم ويخافون منكم أشد من رهبتهم من الله تعالى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ﴾ أي: لا يقاتلكم اليهودُ والمنافقون مجتمعين إلا في قرًى محصنةٍ، أو من وراء جُدُرٍ، تكون بينكم وبينهم، فلا يبرزون لقتالكم. وفي قراءة: (جدار).

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ﴾ أي: بأسهم من وراء الحيطان والحصون شديدٌ،

فإذا خرجوا إليكم فهم أجبنُ الناسِ. أو عداوتهم فيما بينهم شديدة.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي: تحسبهم مجتمعين متفقين وقلوبهم متفرقة، لا ألفة بينهم، لاختلاف مقاصدهم وأهوائهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أن تشتت الأهواء يضعف قواهم، ويذهب ريحهم.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

أي: مثلهم كمثل يهود بني قينقاع الذين أجلاهم رسول الله ﷺ قبل يهود بني النضير، وكانوا أول يهود نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أي: مثلهم أيضاً كمثل الشيطان إذ أغرى الإنسانَ على الكفر إغراءَ الآمرِ للمأمور.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلما كفر تبرَّأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب، لكن ذلك لن ينفعه.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

والخلود في النار جزاء الظالمين. وفي قراءة: **(خالدان فيها)** على أنه خبر (أن).

وهذا مثلٌ ضربه الله ليهود بني النضير والمنافقين، فبعد أن وعد المنافقون اليهودَ بتأييدهم ونصرهم خذلوهم، وتبرَّؤوا منهم كما تبرأ الشيطان من الإنسان، الذي أغراه، وزيَّن له الكفر.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المراد بالشيطان إبليس، وبالإنسان أبو جهل قائلاً له الشيطان يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ

ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وأخرج أحمد في «الزهد» والبخاري في «تاريخه» والبيهقي في «الشُّعب» والحاكم وصحَّحه: عن علي كرم الله تعالى وجهه: أنَّ رجلاً كان يتعبَّدُ في صومعته، وأنَّ امرأةً كان لها إخوةٌ، فعرضَ لها شيءٌ فأتوه بها، فزيَّنتْ له نفسُه فوقعَ عليها، فحملتْ، فجاءه الشيطانُ، فقال: اقتُلْها، فإنَّهم إنْ ظهروا عليكَ افتضحتَ، فقتلَها ودفنَها، فجاؤوه ـ أي إخوة المرأة ـ، فأخذوه فذهبوا به، فبينما هو يمشي إذ جاءه الشيطانُ، فقال: أنا الذي زيَّنتُ لكَ فاسجدْ لي سجدةً أُنْجِكَ، فسجدَ له، ثم تبرَّأَ منه، وقال له ما قال، فذلك قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾(١).

* * *

التقوى والمحاسبة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

وعادت الآيات مرة ثانية تدعو المؤمنين إلى الاعتبار وأخذ الدروس والعبر

(١) روح المعاني: ٢٨/ ٥٩.

من هذه الأحداث، آمرة لهم بتقوى الله والنظر في أعمالهم ومحاسبة أنفسهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ أي: ولتنظر نفسٌ أيَّ شيءٍ قدَّمت من الأعمال ليوم القيامة، عبَّر عنه بغدٍ لدنوِّه، ونكَّره تفخيماً له وتهويلاً، وأفاد تنكيرُ (نفس) عمومَ كل نفس، واستقلالها بالمسؤولية.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: إنَّ الله خبير بما تعملون من المعاصي والآثام، والأمر بالتقوى تأكيدٌ للأمر الأول، وقد يكونُ الأمرُ الأول لفعل الواجبات، والثاني المشفوع بالوعيد والتهديد لترك المحرمات.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي: ولا تكونوا كالذين غفلوا عن الله، ولم يؤدوا حقوقه عليهم، فأنساهم العملَ الذي يصلح أنفسهم، أو أنساهم العمل لخير أنفسهم، فإنَّ الجزاء من جنس العمل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ العريقون في الفسق الموغلون فيه.

ثم بيَّن تعالى عدم تساوي الفريقين بالمصير والأحوال الأخروية:

﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾

بالنعيم والرضوان، وهذا الفوزُ ينفي التساوي، ويؤكد عدم وقوعه.

ثم وبَّختِ الآياتُ بأسلوب غير مباشر الذين لا ينتفعون بمواعظ القرآن الكريم، ولا يأخذون من قصصه العبر والمواعظ والدروس:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: من شأن القرآنِ وعظمته أنَّه لو جُعِلَ في الجبل كما جُعل في الإنسان، وأُنزل عليه القرآن لخشع وتشقق من خشية الله تعالى.

فما أقبحَ حال المعرضين عن تعظيم القرآن، المتهاونين بحقوق الله عليهم، الذين لا ينتفعون بمواعظ القرآن وحكمه وأحكامه، ولا يعتبرون بما فيها من عِبَر ومواعظ! فهو تقبيحٌ لحال المعرضين عن القرآن الكريم بأسلوب التمثيل، ولهذا قال بعده:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بما فيها من مواعظ وعبر ودروس. ولا شك أن عظمة القرآن من عظمة مَنْ أنزله وهو الله ﷻ:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

أي: عالمٌ بما غاب عن الحسِّ، وما حضر فهو مرئي بالأبصار.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي: المنزه عن كل نقص والطاهر عن كل عيب.

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: ذو السلامة من النقائص، والمسَلِّم على عباده في الجنة.

أو: المسلِّم لعباده.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدِّق لرسله بإظهار معجزاته على أيديهم، ومصدِّق المؤمنين بما وعدهم من ثواب، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من عقاب.

أو: الذي وحَّد نفسَه بقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].

أو: الواهب عباده الأمن يوم الفزع الأكبر. أو: ذو الأمن من الزوال.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي: الرقيب الحافظ لكل شيء.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب. أو الذي لا مثل له.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ أي: الذي جبر أحوال خلقه وأصلحها.

أو: المنيع الذي لا ينال ولا ينافس في فعله. أو: العظيم.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٤)﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ الموجد المخلوقات بريئة من التفاوت بحسب الحكمة.

أو: المميز بعضها عن بعض بالأشكال المختلفة.

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الدالة على محاسن الصفات والمعاني.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الجامع لجميع الكمالات.

ولهذه الآيات فضلٌ عظيمٌ كما دلت عليه عِدَّةُ روايات؛ فقد أخرج الإمام أحمد [٢٠١٨٤] وقال محقق المسند: إسناده حسن، والدارميُّ [٣٤٢٥] والترمذي [٢٩٢٢] والطبراني في الكبير [٢٠/٥٣٧] وابن الضريس، والبيهقي في «الشعب»: عن معقل بن يسار، عن النبيِّ ﷺ قال: **«مَنْ قالَ حينَ يُصْبِحُ ثلاثَ مرَّاتٍ: أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرجيم، ثم قرأ ثلاثَ آياتٍ مِنْ آخرِ سورةِ الحَشْرِ، وكَّلَ اللهُ به سبعينَ ألفَ ملكٍ يصلُّون عليه حتَّى يمسي، وإن ماتَ ذلك اليوم ماتَ شهيداً، ومَنْ قالها حِينَ يُمْسِي كان بتلك المنزلةِ»**.

وأخرج الديلميُّ: عن **علي وابن مسعود** رضي الله عنهما مرفوعاً إلى رسول اللهِ ﷺ: أنه قال في هذه الآيات: «**هي رقيةُ الصُّداعِ**»[١].

أسأل الله تعالى أن ينفعنا بهدي القرآن الكريم، وأن يجعل فيه شفاءً لقلوبنا وأبداننا.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: روح المعاني: ٢٨/ ٦٤.



تفسير سورة الممتحنة

البَرَاءَةُ والبَيْعَةُ فِي سُورَةِ المُمْتَحِنَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تحريم موالاة الكافرين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

بدأ الله تعالى سورة الممتحنة بنهي المؤمنين عن موالاة الكافرين، فإنَّ ذلك من صفات المنافقين كما مرَّ معنا في السورة السابقة، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: توصلون

إليهم المودة، أو تلقون إليهم أخبار المؤمنين بسبب المودة التي بينكم وبينهم، فكأنه تعالى يقول لهم: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي.

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: وحالهم أنهم كفروا بما جاءكم من الحق، وهو الإسلام أو القرآن.

وسبب نزول هذه الآية: أنَّ النبي ﷺ لما أراد المسير إلى فتح مكة قال: «**اللهمَّ خُذِ العيونَ والأخبارَ عن قريشٍ حتى نبغتها في بلادِها**».

فأرسل إليهم **حاطبُ بن أبي بلتعة** كتاباً يخبرهم بذلك، فأطلعَ الله النبيَّ ﷺ عليه.

ففي الحديث الشريف: عن علي ﷺ قال: بعثني رسولُ اللهِ ﷺ أنا والزبيرُ والمقدادُ قال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخٍ، فإنَّ به ظعينةً معها كتابٌ فخذوه منها**».

فذهبنا تعادَى بنا خيلُنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحنُ بالظعينةِ، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجِنَّ الكتاب أو لنلقينَّ الثيابَ، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبيَّ ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناسٍ من المشركين ممَّن بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «**ما هذا يا حاطبُ؟!**».

قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، إني كنتُ امرأً من قريشٍ، ولم أكن من أنفسِهم، وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابةٌ يَحْمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببتُ إذ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون قرابتي، وما فعلتُ ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني.

فقال النبيُّ ﷺ: «**إنَّه قد صدقكم**».

فقال عمر: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه.

فقال: «**إنه شهدَ بدراً، وما يدريك لعلَّ الله ﷻ اطلعَ على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم**».

قال عمرو ـ أحد رجال السند ـ: ونزلت فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ . . .﴾. [رواه البخاري (٤٨٩٠)].

قوله: **كنت امرأً من قريش**: أي: بالحلف، فهو حليفهم، ولم يكن من أنفسهم، وعُذره أنه صنع ذلك متأولاً أنه لا ضرر فيه.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يخرجون الرسول وإياكم من مكة بسبب إيمانكم بالله.

وصيغة المضارع: **(يخرجون)** لاستحضار الحال الماضية.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ أي: فلا تتخذوهم أولياء والحال أنكم خرجتم لأجل الجهاد في سبيلي وطلب مرضاتي.

فهو تهييج لهم على ترك موالاة الكافرين، فالخطاب للمهاجرين خاصة، لأن القصة صدرت منهم، كما سبق في سبب النزول.

واستأنفت الآية مخاطبتهم على نهج العتاب والتوبيخ:

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي: تسرُّون إليهم بالمودَّة أو الإخبار بسبب المودة، والحال أني أعلم منكم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومُطْلِعٌ رسولي على ما تسرُّون، فلا فائدة في الإسرار.

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: ومن يفعل موالاتهم منكم فقد أخطأ طريق الحق والصواب.

ودلَّت الآية على أن من فعل ذلك لغرض دنيوي لا يكفر كما فعل حاطب حين قصدَ اتخاذ اليدِ، ولم ينوِ الردة عن الدين، واختلفوا في الجاسوس الذي يدلُّ الأعداء على أحوال المسلمين، فإن كانت تلك عادته قُتل، وهو صحيح لإضراره بالمسلمين، وسعيه بالفساد في الأرض[(١)].

ثم ذكرتهم الآيات بمواقف المشركين القبيحة تنفيراً للمؤمنين عن موالاتهم:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/٥٣.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

أي: إن يظفروا بكم يُظْهِروا عداوتهم لكم، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بما يسوءكم من القتلِ والشتم، وتمنَّوا أيضاً لو تكفرون.

ثم بيَّن تعالى أنَّ الأقارب والأولاد الذين يوالون المشركين من أجلهم لن ينفعوهم يوم القيامة:

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يفرق الله بينكم، فيفر كل واحد من الآخر كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

وفي قراءة: (**يُفْصَلُ**) مبنيّاً للمفعول، و(**يفصّل**) بالتشديد، و(**نَفْصِلُ**) بالنون.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم به.

* * *

البراءة

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

ثُمَّ حثتهم الآيات على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين ببراءتهم من قومهم الكافرين:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: قد كان لكم خصلة حميدة جديرة بأن يُؤتسى ويُقتدى بها في إبراهيم والذين آمنوا معه، عندما أعلنوا براءتهم من قومهم ومما يعبدون من دون الله.

وقرئ: (براء) على الوصف بالمصدر مبالغة.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: كفرنا بمعبودكم، أو كفرنا بكم وبه، فلا نبالي بكم وبآلهتكم.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ أي: وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء حتى تؤمنوا بالله وحده، وحينئذٍ تنقلب العداوة والبغضاء ألفةً ومحبة.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ﴾ أي: لكم أن تتأسوا بإبراهيم ببراءته من قومه إلا في استغفاره لأبيه، فلا تتأسَّوا به، فإن إبراهيم قد وعد أباه أن يستغفر له، وبيَّن له أنه لا يدفع عنه عذاب الله إن عصاه وأشرك به، ولهذا لما تبيَّنَ لإبراهيم أن أباه أقام على الكفر وأصر عليه تبرأ منه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة].

ثم ذكرت الآية تتمة قول إبراهيم والمؤمنين معه:

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: ربنا عليك توكلنا لا على غيرك، وإلى طاعتِكَ وأمرِكَ رجعنا، وإليك المصير والمرجع يوم القيامة.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: لا تسلِّطهم علينا، فيفتنونا ويعذبونا.

أو: لا تظهرهم علينا، فيفتنونا بذلك، ويرَون أنهم ظهروا علينا لأنهم على الحق.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: واغفر لنا ما أسلفنا، إنك أنت العزيز الذي لا يُغلب، ولا يضامُ مَنْ لجأ إليك، الحكيم في ما أمر وقدَّر.

وتكرير النداء: **(ربنا)** للمبالغة في الدعاء والتضرع.

وعادت الآياتُ مرةً ثانيةً تحثُّ المؤمنين على الائتساء بإبراهيم ومن معه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ فمن يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم، فإنَّ تركه من دلائل عدم الإيمان بهما.

وقرئ: **(إسوة)** بكسر الألف.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ وهو وعيد يوعد الكفار بمثله.

ولما رأى سبحانه منهم التصلب في الدين، والتشدد له، في معاداة آبائهم وأبنائهم وأقربائهم، أنزل عليهم تطييباً لقلوبهم:

﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ بهدايتهم إلى الإيمان، ودخولهم في الإسلام.

وأنجز سبحانه وعده الكريم عند فتح مكة، فأسلموا، وعادتِ المودة إليهم، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والله قدير يقدر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال، ويسهِّل أسبابَ المودةِ، والله يغفرُ لِمَنْ أسلم من الكفار ويرحمهم.

* * *

بر وعدل

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

ثم رخَّص سبحانه للمؤمنين في صلة أقاربهم الكفار الذين لم يعادوا المسلمين ولم يقاتلوهم، وفي برِّهم أيضاً، فقال:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ﴾ أي: وتعاملوهم بالعدل في ما بينكم وبينهم.

وفي الحديث الشريف: عن **أسماء بنت أبي بكر** رضي الله عنهما قالت: قدمتْ عليَّ أُمي وهي مشركةٌ في عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فاستفتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ قلتُ: إنَّ أُمي قدمتْ وهي راغبةٌ، أفأصِلُ أمي؟ قال: «**نعم صِلِي أمَّكِ**» [رواه البخاري (٢٦٢٠)].

وفي روايةٍ: قال ابن عُيينة ـ أحد رجال السند ـ: فأنزل الله فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ. . .﴾.

وقولها: (**راغبةٌ**) أي: في شيء تأخذه وهي على شركها، ولهذا استأذنت أسماءُ في أن تصلها، ولو كانت راغبة في الإسلام لم تَحْتَجْ إلى إذن.

وهذا يدل على سمو مبادئ الإسلام وإنسانيتها، حتى إنَّ ابن حجر نقل عن

الخطابي قوله: فيه أنَّ الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة، ويُستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلماً[١] بشرط أن يكونا من أهل الذمة لا من أهل الحرب.

قال الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيها دليل على جواز التصدق على أهل الذمة دون أهل الحرب، وعلى وجوب النفقة للأب الذمي دون الحربي لوجوب قتله»[٢].

والجدير بالذكر هنا أنَّ جواز التصدُّق مقيد بغير أموال الزكاة فلا تُصرف إلا للمسلمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين.

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ المقسطينَ عندَ اللهِ على منابرَ من نورٍ عن يمينِ الرحمنِ** ﷻ، **وكلتا يديه يمينٌ، الذين يعدِلونَ في حكمهم وأهليهم وما ولوا**» [رواه مسلم (١٨٢٧)].

وعَدَّ النبي ﷺ في الحديث الصحيح الإمامَ العادل من الأصناف السبعة الذين يظلُّهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. [انظر: الحديث الذي رواه مسلم (١٠٣١)].

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٩﴾.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ أي: أعانوا على إخراجكم.

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾ أي: إنما ينهاكم الله عن أن تتولوهم.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية موضع العداوة، أو هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب.

فموالاة الكافرين من كبائر الذنوب. ودلَّ استعمالُ أداة الحصر (**إنما**) على

---

(١) فتح الباري: ٥/ ٢٣٤.

(٢) روح المعاني: ٢٨/ ٧٥.

المبالغة في وعيد المخالفين؛ فهو كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ذكر بعض المفسرين أنَّ معنى الآية والتي قبلها منسوخٌ بآية السيف، لكنَّ ابن جرير قال: لا وجه لادِّعاء النسخ، واحتجَّ بحديث أسماء وأمها الذي سبق[١].

* * *

تحريم المؤمنات على الكفار

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

هكذا قسمتِ الآياتُ الكفَّار إلى قسمين، فالمحاربون للمسلمين الذين يمكرون بالإسلام والمسلمين سرّاً وعلناً، ويعادونهم، ويظاهرون عليهم أعداءهم، لا تجوزُ موالاتهم، ولا صلتهم، ولو كانوا أقرباء للمسلمين، أما الكفار غير المحاربين للمسلمين كأهل الذمة، فلا تجوز موالاتهم أيضاً، ولكنْ رخَّص الإسلامُ بصلتهم وبرهم، ولا شك أن المصاهرة والزواج من مظاهر الموالاة، ولهذا أضافت الآيات تبين حكم من يُسلم من نساء الكفار، وتقرر تحريمهن على الكفار:

---

(١) انظر: زاد المسير: ٨/ ٢٣٧.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: فاختبروهنَّ بما يغلبُ على ظنكم صدق إيمانهن.

ويبدو أن النبيَّ ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية وبما بعدها في آية بيعة النساء، ففي حديث صلح الحديبية: أنَّ رسول الله ﷺ لما كاتب سهيلَ بنَ عمرٍو يومئذٍ كان في ما اشترط سهيلُ بنُ عمرو على النبيِّ ﷺ ألا يأتيك منا أحدٌ وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا، وخلَّيتَ بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك، وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبيُّ ﷺ على ذلك، فردَّ يومئذٍ أبا جندلٍ إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأتِهِ أحدٌ من الرجال إلا ردَّه في تلك المدة وإن كان مسلماً.

وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أمُّ كلثوم بنتُ عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ ـ وهي عاتق ـ فجاء أهلها يسألون رسول الله ﷺ أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

قال عروة: فأخبرتني عائشةُ: أنَّ رسول الله ﷺ كان يمتحنهنَّ بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ...﴾ قالت عائشةُ: فمَنْ أقرَّ بهذه الشروط منهنَّ قال لها رسول الله ﷺ: «**قد بايعتُكَ**» كلاماً يكلِّمها به، والله ما مسَّتْ يدُهُ يدَ امرأةٍ قط في المبايعة، وما بايعهن إلا بقوله. [رواه البخاري (٢٧١٢ ـ ٢٧١٣)].

وفي رواية ثانية لكيفية هذه البيعة أخرجها ابنُ المنذر والطبراني في «الكبير» وجماعة بسند حسن عن ابن عباس: أنه قال في كيفية امتحانهن: كانتِ المرأة إذا جاءت النبيَّ ﷺ حلَّفها عمرُ رضي الله عنه بالله ما خرجت رغبةً بأرضٍ عن أرضٍ،

وباللهِ ما خرجت مِنْ بُغض زوجٍ، وباللهِ ما خرجت التماسَ دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبّاً لله ولرسوله[١].

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أي: هذا الامتحان لكم والله أعلم بإيمانهن، فهو المطّلع على ما في قلوبهن.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: فإن أقررن بالإيمان، وظهر لكم أمارات صدقهن، فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار، لأنَّ الله لم يُبِحْ مؤمنةً لكافر.

والجملة الأولى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ لبيان الفرقة الثابتة، وتحقق زوال النكاح الأول، والثانية: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لبيان ما يستأنف ويستقبل من النكاح، ويشعر بذلك التعبير بالاسم في الأولى والفعل في الثانية[٢].

قال ابن كثير في تفسير الآية: هذه الآيةُ هي التي حرَّمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوَّجَ المشركُ المؤمنةَ، ولهذا كان أمرُ أبي العاص بن الربيع زوج ابنة النبيِّ ﷺ زينب رضي الله عنها، وقد كانت مسلمة، وهو على دين قومه، فلمَّا وقعَ في الأسر يوم بدر بعثت امرأتُهُ زينبُ في فدائه بقلادةٍ لها كانت لأمها خديجة، فلمَّا رآها رسول اللهِ ﷺ رقَّ لها رقةً شديدةً، وقال للمسلمين: «**إنْ رأيتم أن تُطْلِقُوا لها أسيرها فافعلوا**» ففعلوا، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث إليه ابنته، فوفى له بذلك، وصدق في ما وعده، وبعثها إلى رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر سنة اثنتين، فأقامت في المدينةِ إلى أن أسلمَ زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردَّها إليه بالنكاح الأول، ولم يُحْدِثْ صداقاً.

وروي: أنه عليه الصلاة والسلام ردَّ ابنته على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد.

---

(١) روح المعاني: ٢٨/ ٧٦.

(٢) روح المعاني: ٢٨/ ٧٦.

والذي عليه الأكثرون أنه متى انقضتِ العدةُ ولم يسلِمْ انفسخَ نكاحُها منه، وقال آخرون: بل إذا انقضت العدة هي بالخيار إن شاءت أقامت على النكاح، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت.

لكن هذا القول الثاني يتعارض مع صريح قوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ ولعله في حال إسلام الزوج.

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ أي: وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور.

ثم أباح سبحانه للمؤمنين تزوج هؤلاء المهاجرات فقال:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، فما دفعتم لأزواجهنَّ لا يقوم مقام مهورهن، فالإسلام فرَّق بينهن وبين أزواجهن الكفار، فإن أسلم الزوج قبل انقضاء عدَّتها فهي زوجته، وبه قال الأوزاعي والليث بن سعد ومالك والشافعي وأحمد، وقال أبو حنيفة: تقع الفرقة باختلاف الدارين[1].

فأبو حنيفة لا يرى العدة على المهاجرة، ويبيح نكاحَها من غير عدة، إلا أن تكون حاملاً فحتى تضع حملها.

﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أي: ولا تُمسكوا بما يعتصم به الكافرات من عقد النكاح، فالآية تنهى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، والاستمرار معهن، والمراد المشركات عموماً الباقيات في دار الحرب وعابدات الأوثان، فلا يجوز ابتداء نكاحهن، فالآية خاصَّة بالكوافر من غير أهل الكتاب. وفي قراءة: (**ولا تمسِّكوا**) بالتشديد.

﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أي: واسألوا ما أنفقتم من مهور نسائكم اللاحقات بالكفار، وليسأل المشركون الذين لحقت أزواجهم بكم ما أنفقوا من مهور أزواجهم المهاجرات.

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذلكم المذكور حكم الله جعله بينكم حاكماً، والله عليم حكيم يشرع ما تقتضيه الحكمة.

---

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٢٤٥.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ۚ﴾ أي: إذا فرَّت إلى الكفار امرأةٌ، ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها مهرها، ويدفع إلى المسلم الذي فاته مهر زوجته.

فمعنى **(عاقبتم)** جاءت عقبتكم؛ أي: نوبتكم في أداء المهر، وقيل: أصبتم من الكفار عقبى، وهي الغنيمة، فآتوا بدل الفائت من الغنيمة.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان بالله يقتضي تقواه.

* * *

البيعة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

ثم بينت الآيات بيعة النساء التي كان النبي ﷺ يمتحنُ بها النساء المهاجرات:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ أي: مبايعات لك.

﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾ بوأد أو إسقاط حمل بعد ظهور التخلق.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: ولا تلحقُ المرأة بزوجها غيرَ ولده، وذلك أن تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ لأن الولد اللقيط يلتقط بيديها، وتدَّعي أنها ولدته، وسقط بين رجليها، وقيل: المراد بالبهتان السحر، أو المشي بالنميمة والسعي بالفساد.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ أي: في جميع ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه، ومنه النوح على الموتى.

ففي الحديث: عن **أم عطية** رضي الله عنها قالت: بايعنا رسولَ الله ﷺ فقرأ علينا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ونهانا عن النياحةِ، فقبضتِ امرأة يدهَا فقالت: أسعدتني فلانة فأريدُ أن أجزيها، فما قال لها النبيُّ ﷺ شيئاً، فانطلقت **ورجعت فبايعها**. [رواه البخاري (٤٨٩٢)].

والإسعاد: قيامُ المرأة مع الأخرى في النياحةِ، ولا يستعملُ إلا في البكاء والمساعدة عليه.

وفيه دليل على أنَّ الطاعة الواجبة لا تكون إلا في الأمر المشروع.

والجدير بالذكر هنا: أنَّ النبيَّ ﷺ بايع الرجال أيضاً على مثل بيعة النساء، فعن **عبادة بن الصامت** رضي الله عنه قال: كنا عند النبيِّ ﷺ فقال: «**أتبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا؟** ـ وقرأ آية بيعة النساء ـ **فمن وفَّى منكم فأجرُهُ على اللهِ، ومن أصابَ من ذلك شيئاً فعوقبَ فهو كفارةٌ له، ومن أصابَ منها شيئاً من ذلك فستره الله، فهو إلى الله، إن شاءَ عذَّبه، وإن شاءَ غفر له**» [رواه البخاري (٤٨٩٤)].

وكان رسول الله ﷺ يأتي النساءَ بعدَ صلاة العيد فيذكرهنَّ بأمر هذه البيعة، فعن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: شهدتُ الصلاةَ يوم الفطر مع رسولِ اللهِ ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فكلُّهم يصليها قبلَ الخطبةِ ثم يخطبُ بعدُ، فنزل نبيُّ الله ﷺ

فكأني أنظرُ إليه حينَ يجلسُ الرجال بيده، ثم أقبل يشقُّهم حتى أتى النساءَ مع بلالٍ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ...﴾ حتى فرغ من الآية كلها. [رواه البخاري (٤٨٩٥)].

ويبدو أنَّ المبايعة أيضاً حدثت أكثر من مرة، فقد أخرج الإمام أحمد [٢٦٨٨٥] والنسائي [١٥٢/٧] وابن ماجه [٢٨٧٤] والترمذي [١٥٩٧] وصححه: عن **أميمة بنت رقية** قالت: أتينا النبيَّ ﷺ لنبايعه، فأخذَ علينا ما في القرآنِ أنْ لا نشركَ بالله شيئاً حتى بلغَ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ فقال: «**في ما استطعتُنَّ وأطقتُنَّ**» قلنا: اللهُ ورسوله أرحمُ بنا مِنْ أنفسِنا، يا رسول الله ألا تصافِحُنا؟ قال: «**إنِّي لا أصافحُ النساءَ، إنما قولي لمئةِ امرأة كقولي لامرأةٍ واحدةٍ**».

﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وعادت الآيات في خاتمة السورة تنهى المؤمنين عن موالاة الكافرين كما فعلت في فاتحتها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود، أو هم عامة الكفار، فكيف توالونهم وقد غضب الله عليهم واستحقوا منه الطرد والحرمان؟!.

﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: قد يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها لكفرهم بها كما يئسَ الكفارُ الذين هم في القبور من كلِّ خيرٍ.

أو: كما يئس الكفار الأحياء أن يرجع إليهم أصحاب القبور.

والمراد وصفهم بكمال اليأس من رحمة الله في الآخرة.

أسأل الله أن لا يجعلنا منهم وأن يثبتنا على الإيمان.

❁ ❁ ❁





٦١

تفسير سورة الصف

بِشَارَةٌ وَتِجَارَةٌ فِي سُورَةِ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقت الخالص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾.

افتتح الله تعالى سورة الصف كما افتتح سورة الحشر فقال:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾.

ثم حثَّهم سبحانه على الثبات في الجهاد بأسلوب فيه عتاب للمتقاعسين عنه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾

أي: لأي شيء تقولون: نفعل، ما لا تفعلون من الخير والمعروف.

و(لِمَ) مركبة من **اللام** الجارة و(**ما**) الاستفهامية قد حذفت ألفها تخفيفاً.

ففي الآية إنكار على من يعدِ وعداً ويقول قولاً لا يفي به، ففيها إشارة إلى الذين قال ﷻ فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء].

قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لوددنا أنَّ الله ﷻ دلنا على أحبِّ الأعمال إليه فنعملَ به، فأخبر الله نبيه أنَّ أحبَّ الأعمال إليه إيمانٌ به لا شكَّ فيه، وجهادُ أهلِ معصيته، الذين خالفوا بالإيمان، ولم يقروا به، فلمَّا نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾

أي: عظُم بُغضاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون. **والمقت**: أشد البُغْضِ، ونصبه على التمييز للدلالة على أنَّ قولهم هذا مقت خالص.

ولعل النبيَّ ﷺ نهى أصحابه عن تمني لقاء العدو لهذا المعنى، ففي الحديث الشريف: **عن أبي هريرة** ﵁، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا تمنَّوْا لقاءَ العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا**» [رواه البخاري (٣٠٢٦)].

وهذه الآية ـ كما قال القرطبي ـ توجب على كل من ألزم نفسه عملاً في طاعة الله أن يفي به، قال النخعي: ثلاثُ آياتٍ منعتني أن أقصَّ على الناس:

١ ـ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤].

٢ ـ ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

٣ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢][2].

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة الصف.

(٢) تفسير القرطبي: ١٨/ ٨٠.

ثم بيَّن تعالى ما هو مرضيٌّ عنده بعد بيان ما هو ممقوت عنده فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾.

أي: إن الله يحب الذين يصفُّون أنفسهم عند القتال صفّاً كأنهم بنيان مرصوص، لاصق بعضه ببعض، ليس فيه فرجة ولا خلل.

والمراد أن الله يحب من يثبت بالجهاد في سبيله، ويلزم مكانَه كثبوت البناء المرصوص، فالله تعالى يعلِّمُ عباده المؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوِّهم، فهو كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فلا يجوز للمجاهد أن يترك مكانه في ميدان القتال إلا لضرورة تعرِضُ للإنسان، أو لتنفيذِ أمرٍ أُمِرَ به ومهمة كُلف بها.

ثم حذرتهم الآيات أن يكونوا مثل بني إسرائيل الذين آذوا موسى عليه السلام بمعصيته ومخالفة أمره عندما أمرهم بقتال عدوهم:

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ أي: لم تؤذونني بالمخالفة والعصيان، والحال أنكم تعلمون علماً قطعيّاً أني رسول الله إليكم، فإنَّ علمَكم هذا يلزمكم بطاعتي، والمسارعة إلى تنفيذ أمري.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أي: لـمَّا أعرضوا عن الحق، وأصرُّوا على العصيان؛ صرف الله قلوبهم عن الحق والصواب.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة، المصرِّين على الضلالة.

وأجملتِ الآيةُ هنا ما فصَّلته في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ

ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة].

* * *

بشرى عيسى عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

ثم أضافت الآيات تحذيراً آخر بأسلوب غير مباشر فبينت المكانة الرفيعة للنبي ﷺ بين الأنبياء:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ فعيسى عليه السلام قام في الملأ من بني إسرائيل مبشراً بسيدنا محمدٍ ﷺ، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة.

وفي الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لي خمسةُ أسماء: أنا محمَّدٌ، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشَرُ الناس على قدمي، وأنا العاقبُ**» [رواه البخاري (٣٥٣٢)].

وأشهرها: **محمد**، وقد تكرر في القرآن، وأما **أحمد** فذكر فيه حكاية عن قول عيسى عليه السلام، فأما **محمد** فمن باب التفعيل للمبالغة، وأما **أحمد** فمن باب التفضيل...

قال عياض: كان رسول الله ﷺ **أحمد** قبل أن يكون **محمداً**، كما وقع في الوجود، لأنَّ تسميته **أحمد** وقعت في الكتب السالفة، وتسميته **محمداً** وقعت في القرآن العظيم، وذلك أنه حمد ربه قبل أن يحمده الناس، وكذلك في الآخرة يحمد ربه، فيشفِّعه فيحمده الناس. وقد خُصَّ بسورة الحمد، وَبِلِوَاء الحمد، وبالمقام المحمود[(١)].

وروى الإمام أحمد [١٧٠٨٥] والطبري [٢٨/ ٢٧] والحاكم [٢/ ٦٠٠]: عن **العرباض بن سارية** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي عند اللهِ لخاتم النَّبِيِّيْنَ وإنَّ آدمَ لمنجدِلٌ في طينته، وسأنبئكم بأولِ ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهاتُ النبيينَ يرين**»[(٢)].

وقال أبو أمامة: قلتُ: يا رسولَ اللهِ ما كانَ أولَ بَدْءِ أمركَ؟ قال: «**دعوةُ أبي إبراهيم، وبُشْرَى عيسى بي، ورأتْ أمي أنه خرجَ منها نورٌ أضاءت له قصورُ الشام**» [رواه أحمد في المسند (١٧٠٨٦)].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ...﴾ [الأعراف: ٥٧].

وذكرنا ثمةَ أنه رغم التغيير والتحريف اللذين لحقا بالتوراة والإنجيل، وخاصةً ما يتصل بالنبيِّ ﷺ والإسلام، بقيت فيهما بعضُ الكلمات التي لا تنطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ ورسالة الإسلام، منها ما ورد في الإصحاح الثاني من سفر حجي، الجملة (٧ ـ ٩): ولسوف أزلزلُ كلَّ الأممِ، وسوفَ يأتي حمدا (Himada) لكلِّ الأمم، وسوفَ أملأُ هذا البيتَ بالمجدِ.

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٥٥٥.

(٢) المرجع السابق: ٦/ ٥٨٣.

قال الدكتور البروفيسور داود بنيامين كلداني قسيس الكنيسة الكاثوليكية الآشورية، والذي أسلمَ بعد ذلك، وسمَّى نفسه عبد الأحد داود: «لقد قمتُ بترجمة هذه الفِقْرة من النسخة الوحيدة من الإنجيل التي كانت بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية كانت ابنةَ عمٍّ لي، والنسخةُ هذه باللغة الوطنية الدارجة آنذاك، ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنكليزية للكتاب المقدس، والتي نجد أنها ترجمت الأصل العبري لكلمة (**حمدا**) إلى الأمنية، وكلمة (**شالوم**) إلى الإسلام»[1].

ثم بعد استعراض معنى كلمة (**حمدا**) باللغة العبرية وجد أنَّ لها معنى آخر وهو الحمد، فقال: «وأيّاً من المعنيين نختارُ، فإن الحقيقة الناصعة بأن كلمة (**أحمد**) هي الصيغة العربية لكلمة (**حمدا**)، وهذا التفسير هو تفسير قاطع لا ريبَ فيه».

ثم قال: «وفي إنجيل يوحنا الذي كُتب باليونانية استعمل الاسم (**باراكليتوس**) وهو صيغة وثنية لم تكن معروفة في دنيا الأدب الإغريقي لكلمة (**بيراكليتوس**) والتي توافق وتطابق اسم (**أحمد**) في معناه ومغزاه، وفي إشراقه وسموِّه وتمجيده، وفي مقامه المحمود الأعلى، لابد أن تكون ترجمتها باليونانية (**حمدا**) أو لعلها (**حميدة**) بصيغتها الآرامية كما نطق بها يسوع المسيح»[2].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فلما جاءهم عيسى بالبينات الظاهرة الدالة على صدقه كذبوه وقالوا: هذا سحر مبين.

ثم عقبت الآيات على إعراضهم وعنادهم بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: لا أحدَ أظلم ممن يُدعى إلى الإسلام، فيعرض عن الدعوة، ويضع التكذيب موضع الإجابة.

---

(١) محمد في الكتاب المقدس، ص٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص٥١.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يرشدهم إلى الحق لسوء كسبهم واختيارهم.

* * *

ظهور الإسلام

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

ثم أظهرت الآياتُ شدةَ عداوةِ اليهودِ والنصارى لدعوة الإسلام، ومحاولتهم طمس نوره:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بكلامهم، وذلك بطعنهم في الإسلام، وافترائهم عليه.

وما أكثر ما يصدر عنهم من محاولات لتشويه الإسلام، وطمس حقيقته الناصعة، وتشويه صورته الجميلة، لكي يصدُّوا الناس عنه، ويتولى كِبْرَ هذه المحاولات المستشرقون وزعماء التنصير والتكفير، يسخِّرون لهذه الغاية كل ما لديهم من وسائل الإعلام الموجهة إلى بلاد المسلمين آناء الليل وأطراف النهار.

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ والله مظهره ومبلِّغه غايته بنشره وإعلانه في الآفاق ولو كره الكافرون ذلك إرغاماً لهم.

وقرئ (متمٌّ) بالتنوين (نورَه) بالنصب على المفعولية لـ (متم).

فالإسلام لا يزال بحمد الله تعالى قائماً في الساحة، ثابتاً ظاهراً على كل دين، يضيءُ الدربَ للحائرين بنوره وسنائه وجماله وبهائه، والدعوة الإسلامية مستمرة بحمد الله حتى في عقر دورهم وقلب بلادهم، رغم ضعف المسلمين،

وكيف لا يكون ظاهراً غالباً وهو الدين الحق، الذي دعا إليه إمام النبيين وخاتم المرسلين ﷺ المؤيد بالمعجزة القرآنية الخالدة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: ليعليه على جميع الأديان، ولعمري لقد فعل، فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام(١).

أو ليظهره بالحجج والبراهين، ومنه الظهور بالقتال عندما يتمسَّك المسلمون به ويلتزمون بأحكام شريعته.

وليس المراد بالظهور ألا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد أن يكونَ أهلُ الإسلام عالين غالبين، ومن الإظهار ألا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان، قال مجاهد: وذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام(٢)؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١].

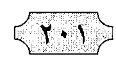
وذكرنا عند تفسير هذه الآية الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**والذي نفسي بيدِهِ ليوشكنَّ أنْ ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَماً عَدْلاً، فيكسِرَ الصليبَ، ويقتلَ الخنزيرَ، ويضعَ الحربَ** ـ وفي روايةٍ: **الجزيةَ** ـ **ويفيضَ المالُ حتى لا يقبلَه أحدٌ، حتى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها**» [رواه البخاري (٣٤٤٨)].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ومن يهود ونصارى وغيرهم، فالإسلام دين التوحيد، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة].

* * *

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٢٥٤.

(٢) تفسير القرطبي: ١٨/ ٨٦.



التجارة والجهاد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾.

قدَّر الله تعالى أن يكون ظهور الإسلام وتمكينه في الأرض بتكليف المسلمين بالجهاد، فشرَّعه وأنزل به آيات كثيرة؛ منها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾.

وفي قراءة: (**تنجِّيكم**) بالتشديد، وإنَّما سماه تجارة لأنهم يربحون بها رضا الله تعالى، ويفوزون بجنته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)﴾.

أي: تجمعون بين الإيمان والجهاد. وجيء بلفظ الخبر، والمراد به الأمر للإيذان بأن ذلك ممَّا لا يترك، فالواجبُ الثباتُ و الدوامُ على الإيمان والجهاد.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: إذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: ومساكن ظاهرة زكية مستلذة حسنة بذاتها، ويزيد في حسنها أنها في جنات الإقامة الدائمة، ذلك الفوز الذي لا فوز وراءه.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ﴾ أي: ولكم إلى ما ذُكر من النعم الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة، نصر من الله على أعدائكم وفتح عاجل، هو فتح مكة، أو كل فتْح فتَح الله عليهم.

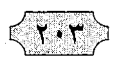
﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وبشِّر يا رسول الله المؤمنينَ بهذه البشارة وبالربح في التجارة.

وبعد أن بشَّرهم سبحانه وشدَّ من عزائمهم حضَّهم على أن يكونوا أنصارَ الله في جميع أحوالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ﷺ كما استجاب الحواريون لعيسى عليه السلام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ نحمل رسالته، ونبلِّغ دعوته.

وفي قراءة: (أنصاراً لله) بالتنوين واللام.



وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول أيام الحج: «**مَنْ رجلٌ يؤويني حتّى أبلِّغَ رسالةَ ربي، فإنَّ قريشاً قد منعوني أَنْ أبلِّغَ رسالةَ ربي**».

حتى قيَّض الله ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه، ووازروه، وشارطهم أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلمَّا هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفَّوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سمَّاهم الله ورسوله ﷺ: (**الأنصار**) وصار ذلك علَماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم(١).

وسُمُّوا الحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام، والمخلصين في محبته وطاعته، وفي الحديث الشريف: عن **جابر** رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ لكل نبيٍّ حوارِيّاً، وإن حواريَّ الزبير بنُ العوام**» [رواه البخاري (٣٧١٩)].

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أي: آمنت طائفة من بني إسرائيل بدعوة عيسى عليه السلام، وكفرت طائفةٌ به، فأنكروا رسالته، وبهتوا أمه.

﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: فأظهرنا مؤمنيهم على كفارهم.

فانتشرت دعوة عيسى عليه السلام، وكان أكثر أتباعه موحِّدين في القرون الثلاثة الأولى من عهده حتى دخل قسطنطين ملك الروم في النصرانية، فعمل على تحريفها، وعقد لذلك أول مجامعهم المسكونية، وهو مجمع نيقية سنة (**٣٢٢م**)، الذي قرر ألوهية عيسى عليه السلام، ثم تتابعتِ المجامعُ التي أوصلتِ النصرانيةَ إلى الشرك والتثليث، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله تعالى أن يثبتنا على الإسلام دين التوحيد.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة الجمعة

حَامِلُو الرِّسَالَةِ في سُورَةِ الجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الفضل الكبير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)﴾.

بدأ الله تعالى سورة الجمعة بقوله:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١)﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تسبيحاً مستمرّاً متجدداً من غير فتور كما في قوله سبحانه: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقرئت الصفاتُ الأربع بالرفع على المدح، ودلَّت هذه الصفاتُ على كمال ملكه ﷻ، وأنه الطاهر من كل عيب، المنزه عن كل نقص، والغالب في أمره ومشيئته، الحكيم في كل ما يأمر ويشرِّع.

اختار هذا الإله العظيم المتصف بهذه الصفات لخاتم رسالاته إلى خلقه وأكملها النبيَّ الأمي ﷺ والأمة الأمية.

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ وهم العرب، فقد كانوا عند بعثة النبي ﷺ أمة أمية، أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون، قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّا أمةٌ أميةٌ لا نكتبُ ولا نحسبُ**» [رواه البخاري (١٩١٣)].

قال ابن حجر: «وقوله: (أمية) بلفظ النسب إلى الأم؛ أراد أمةَ العربِ، لأنها لا تكتب، أو منسوب إلى الأمهات؛ أي: إنهم على أصل ولادة أمهم، وقوله: (**لا نكتب ولا نحسب**) تفسير لكونهم كذلك، وقيل للعرب: أميون؛ لأنَّ الكتابة كانت فيهم عزيزةً»(١).

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وهو سيدنا محمداً ﷺ منَّته تعالى العظمى على عباده، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦].

ورحمته للعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه استجاب لدعوة النبيين الكريمين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان قواعد بيت الله الحرام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فبعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد

---

(١) فتح الباري: ٤/ ١٢٧.

اشتدت الحاجة إليه، وذلك أنَّ العربَ كانوا متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام، فبدَّلوه وغيروه واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكّاً، وابتدعوا أشياءَ لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدَّلوا كتبهم وحرَّفوها، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشريعة الإسلام الكاملة الشاملة، وجمعَ الله له جميع المحاسن ممَّن كان قبله، وأعطاه ما لم يعطِ أحداً من الأولين، ولا يعطيه أحداً من الآخرين.

وتخصيصُ العرب بالذكر لا ينفي غيرهم، فرسالته عليه الصلاة والسلام عامةٌ وشاملةٌ، لكن المنةَ على العرب أبلغُ وأكبرُ، ومسؤوليتهم عن حمل رسالته أعظم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يقرأ عليهم ويبلِّغهم ما يوحَى إليه من آيات القرآن الكريم، ويطهرهم من دنس الشرك ورذائل الجاهلية وقبائحها.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعلِّمهم أحكامَ القرآن الكريم وشريعته، وأحكام السُّنَّة المطهرة المبينة والشارحة للكتاب كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد يكون المراد من الحكمة: الإصابة في الأقوال والأفعال.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وكانوا قبلَ بعثته عليه الصلاة والسلام لفي ضلال ظاهر، لا ترى ضلالاً أعظمَ منه.

فقد كانوا في أمسِّ الحاجة إلى رسالته وإرشاده وتعليمه مع أنه عليه الصلاة والسلام كان أميّاً، والأميةُ من صفات كماله، لأنها دلَّت على صدقه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فقد نقلهم النبيُّ الأميُّ من دركاتِ الجهلِ إلى درجاتِ العلم، وهذا لا شك معجزةٌ من معجزاته، الدالة على صدق رسالته، وصحَّة نبوته، ورحم الله البوصيري القائل:

كفاك بالعلمِ في الأميِّ معجزةً في الجاهليةِ، والتأديبِ في اليُتُمِ

وفي الآيةِ إشارةٌ إلى عظيم قدرته تعالى، وأن إفاضةَ العلوم لا تتوقف على الأسباب العادية، فيجوزُ أن يكون الولي أميّاً، بشرط أن يعرف ما يلزمه من الأمور الشرعية.

وأضافت الآيةُ تبين عموم رسالته عليه الصلاة والسلام:

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ﴾ أي: ويعلِّم عليه الصلاة والسلام آخرين لم يلحقوا بهم بعدُ، وسيلحقون، وهم من غير العرب من الأعاجم، ففي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: كُنَّا جلوساً عند النبيِّ ﷺ فأُنزلتْ عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ﴾ قلتُ: مَنْ هم يا رسولَ اللهِ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً، وفينا سلمانُ الفارسيُّ، وضعَ رسولُ اللهِ ﷺ يده على سلمان ثم قال: «**لو كانَ الإيمانُ عند الثريا لناله رجالٌ ـ أو رجلٌ ـ مِنْ هؤلاءِ**» [رواه البخاري (٤٨٩٧)].

فالآية تنسحبُ على كل من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم، والحكيم في اختياره وتعليمه، فالله أعلمُ حيث يجعل رسالته، وأكّد تعالى هذا المعنى بقوله:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾.

على خلقه؛ حيث أرسل إليهم محمداً ﷺ برسالة الإسلام.

هكذا بينت الآياتُ حَمَلَةَ الرسالة الإسلامية الذين شرفهم الله بحملها من لدن رسول الله ﷺ، فتمسكوا بها، وقاموا بنشرها، وحافظوا عليها، وجاهدوا من أجلها، فضحُّوا بأرواحهم وأنفسهم في سبيلها.

* * *

المعرضون عن حمل التوراة

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

ثم عقَّبت الآياتُ على سبيل المقارنة، فذكرت الذين أعرضوا عن حمل رسالة الله التي كُلِّفوا بحملها:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ وهم اليهود الذين كُلِّفوا بحمل رسالة التوراة والعمل بشريعتها، فلم يحملوها، ولم يعملوا بما فيها.

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ أي: كمثل الحمار يحمل كتباً من العلم ولا ينتفع بها.

والأسفار: جمع سِفْر، وهو الكتاب الكبير، لأنه يُسفر عن العلم ويكشفه.

وفي الآية دليل على سوء حال العالِم الذي لا يعمل بعلمه.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، وهو ذمٌّ لليهود الذين لم يعملوا بالتوراة، وكذبوا بما فيها من الآيات الشاهدة بصحة نبوة محمد ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الظالمين أنفسهم بتعريضها للعذاب،

والواضعين التكذيب في موضع التصديق، وفي هذا تنبيه من الله لمن حُمِّل الكتاب أن يتعلَّم معانيه، ويعمل بما فيه.

ويزعم اليهود أنَّهم شعبُ اللهِ المختار، وأنهم أولياؤه من دون الناس، ويقولون: نحن أبناء الله وأحبَّاؤه، فكذَّبهم، وأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

أي: فتمنوا من الله أن يميتكم إن كنتم صادقين في زعمكم.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيجازيهم على أعمالهم، فهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ﴾ أي: قل: إنَّ الموتَ الذي تفرون منه ولا تجسرون أن تتمنوه بلسانكم مخافة أن يصيبكم؛ فإنه ملاقيكم لا محالةَ، فمهما فررتم منه فهو لاحقٌ بكم ولا تفوتونه.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه.

* * *

تكليف وتحذير

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝١١﴾.

ثم عادت الآيات إلى حاملي الرسالة الإسلامية تؤدِّبهم ليكونوا أهلاً لحمل الرسالة وحفظ الأمانة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي: إذا نودي لوقت الصلاة من يوم الجمعة.

والجمُعة: بضم الميم على المشهور وقد تسكَّن، وقرأ بها الأعمش، وهو اليومُ الذي خَصَّ الله به هذه الأمة؛ ففي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** ﵁: أنه سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**نحنُ الآخرونَ السابقونَ يومَ القيامةِ، بيدَ أنَّهم أُوتوا الكتابَ من قبلنا، ثم هذا يومُهم الذي فُرضَ عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا اللهُ له، فالناسُ لنا فيه تبعٌ، اليهودُ غداً، والنصارى بعدَ غدٍ**» [رواه البخاري (٨٧٦)].

وهو أفضلُ أيام الأسبوع وأولها شرعاً، ففي الحديث الشريف: أن النبيَّ ﷺ قال: «**خيرُ يومٍ طلعتْ عليه الشمسُ يومُ الجمُعةِ، فيه خُلِقَ آدمُ، وفيه أُدخِلَ الجنَّةَ، وفيه أُخْرِجَ منها، ولا تقومُ الساعةُ إلا في يوم الجمُعةِ**» [رواه مسلم (٨٥٤)].

وفي حديث آخر: عن **أبي هريرة** ﵁: أنَّ رسول الله ﷺ ذكرَ يومَ الجمعةِ

فقال: «**فيه ساعةٌ لا يوافقُها عبدٌ مسلمٌ وهو يصلِّي يسأل اللهَ شيئاً، إلا أعطاهُ إياهُ**» [رواه مسلم (٨٥٢)].

خاطبَ الله المؤمنينَ بالجمعةِ دونَ الكافرين، تشريفاً لهم وتكريماً، إذ هم حملةُ الرسالةِ، خَصَّهم بالنداءِ ليدلَّ على وجوب صلاة الجمعة وتأكيد فرضيتها.

﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: فامضوا إلى ذكر الله، واذهبوا إلى صلاة الجمعة، والمضي والذهاب واحد، وليس المراد به سرعة المشي.

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: واتركوا البيع وكل ما يشغل عن ذكر الله من شؤون الدنيا.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ذلكم السعي إلى ذكر الله خيرٌ لكم من البيع والشراء إن كنتم تعلمون مصالحَ أنفسكم، فإن ثواب الآخرة خير وأبقى.

واستُدِلَّ بالآيةِ على فرضية صلاة الجمعة، وثبتت فرضيتُها أيضاً بالسُّنَّةِ والإجماع، وأولُ جمُعةٍ صلاها عليه الصلاة والسلام كانت وهو في طريقه من قُباء إلى المدينة، أدركته صلاةُ الجمعةِ في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، فخطبَ وصلَّى الجمعة.

ولا تجبُ الجمعة على مسافرٍ ومريضٍ وامرأةٍ وصبيٍّ، ويسقط عنهم فرضُ الظهرِ بأدائها.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فإذا أُدِّيتِ الصلاةُ، وفُرِغَ منها فانتشروا في الأرض لإقامة مصالحكم.

﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: واطلبوا الرزق من الله، وهو أمر إباحة.

هكذا نظَّم الإسلام حياةَ المسلمين، فخصص لهم وقتاً معيناً للصلاة، ووقتاً آخر لتأمين مصالحهم الدنيوية، وأوصاهم بالإكثار من ذكر الله في جميع الأوقات:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ولهذا عرَّضتِ الآياتُ بالذين انصرفوا قبل انتهاء صلاة الجمعة لأجل تأمين بعض مصالحهم الدنيوية بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ وسبب هذا التعريض والعتاب أنَّ أهل المدينة المنورة أصابهم جوع وغلاء شديدان، فوصلت قافلةٌ في أثناء صلاة الجمعة، فقام أكثرُهم إليها، ففي الحديث الشريف: عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: أقبلتْ عيرٌ يومَ الجمعةِ، ونحن مع النبيِّ ﷺ، فثار الناسُ إلا اثني عشر رجلاً، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾. [رواه البخاري (٤٨٩٩)].

﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي: وتركوا النبيَّ عليه الصلاة والسلام قائماً على المنبر يخطب.

ويبدو أنه عليه الصلاة والسلام كان في أول الأمر يقدِّم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة مثل العيدين، كما روى أبو داود في «كتاب المراسيل» [١٦٢] عن مقاتل بن حيان، ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ الإمامَ يخطبُ خطبة الجمعة قائماً.

﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ أي: قل: ما عند الله من الثواب خيرٌ من اللهو ومن التجارة.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فتوكلوا عليه واطلبوا الرزق منه.





٦٣

تفسير سورة المنافقون

المُعْرِضُونَ عَنْ حَمْلِ الرِّسَالَةِ فِي سُورَةِ المُنَافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تكذيب المنافقين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)﴾.

أعلن الله تعالى في أول سورة المنافقون شهادته بأنَّ المنافقين كاذبون فقال:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾.

فالمنافقون شأنهم الكذب؛ وإن صدقوا في هذا الخبر، وقد كذَّبهم الله

تعالى، لأن قلوبهم لا تواطئ ألسنتهم.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: وقاية من عقوبة الردة عن الإسلام، فكلما صدر منهم شيء يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين عِصْمةً لأموالهم ودمائهم، فمن عادتهم الاستجنان بالأيمان الكاذبة، كما استجنوا بالشهادة الكاذبة.

واستشهد أبو حنيفة ﵀ بالآية على أنَّ (**أشهد**) يمينٌ.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: صدُّوا من أراد الدخول في الإسلام أو فعل طاعة، أو أعرضوا عن الإسلام، واستمروا على ما كانوا عليه من الصدود والإعراض.

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من النفاق والكذب والأيمان الفاجرة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ وكونهم أسوأ الناس أعمالاً بسبب أنهم نطقوا بكلمة الإيمان، ثم أظهروا ما يدل على كفرهم، أو كفروا سرّاً، ثم أظهروا كفرهم إذا خلوا إلى شياطينهم، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: فختم على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان جزاءً على نفاقهم، فهم لا يعرفون حقيقة الإيمان، ولا يفقهونه، ولا يتدبرون القرآن، هذه هي حقيقتهم القبيحة، فلا تغترَّ بمظاهرهم الحسنة في أجسامهم وكلامهم:

﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾.

﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ﴾

فهم أجسام بلا أحلام، شبهتهم الآية بالخُشُبِ المسندة إلى جدار، ليس في قلوبهم نورٌ ولا خيرٌ، كالخشب اليابس، لا روح فيه ولا رطوبة، أو كالخشب التي نُخِر جوفها والتي جمعت بين حُسْنِ المنظر، وقُبحِ المخبر.

وفي قراءة: (خُشْبٌ) بسكون الشين.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم بسبب جُبنهم وسوء دخائلهم ونواياهم، فهم على خوفٍ ووجلٍ أن ينزلَ فيهم أمرٌ يهتِكُ أستارهم، ويبيحُ دماءهم.

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ أي: هم الموغلون في العداوة فاحذرهم، ولا تأمنهم على أسرارك، لأنهم عيون لأعدائك.

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: لعنهم الله كيف يُصرفون عن الحق الواضح.

وهو دعاءٌ عليهم، أو إخبارٌ بأنه تعالى لعنهم، ومن آثار هذا الدعاء أو اللعنة إعراضُهم عن استغفار رسول الله ﷺ واستكبارهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي: أمالوها إعراضاً عن الاستغفار.

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن استغفار رسول الله ﷺ.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ما داموا على النفاق.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الكاملين في الفسق، الخارجين عن دائرة الاستصلاح لسوء استعدادهم، قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن

تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

وقرئ: (**استغفرت**) بحذف همزة الاستفهام، و(**آستغفرت**) بإشباع همزة الاستفهام.

* * *

الأعز والأذل

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

وبيَّنَ **جابرُ بنُ عبد الله** رضي الله عنهما سببَ نزول هذه الآيات، فقال: كُنَّا في غزاةٍ، فكسعَ رجلٌ من المهاجرينَ رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا لَلْأنصارِ، وقال المهاجريُّ: يا لَلْمهاجرينَ، فسمعَ ذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «**ما بال دعوى الجاهليةِ؟**» قالوا: يا رسولَ اللهِ كسعَ رجلٌ من المهاجرينَ رجلاً من الأنصارِ، فقال: «**دَعوها فإنها مُنْتنةٌ**» فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فَعَلوها؟! أما واللهِ لئنْ رجعنا إلى المدينةِ ليخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فبلغَ النبيَّ ﷺ فقامَ عمرُ فقال: يا رسولَ اللهِ دَعْني أضرِبْ عنقَ هذا المنافق، فقال النبيُّ ﷺ: «**دَعْه؛ لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمَّداً يقتلُ أصحابه**» [رواه البخاري (٤٩٠٥)].

والكَسْع: أن تضرب بيدك على شيءٍ أو برجلك، أو أن ترميه بشيءٍ يسوءُه.

وعن **زيد بن أرقم** رضي الله عنه قال: كنتُ مع عمِّي، فسمعتُ عبدَ اللهِ بن أُبي ابن سلولٍ يقول: لا تُنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا، وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينةِ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فذكرتُ ذلك لعمِّي، فذكر عمِّي لرسولِ اللهِ ﷺ، فأرسلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى عبدِ اللهِ بن أُبيٍّ وأصحابه فحلفوا

ما قالوا، فصدَّقهم رسولُ اللهِ ﷺ وكذَّبني، فأصابني هَمٌّ لم يصبْني مثلُه، فجلستُ في بيتي، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ...﴾ إلى قوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، فأرسل إليَّ رسولُ اللهِ ﷺ فقرأها عليَّ، ثم قال: «**إن الله قد صدَّقك**» [رواه البخاري (٤٩٠١)].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ أي: هم الذين يقولون للأنصار: لا تنفقوا على مَنْ عندَ رسولِ اللهِ حتى يتفرقوا عنه.

ومرَّ معنا في **سورة الحشر** أنَّ الأنصارَ أحبُّوا المهاجرين، وآثروهم بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم، وأنَّ الله أثنى عليهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾.

وردَّ تعالى عليهم بقوله:

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: والرزق مَنُوطٌ بمشيئته تعالى وقدرته، فهو الرزاق ذو القوة المتين.

وقد أغناهم سبحانه بعد ذلك بما فتح عليهم تحقيقاً لوعده الكريم: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠].

وكانت كنوزُ كسرى وقيصر من المغانم التي أخذوها.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لجهلهم بالله تعالى، وهي المرة الثانية في السورة يصفُ تعالى المنافقين بهذه الصفة، التي تدل على شدة جهلهم وغرورهم.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ أي: لئن رجعنا من غزوة بني المُصْطَلق إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ ـ يعنون: رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ ـ الأذلَّ ـ يعنون: رسول الله ﷺ ـ.

وأسندتِ الآيةُ قولَ ابن أبي إلى المنافقين لرضاهم به. وردَّ تعالى عليهم بقوله:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولله العزَّة ولمن أعزَّه الله وأيده من رسله ومن المؤمنين لا لغيرهم.

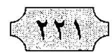
وأفاد إعادة الجار تفاوتَ ثبوت العزة، فإن ثبوتها لله تعالى ذاتي، وللرسول ﷺ بواسطة الرسالة، وللمؤمنين بواسطة الإيمان.

وجاء من عدة طرقٍ: أنَّ عبدَ الله بن عبدِ اللهِ بن أُبيٍّ سلَّ سيفه على أبيه عندما أشرفوا على المدينةِ فقال: واللهِ عليَّ أنْ لا أغمدَهُ حتَّى تقولَ: محمَّدٌ الأعزُّ وأنا الأذلُّ. فلم يبرحْ حتَّى قال ذلك(١).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم.

* * *

(١) روح المعاني: ٢٨/١١٦.



الاشتغال بالأموال والأولاد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

ومن المعلوم أنَّ الاشتغال بالأموال والأولاد يفتِنُ الإنسانَ عن دينه، وقد يحمله على الخيانةِ والنفاقِ كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال].

فحذَّرتِ الآياتُ المؤمنين من ذلك بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: لا يشغلكم الاهتمام بالأموال والأولاد عن الاشتغال بذكر الله ﷻ وطاعته.

فذِكره تعالى مجازٌ عن مطلق العبادة، لأنها سببٌ لذكره وهو المقصود منها؛ قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني، وفي تعريف الخسران بالإشارة، وتوسيط ضمير الفصل (هم) ما لا يخفى من المبالغة.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بالإنفاق، ورغَّبهم فيه في مقابل ما مرَّ من نَهْي المنافقين المؤمنين عن الإنفاق على من عند رسول الله ﷺ:

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾.

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أماراته وسكراته.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: هلَّا أمهلتني إلى أمد قصير فأتصدق وأكنْ من الصالحين.

ونصب (**فأتصدق**) في جواب التمني، والجزم في (**وأكنْ**) بالعطف على موضع (**فأتصدق**) كأنه قال: إن أخرتني أتصدق وأكن؛ وفي قراءة: (**وأكونَ**) بالنصب.

فكل مفرِّط يندم عند الاحتضار، ويسألُ طولَ المدة، ليستدركَ ما فاته، وهيهات؛ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وقال أيضاً: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله أيُّ الصدقةِ أعظمُ أجراً؟ قال: «**أَنْ تصَّدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ تخشى الفقرَ، وتأملُ الغنى، ولا تمهلْ حتَّى إذا بلغتِ الحلقومَ قلتَ: لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلان**» [رواه البخاري (١٤١٩)].

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ فلا يؤخر الله أحداً بعد حلول أجله.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازيكم عليه.

ودلَّت الآية على وجوب إخراج الزكاة على الفور، وتحريمِ تأخيرها.

❁ ❁ ❁



٦٤

تفسير سورة التغابن

الخَاسِرُونَ فِي سُورَةِ التَّغَابُنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

توبيخ الكافرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾.

أخبر الله تعالى في أول سورة التغابن أنَّ جميع المخلوقات تنزِّهه عمَّا لا يليقُ بكماله تنزيهاً مستمرّاً متجدِّداً فقال:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ثم قرر اختصاص المُلْك والحمد به ﷻ فقال:

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ فهو المتصرِّفُ في ملكه كيف يشاءُ تصرف اختصاص، لا شريك له.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ لأن أصول النعم وفروعها كلها منه.

فكلا الأمرين ـ الملك والحمد ـ لله تعالى وحده في الحقيقة، ولغيره بحسب الظاهر والصورة، كما أنَّ له الكمال المطلق.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يفعل ما يشاء كما يشاء بلا مانع ولا مدافع، والدليل على ذلك:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أي: فمنكم آتٍ بالكفر وفاعل له، ومنكم آتٍ بالإيمانِ وفاعل له. وكان الواجبُ عليكم جميعاً أن تكونوا مختارينَ للإيمان، شاكرين الله على نعمة الخلق والإيجاد وسائر النعم، فما فعلتم ذلك مع تمكنكم منه، بل تشعبتم شُعباً، وتفرقتم فِرقاً.

فالآيةُ توبِّخُ الكافرين، ولهذا بادرت إلى تقديم الكفر، لأنه الأغلب والأنسب بمقام التوبيخ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، فإنه سبحانه ما خلقكم عبثاً ولا باطلاً.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالحِكَم البالغة ليعمرها المكلَّفون بطاعته سبحانه وعبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: وصوركم في أرحام أمهاتكم فأتقن وأحكم صوركم.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وإليه مرجعكم يومَ القيامةِ لا إلى غيره.

فأقبِلوا على عبادته، وتزيين سرائركم بذكره، فإنه سبحانه:

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

لا يخفى عليه شيء، فحقُّه أن يُتَّقى ويُحْذَرَ، فلا يَجْتَرِئ أحدٌ على معصيته ومخالفة أمره، فإنَّ تكرير تذكير الإنسان بكمال علمه تعالى في معنى تكرير الوعيد، وهو ما صرَّح به بعد ذلك بقوله:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح.

﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: فذاقوا وبال كفرهم في الدنيا، وهو ما نزل بهم من العذاب في الدنيا.

وأصلُ **الوبالِ**: الثقل، ومنه: الوبيل: لطعام يثقل على المعدة، والوابل: للمطر الثقيل، واستعمل للضرر والعذاب؛ لأنه يثقل على الإنسان.

وعبَّر عن كفرهم بالأمر للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في يوم القيامة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: وسبب ما نزل بهم من العذاب في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الظاهرة الدالة على صدق رسالتهم وبالبراهين الواضحة.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: فقالوا منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر أو متعجبين من ذلك، والبشر يطلق على الواحد والجمع.

﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾ أي: فكفروا بالرسل، وأعرضوا عن التفكير بالبينات.

﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ أي: وأظهر الله غناه عن طاعتهم وعبادتهم، فأهلكهم واستأصلهم، ولولا غناه سبحانه عنهم ما فعل بهم ذلك.

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ والله غني عن إيمانهم وطاعتهم مستحق للحمد بذاته وإن لم يحمده حامد.

* * *

الزعم الباطل

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾.

ومن مزاعمهم الباطلة المصادمة لحكمة خلقهم: إنكارهم البعث بعد الموت:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ **والزعم**: ادعاء العلم، وهو مطية الكذب، فهو زعم باطل بادرت الآيات إلى ردِّه.

﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ فما تنكرونه كائن لا محالة، ولهذا أكده بالقسم وأمر الرسولَ ﷺ به كما في قوله سبحانه: ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

وقوله أيضاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ: ٣].

ثم أضافتِ الآيةُ بيان تحقق أمرٍ آخر متفرِّع عن البعث:

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: ثم لتحاسبن وتجزون بأعمالكم، وذلك يسيرٌ على الله تعالى. وإذا كان الأمر كذلك:

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن الكريم، فإنه بإعجازه بيِّنٌ بنفسه، مبيِّنٌ لغيره، والالتفاتُ إلى نونِ العظمة لإبراز العناية لأمر الإنزال تعظيماً لشأن القرآن الكريم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فراقبوه وخافوه فإنَّه سائلكم ومحاسبكم يوم القيامة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ يجمع الله فيه الأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة].

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ وسُمي يوم القيامة بيوم التغابن لأنَّ أهل الجنة أخذوا الجنة، وأخذ أهل النار النار، على طريق المبادلة، فوقع الغُبْنُ لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب.

ففي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**لا يدخلُ أحد الجنةَ إلَّا أُريَ مقعده من النَّارِ لو أساءَ، ليزدادَ شكراً، ولا يدخلُ النار أحدٌ إلا أُريَ مقعدَه من الجنَّةِ لو أحسنَ، ليكونَ عليه حسرة**» [رواه البخاري (٦٥٦٩)].

ويظهر يومئذ أيضاً غبن كل كافر بترك الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان، فأهلُ الجنةِ بايعوا على الإسلام بالجنة فربحوا، وأهلُ النارِ امتنعوا عن الإسلام فخسروا، فشبهوا بالمتبايعين يغبن أحدهما الآخر في بيعه، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

ثم أظهرت الآيات تحقق معنى التغابن في يوم القيامة بوصف مصير السعداء والأشقياء:

﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، وفي قراءة: (نكفر، نغفر) بالنون.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

فهم الخاسرون الخسارة التي لا عِوَض لها.

* * *

التسليم لقضاء الله

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

والحياة في الدنيا للاختبار والابتلاء، فلا تخلو من رزايا ومصائب، وعلى المؤمن أن يرضى بها، ويُسلِّم للهِ تعالى، فلا يسخط ويعترض:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلا بعلم الله وإرادته وقضائه.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ بالرضا والصبر والتسليم لقضائه، وقرئ: **(يهدأ قلبه)** بالرفع، و**(يهدأ)** أي: يسكن ويطمئن.

فالإيمان يجعل أمر المؤمن في كل أحواله إلى خير، كما في الحديث الشريف: «**عجباً لأمر المؤمنِ إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ، إن أصابته سرَّاءُ شكرَ فكانَ خيراً له، وإن أصابته ضراءُ صبرَ فكان خيراً له**» [رواه مسلم (٢٩٩٩)].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم إيمان المؤمن ويثبته ويهدئ قلبه عند المصيبة.

ولا ينبغي للمصيبة أن تشغلكم عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ:

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾.

فمِنَ اللهِ الرسالةُ، وعلى الرسولِ البلاغُ، وعلينا التسليم والرضا بقضاء الله وقدره.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

وعلينا أيضاً التوكل على الله وحده، فلا معبود ولا مقصود إلا هو، فلنعتصم به ونتمسك بحبله.

وقد يُبتلى الإنسانُ بأحبِّ الناس إليه وأقربهم منه، فعليه في مثل هذه الحالة أن يتمسَّك بدينه، ويلتزم بأحكامه، مع شيء من المساهلة والمسامحة، فإنَّ تربية الأزواج والأولاد تقتضي ذلك بشرط سلامة الدين، فلا محل للقسوة والغلظة في التعامل مع الأقارب والأحباب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ أي: إن

بعضهم كذلك، فاحذروهم على دينكم، فسلامة الدين هي من أهم المهمات وأعظم الواجبات.

﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم، ويتفضل عليكم بالمغفرة والرحمة.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

أي: إنما أموالكم وأولادكم بلاءٌ واختبارٌ وشغلٌ عن طاعة الله تعالى، فلا تباشروا من أجلهم المعاصي، ولا تؤثروهم على ما عند الله من الثواب الجزيل والعظيم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أي: ابذلوا في تقواه جهدكم ووسعكم، واسمعوا مواعظه وزواجره، وأطيعوا أمره.

﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي: أنفقوا في الوجوه التي أمركم بها، وافعلوا ما هو خير لها وأنفع.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالفلاح والنجاح.

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

يقبل القليل، ويعطي الجزيل، ولا يعجل بالعقوبة.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

لا يخفى عليه شيء، الغالب على أمره، الحكيم في شرعه وفعله جل جلاله.

❀ ❀ ❀



تفسير سورة الطلاق

التَّقْوَى والتَّيْسِيرُ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطلاق للعدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾.

افتتح الله سبحانه سورة الطلاق منادياً النبي ﷺ بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: إذا أردتم أن تطلِّقوا النساء فطلقوهن لوقت عدتهن؛ أي: في الزمان الذي يصلح لعدتهن.

أو: مستقبلاتٍ عدتهنَّ، فعدةُ المطلقةِ تبدأُ بعد الطلاق مباشرة.

وتخصيص النبيِّ ﷺ بالخطاب وتعميمُ الحكمِ تكريمٌ له، وإظهارٌ لجلالة منصبه، وعلوِّ مرتبته، فهو إمام أمته، والمتكلِّم عنهم، فاختِير لفظ النبيِّ وقيل له كما يقال لكبير القوم: يا فلان افعلوا كَيْت وكَيْت.

ولعلَّ صرفَ الكلام عنه إلى أمته لما في الطلاق من الكراهة، فلم يخاطَبْ به تعظيماً له ﷺ، ففي **سنن أبي داود** [٢١٧٨] **وابن ماجه** [٢٠١٨]: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أبغضُ الحلالِ إلى اللهِ الطلاقُ**» لأنَّه يؤدي إلى قطع صلة الزوجية فأبيحَ للحاجة، فالمرادُ التنفير عنه.

والطلاقُ للعدَّةِ أن يطلِّقَها في طُهْرٍ لم يجامعها فيه، فتعتد بذلك الطهر، ولا يطول عليها زمانُ العدة، ومن هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسَّموه إلى قسمين: طلاقِ سنةٍ، وطلاقِ بدعةٍ.

فطلاقُ السُّنَّة: أن يطلقها طاهرةً منْ غير جماع، أو حاملاً قد استبانَ حَملهُا.

وطلاقُ البدعةِ: أن يطلقها في حالِ الحيض، أو في طُهْرٍ قد جامعها فيه، ولا يدري أحملتْ أم لا. والمرادُ بالبدعةِ هنا الحرمةُ لما فيه من المعصيةِ.

ففي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما: أنَّه طلَّقَ امرأته وهي حائضٌ على عهد رسولِ اللهِ ﷺ، فسأل عمرُ رسولَ اللهِ ﷺ عن ذلك فقال: «**مُرْهُ فليراجعْها، ثم ليمسِكْها حتَّى تَطْهُرَ، ثم تحيضَ، ثم تطهرَ، ثم إنْ شاءَ أمسكَ بعدُ، وإنْ شاء طلَّق قبل أن يمسَّها، فتلك العِدَّةُ التي أمر الله أن تطلَّقَ لها النساءُ**» [رواه البخاري (٥٢٥١)].

وتجب مراجعتها رفعاً للمعصية، وهي تطويلُ العدة.

فمن طلَّق امرأته في طهر لم يجامع فيه وقع طلاقه، وأصابَ السُّنةَ، وإنْ طلَّقها حائضاً أو في طُهْر جامعها فيه وقعَ طلاقُه، وأخطأَ السُّنَّةَ، فالحرمةُ في الطلاقِ البدعي لا تمنع وقوعَهُ، ولهذا أمرَ النبيُّ ﷺ ابنَ عمرَ بمراجعةِ زوجته فلو لم يقعِ الطلاقُ لم يأمره بالرجعة، وما كان منه من التطليق في الحيض سبب نزول هذه الآية.

قال النووي: شذَّ بعضُ أهل الظاهر فقال: إذا طلَّقَ الحائضَ لم يقع الطلاقُ، لأنه غيرُ مأذونٍ فيه، فأشبه طلاق الأجنبية، وحكاه الخطابيُّ عن الخوارج والروافض.

وكأنَّ النوويَّ أرادَ ببعض الظاهرية ابنَ حزمٍ، فإنَّه ممن جوَّدَ القولَ بذلك، وانتصرَ له وبالغ، ووافقه على ذلك من المتأخرين ابن تيمية[1].

ويلتحقُ بالطلاق البدعي طلاق الثلاث دفعة واحدة وتقع به الثلاث.

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: واضبطوا العدة، وأكملوها ثلاثةَ قروءٍ، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وأصل معنى الإحصاء العدُّ بالحصى، ثم صار حقيقة فيما ذكر.

ويبدو أن الخطابَ في الآية للأزواج، ويلتحقُ بهم الزوجات، ويؤكد ذلك قوله تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: لا تعصوا ربكم في تطويل العدة عليهن، والإضرار بهن، وفي وصفه تعالى بالربوبية تأكيدٌ للأمر ومبالغة في إيجاب الاتقاء.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: من مساكنهنَّ ما دُمنَ في العدة، فليس للزوج أن يخرجَها من مسكن الزوجية ما دامت في العدة، والرجعية والمبتوتة في هذا سواء، فإضافةُ البيوتِ إليهنَّ إضافةُ إسكانٍ لا تمليكٍ.

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن، فبقاؤهن في البيوت حق للشرع، فإن خرجت لغير ضرورة أثمتْ، ويجوزُ لها الخروج نهاراً لحاجاتها الضرورية.

ففي الحديث: عن جابر رضي الله عنه قال: طُلِّقَتْ خالتي، فأرادتْ أن تجدَّ نخلها،

---

(١) انظر: فتح الباري: ٩/ ٣٥٢.

فزجرها رجل أن تخرجَ، فأتتِ النبيَّ ﷺ فقال: «**بلى فجدِّي نخلكَ، فإنَّكَ عسى أن تصدَّقي أو تفعلي معروفاً**» [رواه مسلم (١٤٨٣)].

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ أي: ظاهرة، وهي نفس الخروج قبل انقضاء العدة، أو الزنى، أو البذاء على الأحماء والزوج، فالمعنى: لا تخرجوهن إلا إذا طالت ألسنتهنَّ، وتكلمنَ بالكلام الفاحش القبيح، وفي قراءة: (مبيَّنة) بالفتح.

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ أي: وتلك الأحكام حدودُ الله التي شرعها سبحانه لعباده، فالتزموا بها.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ أي: أضرَّ بها.

﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ أي: لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر، لعل الله يحدث في قلبك بعد الذي فعلتَ من التعدي أمراً يقتضي خلافَ ما فعلت، فيبدل ببغضها محبة، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها، ويمكنك تلافيه بالمراجعة أو تجديد عقد النكاح.

فالخطابُ للمتعدي بطريق الالتفاتِ لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي، لا للنبيِّ ﷺ، فمن يتعدَّ حدود الله فقد عرَّض نفسه للضرر، فإنك لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر.

* * *

التقوى في معاملة المطلقات

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فإذا شارفن آخر عدتهن فراجعوهن بحُسن معاشرة، أو فارقوهنَّ بإيفاءِ الحقِّ وتجنُّب الضرار مثل أن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً للعدة.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: وأشهدوا عند الرجعة أو الفرقة قطعاً للنزاع.

وهو أمرُ ندبٍ، والمراجعةُ تكونُ بالقولِ أو الفعلِ، كأن يجامعها أو يُقبِّلها أو يباشرها بشهوة.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي: وأقيموا الشهادة أيها الشهود طلباً لمرضاة الله، اشهدوا بالحق، وأدوها على الصحة.

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ذلكم الذي ذكرتُ من الأحكام ينتفعُ بها المؤمنُ بالله واليوم الآخر، فأمَّا غيرُ المؤمن فلا ينتفع بها.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ أي: ومن يتق الله في فعل ما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً من الغم والضيق الذي يقع فيه، ويفرج عنه ما يعتريه من الكرب في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: ويرزقه من وجهٍ لا يخطرُ بباله ولا يتوقعه، وهو اعتراضٌ جِيْءَ به على نهج الاستطرادِ تأكيداً لما سبق.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: ومن فوَّض أمره إلى الله كفاه ما أهمه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي: إن الله يبلغُ ما يريدُ، فهو فعَّالُ لما يريد، لا يفوته مراد، ولا يعجزه مطلوب، وفي قراءة: **(بالغٌ أمرَه)** بالنصب.

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: تقديراً وتوقيتاً.

وهذا يؤكد وجوب التوكل على الله، وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا علم أنَّ كلَّ شيء من الرزقِ ونحوهِ لا يكونُ إلا بتقدير الله وتوفيقه لم يبقَ إلا التسليمُ للقدر، والتوكل على الله، مع الأخذ بالأسباب المشروعة، كما جاء في الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: كنتُ خلفَ النبيِّ ﷺ يوماً فقال: «**يا غلامُ إنِّي معلِّمكَ كلماتٍ: احفظِ اللهِ يحفظْكَ، احفظِ اللهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعن بِالله، وَاعلمُ أنَّ الأمةَ لو اجتمعوا على أن ينفعوكَ بشيء لم ينفعوكَ إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن**

يضروكَ بشيءٍ لم يضروكَ إلا بشيءٍ قدْ كتبَهُ اللهُ عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ» [رواه أحمد (١/ ٢٩٣) والترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح].

ومن الأمور التي بيَّن الله تعالى مقاديرها مقدارُ العدة:

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي: والنساء اللواتي وصلن إلى سن اليأس وانقطاع الحيض إن شككتم في عدتهنَ، وجهلتم مقدارَها، فعدتُهنَّ ثلاثةُ أشهر، وتكون الريبة بسبب استمرار الدم.

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي: والصغيرات اللاتي لم يحضنَ فعدتهنَّ ثلاثة أشهر.

﴿وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: وتنتهي عدة الحوامل بوضع الحمل والولادة، ولا فرق في ذلك بين المطلقات والمتوفى عنهنَّ أزواجهن، لما في الحديث الشريف: عن **أبي سلمة** قال: جاء رجلٌ إلى ابنِ عبَّاس وأبو هريرةَ جالسٌ عنده فقال: أفتِني في امرأة ولدتْ بعدَ زوجها بأربعينَ ليلةَ، فقال ابنُ عباس: آخر الأجلين، قلتُ أنا: ﴿وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي، يعني أبا سلمةَ، فأرسلَ ابنُ عباس غلامه كريباً إلى أمِّ سلمةَ يسألها فقالت: قُتِلَ زوجُ سُبيعةَ الأسلمية وهي حُبلى، فوضعتْ بعد موته بأربعين ليلةً، فَخُطِبَتْ، فأنكحَها رسولُ اللهِ ﷺ، وكان أبو السنابل في مَنْ خطبها. [رواه البخاري (٤٩٠٩)].

فالآيةُ هنا تخصص عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي: ومن يتق الله فيلتزم أحكام دينه يسهِّل أمره عليه في الدنيا والآخرة ويوفقه للخير.

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي: ذلك حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات.

﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ بمضاعفته. وقرئ: (**نُعْظِم**) بالنون التفاتاً من الغيبة إلى التكلم.

ولما حثَّ سبحانه على التزام التقوى في سياق معاملة المُعْتدَّات بيَّن كيفية العمل بالتقوى في شأنهن فقال:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي: أسكنوهن مسكناً مِنْ بعضِ مكانِ سُكناكم مِنْ وسعكم ومما تطيقونه.

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ولا تضاروهنَّ في السكنى لتضيِّقوا عليهن، وتلجئوهن إلى الخروج.

﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: وإن كان المطلقات أولات حملٍ فعليكم أن تنفقوا عليهن حتَّى يضعنَ حملهنَّ، ويخرجنَ من العدة.

فلا خلافَ في وجوب سُكنى المطلقات أولات الحمل ونفقتهن، واختُلف في المطلقات اللاتي لسن أولات حمل، وقول أبي حنيفة والثوري: لهن السكنى والنفقة، لأنَّهما جزاءُ الاحتباسِ، وهو مشترك بين الحامل والحائل.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: فإن أرضعنَ لكم بعد أن يضعنَ حملهنَّ فآتوهنَّ أجورهن على الإرضاع.

﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: وتشاوروا بينكم بمعروف جميل في الأجرة والإرضاع، فلا يكن من الأب مماكسة، ولا من الأمِّ معاسرة.

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي: وإن ضيق بعضُكم على الآخر بتقليل الأجرةِ أو طلب الزيادةِ، فليطلب له الأب مرضعة أخرى.

وفيه معاتبةٌ للأم، لأنه كقولك لمن تستقضيه حاجةً فتتعذر منه: سيقضيها غيركَ، لأنَّ المبذولَ من جهتها هو لبنها لولدها، وقال بعضهم: إنَّ الكلامَ لا يخلو عن معاتبةِ الأب أيضاً، لأنَّه إذا ضيَّقَ على الأم في الأجر فامتنعت من الإرضاع لذلك، فلا بدَّ من إرضاع امرأة أخرى، وهي أيضاً تطلب الأجر في الأغلب، والأم أشفق، فهي به أولى، وهذا إذا قبل الرضيع ثدي أخرى، أما إذا لم يقبل إلا ثدي أمه فتجبر على الإرضاع بأجرة مثلها[1].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي: لينفق الزوجُ على زوجته وولده الصغير على قدر ما تتسع له قدرته.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: ومن ضُيِّقَ عليه رزقُه فلينفق مما آتاه الله وإن كان قليلاً.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ جلَّ أو قلَّ؛ فإنَّه تعالى لا يكلِّفُ نفساً إلا وسعها.

ففيه تطييبٌ لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده، وقد أكده تعالى بالوعد بالتيسير فقال:

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ إن اتقى الله كما سبق في السورة:

- ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق].

- ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

---

(١) انظر: روح المعاني: ٢٨/ ١٤٠.

ودلت الآية على أنَّ النفقة تقدَّرُ بقدر حال المنفق، فإن كان موسِراً فعليه نفقة الموسِرين من غير إسرافٍ، وإن كان مُعْسِراً فعليه نفقة المعسِرين بقَدْر وُسْعه.

* * *

حساب وعذاب

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

ثم توعدتِ الآياتُ المخالفين لهذه الأحكام بأسلوب غير مباشر:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: وكثير من أهل قرية أعرضت عن أمر ربِّها ورسُله إعراضَ العاتي المعاند.

﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالتدقيق والاستقصاء لكل ذنوبهم.

﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكراً فظيعاً.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: عقوبة كفرها ومعاصيها.

﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي: خساراً وهلاكاً.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ .

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فهو عذاب معدٌّ منتظَرٌ لا نجاة لكم منه إلا بتقوى الله.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي: فاتقوا الله يا ذوي العقول الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم القرآن الذي يُذَكِّركم بالله وأحكام دينه وشريعته.

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ .

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: وأرسل إليكم رسولاً يقرأ عليكم ويبلغكم آيات الله المبينات للحلال والأمر والنهي.

﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، فبادروا إلى الثبات على الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وفي قراءة: (**ندخله**) بالنون، وفي هذه الجنات ما فيها من الرزق الحسن العظيم المعجب.

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فهو رزق من الله حَسَّنه وأكرمه لأهل الجنة.

ثم ختم سبحانه السورة ببيان كمال قدرته وعلمه تذكيراً للمكلفين بأنه سبحانه يراقبهم ويعلم أحوالهم وأقوالهم:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ .

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: في العدد أو في التركيب والخصائص، فلم تُذكر الأرض في القرآن إلا موحدة.

أو سبع أرضين منبسطة تفرق بينها البحار. ولعل في الأجرام الكثيرة السابحة في الفضاء أجراماً مثل الأرض في بعض خصائصها وتركيبها.

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمر الله تعالى وقضاؤه وقدره بينهن.

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ أي: أخبرتكم بذلك لتعلموا كمال قدرته تعالى وعلمه.





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قصة تحريم العسل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾.

بدأ الله تعالى سورة التحريم بعتاب لطيف للنبيِّ ﷺ فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ أي: من العسل.

فعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: كان رسولُ اللهِ ﷺ يشربُ عسلاً عند **زينب بنت جحش**، ويمكثُ عندها، فواطأتُ أنا وحفصةُ عَنْ أيَّتنا دخلَ عليها فلتقلْ له: أكلتَ مغافيرَ؟ إنِّي أجدُ منكَ ريحَ مغافير، قال: «**لا، ولكنِّي كنتُ أشربُ عسلاً**

عندَ زينبَ بنت جحشٍ، فلن أعودَ له، وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً» [رواه البخاري (٤٩١٢) ومسلم (١٤٧٤)].

والمغافير: نباتٌ رائحته كريهة، وكان ﷺ يحبُّ الحَلواء والطِّيبَ، ويكره الرائحةَ الكريهةَ.

وأخرج **النسائي** في الكبرى [٨٨٥٧] **والحاكم** [٢/ ٤٩٣] وصححه، **وابن مردويه**: عن **أنس** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانت له امرأة يطؤها، فلم تزل به عائشةُ وحفصةُ حتَّى جعلها على نفسه حراماً، فأنزلَ الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ...﴾.

لكنَّ النووي قال في «شرح مسلم»: الصحيح أنَّ الآية نزلت في قصة العسل، لا في قصة مارية المروية في غير «الصحيحين»، ولم تأتِ قصةُ مارية في طريق صحيح(١).

﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: تطلب رضاهن بترك ما أحلَّ الله لك وقد غفر لك ذلك.

ففي الآية تعظيمُ شأنه عليه الصلاة والسلام بأنَّ تركَ الأَوْلى بالنسبة لمقامه السامي الكريم يعدُّ كالذنب، وإن لم يكن في نفسه كذلك، وأنَّ عتابه ليس إلا لمزيد الاعتناء به.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ﴾ أي: قد شرع الله لكم تحليل الأيمان وحلَّ ما عقَّدته بالكفارة.

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: والله متولي أموركم، وهو العليم بما يصلحكم، الحكيم في جميع أفعاله وأحكامه.

واحتجَّ بالآية من يرى أنَّ تحريم الحلال يكون يميناً، فإذا حرَّمَ طعاماً فقد

---

(١) روح المعاني: ٢٨/ ١٤٦.

حلفَ على عدم أكله، فإذا حنث فيه وأكل الطعام فعليه كفارةُ يمينٍ. ومن قال لامرأته: أنت عليَّ حرامٌ؛ يقعُ طلاقاً بائناً لتعارُفِ الناس على ذلك، وإن نوى غيرَ ذلك ينصرِفُ إلى ما نوى، ويكونُ يميناً.

ثم بيَّنتِ الآياتُ كيف كان رسول الله ﷺ يعامل أزواجه أمهات المؤمنين عندما تقعُ الغَيْرةُ والمنافسة بينهنَّ، ففي حادثة تحريم العسل أسرَّ النبيُّ ﷺ إلى إحدى أمهات المؤمنين حديثاً، وهو امتناعه عن شرب العسل عند السيدة زينب، واستكتمها ذلك، وأوصاها ألا تخبر به أحداً، وأضافت بعض الروايات أنه أخبرها بخلافة أبي بكر وعمر بعده، ولكنَّها بدافع الغَيْرة والسرور أخبرت به:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ وهي السيدة حفصة رضي الله عنها.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي: أخبرت به السيدة عائشة رضي الله عنها.

﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: وأطلعه الله تعالى على إفشائه.

﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أي: أعلم حفصةَ ببعض ما كان منها وأعرضَ عن بعضٍ تكرُّماً وتسامحاً.

وقرئ: (عَرَفَ) بالتخفيف بمعنى جازى عليه، تقول للمسيء: لأعرفن لك ذلك.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي: نبأني العليم بالسرائر، الخبير بالضمائر، وإنَّما قالت ذلك ظنّاً أن عائشة أخبرته.

* * *

عتاب وتأديب

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

ثم التفتت الآياتُ تخاطِبُ السيدتين حفصة وعائشة رضي الله عنهما خطاب العتاب والتأديب:

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي: إن تتوبا إلى الله فهو الواجب عليكما، فقد وُجِدَ منكما ما يوجبُ التوبةَ، وهو ميل قلوبكما عن الحق، فقد سرَّهما ما كره رسول اللهِ ﷺ وهو الامتناع عن شرب العسل.

ففي الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: مكثتُ سنةً أريدُ أن أسألَ عمرَ بنَ الخطابِ عن آية فما أستطيعُ أن أسأله هيبة له حتَّى خرجَ حاجّاً، فخرجتُ معه، فلمَّا رجعتُ، وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراكِ لحاجةٍ له، فوقفتُ له حتى فرغ، ثم سرتُ معه، فقلت له: يا أميرَ المؤمنين، مَنْ اللتان تظاهرتا على النبيِّ ﷺ من أزواجِهِ؟ فقال: تلكَ حفصةُ وعائشةُ. [رواه البخاري (٤٩١٣)].

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وإن تعاونا على إيذاء النبيِّ ﷺ بسبب الإفراطِ بالغَيْرة فإنَّ اللهَ وليُّه وناصرُه، وجبريلُ وليُّه أيضاً وناصرُه، وكل مَنْ صلحَ من المؤمنين.

﴿وَالْمَلَٰئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي: والملائكة بعد نصر الله وجبريل وصالح المؤمنين أعوان للنبي ﷺ.

فما أعظمَ هذا النبيَّ! وما أكرمَه على الله تعالى! فمكانته عليه الصلاة والسلام رفيعةٌ عاليةٌ في الملأ الأعلى وبين المؤمنين في الأرض.

وأفردتِ الآيةُ جبريلَ بالذكر تعظيماً له، وتنبيهاً على علوِّ منزلته ومكانته.

وفي قراءة: (**تظَّاهرا**) بتشديد الظاء، وأصلها: تتظاهرا، فأدغمت التاء بالظاء.

وعن **أنس** رضي الله عنه: قال عمر رضي الله عنه: **اجتمع نساءُ النبيِّ ﷺ في الغَيْرةِ عليه، فقلتُ لهنَّ: عسى ربُّه إن طلقكنَّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية.** [رواه البخاري (٤٩١٦)].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ أي: واجبٌ من الله إنْ طلقكنَّ رسولُ اللهِ ﷺ أن يزوِّجه خيراً منكن، وهذا الواجبُ أوجبه سبحانه على نفسه تفضُّلاً كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

فإن قلتَ: كيف تكونُ المبدلاتُ خيراً منهنَّ، ولم يكن على وجه الأرض نساءٌ خيراً من أمهات المؤمنين؟.

قلتُ: إذا طلقهنَّ رسولُ اللهِ ﷺ لإيذائهنَّ إياه لم يبقينَ على تلك الصفة، وكان غيرهنَّ من الموصوفاتِ بهذه الأوصاف خيراً منهنَّ(١).

وفي قراءة (**يبدِّله**) بالتشديد.

ثم بينت الآيات أوصافهن:

---

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٣٠٣.

﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ﴾ أي: مطيعات ومواظبات على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: صائمات أو مهاجرات.

﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ جمع ثَيِّب، وهي التي تزوَّجتْ وبانتْ من زوجها.

﴿وَأَبْكَارًا﴾ أي: عذارى، جمع بكر، ووسط حرف العطف بين الثيبات والأبكار دونَ سائرِ الصفات لأنهما صفتان متنافيتان بخلافِ سائر الصفات.

أخبر الله في الآية عن قدرته فقط، لا عن الوقوع والحدوث، لأنَّه قال: ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ وقد علمَ سبحانه أنه لا يطلقهنَّ، فهو تخويفٌ لأمهاتِ المؤمنين، وتأديب لهنَّ يدل على رفعة مكانتهنَّ، فالله سبحانه تولَّى تأديبهن، بينما أمرَ المؤمنين بتأديب أزواجهم، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ أي: احفظوا أنفسكم وأزواجكم من النار بالتأديب، وأمرهم بالخير، ونهيهم عن الشرِّ.

فالرجلُ مسؤولٌ عن نفسه وعن أهل بيته، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وفي الحديث الشريف: أنه ﷺ قال: «**كلُّكُم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ، والأميرُ راعٍ، والرجلُ راعٍ على أهل بيته، والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ زوجها وولدِه، فكلُّكم راعٍ، وكُلكم مسؤولٌ عن رعيته**» [رواه البخاري (٥٢٠٠)].

فعلى الرجل أن يحمل نفسَه وأهل بيته على طاعة الله تعالى.

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي: تتقد نارُ جهنم بهما كما يتقد غيرها بالحطبِ.

﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: على النار ملائكة موكلون عليها، يعذِّبون أهلها، غلاظُ الأقوالِ والأجسامِ، شدادُ

الأفعالِ أقوياء، لا يعصون أمره تعالى، ويفعلون ما يأمرهم به، فهم يبادرون إلى طاعة الله، ولا يتثاقلون عن تنفيذ أمره.

ثم أشعرتِ الآياتُ المؤمنين بمسؤوليتهم عن أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، فعظَّمت شأنَ هذا اليوم، فهو يومٌ لا عذرَ فيه لأحدٍ، ولهذا يقال فيه للكافرين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

في الدنيا من الكفر والمعاصي.

* * *

التوبة النصوح

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

ثم أمرتهم بالتوبة النصوح:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: توبة بالغة في النصح، تصلح ما أحدثته المعصية من خلل في الدين، مأخوذة من النصاحة وهي الخياطة.

أو: توبة خالصة، من قولهم: عسلٌ ناصحٌ؛ إذا خلص من الشمع.

أو: تنصح صاحبها بترك العَوْدِ إلى الذنب.

قال العلماء: التوبةُ واجبةٌ من كلِّ ذنب على الفور، ولا يجوزُ تأخيرُها، سواء كانت المعصية صغيرةً أو كبيرةً[١].

ولا بدَّ أن تستجمع التوبةُ ثلاثةَ أمورٍ: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على ألَّا يعودَ إلى مثلها أبداً، وإن كانت تتعلَّق بحق آدمي لزم ردُّ الحقِّ إلى صاحبه أو طلب البراءة منه.

وبعد أن أوجب الله تعالى على المؤمنين التوبة أطمعهم في قبولها تفضلاً وتكرماً بقوله:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ والمراد بالنبي سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وعليهم وسلم، والمراد بنفي الإخزاء: إثباتُ أنواع الكرامة والعز.

والخزي: الفضيحة، يقال: أخزى الله فلاناً: فضحه، أو الانكسار والذلة يقال: خزي الرجل؛ لحقه إنكسار إما من نفسه حياءً، وإمَّا من غيره أو منهما جميعاً[٢].

وعطف الآية للمؤمنين على النبي ﷺ فيه تشريفٌ كبيرٌ لهم، وتعريض بمن أخزاهم من أهل الكفر والفسوق.

---

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٣٠٥.

(٢) روح المعاني: ٢٨/ ١٦١.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ وهو كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: يقولون ذلك عندما ينطفئُ نورُ المنافقين.

أو يقولون ذلك لتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم، فيسألون إتمامه تفضلاً.

ثم أمرتِ الآياتُ النبيَّ ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ومعاملتهم بغلظة وشدة، فإنَّ في التشديد عليهم مصلحة لهم لعلها تسوقهم إلى الإيمان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

إن أصرُّوا على الكفر والنفاق حتَّى الموت، فمعاملة الكفار والمنافقين تختلِفُ عن معاملة المؤمنين والمؤمنات، فإنَّ أساسَ معاملة المؤمنين والمؤمنات قائم على المودة والرحمة، بينما أساس معاملة الكفار والمنافقين قائم على الشدة والخشونة والغلظة.

ثم خوَّفتِ الآياتُ أزواجَ النبي ﷺ، لأن كونهن نساءه لا يفيدهن إن أتين بما يحظر عليهن:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ضربَ الله مثلاً لحال الذين كفروا في الدنيا والآخرة.

﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ أي: كانتا في عصمة نبيين كريمين، فالحالة التي كانتا عليها في الدنيا داعية لهما إلى الخير والصلاح.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: بالكفر والعصيان، مع تمكنهما من الإيمان والصلاح، فخيانتهما كانت بالكفر والنفاق، وهي مخالفةُ الحقِّ، ولا تفسَّر هنا بالفجور، فما بغتِ امرأةُ نبيٍّ قط، إنَّما كانت خيانتهما في الدين، والزنى من المنفِّرات لا يقع أبداً من أزواج الأنبياء.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: فلم يدفعا عن امرأتيهما شيئاً من عذاب الله.

﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي: وقيل لهما عند الموت أو يوم القيامة: ادخلا النار مع سائر الداخلين من الكفار الذين لا صلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام، فلا ينبغي لأحد أن يتكل على صلاح غيره، فالكافر لا ينتفع بطاعة غيره من المؤمنين، وكذلك لا تضرُّه معصيةُ غيره، فإنَّ صلة المؤمن بالكافر لا تضر المؤمن.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ كانت امرأةَ أعدى أعداء الله تعالى، آمنتْ باللهِ، وسألته المنزلة العالية في الجنة.

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ في أعلى درجات المقربين، قدَّمت ذكر الجار على الدار.

﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: ونجني من نفس فرعون الخبيثة وكفره وظلمه.

﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: ونجني من قوم فرعون التابعين له في الظلم.

ويبدو أن فرعون لما علم بإيمانها أمر بتعذيبها، فلجأت إلى الله، وسألته النجاة من ظلمهم، وهذا يدل على أنَّ الالتجاء إلى الله عندَ المحن والنوازل من صفات الصالحين، وقد أثنى النبيُّ ﷺ عليها، وبيَّنَ اسمَها ومكانتها فقال: «**كملَ من الرجالِ كثيرٌ، ولم يكملْ من النساءِ إلا آسيةُ امرأةُ فرعونَ، ومريمُ بنتُ**

عمرانَ، وإنَّ فضلَ عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريدِ على سائرِ الطعام» [رواه البخاري (٣٤١١)].

قال ابن حجر رحمه الله: «استُدِلَّ بهذا الحصر على أنهما نبيتان، لأنَّ أكمل النوع الإنساني الأنبياء، ثم الأولياء والصديقون والشهداء، فلو كانتا غير نبيتين للزم ألا يكون في النساء ولية ولا صديقة ولا شهيدة»(١).

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ وهي شهادةٌ من الله تعالى بعفتها وحصانتها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: من روحٍ خلقناه من دون توسُّط سبب، فهي إضافة تمليك وتشريف كبيت الله وناقة الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: وصدَّقت بشرائع الله التي شرعها، وكتبه التي أنزلها كالتوراة والإنجيل، فهي شهادةٌ من الله تعالى بصدق إيمانها وإخلاصها وعلمها. وفي قراءة: **(بكلمة الله وكتابه)** أي: بعيسى والإنجيل.

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: من المطيعين الخاشعين، وهي شهادة أخرى من الله تعالى بإخلاصها في العبادة، فهي من النساء الكاملات كما مرَّ معنا في الحديث الشريف.

وعن **علي** رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**خيرُ نسائها مريمُ بنتُ عمران، وخيرُ نسائها خديجة**» [رواه البخاري (٣٤٣٢)].

ودلَّ الحديثُ على أنَّ مريمَ أفضلُ من آسيةَ امرأة فرعون، وأنَّ خديجة أفضل نساء هذه الأمة.

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٤٤٧.

فالواجب على أزواج النبيِّ ﷺ أن يكنَّ مثل هاتين المرأتين المؤمنتين في طاعتهما لربهما، وفي إخلاصهما في العبادة، وألَّا يتكلنَ على أنَّهما أزواج رسول الله ﷺ.

والجدير بالذكر هنا: أنَّ الطبراني أخرجَ عن **سعد بن جنادة**: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله زوَّجني في الجنةِ مريمَ بنت عمران وامرأة فرعونَ وأختَ موسى**» وهو حديث منكر، فيه يونس بن شعيب قال البخاري: منكر الحديث، وعبد النور قال فيه الذهبي: كذاب[1].



---

(١) ميزان الاعتدال: ٤/ ٤٨١، برقم (٩٩٠٧).



تفسير سورة المُلْك

الخَلْقُ والتَّدْبِيرُ في سُورَةِ المُلْكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحياة والاختيار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾.

مجَّد الله تعالى في أول سورة المُلْك نفسه، وأخبر عن كمال قدرته، فقال:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾.

أي: تزايدَ خيرُ وعطاءُ الذي بيده الملك، فإحسانه تعالى لم يزلْ ولا يزالُ ثابتاً في ازديادٍ.

ومرَّ معنا أن (تبارك) كلمةُ تعظيمٍ، لا تستعمل إلا لتعظيم الله ﷻ، والمستعملُ منها الماضي فقط، وهي إمَّا من البرَكة، وهي كثرةُ الخير وزيادته،

وإمَّا من البِرْكة لدوام الماء فيها وثباته، ولعلَّ المعنى الثاني أنسبُ مع قوله: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فملكه تعالى ثابتٌ دائمٌ.

ثم شرعت الآيات تبين بعض أحكام الملك وآثار القدرة:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي: الذي خلق موتكم وحياتكم أيها المكلَّفون في الدنيا.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ليختبركم في ما بين الحياةِ إلى الموتِ، ويعاملكم معاملة المختبر، فيجازيكم على عملكم، لا على علمه بكم.

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أيكم أصوبُ عملاً، أو خيرٌ عملاً، ولم يقل أكثرُ عملاً، فالمهم أن يكون العمل موافقاً لشرع الله، خالصاً له.

وصيغة التفضيل للترغيب في الترقي في مدارج الطاعات، فالدنيا دار اختبار وفناء، والآخرةُ دارُ جزاء وبقاء.

وقدَّمَ الموتَ لأنه قبل الحياة، فالإنسانُ كان في حكم الموتَى، ثم طرأت عليه الحياة، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ الموتَ صفة وجودية تضاد الحياة لتعلق الخلق به، وذهب بعضهم إلى أنه أمر عدمي، وهو عدم الحياة، وأجابوا عن الاستدلال بالآية بأن الخلق فيها بمعنى التقدير، وهو يتعلَّق بالعدمي كما يتعلق بالوجودي[١] فالتقدير للموت والحياة معاً.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: وهو الغالب المنتقم ممَّن عصاه، الغفور لمن تاب ورجع إلى طاعته.

---

(١) روح المعاني: ٢٩/ ٤.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ وفي قراءة: (تفوُّتٍ) بالتشديد؛ أي: لا ترى فيه من نقص ولا عيب ولا خلل، فخلقُ الرحمنِ محكمٌ متقن، ولهذا قال يتحدَّى كل متأمل ناظر في خلق الرحمن:

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: هل ترى خللاً وعيباً ونقصاً؟!.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: مرتين.

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: يرجع إليك البصر ذليلاً وهو كليل منقطع من التعب والإعياء، فإنك مهما كررت النظر فلن ترى نقصاً ولا خللاً في خلق الرحمن، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [قٓ: ٦].

* * *

الكواكب زينة ورجوم

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾.

وبعد أن وجَّهت الآياتُ الأنظارَ إلى كمال الخَلق وإحكامه وجَّهتها إلى جماله وتناسقه:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: زينا أقرب السماوات إلى الأرض بكواكب مضيئة بالليل.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ﴾ أي: وجعلنا لها فائدة أخرى، وهي رجم الشياطين الذين يسترقون السمع، قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصَّافات].

فالله خلق هذه النجوم زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدَى بها، فالشُّهبُ التي يُرمى بها تنفصل من هذه الكواكب.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: وهيأنا للشياطين عذاب السعير في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا.

وهذا العذاب ليس مختصّاً بالشياطين وحدهم، فهو مهيأ لكل من كفر بالله من الإنس والجن:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾.

وقرئ: **(عذابَ جهنم)** بالنصب عطفاً على **(عذابَ السعير)**.

* * *

حسرة وندامة

﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾

ووصفت الآيات شدة هول هذا العذاب بقوله تعالى:

﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾.

أي: إذا طُرحوا في جهنم سمعوا لها صوتاً منكراً وهي تغلي بهم غليان المِرْجل بما فيه.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨﴾.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ أي: تكاد تتقطع غضباً عليهم، وهو تمثيل لشدة اشتعالها بهم.

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ يحذركم من هذا العذاب، وهو سؤال توبيخ وتقريع.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩﴾.

أي: فكذَّبنا الرسل، وأفرطنا في التكذيب، حتى نفينا الإنزال والإرسال وقلنا للمرسلين: ما أنتم إلا في ضلال كبير.

وأضافوا بعد اعترافهم هذا متحسرين نادمين:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

أي: لو كنا نسمع كلام الرسل ونستجيبُ له ونعقلُ حكمه ونعملُ به ما كنا في عدادِ المعذَّبين في السعير، فمدار التكليف على أدلة السمع والعقل، وهما حجتان متلازمتان.

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

أي: فبُعداً لهم عن رحمة الله تعالى وكرامته، فإنَّ اعترافهم لا ينفعهم.

ثم بينت الآيات بعد هذا الوعيد الشديد فضل الذين يخشون ربهم بالغيب، وما لهم عنده من المغفرة والأجر:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يخافون عذابه ولم يعاينوه بعدُ، أو وهم غائبون عن أعين الناس، أو يخشونه وهم لا يرونه لأنه تعالى يراهم.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وما دام الأمر كذلك فأخلصوا في عبادته، وأقبلوا على طاعته، فإنه عليم بجميع أحوالكم وأقوالكم.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾.

أي: إنه عالم بضمائرها ودخائلها، وكيف لا يعلم ما فيها وهو خالقها؟!.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وهو العالم بدقائق الأشياء وحقائقها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: مسخرة لكم، وفيها أسباب معاشكم وحياتكم.

﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ لاكتساب الرزق في الأرض، فالأرضُ مسخرةٌ للإنسان، وجعل الله فيها كلَّ ما يحتاجُ الإنسانُ إليه من أسباب الحياة والعيش، وما عليه إلا أن يسعى في تحصيلِ ذلك، والسعي والعمل أهم أسباب تحصيل الرزق.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: وكلوا من رزقه الذي خلقه لكم، وتفضَّل به عليكم، واشكروه على ذلك بطاعته وعبادته، فإنَّ مرجعكم بعدَ الموتِ إليه في يوم الحساب والجزاء.

* * *

الخسف والحاصب

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وأنتم دائماً وأبداً في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته، فاخشوه وعظِّموه، ولا تأمنوا عذابه.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من هو إلـٰه معبود في السماء كما هو إلـٰه معبود في الأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

فالسماء خلقٌ من خلقه تعالى، وهي في قبضة قدرته ومشيئته كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فله سبحانه صِفَةُ العلو والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود، لأنها صفات الأجسام، وإنما تُرفع الأيدي بالدعاء إلى السماء، لأنَّ السماء مهبط الوحي، وإليها تُرفع أعمالُ العبادِ، كما يتجه المصلون إلى الكعبة في الصلاة، قرر ذلك القرطبي رحمه الله، ثم قال: «لأنه خلق الأمكنة، وهو غيرُ محتاج إليها، وكان في أزله قبلَ خلق المكان والزمان، ولا مكان ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان»[١].

وفي قراءة: (آمنتم) بإدخال ما بين الهمزتين ألفاً، (وا أمنتم) بإبدال الأولى واواً لضم ما قبلها وهو راء (النشور).

﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: أأمنتم أن يغيِّبكم في الأرض كما فعل بقارون، فإذا هي تضطرب بكم وتهتز عندما تغيَّبون في داخلها.

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾.

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ أي: ريحاً تحمل حجارة ترميكم بها.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/٢١٦.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: فستعلمون حينئذٍ كيف إنذاري إذا عاينتم عذابي.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ولقد كذب الذين من قبل الكفار المعرضين، فكيف كان إنكاري عليهم عندما أهلكتهم؟! ألم يكن عظيماً شديداً؟!.

ومما يدل على قدرته تعالى على الخسف وإرسال الحاصب:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: باسطات أجنحتهن في أثناء الطيران.

﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: ويضممنَ أجنحتهنَّ فيكونُ القبضُ تارةً بعدَ تارةٍ كما يفعل السابح في الماء.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: ما يمنعهنَّ عن الوقوعِ عند القبض والبسط إلا الرحمن.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ يعلم سبحانه كيفيةَ إبداع المبدَعات، وتدبير أمر المخلوقات، فهو الذي قدَّر أسبابَ الخلقِ، ودبَّر أمرها بمشيئته وقدرته جل وعلا.

ثم انتقلت الآيات بأسلوب الإضراب من توبيخهم على ترك التأمل في أحوال الطير التي تدل على كمال قدرته وعموم رحمته، إلى توبيخهم على اعتقادهم بأنَّ لهم ناصراً غير الله يمنعهم من بأسه وعذابه، ويرزقهم إن أمسك رزقه عنهم:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: مَنْ هذا الذي ينصركم من عذاب الرحمن؟!.

ثم قرر بعد هذا التوبيخ أنهم في ضلال عظيم فاحش:

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ صدَّهم عن الإذعان للحق وحجبهم عنه.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ أي: من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده؟! فلا أحد يُعطي ويمنع ويخلق ويرزق إلا الله.

ومع ذلك فالقوم لا زالوا على عنادهم وإعراضهم:

﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: استمروا في استكبارهم وإعراضهم.

ثم وصفت الآيات بعض ما ينتظرهم يوم القيامة، لعل استكبارهم وعنادهم يزول عنهم:

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

فالكافر يمشي يوم القيامة منحنياً على وجهه، لا يدري أين يسلك، بل هو تائه حائر؛ قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

بينما المؤمنُ يمشي سويّاً منتصبَ القامة على طريق واضح بيِّن.

* * *

المصارحة بالحقيقة

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠)﴾.

بعد هذا التوبيخ والوعيد أمرت الآيات النبي ﷺ أن يواجههم بالحقيقة، ويصارحهم بها، لكي يذعنوا لها ويؤمنوا بها:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣)﴾.

أي: ومع ذلك لا تشكرون الله شكراً قليلاً على ما أنعم عليكم من النعم العظيمة الجليلة، فأنتم لا تسمعون المواعظ، ولا تنظرون آثار قدرته، ولا تتفكرون بآياته.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾.

أي: هو الذي خلقكم في الأرض وإليه تحشرون للجزاء والحساب لا إلى غيره.

وبقي القوم بعد كل هذا الوعيد والتذكير مُصِرِّين على عنادهم وضلالهم:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾.

يقولون ذلك استبعاداً لوقوعه.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إن العلم بوقت وقوعه لا يعلمه إلا الله، فما أطلع عليه ملكاً مقرَّباً ولا نبيّاً مرسلاً.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وإنَّما أنا نذيرٌ مبين، أنذركم بوقوعه، وأبيِّنُ لكم أحكام الشريعة والدين.

ثم وصفت الآياتُ أحوالهم عندما تقوم القيامة ويرونها بأسلوب الوقوع والحدوث تأكيداً لوقوعها وحدوثها:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: فلما رأوا العذاب قريباً منهم ساءهم ذلك، وجاءهم من الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، فعلا وجوههم القتر والذلة، وغشيتها الكآبة.

ويقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ:

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: تستعجلون أو تطلبون عندما كنتم تقولون منكرين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥].

ثم أمر النبي ﷺ بعد هذه المصارحة وما فيها من تهديد وتوبيخ أن يدعوهم بأسلوب المحاكمة العقلية المنطقية:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأبقانا، وأخَّر آجالنا، فهو الخالق المدبر يفعل ما يشاء.

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لا ينجيهم أحد من العذاب، أهلكنا أو أبقانا، فنحن مع إيماننا خائفون؛ فمن يمنعكم من عذابه وأنتم كافرون؟!.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي أدعوكم إليه، له وحده الخلق والتدبير، ولهذا:

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فلم نكفر به كما كفرتم، وفوضنا إليه أمورنا.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فستعلمون عند نزول العذاب ومعاينته مَنْ هو في ضلال مبين نحن أم أنتم. وقرئ: **(فسيعلمون)** بالياء.

وأقرب دليل عملي ملموس على ذلك:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض لا تستطيعون الوصول إليه.

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ ظاهر تراه العيون، وتناله الأيدي، غير الله الخالق المدبر جل وعلا.

والجدير بالذكر أن هذه السورة تسمَّى: **المانعةُ، والمنجيةُ، والمجادلةُ**، لأن الله تعالى يحمي أصحابها من عذاب القبر.

فقد أخرج **الطبراني**: عن **ابن مسعود** ﷺ قال: كنَّا نسميها على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ المانعةَ.

وأخرج **الترمذي** [٢٨٩٠] وغيره: عن **ابن عباس** ﷺ قال: ضربَ بعضُ أصحابِ النبيِّ ﷺ خباءَه على قبرٍ، وهو لا يحسبُ أنه قبرٌ، فإذا قبرُ إنسانٍ يقرأُ سورةَ المُلكِ حتى ختَمَها فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «**هي المانعةُ، هي المنجيةُ تنجيه من عذابِ القبرِ**».

وكان سيدي الشيخ محمد الحامد ﷺ يقرؤها مساء كل يوم، ويوصي بقراءتها، وجاء في فضلها أخبار كثيرة؛ منها: ما أخرج **الإمام أحمد** [٧٩٦٢] **وأبو داود** [١٤٠٠] **والترمذي** [٢٨٩١] **والنسائي في الكبرى** [١٠٤٧٨] **وابن ماجه**،

والحاكم وصححه [٣٧٨٦] وابن حبان [٧٨٧]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ سورةً في القرآن ثلاثون آيةً شفعت لصاحبها حتَّى غُفِرَ له:** ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾».





٦٨

تفسير سورة القَلَم

الاسْتِدْرَاجُ فِي سُورَةِ القَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صاحب الخُلق العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

بدأ الله تعالى سورة القلم بالقسم به فقال:

﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾.

﴿نٓۚ﴾ وهو حرف من حروف الهجاء، والله أعلم بالمعنى المراد منه، ويؤيد أنه حرف سكونه وكتابته بصورة الحروف، وقُرئ بسكون النون وإدغامها في واو (**والقلم**).

﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ المراد كل قلم يكتب به، فهو الوسيلة الأساس للتعليم، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق].

نبَّه تعالى بهذا القسم على ما أنعمَ به من تعليم الكتابة التي بها تُنال العلوم ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يكتبون.

وقد يرادُ به القلمُ الذي أجراه الله بالقدر، ففي الحديث: عن **الوليد بن عبادة بن الصامت** قال: دعاني أبي حين حضره الموتُ فقال: إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إنَّ أولَ ما خلقَ اللهُ القلم فقالَ: اكتبْ، قال: يا ربِّ وما أكتبُ؟ قال: اكتبِ القدرَ وما هو كائنٌ إلى الأبد**» [أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥) وقال: حسن صحيح غريب].

وجواب القسم:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

أي: ما أنتَ يا محمد برحمة ربك بمجنون.

وهو رد لقولهم الذي حكاه سبحانه عنهم في قوله الكريم: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

فنعمة الله تعالى ظاهرةٌ على النبيِّ ﷺ، فقد جمع له تعالى كمال الخَلق والخُلق، وبرَّأه من كل عيب، فهم كاذبون في قولهم: (**إنك لمجنون**)، ثم بشره ربه بالأجر العظيم:

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾.

أي: وإن لك لأجراً على احتمال ذلك الأذى والصبر عليه غير منقوص ولا مقطوع، فلا ينبغي أن تمنعك افتراءاتهم عن الاستمرار على طريق دعوتهم وتبليغهم رسالة ربهم وإقامة الحجة عليهم.

ثم شهدَ له جل وعلا شهادةً عاليةً تؤكد مضمون قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

فمن كان كذلك لا ينسب إلى الجنون.

فأخلاقه عليه الصلاة والسلام عظيمةٌ كاملةٌ حميدةٌ، بلغت الغاية العالية في الكمال، حتى إنَّ **السيدة عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها قالت لسعد بن هشام عندما سألها عن خُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ: **ألستَ تقرأُ القرآن؟** قال: بلى، قالت: **فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كانَ القرآنَ.** [رواه مسلم (٧٤٦)]. زاد **البيهقي** في «دلائله»: **يرضى برضاه، ويسخط بسخطِهِ.**

ومن المعلوم: أنَّ الله جمعَ في القرآن الكريم كلَّ مكارم الأخلاق، وكلها اجتمعت في رسول الله ﷺ، وورود هذه الشهادة الربانية في سياق القسم الإلٰهي بالقلم وما يسطرون دلَّ على أن أعظم المقدرات التي كتبها القلمُ في لوح المقادير: إنك يا محمَّدُ لعلى خلق عظيم، لقد اجتمع فيه ﷺ ما جبله الله عليه من الخُلُق العظيم في أصل فطرته الكريمة، مع امتثاله لما في القرآنِ الكريمِ من الأخلاق الكريمة والمثل الإنسانية الرفيعة، وهذا ما جعلَ السيدةَ **عائشةَ** رضي الله عنها وهي أقربُ الناس إليه تقول: **إنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآن.**

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: **كانَ رسولُ اللهِ ﷺ أحسنَ الناسِ خُلقاً.** [رواه مسلم (٢٣١٠)].

وقد بعثه الله تعالى ليتمم للبشرية مكارم الأخلاق، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنَّما بُعثت لأتمم صالح الأخلاقِ**» [رواه أحمد (٨٩٣٢) وقال مصحح المسند: إسناده صحيح، والبزار (كشف: ٢٧٤٠) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٠٤)].

قال القاضي عياض: وكان ـ في ما ذكره المحققون ـ مجبولاً عليها من أصل خلقته وأول فطرته، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلٰهي وخصوصية ربانية[١].

---

(١) الشفا في حقوق المصطفى: ١/ ٥٤٥.

ثم بيَّن تعالى أن إمهال المشركين وتأخيرَ العذابِ عنهم إنَّما هو استدراج لهم ومكر بهم:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾.

أي: فستعلم ويعلمون؛ أو سترى وسيرون؛ حين يميز الله بين الحق والباطل.

﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

أي: الذي افتتن عن الحق، وضلَّ عنه، فهو كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾ [القمر].

أو أيكم الذي فُتن بالجنون، ودخلتِ الباءُ في قوله: ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ أو بأي الفريقين منكم المجنون، وفي أيهما يوجَدُ من يستحق هذا الوصف.

ويقوي المعنى الأول قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وهم المجانين على الحقيقة.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وهم الذين انتفعوا بعقولهم، وساروا في طريق الهدى والرشاد.

* * *

تحقير المكذِّبين وفضح عيوبهم

﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

ووجهت الآيات النبي ﷺ للثبات على طريق الدعوة واحتمال أذى المشركين:

﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾.

لدعوة الحق وهي دعوة التوحيد، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

أي: تمنَّوا أن تُصانعهم وتترك بعض ما أنت عليه، فتلين لهم ويلينوا لك بترك الطعن والأذى.

وأصل **الإدهان**: اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام، ويبدو أنهم كانوا يدعون النبي ﷺ ليكفَّ عن تسفيه أحلامهم، وعيب آلهتهم، وشتم آبائهم، ليكفوا عن أذاه، فثبته تعالى وأنزل في ذلك قوله الكريم: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وبعد النهي عن طاعة عموم المكذبين خصَّت بالذكر بعضهم:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

أي: كثير الحلف بالباطل، حقير، فالإنسان إنما يكذب لمهانة نفسه عليه.

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾.

أي: عيَّابٍ فتَّانٍ يسعى بالنميمة ليفسد بين الناس.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: بخيل بالمال.

أو: يمنع ولده وعشيرته عن الدخول في الإسلام.

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: ظلوم يتعدَّى الحق ولا يرضى به، فاجرٌ يتعاطى الآثام.

﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾.

﴿عُتُلٍّۭ﴾ أي: غليظ سيئ الخلق.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي: وهو مع ما وصفناه من الصفات المذمومة زنيم، وهو الدعيُّ الملصَقُ في القوم، وليس منهم، أو الذي لا أصل له، قال ابن قتيبة: لا نعلمُ أنَّ الله وصفَ أحداً، ولا ذكر من عيوبه مثل ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة، فألحقَ به عاراً لا يفارقُه في الدنيا ولا في الآخرة[1].

ومعظم المفسرين على أنَّ هذه الآياتِ نزلت فيه، لكن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم، ولفظ الآية: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ يدل على العموم، فالآياتُ تنسحِبُ على كل من اجتمعت فيه هذه الصفات التسع.

ثم كشفت الآيات سبب إظهار قبائحه وعيوبه:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾.

أي: جعل في مقابلة النعم التي أُعطيها من المال والبنين الكفرَ بآياتنا.

---

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٣٢٨.

وفي قراءة: (أأن كان) على الاستفهام، وبعضهم حقَّق الهمزتين، وبعضهم سهَّل الثانية.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: سنكويه على أنفه، فنجعل له علامةً يُعْرَفُ بها يوم القيامة.

أو: سنلحق به ذلة وعاراً لا يفارقانه، إذ الأنف مكانُ العزةِ والحميةِ، واشتقُّوا منه الأنفة، وقالوا في الذليل: رغِم أنفه.

وفي لفظ (**الخرطوم**) استهانةٌ به، لأنه لا يستعمل إلا في الفيل والخنزير، وقد ألحق الله به بما ذكر في هذه الآيات من عيوبه عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة كالوسم على الخرطوم الذي لا يخفى ولا يُمْحَى.

وهكذا رفعت الآياتُ النبيَّ ﷺ إلى أعلى عليين، وأنزلت عدوه إلى أسفل سافلين.

* * *

قصة أصحاب الجنة

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

لقد وضع هذا الرجل الكفرَ مكان الشكر، فقد كان ذا مال وبنين حاله في هذا كحال جميع المكذِّبين من مشركي مكة، إذ كانوا في جوار حَرَم الله، يتمتعون

بالأمن والغنى، فكفروا بنعمته تعالى بدل أن يشكروه قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

فتوعَّدهم الله بأن يبتليهم بالجوع والقحط وهلاك الأموال كما ابتلى قبلهم أصحاب الجنة، فقال:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: إنا اختبرنا أهل مكة كما اختبرنا أصحاب الجنة.

ويظهر أنّ أهل مكة كانوا على علم بقصة أصحاب الجنة؛ وهي بستان باليمن قرب صنعاء ـ كما ذكر المفسِّرون ـ ولعلَّها كانت قريبةٌ من مكة المكرمة في الطائف فهي قريبةٌ من مكة، وفيها كثير من المزارع والبساتين، ورثها أصحابها عن أبيهم الذي كان يُعطي جزءاً من ثمارها للمساكين عند القطاف وجني المحصول، ولما مات أبوهم وصارت لهم:

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا ليقطعُنَّ ثمرها إذا أصبحوا قبل أن يحضر المساكين جرياً على ما عوَّدهم أبوهم.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

حصَّةَ المساكين كما كان يفعل أبوهم.

أو: حلفوا أيماناً مؤكدة من غير أن يعلقوها على مشيئة الله تعالى، ويضيفوا إلى لفظها: إن شاء الله.

ولما أَيْنَعَتْ ثمارُها وحان وقتُ قطافها دمَّرها سبحانه وحرمهم منها:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: نزل عليها بلاء بمشيئة الله تعالى وتقديره في ليلة قطافها وهم نائمون.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

كالبستان الذي صُرِمَتْ ثمارُه وكالزرع المحصود، فالصريم بمعنى المصروم؛ أي: المقطوع ما فيه.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فنادى بعضهم بعضاً لمَّا أصبحوا.

﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: اخرجوا إلى بستانكم إن كنتم قاطعين ثماره.

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: يتحدَّثون سِرّاً فيما بينهم.

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: يقولون: لا تمكِّنوا مسكيناً من الدخول.

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

وغدوا قاصدين إلى جنتهم، قادرين عند أنفسهم على صرامها وحرمان المساكين منها، أو قادرين على نكد لا غير.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: لمخطئون الطريق، وليست هذه جنَّتنا.

لكنَّهم لمَّا تأملوها عرفوا أنها جنَّتهم.. قالوا:

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قد حُرِمْنا خيرها ونفعها.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قال أعدلهم رأياً: ألم أقل لكم: هلَّا تستغفرون الله وتتوبون إليه من ذنوبكم وعزمكم على منع المساكين حقهم؟!.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

نزَّهوا الله عن الظلم فيما فعل بجنتهم، وأقروا على أنفسهم بالظلم.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

يلوم بعضهم بعضاً؛ فإن منهم من أشار به، ومنهم من أنكره ثم رضي به.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾.

متجاوزين حدود الله.

﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

طالبون منه الخير، راجون عفوه.

فأبدلهم الله خيراً منها ببركة إخلاصهم وتوبتهم. وفي قراءة: **(يبدِّلنا)** بالتشديد.

* * *

التوبيخ والتحدي

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

وعقب الله تعالى على قصتهم بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: كذلك العذاب في الدنيا لكل من سلك سبيلهم.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولعذاب الآخرة أعظم منه؛ لو كانوا يعلمون لما فعلوا ما يُفْضي إليه.

ثم بيَّن تعالى ضرورةَ الجزاء يوم الحساب للتمييز بين المؤمنين والكافرين، فليس من الحكمة التسويةُ بينهما، وقرر في مقابل ما ذُكر من عذاب الآخرة للكافرين ما للمتقين من الثواب العظيم في جنات النعيم:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم ردَّت الآيات مزاعم الكفار الذين كانوا ينكرون يوم القيامة، ويقولوا: إن صحَّ أننا نبعث كما يزعم محمد والمؤمنون، فسيكون حالنا فيها أحسن من حالهم، وكما فُضِّلنا عليهم في الدنيا بالمال والجاه سنفضَّل عليهم في الآخرة:

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

وهو تقرير لما قبله من فوز المتقين بجنات النعيم، وردٌّ لمزاعمهم الباطلة أكدته الآياتُ بأسلوب الالتفاتِ تعنيفاً وتوبيخاً لقائليه.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: أي شيء حصل لكم من خلل في العقل وفساد في الرأي؟! فمثل هذا القول لا يصدر من عاقل.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: هل لكم كتاب نازل من السماء تقرؤون فيه؟!.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: لما تشتهون وتريدون، فالأمر مفوَّض إليكم، والحكم منوط بمشيئتكم. ولا يخفى ما في الآيات الكريمة من تهكُّم مرير بهم.

وتابعتِ الآياتُ هذا التهكم اللاذع المرير:

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ﴾ أي: ألكم عهود ومواثيق مؤكدة لا تنقطع ولا تبطل حتى تبلغ ذلك اليوم ويحصل لكم المُقْسم عليه؟! وهو:

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله تعالى.

ثم وجهت الآيات الخطاب إلى النبيِّ ﷺ تأمره أن يتحداهم موبخاً لهم:

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: كفيل بذلك الحكم.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ أي: ألهم شركاء يشاركونهم في هذا القول، أو يشهدون لهم بصدقه وصحته؟!.

﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فلا أحد يقر لهم بهذا ويساعدهم عليه ويقلدهم فيه.

وبهذا نفت الآياتُ جميعَ ما يمكن أن يتشبثوا فيه من عقل أو نَقْلٍ أو وعد أو محض تقليد.

* * *

الأمر العظيم

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

وأضافت إلى ذلك وصف هول يوم القيامة، وما يصيبهم فيه من ذلة وخوف وفضيحة:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي: يوم يشتد الأمر، ويعظم الخطب كقولهم: شمَّرت الحربُ عن ساقها؛ أي: اشتدت، والأصلُ في أنَّ مَنْ وقع في شيء يحتاجُ فيه إلى الجد شمر عن ساقه، ومنه تشميرُ المخدَّرات عن سوقهن في الهرب، فإنهنَّ لا يفعلن ذلك إلا إذا عظم الخطب، واشتد الأمر، فيذهلن عن الستر ومنه قول الشاعر:

أخو الحربِ إنْ عَضَّتْ به الحربُ عَضَّها وإن شَمَّرَت عن ساقِها الحربُ شَمَّرا

أو: يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عياناً، مستعار من ساق الشجر وساق الإنسان، وتنكيره للتهويل أو للتعظيم[1].

(١) تفسير البيضاوي: ٦/ ٣٣٤.

ويقويه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [قٓ: ٢٢].

وروى ابن كثير في معنى الآية عن ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة، وعن ابن مسعود قال: عن أمر عظيم.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي سعيد** ﷺ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**يكشِفُ ربُّنا عن ساقه، فيسجدُ له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقى مَنْ كانَ يسجدُ في الدنيا رياءً وسمعةً، فيذهبُ ليسجدَ فيعودُ ظهره طبقاً واحداً**» [رواه البخاري (٤٩١٩)].

قال ابن حجر رحمه الله: «أخرجه من طريق حفص بن ميسرة، عن زيد بن أسلم بلفظ: (**يكشف عن ساق**) قال الإسماعيلي: هذه أصح لموافقتها لفظ القرآن، لا يُظَنُّ أنَّ الله ذو أعضاء وجوارح؛ لما في ذلك من مشابهة المخلوقين، تعالى الله عن ذلك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]»(١).

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ويُدعى الكفار إلى السجود لا تكليفاً ولكن توبيخاً على تركهم السجود في الدنيا، فلا يستطيعون السجود، ولا يقدرون عليه من شدة ما يعتريهم من رعب وخوف.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: ذليلة أبصارهم تعلوهم كآبة ومهانة، وتسوَدُّ وجوههم كما في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس].

﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ أي: وقد كانوا في الدنيا يُدعون بألسنة الرسل إلى السجود لله تعالى وهم متمكِّنون منه لا يمنعهم منه مانع.

وتابعت الآياتُ تسلِّي النبيَّ ﷺ وتواسيه عما يلقَى من أذى المكذبين بالقرآن، مع تهديدهم ووعيدهم:

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٦٦٤.

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ أي: فدعني والمكذبين بالقرآن، ولا تشغل قلبك بهم، وكِلْهُمْ إليَّ، فإني أكفيك إياهم.

﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: سَنُدْنيهم من العذاب درجة درجة، بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة من حيث لا يعلمون أنه استدراج، بل يعتقدون أنه من الله كرامة وهو في الحقيقة إهانة، قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون].

فكلما أذنبوا ذنباً جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار والتوبة، وهذا هو الاستدراج، فهو الأخذ من جهة الأمن، يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب هلاكهم، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وقوله أيضاً: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: وأمهلهم، فلا أعاجلهم بالعقوبة، إن عذابي شديد لا يُدْفع ولا يُمْنع.

سمَّى سبحانه إحسانه وتمكينه لهم كيداً كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد حيث كان سبباً لهلاكهم.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي موسى** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله** عز وجل **يُملِي للظالم فإذا أخذَه لم يفلته**» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. [رواه مسلم (٢٥٨٣)].

* * *

الصبر لحكم الله

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

وعادت الآياتُ مرةً ثانيةً تنفي كل شبهة يمكن أن يتشبَّث بها الكفار وهي تخاطب النبي ﷺ تمهيداً لتثبيته وتصبيره:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: أتطلبُ منهم أجراً على تبليغ الرسالة فيثقل عليهم ذلك ويثبطهم عن الإيمان؟!.

والمَغْرم: الغرامة المالية، وهو استفهامٌ بمعنى النفي، أي: لستَ تطلبُ أجراً على تبليغ الوحي، ودعوتك منزَّهة عن أي كسب مادي.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: أعندهم لوح المغيَّبات فهم يكتبون منه ما يحكمون به، ويستغنون به عن علمك؟!.

فلا حجةَ لهم في معارضةِ دعوتك، والسعي في إيذائك، والله سبحانه يمهلهم ولا يهملهم، ويستدرجهم. وما دام الأمر كذلك:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ هو يونس عليه السلام الذي سبق ذكره في الآيات

الكريمة: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا ينبغي لعبدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ من يونسَ بن متَّى**» [رواه البخاري (٣٤١٦)].

قال العلماء: ما قال ﷺ ذلك إلا تواضُعاً، وخَصَّ يونسَ بالذكر لما يُخْشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيصٌ له، فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة[1].

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: إذ نادى وهو في بطن الحوت وهو مملوء غمّاً أو غيظاً، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ويلاحظ أنه تعالى قال في معرض مدح يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، بينما قال هنا في معرض النهي عن اتباعه: (**صاحب الحوت**)؛ لأن كلمة (**ذا**) أبلغُ من (**صاحب**) لاقتضائها تعظيم المضاف إليها والموصوف بها[2].

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهي توفيقه للتوبة والتسبيح وقبولها منه.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: لنبذ بالأرضِ الخالية من الأشجار وهو معاتَب ملوم، لكنه رُحِمَ، فنبذ غير مذموم.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: فاصطفاه ربه فجعله من المستكملين لصفات الصلاح.

* * *

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٤٥٢.

(٢) روح المعاني: ٢٩/ ٤٥.

العين حق

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

فلا بد للنبيِّ ﷺ أن يصبر عليهم حتى يأتي أمر الله بعذابهم، فعداوتهم له شديدة، دلَّ على شدتها قوله تعالى:

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ أي: إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شَزَراً بحيث يكادون أن يزيلوك عن مكانك، أو يهلكوك، من قولهم: نظر إليَّ نظراً يكاد يصرعني.

أو: يكادون يصيبونك بالعين، لولا وقايته تعالى لك وحمايته إياك منهم.

ففي الآية دليلٌ على أنَّ إصابة العين وتأثيرَها حقٌّ بمشيئته تعالى وقدره، وفي الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «**العَيْنُ حَقٌّ، ولو كان شيءٌ سابقَ القدر سبقته العين، وإذا استُغْسِلتُم فاغسلوا**» [رواه مسلم (٢١٨٨)].

وعن **عائشة** رضي الله عنها: **أن رسول الله ﷺ كان يأمرُها أن تسترقي من العين.** [رواه مسلم (٢١٩٥)].

وعن **أم سلمة** رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة ـ سواد مع حمرة ـ فقال: «**استرقوا لها، فإنَّ بها النظرةُ**» [رواه البخاري (٥٧٣٩)].

وقد أجرى الله العادة بوجود كثير من القوى والخواص في الأجسام والأرواح كما يحدث لمن ينظر إليه من يحتشمه من الخجل، فيرى في وجهه حمرةً شديدةً لم تكن قبل ذلك، وكذا الاصفرار عند رؤية من يخافه، وكثير من الناس

يسقمُ بمجرَّدِ النظر إليه، وتضعف قواه، وكل ذلك بواسطة ما خلق الله تعالى في الأرواح من التأثيرات، ولشدة ارتباطها في العين نسب الفعل إلى العين.

وورد في مداواة المعينِ: ما أخرجه **أبو داود** من رواية الأسود: عن عائشة رضي الله عنها أيضاً قالت: كان النبيُّ ﷺ يأمرُ العائنَ أن يتوضَّأ ثم يغتسِلُ منه المعينُ[1].

وفي قراءة: **(لَيَزْلقونك)** بفتح الياء.

﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي: وقت سماعهم القرآن الكريم.. وهذا يدل على اشتداد بُغْضهم للنبي ﷺ وحسدهم له عند سماع تلاوته القرآن الكريم.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: وينسبون النبي ﷺ إلى الجنون؟!.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾.

أي: وما محمد ﷺ إلا شرف للعالمين، فكيف يُنسب إليه الجنون؟!.

أو: ما القرآن إلا ذكر عام للعالمين، لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً وأرجحهم رأياً؛ فكيف يُنسب إلى الجنون؟!.

❁ ❁ ❁

(١) فتح الباري: ١٠/ ٢٠٠.



تفسير سورة الحاقة

الحَقُّ الثَّابِتُ فِي سُورَةِ الحَاقَّةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تعظيم يوم الحق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾.

بدأ الله تعالى سورة الحاقة بتعظيم يوم القيامة وتفخيم شأنه فقال:

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾.

سُمِّيت القيامة حاقَّةً من الحقِّ الثابت، فهي ثابتةُ الوقوع لا ريبَ فيها.

أو: واجبةُ الوقوع، من حَقَّ يحِقُّ بالكسر، أي: وجبَ.

أو: لأن الأمور تُحَق فيها ويصير كل إنسان حقيقاً بجزاء عمله.

أو: لأنها تحق كل مخاصم جاحد لها، يقال: حاققتُه فحققتُه، أي: غالبتُه فغلبتُه. أو: لأنها يوم الحق.

﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾.

مبتدأ وخبر، وهما خبر **(الحاقة)**، والأصل: الحاقة ما هي؟ أي: أي شيء

هي؟ تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولها، حقها أن يُستفهم عنها لعظمها، فوضع الاسم الظاهر موضعَ الضميرِ لزيادة التهويل.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾.

أي: وأي شيء أعلمك ما هي؟! فإنها أعظمُ من أن تبلغها درايةُ أحدٍ، ومهما قَدَّرتَ حالها فهي أعظم من ذلك، فهي لا تُعلم، ولا تبلغها الأوهام والأفكار.

* * *

قوارِع وعبر

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ۝١٢﴾.

فهي حقيقة ثابتة يحق إهلاك المكذبين بها.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤﴾.

أي: بالقيامة التي تقرع الناس بالأفزاع والأهوال، يقال: أصابتهم قوارعُ الدهر، أي: أهواله وشدائده، وهي تقرعُ السماء بالانشقاق، والأرض والجبال بالزلزلة والنسف، والنجوم بالطمس والانكدار.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾.

أي: بالصيحة الطاغية المجاوزة للحد، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ

وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾.

أي: أهلكوا بريح شديدة الصوت، باردة، فهي شديدة العصف، جاوزت الحد والمقدار، فلم يقدروا على الامتناع منها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: سلطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة دائمة من غير فتور ولا انقطاع حتى حسمتهم واستأصلتهم، فلم تبقِ منهم أحداً، بدأت عندَ طلوعِ الشمس من أول يوم وانقطعت عند غروب شمس آخر يوم.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي: فترى القومَ فيها موتى كأنهم أصول نخل ساقطة بالية ليس لها رؤوس.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾.

أي: من نفس باقية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف].

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾.

أي: وجاء فرعون ومن تقدمه من الأمم الماضية وأهل قرى لوط بالفعلة الخاطئة:

وفي قراءة: **(ومن قِبَله)** بكسر القاف وفتح الباء، أي: ومن معه وتبعه من

جنوده، وسُمِّيت قرى لوط: **(المؤتفكات)** لأنَّها ائتفكت؛ أي: انقلبت بهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾.

أي: فعصت كل أمة رسولها فأخذهم الله أخذة زائدة في الشدة كما زادت أعمالهم في القبح.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾.

أي: إنا لمَّا جاوز الماءُ حدَّهُ المعتاد في أثناء الطوفان، حملناكم وأنتم في أصلاب آبائكم في سفينة نوح الجارية، قال تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر].

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: لنجعلها لكم عبرةً ودلالةً على كمال قدرتنا ورحمتنا.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي: وتعقلها وتنتفع بها أذن حافظة منتفعة بما سمعت وحفظت، فلا تترك العمل به، ولا شك أنَّ المراد صاحبها، ولا يُنسب للأذن حقيقة إلا السمع.

وفي قراءة: **(وتعْيها)** بإسكان العين، و**(أذْن)** بتسكين الذال للتخفيف.

* * *

بين يدي الواقعة

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

ثم شرعت الآيات في وصف بعض أحداث القيامة وما يكون بين يديها إثر بيان عظم شأنها وإهلاك مكذبيها:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

وهي النفخة الأولى: نفخة الصعق، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

فنفخة واحدة خرَّبت العالم كله؛ فما أعظمها! ووقع الفعل على النفخة لأنه لم يأتِ قبلها اسم مرفوع، ويجوز نصب **(نفخةً)** على المصدر وقرئ بها، ويقوم **(في الصور)** مقام نائب الفاعل.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾.

أي: رُفعت عن أماكنها بقدرة الله، فضربتا ببعضهما ضربة واحدة.

أو: فبسطتا بسطة واحدة، فصارتا أرضاً مستويةً لا عِوجَ فيها ولا أمتاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه].

ولا شك أن ذلك يؤدي إلى حدوث زلزلة عظيمة في الأرض، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وقال أيضاً: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

وفي قراءة: (**وحمِّلت**) بتشديد الميم على التكثير والمبالغة في تهويل الحمل.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾.

أي: فحينئذٍ قامتِ القيامةُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة].

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾.

أي: فهي حينئذٍ ضعيفةٌ بعدما كانت مُحْكمة قوية.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧﴾.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ﴾ أي: والملائكة يلجؤون إلى أطراف السماء وجوانبها قبل نزولهم إلى أرض المحشر، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقد يكون المراد: والملائكة حول أرض المحشر يحيطون بها.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي: ويحمل عرش ربك فوق الملائكة ثمانية أو فوق أهل القيامة، وهل المرادُ ثمانية صفوف من الملائكة أو ثمانية ملائكة؟ الله أعلم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

وروى **أبو داود** في سننه [٤٧٢٧] بسند جيِّد: عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: أنه قال: «**أُذِنَ لي أن أحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكةِ اللهِ مِنْ حملةِ العرشِ؛ إنَّ ما بينَ شحمةِ أُذنه إلى عاتقِهِ مسيرة سبعمئة عام**».

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾.

أي: تُعرضون على الله تعالى للحساب لا تخفى منكم سريرة ولا حال كنتم تخفونها في الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

وفي قراءة: (لا يَخفَى) بالياء، فالله يظهرُ أحوال الخلائق في ذلك اليوم، فالمحسنون يسرُّون بإحسانهم، والمسيئون يحزنون بإساءاتهم.

* * *

أصحاب اليمين

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم وصفتِ الآيةُ أحوال هذا العرض، وبدأت بأصحاب اليمين:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾.

أي: خُذوا اقرؤوا كتابي، أو تعالوا اقرؤوا كتابي.

والأصل: **(كتابي)** والهاء فيه وفي **(حسابيه)** و**(ماليه)** و**(سلطانيه)** للسكت، ولإظهار فتحة الياء، وحقها أن تكتبَ في الوقفِ وتسقطَ في الوصل، كما فعل بعض القراء، وقد استُحب الوقف لثبوتها في المصحف.

والمراد: كتاب الأعمال الذي قال تعالى عنه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: إني أيقنت وعلمت أني أُبعث وأُحاسب يوم القيامة، فلم أنكر البعث، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

ولعلَّه عبَّر عن العلم بالظن إشعاراً بأنه لا يقدح في الاعتقاد ما يهجس في النفس من خطرات لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً[1].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٦/ ٣٤٧.

قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقينٌ، ومن الكافر فهو شك. وقال الحسن في هذه الآية: إنَّ المؤمنَ أحسنَ الظنَّ بربه فأحسنَ العمل، وإنَّ المنافقَ أساءَ الظنَّ بربه فأساء العمل[١].

وجُوِّزَ أن يكون الظن على حقيقته على أن يكون المراد من حسابه ما حصل له من الحساب اليسير، فإن ذلك ممَّا لا يقين له به، وإنما ظَنَّه ورجَّحه لمزيد وثوقه برحمة الله تعالى، ولعلَّ ذلك عند الموت، فقد دلَّت الأخبار على أنَّ اللائق بحال المؤمن حينئذٍ غلبة الرجاءِ وحُسن الظنِّ[٢].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا مَعَهُ إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسِي، وإن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خير منهم، وإن تقرَّب إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً، وإن تقرّب إلي ذراعاً تقربتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً**» [رواه البخاري (٧٤٠٥)].

وعن **جابر** ﷺ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «**لا يموتَنَّ أحدُكُم إلا وهو يُحْسِنُ بالله الظَّن**» [رواه مسلم (٢٨٧٧)].

وعنه أيضاً قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**يُبْعَثُ كلُّ عبدٍ على ما ماتَ عليه**» [رواه مسلم (٢٨٧٨)].

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾.

أي: مرضية يرضى بها صاحبها، وذلك لأنه لقي الثواب، وأمن من العقاب.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾.

رفيعة المكان والدرجات.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ٢٧٠.

(٢) روح المعاني: ٢٩/ ٥٩.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ثمارها قريبة لمن يتناولها، قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. ويقال لهم:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: بما قدمتم من الأعمال الصالحة في أيام الدنيا الماضية.

هذه أحوال أصحاب اليمين.

* * *

أصحاب الشمال

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وأما أحوال أصحاب الشمال:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾.

لما يرى من قبح أعماله وكثرة فضائحه.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: يا ليتني لم أعلم ما حسابي.

﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾.

أي: يا ليت الموتة التي مِتُّها في الدنيا كانت القاطعة لأمري، فلم أُبعث بعدها. فالحالة التي هو فيها أشنع وأمرُّ من الموت.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨﴾.

أي: لم ينفعني ما جمعته في الدنيا شيئاً.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩﴾.

أي: زال عني مُلكي وقوَّتي وتسلطي على الناس، وصرت ذليلاً حقيراً.

والرَّنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة وفي ياء العلة المفتوحة قبلها توحي بعمق الحسرة وشدة الندم، ويقطعها الأمر العلوي الحازم الجازم:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾.

أي: شدُّوه بالأغلال، واجمعوا يديه إلى عنقه.

﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾.

وهي النار العظيمة الشديدة التأجج.

﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝٣٢﴾.

﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾ أي: طولها سبعون ذراعاً، فهي طويلة لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى.

﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾ أي: أدخلوه فيها بأن تلفُّوها على جسده.

ودلَّ تقديم الجحيم والسلسلة على الفعل على التخصيص، وإبراز أنواع ما يعذب به، و(ثم) لتفاوت ما بينها في الشدة.

ومن المعلوم أنَّ الإثارةَ الوجدانيةَ في القرآن ليست غايةً في حدِّ ذاتها، بل هي وسيلةٌ لتربية النفوس وصقلها وتهيئتها لقبول الأحكام، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: ولا يحث نفسه على إطعام المسكين، ولا يأمر أهله بذلك.

فتارك الحض بهذه المنزلة، فكيف بتارك الفعل! فأقبح العقائد الكفر بالله، وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب، فهو لم يقم حقَّ الله على عباده بتوحيده وعبادته، ولم يؤدِّ حقَّ العباد بعضهم على بعض من الإحسان والتعاون على البر والتقوى.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة كما في قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر].

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: ليس له قريب مشفق يحميه من العذاب ويدفعه عنه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

وهو صديد أهل النار، وهو في الأصل ما يجري من الجراح إذا غُسلت.

فهذا لون من ألوان العذاب الذي يعذب به أهل النار، فتارة لا طعام لهم إلا من غسلين، وأخرى من الضريع لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦]، وثالثة من الزَّقُّوم كما مرَّ معنا.

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: أصحاب الخطايا، من خطِئ الرجل إذا تعمَّد الذنب، لا من الخطأ المقابل للصواب.

* * *

تنزيل رب العالمين

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾.

ثم أضاف تعالى تقرير صدق النبي ﷺ وصحة رسالته بالقسم بجميع المكونات الظاهرة والخفية.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠﴾.

أي: إن القرآن لقول رسول كريم على الله تعالى.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ﴾ أي: ليس القرآن بقول شاعر كما تزعمون، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ [يسۤ: ٦٩].

﴿قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ أي: لا تؤمنون إلّا إيماناً قليلاً، فالمراد إظهار عنادهم وشدة جحودهم.

﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾.

﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ﴾ وهو الذي يوهم أنه يعلم الغيب، ويخبر عما في غدٍ من غير وحي، بل بِضَرْبٍ من الظن، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ۝٢٩﴾ [الطور].

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا تتذكرون إلَّا تذكراً قليلاً، فما أقسى قلوبكم!.

فنظم القرآن الكريم وإعجازه البياني أمر ظاهر ينافي نظم الشعر، ولهذا ذكر الإيمان مع نفي الشاعرية، وأحواله عليه الصلاة والسلام وكمال أخلاقه تنافي الكاهنية، وهي تتوقف على تذكُّر أحواله، ولهذا قرن التذكر بنفي الكاهنية.

وفي قراءة: **(يؤمنون، يذكرون)** بالياء.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: هو تنزيل من رب العالمين.

فالقرآن الكريم كلامُه تعالى ووحيُه وتنزيلُه على عبده ورسوله ﷺ الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، ليس له فيه إلا التبليغ، أكد ذلك سبحانه بقوله:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: لو قال شيئاً من عند نفسه فنسبه إلينا لعاجلناه بالعقوبة، وأخذناه بالقوة والقدرة، فعبَّر عن القوة باليمين، لأنَّ قوة كل شيء في ميامنه.

أو: لأذللناه وَأَهَنَّاه، كفعل السلطان لمن يريد أن يهينه يقول لبعض أعوانه: خذ بيده فأقمه، وإنَّما خَصَّ اليمين بالذكر لأنه أشرف العضوين[1].

فالمعنى المراد: لأخذنا بيمين المتَقَوِّل علينا.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وهو العرق الذي يغذي القلب؛ إذا قُطع مات صاحبه، فلو كذبَ علينا وتَقَوَّل علينا قولاً لم نقُله لمنعناه من ذلك بالموت.

---

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٣٥١.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: مانعين يمنعوننا عن عقوبته، وإنما قال: **(حاجزين)** بلفظ الجمع وهو وصف لأحد، لأنه في معنى الجماعة.

هكذا أظهرت الآياتُ عزَّ الربوبية بجانب ضعف العبودية، ولا يقرأ أحدٌ هذه الآيات إلا ويستشعر أنها كلام رب العالمين، ولهذا قال معقِّباً:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: لموعظة بليغة للمتقين. ومع هذا البيان والوضوح:

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

يكذِّبون بالقرآن، أو يكذِّبون محمداً ﷺ، وسيكون تكذيبهم حسرة عليهم يوم القيامة:

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

ولهذا قال تعالى في يوم القيامة: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾.

أي: الحق الثابت من اليقين، أو إنه لعين اليقين، فالقرآن عين اليقين ومحض اليقين في أعلى مراتب العلم والثبوت.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

شكراً لله الذي أوحى إليك القرآن الكريم.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة المعارج

تَحْقِيرُ الـمُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّيْنِ فِي سُورَةِ الـمَعَارِجِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

العذاب الواقع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ (١٣) وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ (١٨)﴾ .

بدأ الله تعالى سورة المعارج بقوله:

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١)﴾ .

أي: دعا داعٍ بعذابٍ نازلٍ وكائنٍ، وذلك على سبيل الاستهزاء والتكذيب.

وقرئ: **(سال)** بغير همز من السؤال أيضاً، إلا أنه خُفِّف بالتليين.

و**(سائل)** مهموز إجماعاً[1].

---

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٣٥٣.

ويبدو أنَّ السائلَ أحدُ كبار المشركين المستهزئين، وذكروا أنه النضر بن الحارث، فقد دعا على نفسه وسأل العذاب، فأنزل الله به وبأمثاله قولَه الكريم: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقيل: هو أبو جهل.

والتعبير بالماضي للدلالة على تحقق وقوع العذاب إما في الدنيا وهو عذاب يوم بدر، وقد قتل فيه النضر وأبو جهل، وإمَّا في الآخرة وهو عذاب النار.

وذكر بعض المفسِّرين أنَّ النبيَّ ﷺ دعا بنزول العذاب عليهم، وهو أمرٌ مستبعَدٌ، لأنه عليه الصلاة والسلام نبيُّ الرحمةِ ما دعا بنزول العذاب عليهم.

وقد يسأل سائل: لمن ذلك العذاب؟ وعلى من ينزل؟ فقال تعالى مجيباً لذلك السائل:

﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾.

أي: ليس له رادٌّ يرده، فالعذاب واقع بهم لا محالة، سواء طلبوه أم لم يطلبوه.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾.

أي: وهو عذابٌ واقعٌ من الله ذي السماوات.

سمَّاها معارج لأن الملائكة تعرج فيها، وأصل **المعارج**: الدرجُ، من عرجَ إذا صعد، فالمعارجُ الطرائقُ التي يصعد فيها.

أو: ذي الدرجات، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

أو: ذي الفواضل والنعم. والمعنى الأول أقوى لقوله تعالى بعد ذلك:

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: تصعدُ الملائكةُ وجبريلُ إلى الله ﷻ، وخصَّه بالذكر لعموم فضله وشرفه. وقرئ: **(يعرج)** بالياء.

﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ وهو مقدار يوم القيامة من وقت البعث إلى أن يفصل بين الخلق.

دلَّ على ذلك الحديث الشريف: الذي يرويه **أبو هريرة** رضي الله عنه، عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: «**ما مِنْ صاحبِ ذهبٍ ولا فضةٍ لا يؤدِّي منها حَقَّها إلا إذا كان يومُ القيامةِ صُفِّحَتْ له صفائحُ من نارٍ، فأحميَ عليها في نار جهنَّم، فيكوى به جنبُه وجبينُه وظهرُه، كلَّما بردت أُعيدتْ له، في يوم كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إمَّا إلى الجنة وإمَّا إلى النارِ**» [رواه مسلم (٩٨٧)].

ولما كان سؤال المشركين عن العذاب تكذيباً لرسول الله ﷺ واستهزاءً به التفتت الآيات إليه تأمره بالصبر والثبات:

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾.

أي: صبراً لا جزع فيه، ولا يشوبه استعجال واضطراب.

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦﴾.

أي: إنهم يرون يوم القيامة بعيداً من الإمكان غير كائن.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾.

كائناً لا محالةَ، فكلُّ آتٍ قريبٌ، ولهذا عظَّمتِ الآياتُ هذا اليوم، وحقَّرت المكذِّبين به وهوَّنت من شأنهم.

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨﴾.

أي: تكونُ ضعيفةً غيرَ متماسكة كالفلزات المذابة على مهل.

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩﴾.

أي: كالصوف المنفوش قبل أن تُنسف وتصيرَ هباء منبثّاً.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

ولا يسأل قريبٌ مشفِقٌ قريباً مشفقاً عن حاله، لابتلاء كل منهم بما يشغله، مع أنَّ كلَّ واحدٍ يبصر الآخر ويعرفه.

وفي قراءة: (ولا يُسأل) على بناء المفعول.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يرونهم، فيرى الرجل أباه وأخاه وقرابته فلا يسألهم.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ أي: يتمنى الكافرُ لو يفتدي من عذاب يوم القيامة بأولاده.

﴿وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾.

وبزوجته وأخيه.

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وبعشيرته التي تضمه ويأوي إليها.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾.

ويتمنى أيضاً لو ملك كل من في الأرض ليفتدي بهم جميعاً، ثم ينجيه ذلك الفداء من عذاب الله، و(ثم) للاستبعاد.

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ لا ينجيه من عذاب الله شيء، وهي كلمة ردع وزجر.

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي: إنها النارُ التي تتلظَّى وتتلهب، فلا نجاةَ منها، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦﴾.

أي: إنها تتلظى نزاعة للشوى وهي جلدة الرأس، أو جلدة الوجه، أو الأطراف اليدان والرجلان. وفي قراءة: **(نزاعةٌ)** بالرفع، أي: هي نزاعة.

﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾.

أي: تدعو من أدبر عن الإيمان، وأعرض عن الحق، فهي تدعوهم بأسمائهم، وقد تكون دعوتها إياهم تعذيبهم.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾.

أي: جمع المال في وعاء، ومنع منه حقَّ الله تعالى، فكان جَموعاً مَنوعاً، ولهذا كان بعض الصالحين من السلف لا يربط كيسَ نقوده، ويقولُ: سمعتُ الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾.

* * *

المكرمون يوم القيامة

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥﴾.

وفي مقابل تحقير المكذبين وتهوينهم عظَّمتِ الآياتُ المصدِّقين بيوم الدين،

فأبرزتْ أعمالهم الحميدة وأخلاقهم الكريمة، وأهمها الصلاة التي تقوِّم طباعَهم، وتهذِّبُ نفوسَهم:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾.

شديد الهلع، فسَّره تعالى بقوله:

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠﴾.

أي: مبالغاً في الجزع، وهو أبلغ من الحزن، لأنه يصرِفُ الإنسانَ عمَّا هو بصدده ويقطعه عنه.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾.

أي: مبالغاً في المنع والإمساك.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾.

وهو استثناءُ الجمعِ من الواحدِ، لأنَّ الإنسانَ الواحدَ في معنى الجمع، فأهلُ الصلواتِ الخمس ليسوا كذلك.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾.

يحافظون عليها في أوقاتها، ولا يشغلهم عنها شاغل.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤﴾.

كالزكوات والنفقات الموظفة عليهم في أوقات معلومة.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾.

للذي يسأل والذي يتعفف عن السؤال فيُحسَب غنيّاً فيُحرَم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦﴾.

تصديقاً يجعلهم خائفين من عذابه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٢٧﴾.

خائفون وجلون، يعملون عمل مَنْ يرجو الثواب ويخاف العقاب.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ۝٢٨﴾.

فلا ينبغي لأحدٍ مهما بالغ في الاجتهاد والطاعة أن يأمنه، بل ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٢٩﴾.

ممسكون لها عمَّا تدعو إليه شهواتهم.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٣٠﴾.

فلا لوم عليهم في قضاء شهوتهم مع أزواجهم، أو ما ملكت أيمانهم، ففي الحلال ما يُغني عن الحرام.

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٣١﴾.

المتجاوزون للحدود المشروعة، فالله حرَّم قضاء شهوة الجنس من غير طريق الزواج الشرعي الصحيح وملك اليمين المشروع الصحيح.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٣٢﴾.

حافظون، **فالراعي**: القائم على الشيء للحفظ والصلاح، فالإسلامُ يوجبُ

حفظَ الأمانات والوفاء بالعهود. وفي قراءة: (**لأمانَتِهم**).

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ۝٣٣﴾.

يقومون فيها بالحق ولا يكتمونها. وفي قراءة: (**بشهادَتِهم**).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾.

يراعون شرائطها، ويكمِّلون فرائضها وسننها.

ويدل تكريرُ ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخراً على فضلها وأهميتها، فالدوام عليها خلاف المحافظة، لأنَّ الدوام يرجع إلى الصلاة نفسها، بينما المحافظة عليها ترجع إلى أحوالها.

﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥﴾.

أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات في جنات مكرمون، فهم يُكرمون بأعلى درجات الجنان وأفضلها لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون].

* * *

أمانيُّ خادعة

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

وكان كبار المشركين في مكة يجتمعون حول النبيِّ ﷺ يستهزئون به

ويكذِّبونه، فهوَّنت الآياتُ من شأنهم، وحقَّرت أمرهم للنبيِّ ﷺ تثبيتاً له في مواجهتهم ودعوتهم.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦﴾.

أي: ما بالهم مسرعين مقبلين إليك مادي أعناقهم وهم ينظرون إليك؟.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾.

أي: عن يمين النبي عليه الصلاة والسلام وشماله جماعات متفرقة، فكأنَّ كلَّ فرقةٍ تعتزي وتنتسب إلى غير من تعتزي إليه الأخرى، وكان رسول الله ﷺ ينكر على أصحابه إذا رآهم كذلك، ففي الحديث: عن **جابر بن سمرة** رضي الله عنه قال: خرجَ علينا النبيُّ ﷺ فرآنا حِلقاً فقال: «**ما لي أراكم عزين؟!**» [رواه مسلم (٤٣٠)].

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨﴾.

بلا إيمان ولا تصديق بيوم الدين، وهو إنكارٌ لقولهم: لو صَحَّ ما يقوله محمد ومن معه لنكونن فيها أفضل حظّاً منهم.

﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن هذا الطمع الكاذب والأماني الخادعة.

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من نطفة مهينة حقيرة أبهم ذكرها إشعاراً بأنه يُستحيا من ذكرها، فمِنْ أينَ يَشْرُفون ويدَّعون التقدم على المؤمنين، فالإنسانُ يشرفُ بالإيمانِ والطاعة ومنْ لم يكن مؤمناً مطيعاً لا يتبوأ منازل الكاملين يوم القيامة.

ثم أكدت الآيات هوانهم على الله تعالى بهذا القسم:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ أي: مشارق النجوم ومغاربها، أو مشرق كل يوم ومغربه، وهو قسم عظيم يشير إلى دقة النظم الكونية وإحكامها وإتقانها.

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: إنا لقادرون على إهلاكهم، وعلى أن نخلقَ أفضلَ منهم وأطوعَ لله، فوجودُهم أمرٌ غيرُ لازمٍ إذ هو منوط بمشيئة الله وقدرته.

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين عن ذلك.

﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: فذرهم يخوضوا في أباطيلهم، ويلعبوا في دنياهم، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون فيه بالجزاء والحساب.

﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ أي: يخرجون من القبور مسرعين.

وفي قراءة: (**يُخرجون**) بضم الياء.

﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ أي: كأنَّهم إلى عَلَمٍ منصوب على الطريق يُسرعون.

والمرادُ أنَّهم يخرجون مسارعين إلى الداعي، والإسراعُ في السير إلى المعبودات الباطلة كان عادة المشركين.

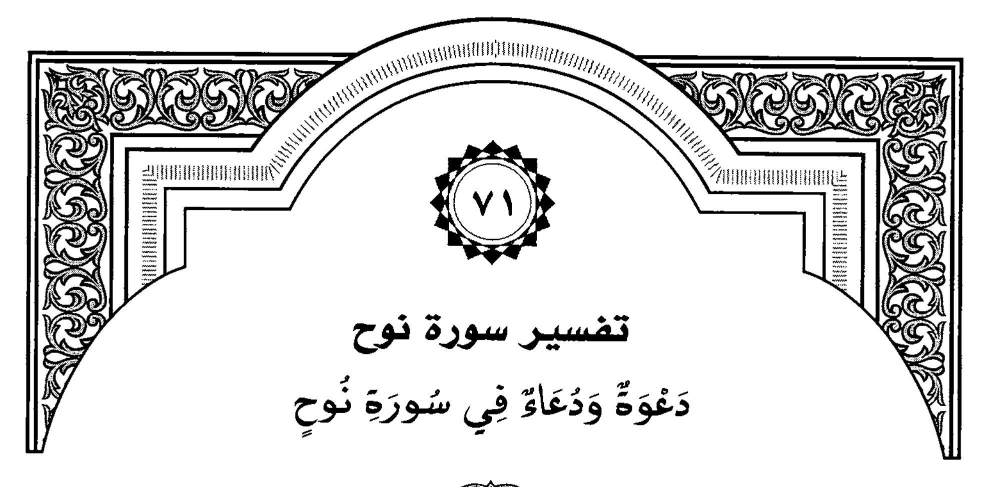
وفي قراءة: (**نَصْبٍ**) بفتح النون وسكون الصاد.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ أي: تغشاهم وتعلوهم ذلَّة شديدة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا وهم يكذِّبون به.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة نوح

دَعْوَةٌ وَدُعَاءٌ فِي سُورَةِ نُوحٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإنذار من العذاب الأليم

> بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
>
> ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ .

أخبر تعالى في أول سورة نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه منذراً لهم من عذاب أليم:

> ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ .

أي: خوِّف قومك وحذِّرهم من قبل أن يأتيهم العذاب الأليم، وهو الغرق بالطوفان.

وبادر عليه السلام إلى تبليغ الرسالة، والقيام بأعباء الدعوة:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

أُبيِّن لكم رسالة الله، وهي:

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾.

أي: اعبدوا الله وحده، واحذروا عصيانه، وأطيعوني في ما آمركم به وأنهاكم عنه، فطاعةُ الرسول طاعة لله تعالى.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أي: ما سلف من ذنوبكم.

﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ أي: ويؤخركم إلى منتهى آجالكم، فلا يعاقبكم، وقد يكونُ المراد أنه تعالى يمدُّ في أعماركم، ويدرأُ عنكم العذابَ.

فقد يستدل بهذه الآية من يقول: إنَّ الطاعةَ والبرَّ وصِلة الرَّحِمِ يزادُ بها في العمر، كما في الحديث الشريف: «**مَنْ أحبَّ أن يُبْسَطَ له في رِزقه، ويُنْسَأَ له في أثرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَه**» [رواه مسلم (٢٥٥٧)].

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فبادروا إلى الإيمان قبل مجيء وقت العذاب، فإنه إذا جاء لا يؤخر، لو كنتم تعلمون لسارعتم لما آمركم به وأدعوكم إليه.

* * *

استمرار الدعوة

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾.

وبذل عليه السلام في الدعوة غايةَ المجهود، وجاوزَ في الإنذار كلَّ حدٍّ معهودٍ، فلَبِثَ يدعوهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

حتى إذا ضاقت عليه الحيل، وقطع منهم الأمل، توجَّه إلى الله تعالى يشكوهم:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾.

أي: دعوة دائمة مستمرة من غير فتور ولا توانٍ.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾.

أي: نفاراً وإدباراً.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧﴾.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ إذا استجابوا وآمنوا.

﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ سَدُّوا أسماعهم عن استماع دعوتي.

﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ وتغطوا بثيابهم كراهة النظر إليَّ.

﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ وأصروا على الكفر، واستكبروا عن اتباعي استكباراً عظيماً.

والجدير بالذكر أنَّ مشركي قريش كانوا يفعلون مثل هذا عندما كان النبيُّ ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

واستعمل نوح عليه السلام أساليب كثيرة في دعوتهم حرصاً على هدايتهم:

﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾﴾.

أي: أظهرت لهم الدعوة في المحافل العامة.

﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾.

أي: ثم إني كررتُ الدعوة معلناً، فلما لم يقبلوا دعوتهم في السر.

وتفنَّنَ عليه السلام في دعوتهم فرغَّبهم تارة:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾.

للتائبين.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾.

أي: مطراً مدراراً كثير الدر والخير.



﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾.

وعنَّفهم تارةً أخرى، ولفت أنظارهم إلى التفكير في بدائع مخلوقات الله المبثوثة حولهم:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾.

أي: ما لكم لا تخافون عظمته؟! أو: لا تأملون له توقيراً؛ أي تعظيماً؟ أو: ما لكم لا تعرفون لله حقّاً، ولا تشكرون له نعمة؟! أو: أي عذر لكم في تركِ الخوف من الله؟!.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: تارةً بعد تارةٍ، وحالاً بعد حالٍ، نطفة ثم علقة ثم مضغة، مما يدل على كمال قدرته تعالى وطلاقة مشيئته.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾.

بعضها فوق بعض.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: نوراً لأهل الأرض في ظلمة الليل، وهو في فضاء السماء الدنيا، وإذا كان في فضاء السماء فهو فيهنَّ.

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي: مضيئةً بذاتها، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

ومن المعلوم: أن الشمس نيِّرة بذاتها، والقمر نيِّر بعرض مقابلة الشمس،

فنوره مستمدٌّ من ضوء الشمس، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

ثم ذكَّرهم بقدرته تعالى عليهم وبفضله ورحمته:

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾.

أي: والله أنشأكم منها فنبتم نباتاً.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: ثم يعيدكم في الأرض بالدفن بعد الموت، ويخرجكم عند البعث إخراجاً محققاً، لا ريب فيه.

وعطف (**يعيدكم**) بـ (**ثم**) لما بين الإنشاء والإعادة من الزمان المتراخي.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾.

تتقلبون عليها كما تتقلبون على البساط والفراش، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: لتتخذوا منها طُرقاً واسعة، و(من) لتضمين الفعل معنى الاتخاذ.

* * *

المَكْر الكبير

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾.

هكذا كانت دعوة نوح عليه السلام؛ أخلصَ في دعوتهم، وتفنَّنَ فيها، وصب فيها حصيلة عمره المديد، وعصارة تجاربه الكثيرة، فماذا كانت النتيجة؟.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١)﴾.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي: لم يجيبوا دعوتي بعد كلِّ هذا الجهادِ والعناءِ، وبعد كل هذا الإنذار والإطماع، وساروا وراء الضالِّين المضلين.

﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: واتبع العامةُ الأغنياءَ والرؤساءَ الذين لم تزدهم كثرةُ الأموالِ والأولادِ إلا ضلالاً في الدنيا ونقصاً في الآخرة.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢)﴾.

أي: مكراً كبيراً عظيماً، فهو من صيغ المبالغة، وهم الرؤساء والقادة مكروا بنوح عليه السلام، فقد كانوا يحرِّضون العامة على أذاه، ويصدُّون الناسَ عن الإيمان به والاستماع إليه، وجمعوا في مكرهم بين الضلال القولي والعملي:

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تدعن عبادتها.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وفي: قراءة (وُدّاً). وهذه الأسماءُ المذكورةُ لخمسةِ أصنام أفردها بالذكر؛ لأنَّها كانت أعظمها عندهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صارتِ الأوثانُ التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ، أمَّا ودٌّ

فكانت لكلبٍ بدومة الجندل، وأما **سُواع** فكانت لهُذيل، وأما **يغوث** فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأمَّا **يعوق** فكانت لهمدان، وأمَّا **نَسْر** فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، وهذه الأسماء كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخَ العلمُ عُبِدت. [رواه البخاري (٤٩٢٠)].

* * *

الدعاء

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤)﴾.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي: أضل الرؤساء خلقاً كثيراً، فالضلال استمرَّ فيهم عبر الزمن الطويل لعمر دعوة نوح عليه السلام.

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ أي: ولا تزد المشركين بعبادتهم الأصنام إلا ضلالاً؛ أي: هلاكاً، وهو دعاءٌ عليهم، دلَّ على أن نوحاً عليه السلام قد امتلأ قلبه غضباً وغيظاً عليهم، فدعا عليهم هذا الدعاء، ولعلَّه دعا عليهم بعدَ أن يئسَ من هدايتهم؛ فقد أعلمه الله تعالى أنَّهم لا يؤمنون كما في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

واستجاب الله تعالى له:

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أي: من أجل خطيئاتهم أغرقوا بالطوفان فأدخلوا ناراً عظيمة، وفي قراءة: **(ممَّا خطاياهم)**.

وتقديم **(مما خطيئاتهم)** لبيانِ أنَّه لم يكن إغراقهم بالطوفان وإدخالهم في النيران إلا من أجل خطيئاتهم، والفاء في **(فأدخلوا)** للإيذان بأنهم عُذِّبوا بالإحراق عقيب الإغراق، فيكون دليلاً على إثبات عذاب القبر[1].

﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ ينصرونهم، ويمنعونهم من عذاب الله.

وكان دعاؤه عَلَيْهِ السَّلَامُ شاملاً كلَّ الكفار ليدل على شدة المعاناة التي تحمَّلها منهم:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: لا تترك أحداً من الكافرين يدور في الأرض.

وأضاف عَلَيْهِ السَّلَامُ على سبيل التعليل قائلاً:

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾.

قال ذلك لما جرَّبهم، واستقرأ أحوالهم، قال ابن عباس وغيره: كان الرجل ينطلِقُ بابنه إلى نوحٍ فيقول له: احذر هذا فإنَّه كذَّاب، وإنّ أبي حذَّرنيه، فيموتُ الكبيرُ وينشأ الصغيرُ على ذلك.

وخشي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكون دعاؤه بسبب ما لقيَ منهم، وأنه كالانتقام منهم، وأنَّ لنفسه حظّاً في ذلك، فأضاف إلى دعائه طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين:

---

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٣٦٨.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ وهذا يدل على أن قومه قاطعوه وهجروه، وصدُّوا الناس عن دخول بيته، كما فعل المشركون في مكة عندما قاطعوا النبي ﷺ والمؤمنين في سنوات المقاطعة.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ أي: هلاكاً ودماراً.

تنبيه: لا بدَّ لي أن أنبه إلى الخطأ الجسيم الذي وقع فيه سيد قطب رحمه الله في ما كتب في «الظلال» في هذه السورة قال: «ولا نملكُ أن نسأل كيف تلبَّست نفخةُ الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني»[1].

وقد سبق ونبَّهتُ إلى مثل ذلك في **سورة الحجر**، وبينتُ خطورته ومصادمته لحقيقة العقيدة الإسلامية، وقد عاد غفر الله له، فكرَّره في **سورة نوح**، وأضاف قائلاً: «كما أنَّ استقرارَ حقيقة الإيمان في حياة البشر ـ جماعةٍ منهم ـ معناه اتصال الفناء بالبقاء، والجزء بالكل، والمحدود الناقص بالكامل المطلق»[2].

وهذا ليس من الإيمان ولا من معناه، ولا من حقيقته، والإيمانُ هو التصديقُ بدعوة التوحيد التي دعا إليها جميعُ الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.

❁ ❁ ❁

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٧٠٨.

(٢) المرجع السابق نفسه.



تفسير سورة الجن

الجِنُّ الـمُؤْمِنُونَ فِي سُورَةِ الجِنِّ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المستمعون للقرآن الكريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾.

أخبر الله تعالى في أول سورة الجن بأنَّ نفراً منهم استمعوا للنبي ﷺ وهو يقرأ القرآن الكريم:

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾.

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي: قل يا محمد: أُعلمت بواسطةِ الوحي أنَّ نفراً من الجنِّ استمعوا إليَّ وأنا أقرأ القرآن.

والنفر: ما بين الثلاثة إلى العشرة.

ودل ظاهر الآية على أنَّ النبيَّ ﷺ ما رآهم، وهو ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما قرأ رسولُ اللهِ ﷺ على الجن وما رآهم، انطلقَ رسولُ اللهِ ﷺ في طائفةٍ من أصحابه عامدينَ إلى سوق عكاظٍ، وقد حِيْلَ بين الشياطين وبين خبر

السماء، وأُرسلت عليهم الشهب، فرجعتِ الشياطينُ إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشهب؛ قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمرَّ النفرُ الذين أُخذوا نحو تهامة وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلِّي بأصحابه صلاةَ الفجر، فلمَّا سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً... فأنزل الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ...﴾. [رواه مسلم (٤٤٩)].

وأثبتها ابن مسعود رضي الله عنه فقال: كنَّا مع رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استُطيرَ أو اغتيل، فبتنا بشرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ، فلمَّا أصبحنا إذا هو جاء مِنْ قِبَلِ حِراء، فقلنا: يا رسولَ اللهِ، فقدناك فطلبناك، فلم نجدك، فبتنا بشرِّ ليلة باتَ بها قومٌ؟ فقال: «**أتاني داعي الجن، فذهبتُ معه، فقرأتُ عليهم القرآنَ**» قال: فانطلقَ بنا، فأرانا آثارَهم، وآثارَ نيرانهم، وسألوه الزادَ، فقال: «**لكم كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه يقعُ في أيديكم أوفرَ ما يكونُ لحماً، وكلُّ بعرةٍ عَلَفٌ لدوابكم، فلا تستنجوا بهما، فإنَّهما طعامُ إخوانِكُم**» [رواه مسلم (٤٥٠)].

قال ابنُ حجر: «ويمكنُ الجمعُ بالتعدد، فإنَّ الذين جاؤوا أولاً كان سبب مجيئهم ما ذُكِرَ في الحديث من إرسال الشهب، وسبب مجيء الذين في قصة ابن مسعود أنَّهم جاؤوا بقصد الإسلام وسماع القرآن، والسؤال عن أحكام الدين، ولا يلزم من عدم ذكر اجتماعه بهم حين استمعوا ألا يكون اجتمع بهم بعد ذلك.

وفي الحديث: إثباتُ وجودِ الشياطين والجنِّ، وأنهما لمسمًّى واحد، وإنَّما صارا صنفين باعتبار الكفر والإيمان، فلا يقال لمن آمن بهم: إنه شيطان.

وفيه: أنَّ الصلاة في الجماعة شُرِعَتْ قبلَ الهجرة.

وفيه: **مشروعيتها في السفر، والجهر في القراءة في صلاة الصبح، وأن**

الاعتبار بما قضى الله للعبد من حسن الخاتمة، لا بما يظهر منه من الشر ولو بلغ ما بلغ، لأنَّ هؤلاء الذين بادروا إلى الإيمان بمجرد استماع القرآن لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقاماتِ الشرِّ ما اختارهم للتوجه إلى الجهة التي ظهر له أنَّ الحدثَ الحادِثَ من جهتها، ومع ذلك غلب عليهم ما قضي لهم من السعادة لحُسْن الخاتمة، ونحو ذلك قصة سحرة فرعون»[(١)].

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ أي: فقالوا لقومهم عند رجوعهم إليهم: إنا سمعنا قرآناً بديعاً مبايناً لكلام الناس في حُسْن النَّظْم ودقة المعنى.

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾.

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ أي: يدعو إلى الحق والصواب، فآمنا بالقرآن، وصدَّقنا بالله الواحد الأحد، وأنَّه ربُّ كل شيء ومليكه.

﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ أي: ولن نعودَ إلى ما كُنَّا عليه من الشرك، ويبدو أنهم كانوا مشركين.

ففي الآية تبكيتٌ لمشركي قريش المتثاقلين عن قبول دعوة التوحيد، فإنَّ الجنَّ مع تمرُّدهم، وهم من غير جنس الرسول عليه الصلاة والسلام، لمَّا سمعوا القرآن الكريم بادروا إلى الإيمان، ودخلوا في الإسلام.

والنبي ﷺ رسول إلى الإنس والجن، فمن دخل في دينه فهو من المؤمنين، ومصيره إلى الجنة، ومن كفر به، فهو من الشياطين المعذَّبين، ومصيره إلى النار، فالجنُّ مُتَعبَّدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقتهم وبحالهم[(٢)].

وبعد أن أعلنوا إيمانهم بالله تعالى عظموه ونزهوه عن الصاحبة والولد:

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٦٧٥.
(٢) تفسير الخازن: ٦/ ٣٧١.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾.

أي: تعالى جلالُ ربنا وعظمتُه عن أن يتَّخذَ صاحبة وولداً، لأنه تعالى منزَّه عن كل نقص.

فالجَد: العظمة، ومنه قول عمر أو أنس: كان الرجلُ إذا قرأ البقرة وآلَ عمران جَدَّ فينا، أي: عَظُمَ في عيوننا[1].

وقيل: **الجَد**: الغنى، ومنه الحديث: «**ولَا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**» [رواه البخاري (٦٣٣٠) ومسلم (٥٩٣)] أي: لا ينفعُ ذا الغنى غناه، وقيل: القدرة والأمر، وآلاؤه ونعماؤه على خلقه وملكه.

وفي قراءة: (**وإنَّه تعالى**) بالكسر على أنه من جملة المحكي من أقوالهم، وكذا ما بعده، إلا قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [الجن: ١٦]، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [الجن: ١٩] فإنها من جملة الموحَى به.

* * *

سفه وضلال

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

وبعد أن أعلنوا إسلامهم وصفوا بعض ما كانوا عليه من سفه وضلال:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾.

أي: قولاً ذا شطط، وهو البعد ومجاوزة الحد.

---

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٣٧٢.

أو: هو شطط لفرط ما شطَّ منه، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله سبحانه.

والمرادُ من **السفيه**: الجاهل، أو إبليس، أو كل متمرد من الجن.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

أي: ما حسبنا أنَّ الإنس والجن يتمالؤون الكذبَ على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلمَّا سمعنا القرآن علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله، فقد نوَّرَ سماعُ القرآن الكريم بصائرَهم، ونبههم من غفلتهم.

وفي قراءة: **(أن لن تَقَوَّل)** بفتح القاف وتشديد الواو، والمعنى: ظنناهم صادقين في قولهم: لله صاحبة وولد، وعلمنا كذبهم حين سمعنا القرآن.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

أي: وكان الرجل من العرب إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه، فزادوا الجن باستعاذتهم بهم كِبراً وعتوّاً، أو فزاد الجن الإنسَ ضلالاً وإثماً. وأصل **الرهق**: غشيان المحظور.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

أي: وأنَّ الجن ظنوا كما ظننتم يا أهل مكة أن لن يبعث الله أحداً بعد الموت، فقد كانوا ينكِرون البعثَ كإنكاركم، ثم اهتدوا بسماع القرآن الكريم، وأقروا بالبعث، فهلا أقررتم كما أقروا؟!.

هكذا أثَّر استماع القرآن الكريم بالجن، فطهَّرهم من العقائد الفاسدة، ومن سفه الجاهلية وضلالها.

* * *

الحرس والشهب

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾.

ومن لطف الله بعباده ورحمته بخلقه حفظه لوحيه الموحَى به إلى رسوله عليه الصلاة والسلام، فلمَّا بُعث محمَّدٌ ﷺ حُفظتِ السماءُ، وطُردت الشياطينُ عن مقارها.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾.

أي: طلبنا بلوغ السماء واستراق السمع، فوجدناها مُلِئَتْ حرساً شديداً من الملائكة، وشهباً مضيئة محرقة من الكواكب.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي: كنا نجد فيها أماكن خالية يمكِنُ استراقُ السمع منها.

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: يجد شهاباً راصداً له ولأجله، يمنعه عن الاستماع.

وتساءلوا عن سِرِّ حراسة السماء ومنع استراق السمع:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾.

أي: خيراً وصلاحاً أو رحمة، ويلاحظ أدبهم مع الله تعالى، فأضافوا الخيرَ إليه، وأضافوا الشر إلى غير فاعل.

ثم وصفوا أحوالهم واختلاف عقائدهم:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: وأنا منَّا الأبرار المتقون، ومنا قوم دون ذلك مقتصدون في الصلاح أو غير صالحين.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي: كنا جماعات مختلفين، أو كانت طرائقنا طرائق مختلفة. **والقدة**: القطعةُ من الشيء، من قَدَّ إذا قطع.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢﴾.

أي: وأنَّا علمنا أنَّا لن نعجزَ الله أينما كنا في الأرض أو إذا هربنا إلى السماء، فنحن في قبضة قدرته تعالى في أي مكان في الأرض أو في السماء.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ﴾ أي: لما سمعنا القرآن الكريم آمنا به. وهو من نعم الله عليهم فهو فخر لهم وشرف رفيع.

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: فلا يخاف نقصاً في ثوابه، ولا ذلة ترهقه وتغشاه، لأنه لم يبخسْ أحداً حقّاً، ولم يرهقه ظلماً، فالقرآن الكريم يهذِّبُ النفوسَ ويربيها فلا تعتدي على أحدٍ ولا تظلم أحداً.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ أي: وأنَّا منَّا المستسلمون لله تعالى ولأحكام دينه وشرعه، ومنا الجائرون العادلون عن الحق.

فالقاسط: الجائرُ. وأمَّا **المُقْسِطُ**: فإنَّه العادل.

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: طلبوا طريق الحق وتوخَّوْه.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

أي: وقوداً تُسعَّر بهم.

* * *

الرخاء والأمن

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى ما يترتَّب على الاستسلام لدينه، والتزام أحكام شريعته، من سَعةٍ ورخاءٍ في العيش، وأمنٍ ونجاةٍ من العذاب:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾.

أي: لو استقام الإنسُ والجنُّ على التمسك بأحكام دينه وشريعته لأسقيناهم

ماءً كثيراً. وذكرَ الماءَ لأنَّه سببُ سَعةِ الرزق.

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ أي: لنختبرهم كيف يشكرون، ونعاملهم معاملةَ المختبر.

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: ومن يعرضْ عن طاعةِ ربه وعبادته يدخله عذاباً شديداً شاقّاً لا راحةَ فيه. وفي قراءة: **(نسلكه)** بالنون.

وأساس الاستقامة عبادة الله وحده.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: وأوحي إليَّ أنَّ البيوتَ المبنية للصلاة مختصة بالله تعالى وحده، فلا تعبدوا فيها غيره. أو: أنَّ السجودَ لله، فلا تسجدوا لغيره.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

أي: وأنَّه لمَّا قام محمد ﷺ يعبدُ الله، ويقرأ القرآن، كادَ الجنُّ يركبُ بعضهم بعضاً من الازدحام عليه، حرصاً على استماع القرآن الكريم.

أو: لمَّا قام الرسول ﷺ بالدعوةِ تلبَّدت الإنسُ والجنُّ، وتظاهروا عليه، ليبطلوا الحقَّ الذي جاء به، فأُمر عليه الصلاة والسلام بمواجهتهم، وأن يقولَ لهم بثبات وثقة:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

فلِمَ تتعجبون وتزدحمون؟ فليس ذلك بمنكر يوجِبُ مَقتي، والإعراض عن دعوتي. وفي قراءة: **(قال)** بالألف.

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١﴾.

أي: مضرَّة ولا نفعاً، فلا أقدر على أن أدفع عنكم ضرّاً، ولا أجلب إليكم رشداً، فكلٌّ ذلك بمشيئته تعالى وقدرته.

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾.

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لن يمنعني من الله أحدٌ إن عصيتُه.

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ ألجأُ إليه.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣﴾.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ﴾ ففي تبليغ الرسالة الجوارُ والأمنُ والنجاةُ، فلا أمنَ لي إلا إذا أطعتُه، وأدَّيتُ ما كلفني به من تبليغ الرسالة.

ولهذا قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: «**اللهمَّ هل بلغتُ؟ اللهمَّ هل بلغتُ؟**». وزاد في رواية: «**اللهمَّ اشهدْ**» [رواه البخاري (١٧٣٩)].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بعد أن تبلغه الرسالة.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فعلى الرسول البلاغ، وعلى المكلَّفين من الإنس والجن السمع والطاعة، وإلا فإنَّ العذابَ ينتظرهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهو أم هم؟ فالكافرون لا ناصر لهم يومئذٍ.

* * *

بطلان الكهانة والتنجيم

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ۝٢٥ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝٢٧ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ۝٢٥﴾.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: لا أدري أقريبٌ ما توعدون من العذاب إن كفرتم وأعرضتم؟!.

﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أي: غاية بعيدة، فإنَّكم معذَّبون لا محالة، ولكن لا أدري أهو حالٌّ أم مؤجل.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦﴾.

الله عالمُ الغيبِ، فلا يُطْلِعُ على غيبه أحداً من خلقه.

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝٢٧﴾.

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ أي: إلا من يصطفيه لرسالته ونبوته، فيظهره على ما يشاء من الغيب حتى يكونَ دليلاً على صدق رسالته، وصحة نبوته ومعجزة له.

ويجوزَ أن يلهمَ اللهُ بعضَ أوليائه وقوعَ بعض الوقائع في المستقبل، فيخبر به، فتكون كرامة له، والفرق أنَّ المعجزة أمر خارق للعادة مع عدم المعارضة **مقرونة بالتحدي**، بينما الكرامةُ لا تقرَنُ بالتحدي، وتكونُ من غير دَعْوى.

ودلَّتِ الآيةُ على بطلان الكهانة، فقد انسدت بمبعث النبيِّ ﷺ وكذلك التنجيمُ، فمن ادَّعى منهم اطلاعاً على غَيْب فقد كفر بما جاء به القرآن[1].

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي: فإنَّ الله يجعل حول الرسول ﷺ حفظة من الملائكة يحفظونه من الجنِّ.

وفي قوله: (**يسلك**) من الحُسْن ما فيه، فهو يصوِّر الجهاتِ التي تأتي منها الشياطين بالثغور الضيقة والمسالك الخفية.

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ليعلمَ اللهُ أنَّ الرسلَ قد أبلغوا رسالات ربهم كاملة بلا زيادة ولا نقصان، والمراد ليعلمه موجوداً حاصلاً بالفعل. وفي قراءة: (**ليُعلم**) بضم الياء، أي: ليعلم الناس.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ أي: وأحاط بجميع أحوال الرسل وبما عندهم من العلم، وأحصى كل شيء عدداً، حتى قَطْر الأمطارِ، وورق الأشجارِ، وحَب الرمال، فكيف لا يحيطُ بما عند الرسل من وحيه وكلامه جَلَّ جَلَالُهُ وسع علمه كل شيء؟!..



(١) تفسير الخازن: ٦/ ٣٨٠.



تفسير سورة المُزَّمِّل

قِيَامُ اللَّيْلِ فِي سُورَةِ الـمُزَّمِّلِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تأنيس وملاطفة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾

بدأ الله تعالى سورةَ المزَّمِّل بنداءِ النبيِّ ﷺ فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾.

أي: يا أيها الملتف في ثيابه، وأصله: المتزمِّلُ، فأدغمتِ التاءُ في الزاي.

ونداؤه عليه الصلاة والسلام بذلك تأنيسٌ له وملاطفةٌ، على عادة العرب في اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها.

وفي الآيةِ تنبيهٌ لكلِّ راقدٍ في الليل، ليتنبه إلى قيام الليل، وذكر الله تعالى فيه، لأنَّ الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطَبِ كلُّ مَنْ عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة[1].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ٣٣.

ولم يخاطب ﷺ بالنبيِّ والرسولِ في هذه الآية لأنَّه لم يكن قد قام بالتبليغ بعدُ، وإنَّما كان في بَدْءِ الوحي، ففي حديث **عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها قالت: أولُ ما بُدِئَ به رسولُ اللهِ ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكانَ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصُّبْحِ، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، وكان يخلو بغار حِرَاء، فيتحنَّثُ فيه ـ وهو التعبُّدُ ـ الليالي ذواتِ العددِ، قبل أن ينزعَ إِلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجةَ فيتزوَّدُ لمثلها، حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءَه الملَكُ فقال: «**اقرأ، قال: ما أنا بقارىءٍ، قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغَ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثانيةَ حتى بلغَ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثالثةَ، ثم أرسلني، فقال:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق]» فرجعَ بها رسولُ اللهِ ﷺ يرجُفُ فؤادُه، فدخلَ على خديجةَ بنتِ خويلد رضي الله عنها فقال: «**زمِّلوني زمِّلوني**»، فزملوه حتَّى ذهبَ عنه الروع. [رواه البخاري (٣)].

ويبدو أن هذه الآيات نزلت على النبي ﷺ في هذه الفترة.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾.

أي: قم للصلاة والعبادةِ في الليل إلا قليلاً تنامُ فيه.

ثم بيَّن تعالى قَدْر القيام فقال:

﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣﴾.

أي: قم نصفَ الليلِ، أو انقص منه قليلاً إِلى الثلث.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: أو زد على النصف إلى الثلثين.



جعل الله له سَعةً في مدة قيامه، فخيَّره بين النصفِ أو أنقص منه إلى الثلث، أو أكثر من النصف إلى الثلثين، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠].

ودلت الآيات على أن قيام الليل كان فرضاً على النبي ﷺ في بواكير الدعوة، ثم خفف عنه فصار تطوعاً، ففي الحديث الشريف: أن **سعد بن هشام** عندما دخل على **السيدة عائشة** رضي الله عنها وسألها قائلاً: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، فقالت: ألستَ تقرأُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؟ قلتُ: بلى، قالت: فإنَّ الله ﷻ افترضَ قيامَ الليلِ في أول هذه السورة، فقام نبيُّ اللهِ ﷺ وأصحابُه حولاً، وأمسكَ اللهُ خاتمتَها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزلَ الله في آخرِ هذه السورة التخفيفَ، فصارَ قيامُ الليل تطوُّعاً بعدَ الفريضة. [رواه مسلم (٧٤٦)].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ومما يؤكد أنَّ قيام الليل صار تطوعاً في حقه عليه الصلاة والسلام قولُ المغيرةِ رضي الله عنه: إنْ كانَ النبيُّ ﷺ ليقومُ ـ أو ليصلِّي ـ حتى ترمَ قدماه ـ أو ساقاه ـ فيُقالُ له، فيقول: «**أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟**» [رواه البخاري (١١٣٠)].

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي: اقرأ القرآنَ على تمهُّل، فإنَّه يكونُ عوناً على فهمه وتدبره، وكذلك كان يقرأ عليه الصلاة والسلام، فعن **قتادةَ** قال: سُئلَ أنسٌ: كيف كانت قراءةُ النبيِّ ﷺ؟ فقال: كانت مدّاً. ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، يمدُّ ببسمِ اللهِ، ويمدُّ بالرحمنِ، ويمدُّ بالرحيمِ. [رواه البخاري (٥٠٤٦)].

* * *

المهمة الثقيلة

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾

ثم بيَّن الله تعالى الحكمةَ من التكليفِ بقيام الليل فقال:

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

وهو القرآنُ الكريمُ، فقد كُلِّفَ النبي ﷺ بالعمل به، ودعوة الناس إليه.

والصلاةُ تعينُ المصلي على القيام بأعباء التكليف، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فالصلاةُ تمدُّ المصلي بقوةٍ روحيةٍ كبيرةٍ تقويه في مواجهة المصاعب، وتعينه على احتمال الشدائد، ولهذا ندب الله سبحانه السيدة مريم إلى زيادةِ عبادتها وصلاتها قبل أن تحمِلَ المهمَّةَ الثقيلة التي اصطفاها لها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران].

وفي سنن **أبي داود** [١٣١٩]: من حديث **حذيفة** ؓ: كان النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى.

وتَلَقِّي النبي عليه الصلاة والسلام القرآنَ من الوحي كان أيضاً ثقيلاً عليه، ففي الحديث عن **عائشة** ؓ: أنَّ الحارثَ بنَ هشام ؓ سأل رسولَ اللهِ ﷺ

فقال: يا رسولَ اللهِ، كيفَ يأتيك الوحيُ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أحياناً يأتيني مثل صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وهو أشدُّه عليَّ، فيفصمُ عَنِّي، وقد وَعَيْتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثَّلُ لي المَلَكُ رجلاً فيكلِّمني فأعي ما يقولُ**» قالت عائشةُ رضي الله عنها: وقد رأيتُه ينزِلُ عليه الوحيُ في اليومِ الشديدِ البردِ فيفصِمُ عنه وإنَّ جبينَه ليتفصَّدُ عَرَقاً. [رواه البخاري (٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسولُ اللهِ ﷺ يعالجُ من التنزيلِ شِدَّةً. [رواه البخاري (٥)].

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾.

أي: إنَّ العبادةَ التي تنشأُ بالليلِ وتُحْدَثُ هي أشدُّ خشوعاً وإخلاصاً وأصحُّ قراءةً وأثبتُ، فمواطأة القلبِ للسانِ أكثرُ في صلاةِ الليلِ. وفي قراءة: **(وطاءً)**.

فالعبادةُ في الليلِ أشدُّ نشاطاً، وأكثرُ إخلاصاً، وأبعدُ عن الرياءِ، وأكثرُ بركةً، وأبلغُ في الثواب.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾﴾.

أي: تصرُّفاً وتقلباً في حوائجك وأشغالك، فاصرف وقتك في الليل للعبادة. وأصلُ **السبحِ**: المرُّ السريعُ في الماءِ، فاستعير للذهابِ مطلقاً.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ﴿٨﴾﴾.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ أي: دم على ذكره بالليل والنهار، أو أكثر من ذكره على أيِّ وجهٍ كان من تسبيح وتهليل وتحميد وقراءة قرآن وذكر اسم من أسمائه الحسنى وغير ذلك.

﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾: وانقطع إليه بالعبادة، وجرِّدْ نفسَكَ عما سواه، واستغرق في مراقبته سبحانه.

فالتبتلُ المأمورُ به الانقطاعُ إلى الله بإخلاص العبادة، بينما التبتُّلُ المنهيُّ عنه هو سلوكُ مسلكِ النصارى في ترك النكاح والترهُّبِ في الصوامع، لكن عند فساد الزمان «**يوشِكُ أنْ يكونَ خيرَ مال المسلم غَنَمٌ يتبعُ بها شعفَ الجبالِ، ومواقعَ القطر، يفرُّ بدينه من الفتن**»[كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (١٩)].

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

أي: هو رب المشرق والمغرب لا إلٰه إلا هو، فتوكل عليه، وفوّض أمرك إليه. أو: اتخذه وليّاً وكفيلاً.

وفي قراءة: (**ربِّ المشرق والمغرب**) بالجر على البدل من (**ربك**).

وبينت الآيات ثقل المهمة التي كُلِّف بها عليه الصلاة والسلام، وذلك من خلال أمرها له بالصبر، ووعيدها المعارضين له والمكذبين.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾.

أي: واصبر على ما يقولون من التكذيب والأذى، واعتزلهم اعتزالاً حسناً بقلبك مع حُسْنِ المحافظة وترك المكافأة.

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾.

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي: وكِلْ إليَّ أصحاب النعم والغنى.

والمراد: دعني وإياهم، وكِلْ إليَّ أمرهم، فإني أكفيك شرهم.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ إمهالاً قليلاً أو زماناً قليلاً.

* * *

بعث النار

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

وشدَّدت الآيات وعيدها بوصف بعض ما أعد الله لهم يوم القيامة:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: إن عندنا في الآخرة قيوداً عظاماً ثقالاً، وناراً محرقة. **والنكل**: القيد الثقيل.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾.

وطعاماً غير سائغ في الحلق، ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً يصل ألمه إلى القلب، لا يحيط بقدره إلا الله تعالى.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: تضطرب وتتزلزل.

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: وصارت الجبالُ رملاً مجتمعاً سائلاً غير متماسك قبل أن تُنسف، فلا يبقى منها شيءٌ، وتصبح هباءً منثوراً.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنا أرسلنا إليكم يا أهل مكة رسولاً

يشهد عليكم يوم القيامة بالكفر والتكذيب.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وهو موسى عليه السلام.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

أي: شديداً ثقيلاً، يعني: فعاقبناه عقوبة عظيمة غليظة.

فاحذروا أنتم أن تكذِّبوا هذا الرسولَ فيصيبكم ما أصاب فرعون. ولكنَّهم كذَّبوه، وأعرضوا عن دعوته، فوجهت الآياتُ الخطابَ إليهم توبخهم على ذلك:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾.

أي: كيف تتقون العذاب يوم القيامة إن بقيتم على الكفر في الدنيا، وهو يوم يشيب فيه الولدان من شدة هوله.

أو: كيف يحصل لكم أمانٌ في هذا اليوم إن كفرتم؟!.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يقولُ اللهُ: يا آدمُ، فيقولُ: لبيكَ وسعديكَ، والخيرُ في يديكَ، يقول: أخرِجْ بَعْثَ النارِ، قال: وما بعثُ النارِ؟ قال: مِنْ كُلِّ ألفٍ تسعمئةٍ وتسعٌ وتسعون، فذاكَ حين يشيبُ الصغيرُ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حملَها، وترى الناسَ سُكارى، وما هم بسكارى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ**».

فاشتدَّ ذلك عليهم فقالوا: يا رسولَ اللهِ أينا ذلكَ الرجلُ؟ قال: «**أبشروا فإنَّ مِنْ يأجوجَ ومأجوجَ ألفاً ومنكم رجلٌ** ـ أي: منكم رجل مُخْرَجٌ».

ثم قال: «**والذي نفسي بيده إنِّي لأطمعُ أن تكونوا ثلثَ أهلِ الجنَّةِ**» فحمدنا الله وكبَّرنا، ثم قال: «**والذي نفسي بيدِهِ إنِّي لأطمعُ أن تكونوا شطرَ أهلِ الجَنَّةِ، إنَّ مَثَلَكُم في الأمم كمثلِ الشعرةِ البيضاءِ في جلدِ الثورِ الأسودِ أو كالرقْمَةِ في ذراعِ الحمار**» [رواه البخاري (٦٥٣٠)].

وقد استُشْكِلَ بأن ذلك الوقت لا حملَ فيه ولا وضعَ ولا شيب، ولهذا رأى

بعضهم أنَّه على الفرض والتمثيل، فمن المعروف أنَّ الهمومَ والأحزانَ إذا تعاقبت على الإنسان أسرعَ فيه الشيبُ.

قال ابن حجر: «ويحتَملُ أن يُحْمَلَ على حقيقته، فإنَّ كل أحدٍ يبعث على ما مات عليه، فتبعَثُ الحامِلُ حاملاً، والمرضعُ مرضعةً، والطفلُ طفلاً، فإذا وقعت زلزلةُ الساعةِ، وقيل ذلك لآدم، ورأى الناسُ آدم، وسمعوا ما قيل له، وقع بهم من الوجل ما يسقط معه الحَمْل، ويشيبُ له الطفل، وتذهلُ به المرضعة»[1].

وفي قوله سبحانه: ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾: وتقديره تقدير مشكوك في وجوده، ما ينبه على أنه لا ينبغي أن يبقى مع إرسال هذا الرسول لأحدٍ شبهةٌ تبقيه في الكفر فهو النور المبين[2]، فهو كقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٠١].

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: السماء على عظمها وإحكامها شيء منشق لشدة ذلك اليوم وهوله، فما ظنُّكَ بغيرها من الخلائق؟! أو تنشق بأمره سبحانه.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي: كان وعده سبحانه كائناً لا محالة فيه ولا خلف.

أو: كان وعد هذا اليوم واقعاً كائناً لا محيد عنه.

وعقبت الآيات على هذا الوعيد الشديد المرعب بقوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إن هذه الآيات عظة بليغة يتعظ بها أولو الألباب، فيبادرون إلى الإيمان واتباع طريق الإسلام.

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٣٩٠.

(٢) روح المعاني: ٢٩/ ١٣٦.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾: فهو السبيلُ المؤدي إلى رضوان الله ورحمته، فللإنسانِ مشيئةٌ وكسبٌ واختيار، وهي أساسُ التكليف والمسؤولية.

* * *

تخفيف قيام الليل

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم عادت الآياتُ إلى قيام الليل، فأنزل الله فيها التخفيفَ، كما سبق معنا في حديث السيدة عائشة.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: ويقوم ذلك المقدارَ جماعةٌ من أصحابك.

وفي قراءة: **(ونصفِه وثلثِه)** بالخفض عطفاً على **(ثلثي)**.

﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: واللهُ يعلمُ مقاديرَ الليل والنهار، فيعلمُ القدرَ الذي تقومون به من الليل.

أو: والله يعطي كلاًّ من الليل والنهار قدره، كما في قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] فتارةً يعتدل الليل والنهار، وتارةً يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا، وكل ذلك بتقديره تعالى.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي: علم أنه لن تطيقوا قيامه على هذه المقادير إلا بشدة ومشقة فخفف عنكم.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: بالترخيص في ترك القيام المقدَّر، ورفع المشقة عنكم كما رفع التبعة عن التائب.

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي: فصلُّوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل، والصلاةُ تسمَّى قرآناً كما في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

واستدل أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ بالآية لقوله: إنَّ الفرضَ في الصلاة مطلقُ القراءةِ، وأمَّا قراءةُ الفاتحة فواجبٌ من واجباتها.

ثم بيَّن سبحانه علَّة التخفيف فقال:

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: علم أنه سيكون منكم مرضى، وآخرون يسافرون طلباً لكسب الرزق، وتحصيل العلم، وآخرون يجاهدون في سبيل الله، وهي أعمالٌ شاقة، يحتاج أصحابها إلى النوم والراحة بالليل.

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: صلوا ما أمكن.

وكرر الأمر بالتيسير لشدة حرصهم على قيام الليل.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: أدوا ما أوجب عليكم من صلاة وزكاة.

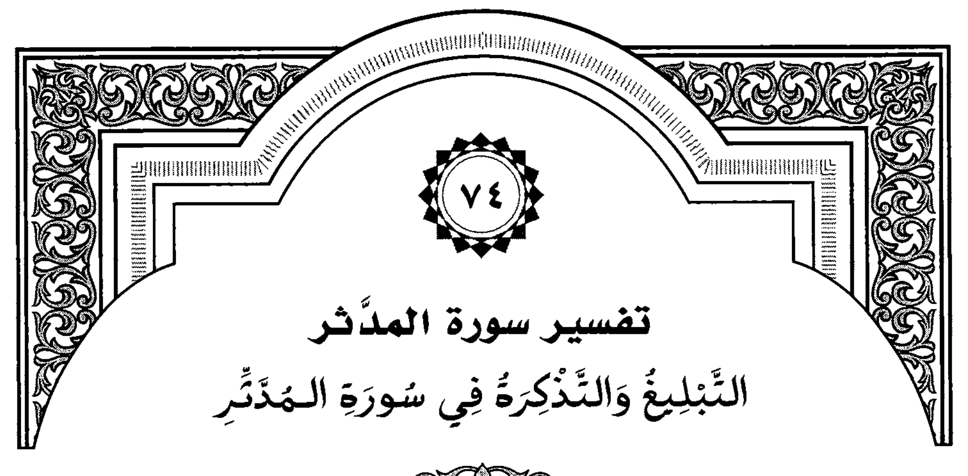
وهذا يدل على أن الزكاة فُرِضَتْ في مكة قبل الهجرة، لكن مقاديرها لم تبيَّنْ إلا بعد الهجرة في المدينة المنورة.

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: بالنوافل والصدقات غير الواجبة.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ فما قدَّمتم خير مما أخرتم إلى الوصية عند الموت، فالذي تقدمونه لأنفسكم خير من الذي أخرتموه ولم تقدموه.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: استغفروا الله في جميع أحوالكم، فإنَّ الإنسان لا يخلو من تقصير، والله يستر على أهل الذنب والتقصير، ويرحم أهل الجهد ويخفف عنهم.





٧٤

تفسير سورة المدَّثر

التَّبْلِيغُ وَالتَّذْكِرَةُ فِي سُورَةِ المُدَّثِّرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الإنذار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)﴾.

بدأ الله تعالى سورةَ المدَّثِّر كما بدأ سورةَ المزَّمِّل بنداء النبيِّ ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)﴾.

أي: المتدثر، أدغمت التاءُ بالدالِ، من تدثَّر، أي: لبس الدثار، وهو ما يُلبَسُ فوق القميص.

نودي عليه الصلاة والسلام باسم مشتق من صفته التي كان عليها تأنيساً له وملاطفةً، كما مرَّ معنا في ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، إذ كان ﷺ حديثَ عهدٍ بالوحي.

وبيَّنَ الحديثُ الشريف سبب تدثُّره: فعن **جابر بن عبد الله الأنصاري** رضي الله عنهما

قال ـ وهو يحدِّثُ عن فترة الوحي ـ: فقال ﷺ في حديثه: «**بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحِراء جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلت: زمّلوني، فأنزل الله تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾» فحمي الوحيُ وتتابَع. [رواه البخاري (٤)].

ودلَّ الحديث على أن نزول سورة المدثر بعد فترة الوحي.

﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

أي: قم قيامَ عزمٍ وجِدٍّ، واشتغل بالإنذار الذي كلَّفك الله به، وهو تحذير الكفار من عذاب الله إن لم يؤمنوا.

وقد يكون المرادُ: يا أيها المدَّثر بالنبوة دثرت هذا الأمر فقم به.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

أي: عظِّم ربك عن ما يقوله المشركون.

وفي ذكر هذه الجملة بعد الأمر السابق إشارةٌ إلى مزيدِ الاهتمامِ بأمر التكبير، فالمقصودُ الأوَّلُ من الأمر بالقيامِ بالإنذارِ أن يكبِّرَ ربه ﷻ، وينزهه من الشرك، كما أنَّ فيها تشجيعاً للنبي عليه الصلاة والسلام على الإنذار وعدم مبالاته بما سواه، فكل ما سواه مقهورٌ تحت كبريائه تعالى وعظمته، فلا ينبغي أن يُرهبَ إلا منه، ولا يُرغب إلا إليه جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾.

بغسلها وحفظها عن الأقذار والنجاسات.

أو: طهر نفسك عن الأخلاق الذميمة، ففيها إرشادٌ كريم للنبيِّ عليه الصلاة والسلام لكي يطهِّر دثارَ النبوة عن ما يدنسه من الحقد والضجر وقلة الصبر.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾.

أي: اثبت على هجر الأوثان والأصنام، فقد كان عليه الصلاة والسلام بريئاً منها.

وفي قراءة: (والرِّجز) بالكسر، وأصل معنى الرجز: العذاب، قال: تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]، وسُمِّيت الأوثانُ رجزاً لأنها تؤدي إلى العذاب.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾.

ولا تمنن على ربك بما تتحمله من أثقال النبوة وأعباء الدعوة وتراه كثيراً، إنما عملك من فضله تعالى عليك، أو لا تعطِ مستكثراً طالباً الكثير، اجعل عملك وعطاءك خالصاً لله تعالى.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

أي: اصبر على أذى المشركين والقيام بأعباء الدعوة، واجعل صبرك لله تعالى.

هكذا أدَّب الله تعالى في بواكير النبوة النبيَّ عليه الصلاة والسلام بأعلى الآداب وأشرف الأخلاق، ورفعه إلى أعلى الدرجات، وتوعدت الآيات في المقابل معارضيه ومكذبيه بأهوال يوم القيامة.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾.

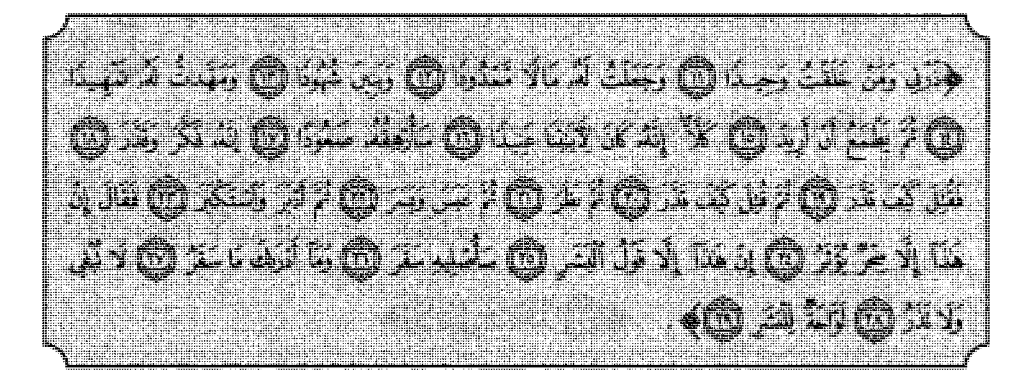
أي: نُفخ في الصور، والمراد: النفخة الثانية.

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

إذ يلقون فيه عاقبة إعراضهم وتكذيبهم، وتلقى فيه عاقبة صبرك، فهو يومٌ شديدٌ على الكافرين، يسير على المؤمنين.

* * *

المعاند المكذب


﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩)﴾

ثم خصصت الآيات الوعيدَ برأسٍ من رؤوس الشرك والكفر في مكة المكرمة، أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدَّلها كفراً وقابلها بالجحودِ والافتراءِ:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)﴾.

أي: ذرني وحدي معه، فإني أكفيك أمره.

أو: خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد.

أو: خلقته في بطن أمه وحيداً فريداً لا مال له ولا ولد.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢)﴾.

مبسوطاً كثيراً يمدُّ بعضه بعضاً بالنماء والزيادة.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣)﴾.

حضوراً معه لا يغيبون، يشهدون معه المحافل والمجامع، وهو أبلغ في النعمة.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤﴾.

أي: وبسطت له في العيش بسطاً، ويسَّرْت له أسباب الرخاء، حتى لُقِّبَ ريحانة قريش.

واتفق المفسرون على أنه **الوليد بن المغيرة** المخزومي، قال ابن عباس: جاءَ الوليدُ بن المغيرة إلى النبيِّ ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنَّه رقَّ له، فبلغَ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إنَّ قومَكَ يريدونَ أن يجمعوا لكَ مالاً، فإنَّكَ أتيتَ محمداً تتعرَّض لِمَا قِبَله، فقال: قد علمتْ قريشٌ أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغُ قومَكَ أنَّك منكِرٌ له، قال: وماذا أقول؟ فواللهِ ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالأشعارِ منِّي، فواللهِ ما يشبهها الذي يقولُ، **واللهِ إنَّ لِقولِهِ حلاوة، وإنَّ عليه طلاوة، وإنَّه لمثمرٌ أعلاه، مغدِقٌ أسفلُه، وإنَّه ليعلو ولا يُعلى**. قال: لا يرضى عنك قومُكَ حتى تقولَ فيه، قال: فدعني حتَّى أفكرَ فيه، فقال: هذا سِحرٌ يؤثر، يأثره عن غيره. فنزلت: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا...﴾. [رواه بهذا اللفظ الواحدي في (أسباب النزول، ص٧٠٠) ورواه الطبري (٥٩/ ١٥٢) والحاكم (٢/ ٥٠٦)، وقال: هذا حديث صحيحُ الإسنادِ على شرط البخاري، ولم يتعقبه الذهبي].

﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥﴾.

أي: ثم يرجو أن أزيده في ماله وولده مع كفره وجحوده.

﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦﴾.

﴿كَلَّآۖ﴾ ردع له، وقطع لرجائه، فلن يجمع له بعدَ اليوم بين الكفر والمزيد من النعم، وما زال بعدَ نزولِ هذه الآية في نقصانٍ حتى هلك.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ معانداً جاحداً، فكفره كفر عناد، فقد عرف الحق بقلبه، وجحده بلسانه، وهو أقبح أنواع الكفر وأفحشه.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾.

سأكلِّفه عذاباً شاقّاً لا راحة فيه. **والصعود**: العقبة الشاقة، وهي جبلٌ من نار يكلَّفُ أن يصعده.

ثم قال تعالى معللاً هذا الوعيد الشديد:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: فكَّر في الأمر الذي يريده، وقدَّر في نفسه ما يقول فيه.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: عُذِّب أو لُعِنَ؛ كيف قدَّر هذا التقدير؟! وهو تعجيبٌ معه توبيخٌ وإِنكار.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم لعن كيف قدر؟! كرره للتأكيد، و(ثم) للإِشعار بأنَّ الدعاءَ الثاني أبلغُ من الأول.

ووصفت الآياتُ أحواله وهو يكدُّ ذهنه، ويعصِرُ فكرَه، بحثاً عن شبهة يحتجُّ بها ستراً لجحوده وعناده:

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: في أمر القرآن الكريم مرة بعد أخرى.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: كلح، وقطَّبَ وجهه كالمهتمِّ المتفكر في شيء يدبِّره.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: أدبر عن الحق، واستكبر عن الإذعان له واتباعه.

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر يُروى ويُحكى عن السحرة.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

وهو تأكيد للجملة الأولى، ولذلك لم يعطف عليها.

وجاء الرد على جحوده وعناده عنيفاً شديداً:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: سأدخله سقر، وهو اسم من أسماء جهنم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾.

وهو تفخيم لشأنها وتهويل لعذابها.

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: لا تبقي لحماً ولا تذر عظماً.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: هي لواحة للبشر، مسودة للجلود، ومحرقة لها.

* * *

خزنة جهنم

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

مَلَكاً، وهم رؤساء ونقباء الملائكة الموكلين بها.

ففي الحديث: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ يجرُّونها**» [رواه مسلم (٢٨٤٢)].

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾: فهم خلاف جنس المعذبين، فلا تأخذهم الرأفة والرقة، وهم أشدُّ الخلقِ بأساً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ

وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ابتلاءً واختباراً للذين كفروا، وافتتانهم استقلالهم لهم واستبعادهم أن يتولَّى هذا العددُ القليلُ تعذيبَ جميع مَنْ في النار من الإنس والجن.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: بنبوة محمد ﷺ، فإنَّ هذا العدد مكتوبٌ في التوراة والإنجيل.

﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ بما يشاهدون من صدق أخبار نبيهم عليه الصلاة والسلام.

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بصدق رسالة النبي عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق، وهو إخبار عن ما سيحدث من المغيَّباتِ بعد الهجرة، فالنفاقُ حدث في المدينة بعد الهجرة، وآيات السورة مكية.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾: المصرون على الكفر والتكذيب.

﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي: ما الذي أراده الله تعالى بهذا العدد المستغرَبِ استغرابَ المثل؟.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: مثل ذلك الإضلال والهدى يضل الله مَنْ يشاءُ من عباده ممَّن علم منه اختيار الضلال، ويهدي من يشاء من عباده ممَّن علم منه اختيار الهدى، فالهداية والإضلالُ لله تعالى وحدَه، وله الحكمةُ التامةُ والحجَّةُ البالغة.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: وما يعلم عددهم وأنواعهم إلا هو ﷻ.

﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾: وما هذه العدة إلا ذكرى للبشر ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله تعالى، وأنَّه لا يحتاجُ إلى أعوان وأنصار.

أو: وما سقر وصِفتُها إلا تذكرةٌ وموعظةٌ للبشر.

أو: وما هذه الآيات إلا موعظةٌ للناس، ليتعظوا بها، ولهذا زجرت الآيات مَن أنكرها، ولم يتَّعظ بها:

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: وأقسم بالقمر، فهو آية من آيات الله الدالة على كمال قدرته وعظيم رحمته.

﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ولَّى ذاهباً.

وفي قراءة: (إذا دبر) على المضي بمعنى أدبر، وقيل: دبر بمعنى أقبل، تقول العرب: دبرني فلان؛ أي: جاء خلفي، فالليل يأتي خلف النهار.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: أضاء وظهر. وجواب القسم:

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: إن الإنذار بهذه الآيات القرآنية لإحدى الكبر.

والكبر: جمع كبرى مثل الأُوَل والأولى.

ففي الآيات القرآنية تذكيرٌ كبيرٌ، وموعظةٌ بليغةٌ، وما على النبيِّ ﷺ إلا أن يقوم بالإنذار بها:

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾.

فهي كبيرة في حال الإنذار والتذكير.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾.

أي: لمن شاء أن يتقدَّم إِلى الخيرِ والطاعةِ أو يتأخر إلى الشر والمعصية، فهو وعيد شديد خرج مخرج الخبر كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾.

مرتهنة بكسبها، مسؤولة عن عملها، إما خلَّصها وإما أهلكها.

﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٩﴾.

فإنهم لا يُرتهنون بذنوبهم، لأن الله يغفرها لهم، ويتجاوز عنها.

﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠﴾.

أي: هم في جنات يسأل بعضهم بعضاً.

﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١﴾.

أي: عن أحوال المجرمين، فيقول المسؤولون للسائلين: قلنا للمجرمين:

﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢﴾.

وهو سؤال توبيخ وتقريع.

﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾.

أي: لم نصلِّ لله في الدنيا، فقد أعرضنا عن طاعته وعبادته.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ .

فما كنَّا نهتمُّ إلا بأنفسنا وشهواتنا، فما عبَدنا ربنا، ولا أحسَنَّا إِلى أحد من خلقه كالضعفاء والمساكين.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

وكنا نخالط أهل الباطل والضلال، ونشاركهم في باطلهم وضلالهم؛ فكلَّما غوى غاوٍ غوينا معه، وكلَّما كذَّب مكذِّبٌ كذبنا معه، حتى كذَّبنا بيوم الحساب والجزاء:

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ .

فمشاركة الضالِّين في ضلالهم أمر خطير كبير يؤدي إلى سوء العاقبة والخاتمة.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: جاءنا ونزل بنا الموت.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ .

من الملائكة والنبيين والصالحين، لأن الشفاعة للمؤمنين دون الكافرين.

* * *

الحمر النافرة

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

وقام رسول الله ﷺ بإنذارهم، فبلَّغهم ووعظهم، ومع ذلك ظلُّوا معرضين عن التذكرة، ولهذا تساءلتِ الآياتُ سؤال التعجيبِ من حالهم:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: نافرة. شُبهوا في إعراضهم ونفارهم عن استماع التذكرة من النبي ﷺ بحُمُرٍ نافرة، وفي قراءة: (مستنفَرة) بفتح الفاء.

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

وهو الأسد، فالحُمُر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت منه، وكذلك كان المشركون إذا سمعوا النبيَّ ﷺ هربوا منه، وابتعدوا عنه.

ففي الآية مَذَمَّةٌ كبيرةٌ لهم، وتقبيحٌ عظيمٌ لحالهم في إعراضهم عن مواعظ القرآن الكريم، كما أن فيها شهادة عليهم بالبَلَه وقلَّة العقل.

ولم يكتفوا بمجرد الإعراض:

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾.

أي: قراطيس وكتباً تُقرأ وتُنشر عليهم، يؤمرون بها بتصديق النبيِّ ﷺ واتباعه؛ لهذا زجرتهم الآيات مرة ثانية عن هذه الاقتراحات:

﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۝٥٣﴾.

فلذلك أعرضوا عن التذكرة، فاستحقوا أن يزجروا مرة ثالثة:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤﴾.

فالقرآن الكريم تذكرةٌ بليغةٌ كافية كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾.

أي: فمن شاء اتعظ به، فإنَّما يعود نفع ذلك عليه.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا وقت مشيئة الله، أو إلا بمشيئة الله، فمشيئته هي الغالبة النافذة.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو حقيق بأن يتقيه عباده، ويخافوا عقابه، وهو حقيق أيضاً أن يغفرَ لهم ما سلف من ذنوبهم إن استجابوا للتذكرة وقبلوا الموعظة. أسأله تعالى أن يجعلنا منهم.





تفسير سورة القيامة

النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ فِي سُورَةِ القِيَامَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يوم القيامة والنفس اللوّامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

بدأ الله تعالى سورة القيامة بالقسم بيوم القيامة تأكيداً لوقوعها:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾.

أي: أقسم بيوم القيامة، ودخول (لا) على القسم مستفيضٌ في كلام العرب وأشعارِهم، وفائدتُها تأكيدُ القسم، وفي قراءة: (لأقسم).

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾.

وهي النفس التي تلوم صاحبها على التقصير في التقوى.

فاللَّوامة: بمعنى اللائمة، **صفةُ مدح**، فهي نفس تحاسِبُ صاحبَها، وتراقِبُ أعماله، قال الحسن البصري: إنَّ المؤمنَ ـ واللهِ ـ ما تراهُ إلا يلومُ نفسَه: ما أردتُ بكلمتي؟ ما أردتُ بأكلتي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟.. وإنَّ الفاجِرَ يمضي قُدُماً ما يعاتِبُ نفسَه[1].

ويمكن أن تكون لوَّامة لأنها تلوم غيرها، وتقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمرادُ من القسم مدحُ مثل هذه النفس، والتنويهُ بها.

وقد تكونُ صفةَ ذَمٍّ، فهي نفسُ الكافر الذي يلومُ نفسَه، ويتحسَّرُ في الآخرةِ على ما فرَّط في جنبِ الله سبحانه، كما في قوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقد يكونُ المرادُ مطلق النفس، فليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا تلومُ نفسَها يومَ القيامةِ، فالمحسِنُ يلوم نفسَه أَنْ لو كان ازداد إحساناً، والمسِيءُ يلومُ نفسَه ألا يكون ارعوى عن إساءته، ولعلَّ هذا سر الاقترانِ في القسم بين يوم القيامة والنفس اللوامة.

وجواب القسم محذوفٌ دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾.

للإحياء والبعث، **فالإنسانُ** هنا: الكافِرُ المكذِّبُ بالبعث.

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

أي: بلى قادرين على جمعها وإعادتها كما كانت حتَّى نسوِّي العظامَ

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ٩٣.

الصغار، فكيف بكبار العظام؟! فالله تعالى قادِرٌ على إعادةِ الجسم البشري وتركيبه كما كان، بحيث لا ينقصُ منه عضوٌ ولا شكلُ هذا العضو مهما صغر ودق.

وفي الآية إشارةٌ إلى حقيقة علمية اكتشفت في عصور متأخرة عن نزول القرآن الكريم، وهي اختلافُ شكل البصمات في رؤوس الأصابع.

ثم بيَّنتِ الآياتُ كيف يمضي الفاجر قُدُماً في طريق الحياة دون أن يعاتبَ نفسه ويحاسبها ويلومها، كما سبق معنا من كلام الحسن البصري رحمه الله.

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾.

أي: بل يريد هذا الإنسان المنكر للبعث أن يدومَ على فجوره ما عاشَ، لا ينزع عنه ولا يتوب!..

فالإيمانُ بيوم الحساب والجزاء يزكِّي نفسَ الإنسان، ويحمله على التوبة والإنابة، ولكنَّ كثيراً من الناس لا يريدون ذلك، ويفضِّلون الاستمرار على ما هم عليه من آثام وفجورٍ، لأنَّهم لا يؤمنون بيوم القيامة.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

سؤال متعنِّت مستبعِد له.

وردَّت الآياتُ على مثل هذا الإنسان وجحوده ليوم القيامة بوصف بعض أحواله في هذا اليوم:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾.

أي: تحيَّر فزِعاً ممَّا يرى من أهوال يوم القيامة. وقرئ: **(برَق)** بفتح الراء.

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾.

أي: ذهب ضوءُه وأظلمَ.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.

أي: جمع بينهما في ذهاب الضوء، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**الشمسُ والقمرُ يكوَّران يوم القيامة**» [رواه البخاري (٣٢٠٠)].

أو: جَمْع بين الشمس والقمر في الطلوع من جهة الغرب، إذ تتغيَّر النظمُ الكونية التي كانت في الدنيا.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾.

أي: أينَ المهربُ وموضع الفرار؟.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾.

أي: حقّاً لا ملجأ لهم يهربون إليه، وكانوا إذا فزعوا لجؤوا إلى الجبل فتحصنوا به، فيقال لهم: لا جبلَ لكم يومئذٍ تتحصَّنون به من عذاب الله تعالى.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾.

أي: إلى حكمه تعالى وأمره ومشيئته موضع قرارهم، يدخل من يشاء الجنة، ويدخل من يشاء النار، فيعاملهم سبحانه بحسب أعمالهم التي صدرت عنهم.

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾.

أي: بما قدَّم من عمل عمله، وبما أخَّر منه ولم يعمله.

ثم بيَّنتِ الآياتُ بأسلوب الإضراب والانتقال دورَ النفسِ في مراقبة صاحبها، وفي شهادتها عليه يوم القيامة:

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾.

أي: بل الإنسان على نفسه من نفسه رُقباء يشهدون عليه بعمله.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

أي: ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به، فإنَّ ذلك لا ينفعه، لأن عليه من نفسه ما يكذِّبُ عذره. أو: ولو أرخى ستوره يريد أن يخفي عمله.

وفي الآية دليل على قبول إقرار الإنسان المكلَّف على نفسه.

* * *

التأنِّي عند نزول الوحي

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

وما دام الإنسانُ مسؤولاً عن عمله، وعليه من نفسه رقيباً وشاهداً، فعليه الأناة وترك الاستعجال حتى في أشرف الأمور، ولهذا التفتتِ الآياتُ إلى النبيِّ ﷺ تحثُّه على الأناة، وعدم الاستعجال عند تلقي الوحي بالقرآن الكريم:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

أي: لا تحرك بالقرآن لسانك عند تلقي القرآن لتأخذه على عجل مخافة أن ينفلت منك شيء منه، أو لمزيد حبك له وحرصك على تبليغه وأداء رسالته.

فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٥].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

أي: إنَّ علينا جمعه في صدرك، فلا يذهب عليك شيء منه، وإثبات قراءته في لسانك بحيث تقرؤه متى شئت، **فالقرآنُ** هنا مصدرٌ بمعنى القراءة، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾.

أي: فإذا قرأناه عليك بواسطة ملك الوحي فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك، فجعل قراءة جبريل عليه السلام قراءته تعالى، ففيه ما فيه من تكريم لجبريل عليه السلام وتعظيم لأمانته.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

أي: ثم إنَّ علينا بعد قراءته أن نبينه لك ونوضِّحه، ونلهمك معناه، كما أردنا وشرعنا.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآيات: هذا تعليمٌ من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقِّيه الوحيَ من المَلَكِ، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق المَلَكَ في قراءته، فأمره اللهُ عز وجل أن يستمعَ له، وتكفَّل الله له أن يجمعه في صدره، وأن يبينه له ويوضحه، فالحالةُ الأولى: **جمعه في صدره**، والثانية: **تلاوته**، والثالثة: **تفسيره وإيضاح معناه**.

وبيَّن ابن عباس رضي الله عنهما سببَ النزول فقال: **كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل عليه بالوحي، وكان ممَّا يحرِّكُ به لسانَه وشفتيه، فيشتدُّ عليه، وكان يعرفُ منه، فأنزل الله الآية التي في**: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال: علينا أن نجمعَه في صدرك وقرآنه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾: فإذا أنزلناه فاستمع ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ علينا أن نبينه بلسانك،

قال: فكانَ إذا أتاهُ جبريلُ أطرقَ، فإذا ذهبَ قرأه كما وعدَهُ اللهُ. [رواه البخاري (٤٩٢٩)].

وعنه أيضاً قال: **كانَ النبيُّ ﷺ إذا نزلَ عليه الوحيُ حرَّك به لسانَه ـ يريد أن يحفظه ـ فأنزل الله:** ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾. [رواه البخاري (٤٩٢٧)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يختلف السلفُ أنَّ المخاطبَ بذلك النبيُّ ﷺ في شأن نزول الوحي، كما دلَّ عليه حديثُ الباب.

وحكى الفخر الرازي: أنَّ القفَّال جوَّزَ أنها نزلت في الإنسان المذكور قبل ذلك في قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] قال: يعرض عليه كتابه فيقال: اقرأ كتابك، فإذا أخذ في القراءة تلجلجَ خوفاً، فأسرعَ في القراءة فيقال: لا تحرِّك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه، أي: أن يجمع عملك، وأن يقرأ عليك، فإذا قرأناه عليك، فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلتَ، ثم إنَّ علينا بيانَ أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته. قال: وهذا وجه حسنٌ ليس في العقل ما يدفعه، وإن كانت الآثارُ غيرُ واردةٍ فيه»[1].

ثم كشفت الآيات سبب الاستعجال عند الإنسان بقوله تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: حقّاً يا بني آدم إنكم تحبُّون العاجلة، لكونكم جُبلتم وفُطرتم على الاستعجال، قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وفي مقابل ذلك:

﴿وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وتتركون الآخرة والعمل لها، وفي قراءة: **(يحبون، يذرون)** بالياء.

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٦٨٠.

ولا يخفى ما في الآيات من توجيه لطيف للنبيِّ ﷺ إلى التأني وترك الاستعجال، فالإنسانُ وإنْ كان مجبولاً على ذلك، فمثله عليه الصلاة والسلام الذي أكرمه الله بأعلى المناصب والدرجات لا ينبغي أن يستفزَّه مقتضى الطباع البشرية، فيحمله على العجلة وترك التأني، ولو كانت العجلة في طلب العلم والاستزادة من الهدى.

* * *

رؤية الله يوم القيامة

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وفي الآخرة التي تتركونها أعظم اللذات ومنتهى السعادات:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: وجوه المؤمنين في الآخرة مشرقةٌ حسنةٌ ناعمةٌ، تنظر إلى خالقها ومالكها، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

فرؤيةُ المؤمنين ربَّهم يوم القيامة ثابتةٌ، دلت عليها الآياتُ القرآنية الكريمة والأحاديثُ النبوية الصحيحةُ، وهي رؤيةٌ تليقُ بذاته المقدسة، بلا تكييف ولا تشبيه.

فعن **جرير بن عبد الله** رضي الله عنه قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ ليلةَ البدرِ فقال: «**إنَّكم سترونَ ربَّكم يومَ القيامة كما ترونَ هذا، لا تضامونَ في رؤيته**» [رواه البخاري (٧٤٣٤)].

وزاد في رواية ثانية: «**فإنِ استطعتُم ألا تُغْلَبوا على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ وصلاةٍ قبلَ غروبِ الشمسِ فافعلوا**» [رواه البخاري (٧٤٣٤)].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ الناسَ قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يومَ القيامة؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**هل تضارُّونَ في القمر ليلةَ البدرِ؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**فهل تضارُّون في الشمسِ ليسَ دونها سحاب؟**» قالوا: لا يا رسولَ اللهِ، قال: «**فإنَّكم ترونَه كذلِكَ**» [رواه البخاري (٧٤٣٧)].

قال ابن بطَّال: «ذهبَ أهلُ السُّنّةِ وجمهورُ الأمةِ إلى جواز رؤية الله في الآخرة، ومنعَ الخوارجُ والمعتزلةُ وبعضُ المرجئة، وتمسَّكوا بأن الرؤيةَ توجِبُ كونَ المرئي محدَثاً وحالّاً في مكان، وأوَّلوا قوله: (**ناظرة**) بمنتظرة، وهو خطأٌ، لأنه لا يتعدَّى بإلى، وما تمسَّكوا به فاسدٌ، لقيام الأدلة على أنَّ الله تعالى موجود، والرؤيةُ في تعلُّقها بالمرئي بمنزلة العلم في تعلقه بالمعلوم، فإذا كان تعلق العلم بالمعلوم لا يوجِبُ حدوثه، فكذلك المرئي.

وتعلَّقوا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وبقوله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والجوابُ عن الأول: أنَّه لا تدركه الأبصار في الدنيا جمعاً بين دليلي الآيتين، وبأنَّ نفي الإدراكِ لا يستلزمُ نفيَ الرؤيةِ، لإمكان رؤية الشيء من غير إحاطةٍ بحقيقته.

وعن الثاني: بأنَّ المراد: لن تراني في الدنيا، فإنَّ نفيَ الشيء لا يقتضي استحالته، مع ما جاء من الأحاديث الثابتة على وفق الآية، وقد تلقَّاها المسلمونَ بالقبول من لدن الصحابة والتابعين حتى حدث من أنكرَ الرؤية، وخالفَ السلف»[1].

وفي مقابل نضرة وجوه المؤمنين وصفت الآيات وجوه الكافرين:

﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: شديدة العبوس.

---

(١) فتح الباري: ١٣/٤٢٦.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

داهية عظيمة تقصِمُ فقار الظهر.

وأريدَ بالظنِّ اليقين كما مرَّ معنا، وقيل: هو على معناه الحقيقي المشهور، والمرادُ تتوقَّع ذلك، فما هم فيه ـ وإن كان في غاية الشر ـ يتوقع بعده أشد منه، وهكذا أبداً، وذلك لأنَّ المرادَ بالفاقرة ما لا يكتنه من العذاب، وإذا كان ظانّاً كان أشدَّ عليه مما إذا كان عالماً به، موطناً نفسه عليه(١).

* * *

الفراق والمساق

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

وإذا كان الحال كذلك فعليهم أن يرتدعوا، وعلى نفوسهم اللوامة أن تزجرهم عن إيثار العاجلة على الآخرة، وأن تنبههم إلى ما ينتظرهم عند الموتِ الذي يقطعهم عن العاجلة، ويضعهم على أبواب الآخرة.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: حقّاً إذا بلغتِ النفسُ أو الروحُ التراقي، وهي العظامُ التي في أعلى الصدر، جمع ترقوة، فهو كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣].

---

(١) روح المعاني: ٢٩/ ١٨٤.

﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ ٢٧﴾.

أي: مَنْ راقٍ يرقي، والمرادُ: يشفي بالرقية.

ويقال ذلك على وجه الاستبعاد واليأس، فمن يقدر أن يرقي من الموت؟! فالمرادُ ببلوغ التراقي مشارفةُ الموتِ، وقربُ خروج الروح من البدن.

وقد يكونُ المراد من يرقى بروحه إلى السماء؟ من رقى يرقى إذا صعد، والاستفهام على هذا حقيقي.

واستحب عاصمٌ في قراءته الوقفَ، وأظهرَ النون في: (مَنْ راق)، وأدغم الآخرون.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ٢٨﴾.

أي: وظنَّ الإنسانُ المُحتضر أنَّ ما نزل به الفراق من الدنيا وما فيها، أو فراق الروح الجسد.

ولعلّه سمَّى اليقين هاهنا بالظنِّ، لأنَّ الإنسانَ ما دامت روحُه متعلِّقة ببدنه يطمعُ في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة، ولا ينقطعُ رجاؤه عنها، أو لعلَّه سمَّاه بالظنِّ على سبيل التهكم.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩﴾.

أي: التَوَتْ ساقه بساقه خوفاً من الموت، أو انتهى أمرُهما، ويبسا بالموت، حتى كأنَّهما ملتفَّتان، فهما أول ما تفارقُهما الحياة وتزولُ عنهما تبردانِ قبلَ سائر الأعضاء وتيبسان.

أو: اتصلت الشدة بالشدة، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما، وقال مجاهد: بلاء ببلاء، أي تتابعت عليه الشدائد،

والعرب لا تذكر الساق إلا في المحن، والشدائد العظام، ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق[١].

وتأتي بعد شدائد الموت النهايةُ التي لا مفرَّ منها:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾.

أي: المرجع والمصير والمنتهى.

وأسباب تتابع الشدائد عليه أنه كان في حالة الرخاء معرضاً عن الحق وعن طاعته تعالى وعبادته.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾.

أي: فلا صدَّقَ بما أخبر الله تعالى في القرآن، ولا أدى أهم ما فرض تعالى عليه وهو الصلاة، التي تدل على إذعانه لله تعالى واستسلامه لأحكام دينه وشريعته.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾.

ولكنَّه أظهر الجحودَ والإعراضَ عن الطاعة.

وإلى جانب ذلك:

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾.

أي: يمشي متبختراً افتخاراً واختيالاً، وأصله: يتمطط، وهو التمدد في التكاسل والتثاقل، وهذا يدل على قلة الاكتراث، فنفسُه نفسٌ متبلدة لا إحساس فيها، فلا توجه إلى صاحبها أي لوم، قد أثقلتها الشهواتُ، وأعمتها الأهواءُ.

وما أكثر الذين تنسحِبُ عليهم هذه الآيات في عصرنا الحاضر!.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١٩/ ١٢٣.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾.

وهو تهديدٌ بعد تهديد، ووعيدٌ بعد وعيد.

وروي: أنها نزلت في أبي جهل الجاهل بربه، أي: لا صدَّقَ رسولَ اللهِ، ولا وقفَ بين يديَّ فصلَّى، ولكن كذَّب رسولي، وتولَّى عن الصلاة بين يدي، فتركُ التصديق خصلةٌ، والتكذيبُ خصلةٌ، وتركُ الصلاةِ خصلةٌ، والتولي عن الله خصلةٌ، فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعة[1]..

من المعلوم أنَّ خصوصَ السبب لا يمنعُ عمومَ الحكم، فالوعيد موجَّهٌ إلى كل متَّصفٍ بهذه الخصال القبيحة المذمومة.

وَرَدَّتْ الآيات في آخر السورة على تساؤل الإنسان المنكر ليوم القيامة بالأسلوب الإنكاري نفسه:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾.

أي: يُترك مهملاً بلا تكليف ولا جزاء، ولا بعث ولا حشر.

فهو استفهام إنكاري، يؤكِّد ويتسق مع ما سبق في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣].

ثم بيَّن تعالى بطلان هذا الحسبان بتذكير هذا الإنسان ببداية خلقه وأصل نشأته وفضل الله تعالى عليه:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: يصب في الرحم، وفي قراءة: (تُمنى) فالضمير للنطفة على هذه القراءة، أي: يمنيها الرجل ويصبُّها في الرحم.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ١١٤.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾.

ثم صار بقدرة الله علقة، فقدَّر خلقه، فسوَّاه تسوية، وعدَّله تعديلاً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار].

﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾.

أي: فجعل من المني الزوجين الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ [النجم].

وتشيرُ الآيةُ إلى حقيقة علمية، وهي أنَّ الذكورةَ والأنوثةَ تتعلق بتقدير الله تعالى ومشيئته بالمني الذي يُمنى، وهو ماء الرجل، فقد أصبح من المعلوم أنَّ الرجلَ يحمِلُ كروموزمين جنسيين في كل خلاياه هما (yx)، وأنَّ أحدهما فقط يكون لولده، بينما المرأةُ تحمل كروموزمين جنسيين في كل خلاياها هما (xx)، وأن أحدهما فقط يكون لولدها، والولد إذا كان ذكراً فإنه يحمل كروموزوم (y) الذي أتاه من أبيه(١).

﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ۝٤٠﴾.

فمن قدر على الابتداء فهو قادر على الإعادة.

روى أبو داود [٨٨٤] والترمذي: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**إذا قرأ أحدُكُم هذه الآيةَ فليقل: اللهمَّ بلى**».



(١) القرار المكين، ص١٨١.



٧٦

تفسير سورة الإنسان

السَّاكِرُ والكَافِرُ فِي سُورَةِ الإنْسَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الأصل الضعيف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾

بدأ الله تعالى سورة الإنسان بقوله:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾.

أي: قد أتى على الإنسان زمانٌ لم يكن شيئاً مذكوراً.

فالآية تذكِّر الإنسان بأصله الضعيف في بَدْءِ خلقه وتكوينه، وأنه لضعفه وحقارته ما كان شيئاً يستحقُّ أن يُذكر، فهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، أكَّد هذا المعنى قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط.

والمراد ببيضة المرأة الملقَّحة بالحيوان المنوي الذي يُمْنيه الرجل، وهذه البييضةُ أكبر خلية في جسم الإنسان، إذ يبلغ قطرها خُمس ملليمتر، وليس ذلك عبثاً، وإنَّما لأنها تتكفل بغذاء النطفة الأمشاج حتى يحين موعد علوقها بالرحم، والتصاقها به، وتغذيتها منه، لمدة أسبوع كامل(١).

ثم بيَّن تعالى الحكمة من خلق الإنسان:

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ليبصر الدلائل والبراهين في الآفاق وفي نفسه، ويسمع الأدلة السمعية، فالسمع والبصر أهمُّ وسائل التمكين والتمييز والمعرفة.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: إنا بيَّنا له سبيلَ الخير والرشاد بواسطة الأنبياء والمرسلين.

ولا شك أن بيان سبيل الخير يكفي لمعرفة سبيل الشر، فكل ما يخالفه شر وضلال وفساد، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وبعد هذا البيان:

---

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص١٩٨.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي: إما أن يكون الإنسان شاكراً لله تعالى بعبادته وطاعته، وإمَّا كافراً لله تعالى بالإعراض عن عبادته وتكذيب رسله.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي مالك الأشعري** ﷺ: أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «**كُلُّ الناسِ يغدو فبائعٌ نفسَه فمعتقُها أو موبقُها**» [رواه مسلم (٢٢٣)].

فكل الناس يسعى بنفسه؛ فمنهم من يبيعها لله بطاعته، فيكون شاكراً، ويعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى، فيكون كافراً، ويهلكها بتعريضها للعذاب، وهو عذاب شديد بينت الآيات بعضه:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾.

أي: سلاسل يسحبون بها، وأغلالاً في أعناقهم، وناراً يحرقون بها.

وفي قراءة: (**سلاسلاً**) مُنَوَّنة عند الوصل، وبألف وبغيرها عند الوقف.

ثم شرعت الآياتُ في المقابل تبيِّنُ حُسْنَ حال الشاكرين بعد بيان سوء حال الكافرين:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾.

أي: إن الأبرار يشربون خمراً ممزوجة بالكافور.

فالأبرار: صفة مدح للشاكرين، جمع بَرٍّ أو بار، وهو المطيع المسترسل في فعل الخير، وتُطلَقُ **الكأس** حقيقةً على الزجاجة إذا كانت فيها خمر، ومجازاً على الخمر، وذكر الكافور لبرودته وبياضه وطيب رائحته، فهو ليس بكافور الدنيا، ولعلَّه التسنيم المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين]. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي مُزِجَ للأبرار من الكافور هو من عينٍ

يشرب منها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج، ويُروون بها. فهو منصوب بإسقاط الخافض أو بدل من كأس.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يتصرَّفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا من قصورهم ومجالسهم، والتفجيرُ هو الإنباع، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩].

* * *

أعمال الشاكرين

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾.

وتوقفت الآياتُ فجأةً عن بيان ما أعد الله للشاكرين من أنواع النعيم في الجنة لتبيِّن بأسلوب الاستئناف أبرزَ أعمالهم التي يعملونها، وفضائلهم التي يتصفون بها، وكأنَّها تعلل سبب الكرامة التي أكرمهم الله بها:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي: يؤدون ما أوجبه الله عليهم بعهد الإيمان، وما أوجبوه على أنفسهم تقرُّباً إلى الله تعالى.

والأصل في معنى **النذر**: الالتزامُ، وهو في الشرع: التزام المكلف شيئاً لم يكن عليه، وشرطُ صحته أن يكون عبادةً.

وفي الحديثِ الشريفِ: عن **عائشةَ** رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «**مَنْ نذرَ أن يطيعَ الله فليطعْه، ومَنْ نذرَ أن يعصيَه فلا يَعْصِه**» [رواه البخاري (٦٦٩٦)].

وعن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: بينا النبيُّ ﷺ يخطبُ إذا هو برجلٍ قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذرَ أن يقومَ، ولا يقعدَ، ولا يستظلَّ، ولا يتكلَّمَ،

ويصومَ، فقال النبيُّ ﷺ: «مُرْهُ فليتكلَّمْ وليستظلَّ وليقعدْ وليتمَّ صومَه» [رواه البخاري (٦٧٠٤)].

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: منتشراً فاشياً، أو عامّاً إلا من رحم الله.

والمراد: أنهم يتركون المعاصي والآثام خوفاً من سوء الحساب، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد].

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: وهم يحبُّون الطعام ويشتهونه ويحتاجون إليه، فيؤثرون غيرَهم على أنفسهم، كما قال تعالى في الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فالإيثار من صفات الأبرار كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

أو: يطعمون الطعام على حب الله تعالى وابتغاء مرضاته.

والمعنى الأول أوجه، لأنَّ قوله بعد ذلك: ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ يغني عنه.

﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ وهو الذي يؤسَر فيحبس، ولو كان كافراً، وهذا يدل على إنسانية الإسلام، ونبل أخلاق المسلمين.

قال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يُحْسَنَ إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه[١].

وعن الحسن: أنه ﷺ كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول: «**أحسن إليه**» فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه[٢].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/١٢٩.

(٢) روح المعاني: ٢٩/١٩٦.

وفي «السيرة»: عن ابن إسحاق: أنَّ رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرَّقهم بين أصحابه وقال: «**استوصوا بالأسارى خيراً**»، وكان أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى قال: وكنتُ في رهطٍ من الأنصارِ حين أقبلوا بي من بدرٍ، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمرَ لوصيةِ رسول الله ﷺ إيَّاهم بنا، ما تقعُ في يد رجلٍ منهم كسرةُ خبزٍ إلا نفحني بها، فأستحيي فأردَّها على أحدهم فيردها عليَّ ما يمسُّها[1].

وخَصَّه بعضهم بالأسير المسلم في أيدي الكفار أو المسلم المسجون، وسمِّي أسيراً مجازاً لمنعه من الخروج.

ويبدو أنَّ بعض الأسرى كما مرَّ معنا في «السيرة» كان يبالغُ في شكر آسريه، والثناء عليهم، فيقولون له:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾.

أي: إنما نطعمكم رجاءَ ثواب الله ورضاه لا نريد منكم في مقابله مكافأة في الأعمال، ولا ثناء في الأقوال.

ويمكن أن يكون قولهم هذا بلسان الحال وأنهم ما قالوه فعلاً، ولكن الله تعالى علمه منهم، فأثنى عليهم به، فقد روى ابن كثير في تفسير الآية عن مجاهد: أنه قال: أما واللهِ ما قالوه بألسنتهم، ولكنْ علمَ الله به من قلوبهم فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب.

فعملُهم خالصٌ غيرُ مشوبٍ بأي حظ دنيوي يدل على إخلاصهم، والإخلاصُ من صفات الشاكرين. وأساس إخلاصهم خوفهم من الله تعالى:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

أي: إنا نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس

---

(١) السيرة، لابن هشام: ٢/ ٢٠٩.

القمطرير، وهو يوم القيامة الذي تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته وتنقبض.

فالقمطرير: الشديد العصيب، أو الطويل، ولا شك أن اليوم العصيب يوم طويل.

* * *

بشارة ونعيم

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

وبادرت الآيات تبشرهم بفضله تعالى ورحمته تطييباً لقلوبهم الخائفة ولنفوسهم الوجلة:

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾.

أي: وأعطاهم بدل عبوس الكفار وحزنهم حُسناً في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، فوجوههم مشرقةٌ مستبشرةٌ، وقلوبهم مفعمة بالسرور راضية.

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: وجزاهم بما صبروا على طاعته وعن معصيته جنة وحريراً، وهو السندسُ والإستبرقُ، كما سيأتي معنا عند قوله: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١].

واختلفوا في من نزلت فيه هذه الآيات؛ فذكر بعضهم قولين:

أحدهما: نزلت في **علي بن أبي طالب** ﷺ، آجرَ نفسه ليسقي نخلاً بشيء من شعير ليلة حتى أصبح، فلما قبضَ الشعير طحنَ ثلثه، وأصلحوا منه شيئاً يأكلونه، فلمَّا استوى أتى مسكين فأخرجوه إليه، وفعل ذلك في بقية الشعير فنزلت هذه الآيات. ذكره الواحدي في أسباب النزول بغير سند، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» من رواية ابن مردويه عن ابن عباس.

والثاني: أنها نزلت في **أبي الدحداح الأنصاري** ﷺ، صام يوماً، فلما أراد أن يفطر جاء مسكينٌ ويتيمٌ وأسيرٌ فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيف واحد. رواه البغوي عن مقاتل من غير سند.

وأضاف القرطبِيُّ في «تفسيره» أقوالاً أخرى ثم قال: «والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلاً حسناً، فهي عامة، وقد ذكر النقَّاش والثعلبي والقشيري وغيرُ واحدٍ من المفسرين في قصة علي وفاطمة وجاريتهما حديثاً لا يصحُّ ولا يثبت»[١].

وأضافت الآيات إلى البشارة بيان بعض أنواع النعيم الذي أعده لهم في الجنة:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي: يتنعَّمون بنعيم الجنة في حال اتكائهم على الأرائك، وهي السرر التي تغطيها الحجال المرفوعة فوقها.

والحجال: جمع حجلة: ساتر من القماش، ترفع فوق السرير، هي للزينة والتنعيم فقط.. فأهل الجنة:

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: لا يرون فيها شدة حر كحر الشمس، ولا برداً مفرطاً يؤذي.

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ١٣٠.

وقيل: **الزمهرير**: القمر، فالمعنى: لا يرون شمساً كشمس الدنيا، ولا قمراً كقمر الدنيا، فهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه ولا نهار، لأن ضوء النهار بالشمس، وضوء الليل بالقمر[1].

والمعنى الأول أظهر، لما ورد في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اشتكتِ النارُ إلى ربِّها فقالت: يا ربِّ أكلَ بعضي بعضاً، فأذنَ لها بنَفَسَيْنِ: نَفَس في الشتاءِ، ونَفَس في الصيفِ، فهو أشدُّ ما تجدونَ من الحرِّ، وأشدُّ ما تجدونَ من الزمهريرِ**» [رواه مسلم (٦١٧)].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾: ويتنعَّمون أيضاً في ظلال الجنة القريبة منهم.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي: وسُخِّرت ثمارها لمتناولها، وسهل أخذها، فهو يتناولها دون كلفة، سواء كان قائماً أو جالساً أو مضطجعاً.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: ويطوفُ عليهم الخدمُ بأواني الطعام وهي من فضة، وأكواب الشراب، جمع كوب، وهو قدح لا عروةَ له، ونبه بذكر الفضة على الذهب لقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: تلك الأكواب هي قوارير، أو جعلت قوارير ولكنها من فضة، فلها صفاءُ القوارير وبياض الفضة.

وفي قراءة: (**قواريرا * قواريرا**) عند الوصل، وبالألف عند الوقف، كما قرئت بغير ألف عند الوصل والوقف.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/١٣٨.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قدَّروها على قدر ريِّهم، فلا تزيدُ عنه فتثقل الكف، ولا تنقص منه فيطلب الزيادة، وهذا أبلغُ في الكرامة والشرف وألذ للشارب.

وفي قراءة: (**قُدِّروها**) بضم القاف وتشديد الدال، أي: جُعلت لهم على قدر حاجتهم.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

أي: ممزوجة بالزنجبيل، وهو نبات طيب الرائحة يلذع اللسان، يحبُّه العرب إذا مُزج بالشراب ويلتذونه.

ولعله ذكر (**يُسقون**) هنا دون (يشربون) لأنه الأنسب لما تقدمه من قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾، والظاهر أنهم تارة يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً، وتارة يسقون من كأس كان مزاجها زنجبيلاً[١].

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: هو من عين في الجنة تسمى سلسبيلاً، وهو اسم لما كان في غاية السلاسة، سمِّيت العين بصفتها.

وبعد أن وصفت الآيات شرابهم وصفت خدَمهم ودورهم:

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: دائمون على ما هم عليه من الطراوة والجمال، لا يهرمون ولا يتغيرون، على سن واحدة، وهم أخف في الخدمة.

وقيل: مسوَّرون مقرطون؛ أي: محلون، **والتخليد**: التحلية.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: ظننتهم من حسنهم وصفاء ألوانهم لؤلؤاً

---

(١) روح المعاني: ٢٩/ ١٠٢.

مفرقاً في ساحة المجلس، واللؤلؤ إذا نُثِرَ على بساط كان أحسن منه منظوماً، وقيل: إنَّما شبههم بالمنثور لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين إذ شبههن باللؤلؤ المكنون، لأنهن لا يُمَتهَنَّ بالخدمة[1].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وإذا رأيت ببصرك الجنة رأيتَ نعيماً وملكاً كبيراً عظيماً، فمعنى (ثَمَّ) هناك، والمراد الجنة.

وفي الحديث الشريف: أن النبيَّ ﷺ قال: «**إني لأعلمُ آخرَ أهلِ النارِ خروجاً منها، وآخرَ أهلِ الجنَّةِ دخولاً، رجلٌ يخرجُ من النارِ حبواً، فيقول الله: اذهبْ فادخلِ الجنَّة، فيأتيها، فيخيَّلُ إليه أنَّها ملأى، فيرجعُ فيقول: يا ربِّ وجدتُها ملأى، فيقول: اذهبْ فادخل الجنةَ، فإنَّ لك مثلَ الدنيا وعشرةَ أمثالها، فيقولُ: تسخرُ مني، أو تضحكُ مني وأنتَ المَلِكُ**» فقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضحك، حتى بدت نواجذُه، وكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة. [رواه البخاري (٦٥٧١)].

ودلت كلمة ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ على زيادة في تكريم أهل الجنة، فلا يدخل أحد عليهم إلا بعد أن يستأذن عليهم من حُجَّابهم وخدمهم.

ثم وصفت الآيات ملابسهم وزينتهم:

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ **والسندس**: ما رقَّ من الحرير والديباج كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم. **والإستبرق**: ما غلظ وفيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس. **وخضر**: نعت للثياب، وفي: قراءة (**خضرٍ وإستبرقٍ**) بخفضهما.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ١٤٤.

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: ومن ذهب، فهو كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي: والبرد، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

وقيل: هذه صفة الأبرار، وأما المقربون فيحلَّون من أساور الذهب واللؤلؤ، أو يحلَّون على حسب ما يشتهون.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ وهو نوع آخر يفوق النوعين السابقين يطهِّر قلوبهم وبطونهم، ويفيض عرقاً من جلودهم.

أو: يطهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل وسائر الأخلاق الرديئة، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقيل: هو عبارةٌ عن التجلي الرباني الذي يشغلهم عما سواه عندما يكرمهم الله ﷻ برؤيته، فهو الساقي ﷻ لأنه المتجلي لهم، وهذا منتهى درجاتهم في الارتقاء والكمال، لهذا ختمت به الآيات ذِكْر نعيم الأبرار.

ويقال لهم تكريماً وإحساناً:

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

أي: إن هذا النعيمَ أكرمكم الله به بمقابلة إيمانكم وطاعتكم، وكان سعيكم مرضياً مقبولاً، جزاكم الله على القليل بالكثير.

* * *

تثبيت وإرشاد

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

ثم التفتت الآيات إلى النبيِّ ﷺ وهو سيد الشاكرين وأعلاهم مقاماً ورفعة في الدنيا والآخرة؛ تُثبِّته على طريق الدعوة، وترشده إلى ما يُعينه على تحمل أعبائها:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

وهي نعمة عظيمة تفضَّل الله بها عليك وأكرمك بها، فما افتريته، وما جئت به من عندك، كما يدَّعي المشركون.

وفي الآيةِ إشارةٌ إلى تنزيل القرآن مفرَّقاً منجَّماً على النبيِّ ﷺ، وهي نعمةٌ أخرى أكرمه سبحانه بها، قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: فاصبر على ما تَلْقَى منهم، وعلى إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: ولا تطع الفاجر في أفعاله أو الجاحد في كفره وجحوده.

أو: لا تطع هذا وهذا، فإنَّ (أو) في الإثبات تفيدُ أحدَ أمرين، وفي النفي تفيدُ نفيَ كلا الأمرين جميعاً.

أو: لا تطع مرتكبَ الإثم الداعي إليه أو مرتكب الكفر الداعي إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

ويقال: نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله ﷺ يعرضان عليه الأموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوة، ففيهما نزلت: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[1].

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: داوم على ذكره سبحانه في جميع الأوقات.

أو: صلِّ لله في أول الليل أو النهار وآخره.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

وهو كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل].

وكشفت الآيات للنبي عليه الصلاة والسلام سبب إعراض المشركين عن دعوته:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي: يحبون الدنيا العاجلة وشهواتها.

﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي: ويتركون الآخرة خلف ظهورهم، فلا يؤمنون بها، ولا يعملون لها، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ١٤٩.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ﴾ أي: وشددنا أعضاءهم ومفاصلهم بعضها إلى بعض. **فالأسر**: الشد والربط، ومنه: الأسير، لأنه يُكتَّف بالإسارِ، والمرادُ إظهار كمال قدرته وحكمته سبحانه، وأنه قادر على إعادتهم بعد الموت.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: وإذا شئنا أهلكناهم، وأتينا بآخرين غيرهم، فوجودهم منوطٌ بمشيئة الله تعالى، فهو وجودٌ غيرُ واجبٍ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ﴾ أي: إن هذه السورة موعظة تدعو إلى الحق وتبينه.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً موصلاً إلى جنته تعالى ورضوانه، وهو سبيل الشاكرين الذي ذكره سبحانه في أول السورة: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وأثبتت الآيةُ لهم كسباً ومشيئةً واختياراً، ولكنَّها مشيئةٌ محدودةٌ مقيدةٌ غير مطلقةٍ:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي: إلا وقت مشيئة الله تعالى لمشيئتكم.

أو: لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله تعالى، فهو بيانٌ لكمالِ مشيئته تعالى، فلا يقدر أحد أن يهدي نفسَه إلا بمشيئة الله تعالى، فدعوى استقلال العبد مكابرةٌ، وكذلك دعوى الجبر مهاترة، والأمر بين الأمرين لإثبات المشيئتين(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقيِّضُ

---

(١) روح المعاني: ٢٩/ ٢١١.

له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله سبحانه الحكمة البالغة والحجة الدامغة، قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ بالهداية والتوفيق للطاعة.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها.

ونَصَبَ (**الظالمين**) بفعل مضمر يفسره ما بعده، أي: أوعد الظالمين.





تفسير سورة المرسلات

الإِعْذَارُ وَالإِنْذَارُ فِي سُورَةِ الـمُرْسَلَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الوعيد الواقع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا (١) فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا (٢) وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا (٣) فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا (٤) فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ (٧) فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ (١٣) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩)﴾.

بدأ الله تعالى سورة المرسلات بالأقسام التالية:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا (١)﴾.

أي: والرياح المرسلة يتبع بعضُها بعضاً كعُرْفِ الفرس.

أو: والرياح التي أرسلت تباعاً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

وقال أيضاً: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

ومرَّ معنا أنه تعالى أقسم بالرياح في قوله في أول سورة الذاريات: ﴿وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا ١﴾.

﴿فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا ٢﴾.

أي: فالرياح التي تعصف عصفاً، يعني: الرياح الشديدة الهبوب.

﴿وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا ٣﴾.

أي: والرياحُ التي تنشر السحاب وتأتي بالمطر، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

﴿فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا ٤﴾.

أي: فالملائكةُ التي تنزل بآيات الله على الرسل فتفرِّق بين الحق والباطل.

﴿فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا ٥﴾.

أي: فالملائكة التي تلقي الوحي.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ٦﴾.

أي: للإعذار والإنذار.

أقسم تعالى بالرياح والملائكة وجمع بينهما بسبب لطافتهما وسرعة حركتهما، وقد يكونُ المراد بها كلها آيات القرآن الكريم، فالمرسلات عرفاً آياتُ القرآن المتتابعة في النزول، والتي تعصِفُ في القلوب، والتي تنشرُ الهدايةَ والمعرفةَ في قلوب المؤمنين، والتي تفرِّقُ بين الحق والباطل، وتلقي الإيمانَ

والنورَ في القلوب، والمنزلة للإعذار والإنذار، ويقوي هذا المعنى قوله في السورة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: بآيات القرآن الكريم، وقوله في آخرها أيضاً: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

وفي قراءة: **(عذُراً أو نذُراً)** بضم الذال فيهما.

وجواب هذه الأقسام:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾.

أي: إنَّ ما توعدون من مجيء يوم القيامة كائن لا محالة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات].

ثم بيَّن تعالى بعض أحداث الساعة عند وقوعها:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾.

أي: مُحِيَ نورها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾.

أي: فتحت فكانت أبواباً، أو شُقَّت.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾.

أي: قُلعت من أماكنها وأزيلت، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه].

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾.

أي: جُمعت لميقات يوم معلوم ليشهدوا على الأمم، أو بُيِّن للرسل الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة.

وفي قراءة: **(وقتت)** بتخفيف القاف وتشديدها، والمعنى واحد.

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾.

أي: أخِّرَت وأمهلت؟.

وفي هذا الاستفهام تعظيم لهذا اليوم، وتعجيب من هوله.

﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾.

الذي يفصل الرحمن فيه بين الخلائق.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وما أعلمك ما يوم الفصل وهوله وشدته؟! فهو تعظيم وتهويل به مرة بعد مرة.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: المكذبين بآيات القرآن أو بالتوحيد والبعث والجزاء.

و**(وَيْل)** مصدر منصوب بإضمار فعله، لكنَّه عدل به إلى الرفع على الابتداء للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليهم.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: الأمم الخالية المكذبة.

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: ثم نحن نتبعهم نظراءهم.

وهو وعيد للمشركين في عهد النبي ﷺ، أكَّده سبحانه بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨)﴾.

أي: إنما نفعل بهم ذلك لكونهم مجرمين.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩)﴾.

أي: عندما نهلكهم، وننزل بهم العذاب، وهذا ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذي أراد بالآخر، فكلَّما ذكر شيئاً قال: ويل لمن يكذب بهذا.

* * *

الخلق والكفت

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾.

ثم ذكَّرهم الله تعالى بضعفهم، وكمال قدرته جل وعلا ورحمته:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠)﴾.

أي: حقير ضعيف وهو ماء النطفة.

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١)﴾.

أي: حريز حصين، وهو الرحم، فقد جعله سبحانه في أحصن مكان في جسم المرأة.

فالمكين: هو القوي الراسخ الذي يتحمَّل ما أُعِدَّ له من الحمل والولادة. ويتمتع الرحم بهذه المكنة أي القوة والشدة، بسبب بنائه الخاص، ومتانة

عضلاته، وطريقة تَوَزُّع أليافها، وبسبب عنق الرحم المغلق بفوهتين وقناة، والذي لا ينفتح إلا حين الولادة[١].

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: إلى مقدار معلوم من الوقت الذي قدَّره الله تعالى للولادة.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: قدرنا ذلك تقديراً فنعم المقدرون نحن له.

وفي قراءة: **(فقدَّرنا)** بالتشديد.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

بنعمة الله ورحمته وحكمته.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: ألم نجعل الأرض ضامَّة تضمهم أحياء وأمواتاً، الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها.

فكافتة: اسم لما يُكْفَتُ أي يضمُّ ويقبض، وفي الآية إشارة إلى الجاذبية الأرضية، كما أن فيها دليلاً على وجوب مواراة الميت ودفنه.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ أي: جبالاً ثابتات عاليات.

﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ عذباً.

---

(١) انظر: القرار المكين، ص٦٢.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد ذلك يستمر على تكذيبه وعناده.

* * *

دخان وشرر

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾

ويقال لهؤلاء المكذبين يوم القيامة:

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: من العذاب.

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: إلى دخان جهنم الذي إذا ارتفع تشعَّبَ ثلاث شعب، كما هو شأن الدخان العظيم، فكونوا فيه حتى يُفْرَغَ من الحساب، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة].

ولعل المراد: ثلاث شعب تكون على رؤوسهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم. وفي قراءة: (**انطلَقوا**) بفتح اللام.

﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

وهذا تهكُّم بهم، وردٌّ لما أوهم لفظ الظل، فهو لا يدفع عنهم حرَّ جهنم.

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: إنَّ جهنم ترمي بشرر عظيم، كل شرارة كالبناء الكبير في عظمها.

وقيل: القصر: جمع قصرة؛ وهي الشجرة الغليظة.

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: كأن الشرر حبال السفن الغليظة التي يجمع بعضها إلى بعض حتى تكونَ كأوساط الجمال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وصُفْر: جمع أصفر فلونها أصفر.

وفي قراءة: (**جمالات صفر**) بالجمع، و(**جُمالة**) بضم الجيم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

بأن هذه صفات شرر جهنم.

ويبدو أن رؤية شرر جهنم تذهلهم وتمنعهم عن النطق:

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: لا ينطقون في هذا الموقف من مواقف يوم القيامة فهو يوم طويل، وفي موقف آخر يتكلَّمون ويختصمون.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: لا يكون لهم إذن واعتذار، فقد تقدَّم الإعذار والإنذار في الدنيا فلم يبق لهم عذر في الآخرة.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

بهذه الأحوال وهذه الأحداث في يوم القيامة.

* * *

الجمع والمصير

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ويقال للمكذبين بعد بعثهم وحشرهم:

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: هذا يوم الفصل بين المصدِّقين والمكذبين، جمعناكم يا مكذبي محمد والمكذبين قبلكم.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: فإن كان لكم حيلةٌ في دفع العذاب فاحتالوا على تخليص أنفسكم،

فلا حيلةَ لكم في ذلك ولا قدرة؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

فلا ينجو من عذاب الله جبار عنيد ولا شيطان مريد.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

بأن هذا التحدي والتقريع كائن يوم القيامة.

وكما بينت الآيات مصيرَ المكذبين في ظل من يحموم، بينت بالمقابل مصير المصدِّقين في ظلال وعيون:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

أي: ظلال الجنة الممتدة وعيونها المتفجرة.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

فمهما طلبوا وجدوا كما في قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة].

ويقال لهم تكريماً وتفضُّلاً وإحساناً:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

في الدنيا من الأعمال الصالحة.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

فأحسنوا تُجْزَوا بهذا الخير العظيم، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

ولكنَّهم لم يفعلوا ذلك، بل كذَّبوا:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥)﴾.

ولهذا استأنفت الآيات خطاب المكذبين على وجه التهديد:

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦)﴾.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ فمتاع الدنيا قليل.

﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ بما جنيتم على أنفسكم، فآثرتم المتاع القليل الزائل على النعيم المقيم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧)﴾.

بالجنة ونعيمها المقيم.

وسبب عنادهم استكبارهم عن الحق:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨)﴾.

أي: إذا قيل لهم: اخشعوا وتواضعوا لله بقبول وَحْيه واتباع رسوله ﷺ؛ لا يخشعون، ولا يقبلون ذلك.

أو: إذا قيل لهم: صلُّوا؛ لا يصلُّون.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩)﴾.

أي: بما أنزل الله على رسوله ﷺ في القرآن الكريم.

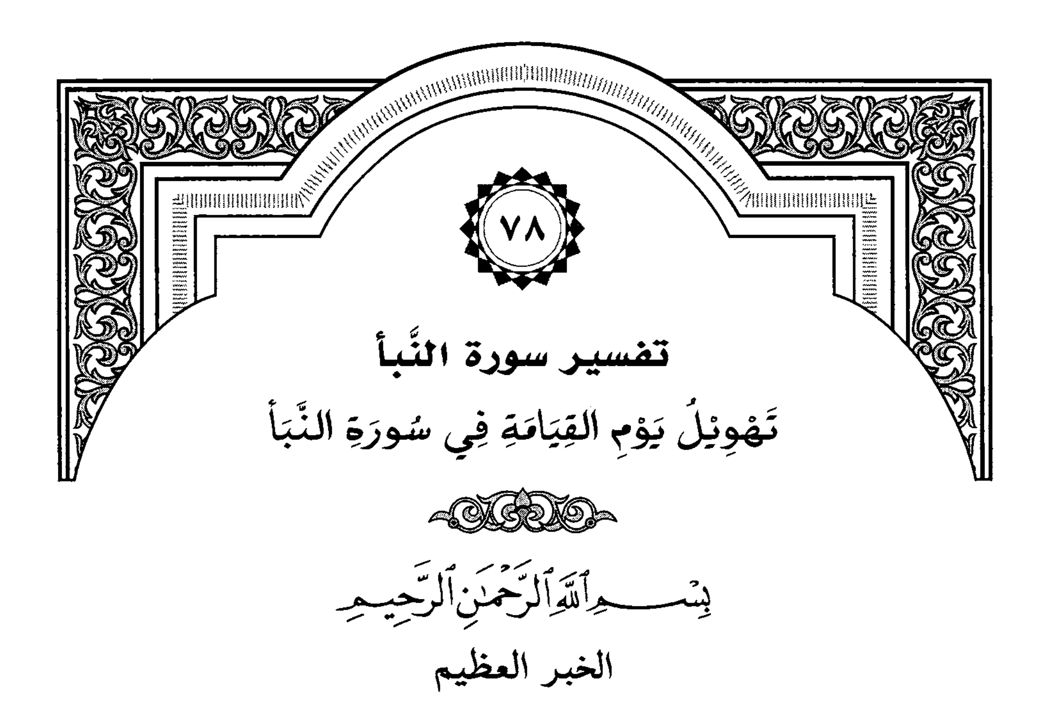
﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾.

إذا لم يؤمنوا به، وهو معجزٌ في ذاته، مشتمل على الحجج البالغة،

والدلائل القاطعة، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

آمنتُ بالله تعالى وبما أنزل.





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الخبر العظيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

بدأ الله تعالى سورة النبأ بقوله:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾﴾.

عن أيِّ شيء يسأل هؤلاء القوم الرسولَ ﷺ والمؤمنين؟ أو عن أيِّ شيءٍ يتساءلون في ما بينهم؟.

و(**عمَّ**) أصله: عن ما، حرف جر دخل على (**ما**) الاستفهامية، وحُذفت الألفُ تخفيفاً، والضمير في (**يتساءلون**) لمشركي مكة، كانوا يتساءلون في ما بينهم عن البعث إنكاراً واستهزاء، وفي ترك ذكرهم إشعارٌ بتحقيرهم وإهانتهم، والمراد من الاستفهام تفخيم شأن ما يتساءلون عنه، وبينت الآيات شأنه المفخم:

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾.

أي: الخبر العظيم الشأن.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾.

أي: هم راسخون في الاختلاف فيه، فمنهم من يقطع بإنكاره، ومنهم من يشك ويقول: ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنّاً؟ وقد يكون الضمير للمسلمين والكافرين، واختلافهم فيه بالإقرار والإنكار.

وبعد أن عظمت الآيات أمر يوم القيامة، وأبهمت أمره لتوجِّه أنظار السامعين نحوه، زجرت منكريه، وتوعدتهم أشد الوعيد:

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

أي: سيعلمون عاقبة إنكارهم. أو سيعلمون عياناً أن ما ينكرونه حق.

والتكرير للمبالغة في الوعيد والزجر، و(**ثم**) للإشعار بأنَّ الوعيد الثاني أشد، وقد يكون المراد: سيعلمون ما يُفعل بهم عند الموت أو في القبر، ثم ما يفعل بهم عند البعث.

* * *

إنعام وإحكام

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

ولما كان إنكار البعث والحساب والجزاء يؤدي إلى وصفه تعالى بصفات لا تليق بجلاله وكماله كالعجز والعبث، بيَّنَ الله سبحانه بعض الدلائل الدالة على كمال قدرته وحكمته بأسلوب الاستفهام التقريري:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦﴾.

أي: ممهدة لكم ومسخَّرة.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾.

أي: وجعلنا الجبال أوتاداً للأرض تثبِّتُ قشرتها لئلا تميد وتضطرب، فيتعذَّرُ عيشُكم عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨﴾.

أي: أصنافاً ذكوراً وإناثاً.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾.

أي: راحة لأبدانكم، فإنَّ النوم يقطع التعب ويزيله، وأصل السبت: القطع.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾.

أي: غطاءً وغشاءً يستركم عن العيون في أحوالٍ تحتاجون فيها إلى الستر والاختفاء.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾.

أي: سبباً ووقتاً للمعاش، ولتتمكَّنوا فيه من التصرف والاكتساب وقضاء المصالح.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾.

أي: سبع سماوات قوية محكمة.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾.

متلألئاً وقَّاداً، جامعاً للنور والحرارة الشديدة، والمراد: الشمس، فهي التي تمد الأرض بما تحتاج إليه من الحرارة.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾.

أي: وأنزلنا من السحائب التي شارفت أن تمطر ماء منصبّاً بكثرة.

فالمعصرات: جمع معصرة؛ اسم مفعول من أعصر، ومنه: أعصرتِ الجاريةُ، إذا دنت أن تحيض.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥﴾.

أي: لنخرج بذلك الماء حبّاً كالحنطة والشعير، ونباتاً كالحشيش والتبن.

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

وبساتين ملتفة على بعضها لكثرة أشجارها.

* * *

يوم الفصل والحق

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

ولابد لهذا الإنعام والإحكام من غاية ينتهي إليها:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾.

أي: إن يوم فصل الله تعالى بين الخلق كان في علمه ﷻ وقتاً محدوداً لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، وعبَّر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه.

وهكذا كشفت الآيات سرَّ النبأ العظيم، الذي كانوا يتساءلون عنه، ثم شرعت تفصِّلُ كيفية وقوعه، وتبيِّنُ بعضَ ما يحدث فيه:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: أمماً وجماعات وزمراً من القبور إلى المحشر.

وفي صحيح **البخاري**: باب (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً) زمراً، ثم أخرج: [٤٩٣٥] من حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين**

النفختين أربعون» قال: أربعون يوماً؟ قال: أبيتُ. قال: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ. قَال: أربعونَ سنةً؟ قال: أبيتُ. قال: «**ثم يُنْزِلُ الله من السماءِ ماءً، فينبتون كما ينبتُ البقلُ، ليسَ من الإنسان شيءٌ إلا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عُجْبُ الذَّنَبِ، ومنه يركَّبُ الخلقُ يومَ القيامةِ**».

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾.

أي: وشُقَّت السماء فصارت ذات أبواب. وفي قراءة: **(وفتّحت)** بالتشديد.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾.

أي: أزيلت عن وجه الأرض، فصارت بعد ذلك مثل السراب، فتُرى كأنَّها جبالٌ، وليست بجبال، بل غبار غليظٌ متفرِّقٌ، قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة].

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١﴾.

أي: موضع رصد وترقُّب، يرصد فيه خزنة النار الكفار.

أو: إنها طريق عليه ممرُّ الخلقِ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]. أو: إنها مرصدة معدَّة.

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢﴾.

أي: مرجعاً ومصيراً ومأوى، وهم المتجاوزون الحد في الطغيان.

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾.

أي: مقيمين في جهنم أزماناً متتابعة، **والحُقُب**: هو الدهر، ولم يُرَدْ به عدد محصور، بل الأبد، كلَّما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية.

وفي قراءة: (لبثين) بغير ألف على جعل اسم الفاعل فعلاً وهو أبلغ.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: لا يذوقون في جهنم روحاً وراحة، ولا شراباً يدفع عنهم العطش، ولكن يذوقون ماء حارّاً يقطع أمعاءهم وماء يسيل من صديدهم. وقيل: البرد: النوم.

﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: جُوزوا جزاءً موافقاً لأعمالهم.

واستأنفت الآيات تبين أعمالهم وتعلل عذابهم:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: لم يؤمنوا بالبعث ليرجوا الحساب ويخافوا منه.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾.

أي: كذَّبوا بأدلة التوحيد والنبوة والبعث تكذيباً مفرطاً.

أو: كانوا مبالغين في الكذب مبالغة المغالين فيه. وفي قراءة: **(كِذَاباً)** بالتخفيف.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: وكل شيء من الأعمال بيناه وأثبتناه في كتاب، وهو صحف الحفظة، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

فالعذابُ مسبب عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات.

ودلَّ أسلوب الالتفات إلى خطابهم على المبالغة، فهذه أشدُّ آيةٍ في القرآن على أهل النار، فهم في مزيدٍ من العذاب أبداً.

ثم بينتِ الآياتُ في المقابل بعضَ ما أعد الله للمتقين من النعيم:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١﴾.

أي: فوزاً، ويعني: نجاة من كل مكروه، وظفراً بكل محبوب، أو إنَّ لهم موضع فوز.

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢﴾.

أي: بساتين فيها أنواع الشجر المثمر، وأعناباً، ودل التنكير على عظم ذلك العنب.

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣﴾.

أي: وجواريَ نواهدَ، قد تكعَّبت أثداؤهن، مستويات في السن.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤﴾.

مملوءة مترعة، أو متتابعة وصافية.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥﴾.

أي: لا يسمعون في الجنة أو في حال شربهم باطلاً من الكلام ولا تكذيباً، فلا يكذِّب بعضهم بعضاً. وفي قراءة: (**كِذَاباً**) بتخفيف الذال مصدر كذب.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾.

أي: جازاهم جزاء بمقتضى وعده، تفضُّلاً منه، وأعطاهم عطاءً كافياً

وافياً، أو على حسب أعمالهم.

* * *

تعظيم وتهويل

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

وممَّا يدل على عظمة هذا اليوم وهول ما يحدث فيه:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

أي: لا يملك أهلُ السماوات والأرض في هذا اليوم خطابه تعالى والاعتراض عليه في ثواب أو عقاب، أو لا يقدر أحدٌ على ابتداء مخاطبته تعالى إلا بإذنه، فهو استئنافٌ مقرر لما أفادته الربوبية العامة من غاية العظمة.

وفي قراءة: (**ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما الرحمنُ**) برفع باء (رب) ونون (**الرحمن**)، أي: هو رب وهو الرحمن.

ومما يدل على هول هذا اليوم:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ أي: يوم يقوم جبريل والملائكة مصطفِّين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥].

وخصَّ جبريل بالذكر تشريفاً له، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء].

وذكر بعض المفسرين في الروح أقوالاً أخرى غريبة لا يعوَّل عليها.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ خوفاً من الله تعالى وإجلالاً له.

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: إلا مَنْ أذن له الرحمنُ في الكلام، وقال حقّاً في الدنيا وعمل به، أو قال المأذونُ له قولاً صواباً؛ أي: قولاً حقّاً في الشفاعة لمن ارتضى.

وتابعت الآياتُ تعظيمَ وتهويل هذا اليوم:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الكائن الواقع لا محالة، فهو يوم الفصل والحق.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي: سبيلاً يرجع إليه، وهو طاعة الله تعالى وما يتقرب به إليه.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ أي: خوَّفناكم في الدنيا عذاباً قريباً في الآخرة، وقربه لتحققه، فإن كل ما هو آتٍ قريب، ولأنَّ مبدأه بالموت.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من خير أو شر مثبت في كتاب أعماله، كما سبق معنا في قوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: ٢٩].

وتخصيص الأيدي لأنَّ أكثرَ الأعمالِ تقع بها.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ أي: في الدنيا، فلم أخلق ولم أكلَّف.

أو: يا ليتني كنتُ تراباً في هذا اليوم، فلم أبعث.

وخُصَّ هذا القول بالكافر دون المؤمن لدلالة قوله على غاية الخيبة وشدة الحسرة والندم.

أسأله تعالى الثباتَ على الإيمانِ وحُسْنَ الخاتمةِ.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة النازعات

الطَّامَّةُ الكُبْرَى وَالطُّغْيَانُ فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

البعث والجزاء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة النازعات بالأقسام التالية:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾.

اختلفت أقوال المفسرين في المراد من هذه الكلمات؛ هل هي صفاتٌ لشيءٍ واحد أم لأشياءَ مختلفة؟ فأكثرُهمُ أنَّ المرادَ بها شيءٌ واحد؛ هم **ملائكة الموت**، فإنَّهم ينزعون أرواح الكفار من أبدانهم غَرْقاً، أي: إغراقاً بالنزع، إذ ينزعونها من أقصى الأبدان، ويَنْشُطون أرواحَ المؤمنين بلطفٍ ورفقٍ، **فالنزعُ**: جذبٌ بشدَّةٍ، **والنَّشْطُ**: جَذْبٌ برفق، ويسبحون في الفضاء مسرعين كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه يقال له: سابح، فيسبقون بأرواح المؤمنين إلى الجنة

وبأرواح الكفار إلى النار، فيدبِّرون أمر ثوابها وعقابها.

أو: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق، تطلع، ثم تغيب، وتنشط من أفق إلى أفق، أي: تذهب وتجري في أفلاكِها سابحة، فيسبقُ بعضُها بعضاً في السير، فتدبِّر أمراً نيط بها، كاختلاف الفصول، وتقدير الأزمنة.

أو: هي صفات النفوس الفاضلة حال المفارقة، فإنَّها تنزع من الأبدان، فتنشط إلى عالم الملكوت، وتسبح فيه، فتسبق إلى حظائر القدس، فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات.

أو: هي النفوس حال سلوكها، فإنها تنزع عن الشهوات، وتنشط إلى عالم القدس، فتسبحُ في مراتب الارتقاء، فتسبق إلى الكمالات، فتصير من المكمّلات، وتصلح أن تكون من المدبّرات، ويظهر لها بعد الموت أحوال وآثار، كأن يرى المرءُ بعدَ الموت شيخه في المنام، فيرشده إلى ما فيه خيره وصلاحه. وذكروا أنَّ ابن عباس قال: الناشطات: النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج.

وقد يكون المراد بيان صفات أنفس المؤمنين أو خيل المجاهدين، والفاء في الأخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما من غير مهلة.

وجواب القسم محذوف دلَّ عليه سياق الآيات، تقديره: لتبعثُن أو لتحاسبُنَّ يوم القيامة.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾.

وهي النفخة الأولى التي تتزلزل بها الأرض، ويموت بها جميع الخلق.

﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾.

وهي النفخة الثانية لأنها تردفُ الأولى وتتبعها.

وكان النبيُّ ﷺ إذا ذهبَ ثلثا الليل قامَ فقال: «**يا أيها الناسُ اذكروا الله، اذكروا الله، جاءتِ الراجفةُ، تتبعُها الرادفةُ، جاءَ الموتُ بما فيه**» [رواه أحمد (٢١٢٤١ و٢١٢٤٢) والترمذي (٢٤٥٧) وحسنه].

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾.

أي: شديدة الاضطراب من شدة الخوف والفزع.

﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾.

أي: أبصار أصحابها ذليلة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج].

﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠﴾.

أي: أنرَدُّ إلى أول الحال وابتداء الأمر، فنرجع إلى الحياة بعد الموت.

فالحافرةُ: اسمٌ لأول الأمر، والعرب تقول: رجعَ فلانٌ في حافرته، أي: رجع من حيث جاء، فهي اسمٌ لابتداءِ الشيءِ وأولهِ، أو طريقه الذي جاء منه يحفره بمشيته، والاستفهام للإنكار والاستهزاء.

وقد يكون المراد من الحافرة: القبور، فهم يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ۝١١﴾.

أي: أنرَدُّ إلى الحياة بعد أن صرنا عظاماً بالية.

وفي قراءة: **(ناخرة)** بالألف.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾.

أي: إن صحَّت فنحن خاسرون لتكذيبنا بها!.

وهو استهزاء منهم، يدل على قسوة قلوبهم، وشدة استكبارهم وطغيانهم، ولهذا جاء الرد عليهم قوياً عنيفاً:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

أي: فما هي إلا صيحة واحدة وهي النفخة الثانية، فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتاً في بطنها.

* * *

المعرفة والخشية

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٢٦ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝٣١ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝٣٢ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝٣٣﴾.

ثم وجهت الآيات خطابها إلى النبيِّ ﷺ تواسيه وتسلِّيه عن ما يلقى من تكذيبهم وطغيانهم، وتذكِّره بقصة موسى وفرعون، الذي كان أشد طغياناً واستكباراً من معارضي دعوته عليه الصلاة والسلام.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾.

أي: قد أتاك يا محمد حديث موسى، حين ناداه ربُّه بالوادي المبارك طوى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۝١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه].

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝١٧﴾.

أي: تجاوز الحدَّ في الكفر والفساد.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

أي: تتطهر من الشرك ودنس الكفر. وفي قراءة: **(تزَّكّى)** بتشديد الزاي.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

أي: وأرشدك إلى معرفة ربك فتخشاه وتعظمه، فالخشية لا تكون إلا بالمعرفة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال بعض الحكماء: اعرف الله، فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيَه طرفة عين، فهي مِلاكُ الأمر، فمن خشي الله أتى بكلِّ خير، ومن أمنَ اجترأ على كل شر(١).

ومنه الحديث الشريف: «**مَنْ خافَ أدلجَ، ومَنْ أدلجَ بلغَ المَنْزِلَ، ألا إنَّ سلعةَ اللهِ غاليةٌ، ألا إنَّ سلعةَ الله الجنَّةُ**» [رواه الترمذي (٢٤٥٠)].

وفي الاستفهام **(هل لك)** ما لا يخفى من التلطُّف في الدعوة، كما أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه].

ودل تقديم التزكية على الهداية على أنَّ التخلية قبل التحلية، وعلى حاجة الإنسان إلى المرشد الذي يرشده إلى معرفة الله تعالى وطاعته.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: المعجزة الكبرى، وهي معجزة العصا.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فكذَّب فرعونُ موسى، وعصى الله تعالى، بعد أن علم صدق موسى وصحة المعجزة.

---

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٤٥١.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: ثم تولَّى عن الطاعة يسعى في إبطال أمر موسى، ومعارضة المعجزة.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: فجمع السحرةَ، فنادى بالناسِ لما اجتمعوا: أنا ربكم الأعلى.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فعذَّبه الله بكلمته الأولى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وبالثانية: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: إن في عقاب فرعون حين كذَّب وطغى لعظة لمن يخشى الله تعالى.

ثم وجهتِ الآياتُ خطابها إلى منكري البعث توبِّخهم على طغيانهم واستكبارهم، وتَبيِّنُ لهم كمالَ قدرته تعالى وباهر حكمته:

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: أخلقُكم بعد الموت أشدُّ أم خلق السماء؟ بل السماء أشد خلقاً منكم.

وفي عدم ذكر الفاعل في (بناها) وفي ما عطف عليه من الأفعال تفخيم لشأنه ﷻ.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾﴾.

أي: جعلها عالية البناء، ومستوية الأرجاء، فهي محكمة تامة، لا خلل فيها ولا نقص، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: وجعل ليلها مظلماً، ونهارها مضيئاً مشرقاً واضحاً، كما تبدو لعين الناظر إليها.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾.

أي: بسطها ومدَّها ومهَّدها لسُكنى أهلها، وتقلبهم في أقطارها.

ويبدو أنَّ الله تعالى دحا الأرض بعد أن خلق السماء، فقد خلقها غير مدحوة كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

وبيَّن دحوها وفسَّره بقوله:

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾﴾.

أي: بتفجير العيون، وإنبات النبات، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾.

أي: أثبتها فيها، وجعلها أوتاداً لها.

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم، فهو سبحانه المتفضِّل عليكم، فإنَّ فائدةَ ما ذُكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى واصلةٌ إليهم ولأنعامهم.

* * *

الطامة الكبرى

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾.

ثم عادت الآيات إلى موضوع السورة الأول، موضوع البعث والحشر للحساب والجزاء، وبيان أثره في تهذيب النفوس ومنعها من الطغيان، فلا يهذب النفوس إلا الإيمان بالطامة الكبرى.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾﴾.

أي: الداهية التي تعلو على سائر الدواهي، سُمِّيت بذلك، لأنها تطمُّ **على كل شيء فتعلو عليه**، قال تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

وكونها **طامة**، لأنها تغلبُ وتفوقُ كل ما عرفوه من دواهي الدنيا، وكونها **كبرى**، لأنها أعظم من جميع الدواهي مطلقاً، فصارت **الطامة الكبرى** كالعلَم للقيامة.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾﴾.

أي: يوم يتذكر الإنسان ما عمل من خير أو شر، فيشاهده مدوَّناً في صحيفته، وقد نسيه من فرط الغفلة وطول الأمد، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣].

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾﴾.

أي: وأُظهرت جهنم لكل راءٍ بحيث لا تخفى على أحد.

وجواب (فإذا جاءت) محذوفٌ دل عليه ما بعده من التفصيل.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧﴾.

جاوز الحد حتى كفر.

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨﴾.

أي: وفضَّل الحياة الدنيا على الآخرة، فانهمك في الدنيا، ولم يستعد للآخرة.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾.

لا مأوى له سواها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: خاف مقامه بين يدي ربه يوم القيامة للحساب والجزاء، أو عند المعصية فانتهى عنها كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يومَ لا ظلَّ إلا ظله: «**ورجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمين**» [رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١)].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: زجرها ومنعها عن المعاصي والآثام.

فالهوى: هو الميل إلى ما تهوى النفس من شهوات، وهو سبب الطغيان.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فترك الهوى مفتاح الجنة، فطوبى لمن تركه وسلم منه.

ثم بيَّن تعالى في ختام السورة أنَّ وقتَ الطامة الكبرى لا يعلمه أحد سواه،

فهو مما أستأثر سبحانه بعلمه، فلم يُطْلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبيّاً مرسلاً، وعلى الإنسان أن يكونَ دائماً مستعدّاً لها منتظراً وقوعها.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾.

أي: متى ظهورها وقيامها، ومرسى السفينة حيث تنتهي.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: ما أنت من ذكراها وتبيين وقتها في شيء، أو أنت ذِكر من ذكراها، أي: علامة من أشراطها، فهو عليه الصلاة والسلام من علاماتِ الساعةِ.

وفي الحديث: عن **سهل بن سعد** ﷺ قال: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهامَ: «**بُعِثْتُ والساعةَ كهاتين**» [رواه البخاري (٤٩٣٦)].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: إلى الله ﷻ انتهاء علمها، ليس لأحد منه شيءٌ، فلماذا يسألونك عنها؟!.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾.

أي: ما أنت إلا منذر من يخشاها، لا معلم بوقتها ومبيِّن له، فلم تبعث لتعلمهم بوقتها، وإنَّما بعثت لتنذر من أهوالها من يخاف شدائدها، ولا شك أنَّ من نهى النفس عن الهوى فهو ممَّن يخشاها. وفي قراءة: (**منذرٌ**) بالتنوين.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

أي: كأن الكفار يوم يعاينون القيامة لم يلبثوا في الدنيا إلا عشية يوم أو ضحاه، استقلوا مدة لبثهم في الدنيا لمَّا شاهدوا هول يوم القيامة.

❁ ❁ ❁



٨٠

تفسير سورة عَبَس

الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ فِي سُورَةِ عَبَسَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عتاب وموعظة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

بدأ الله تعالى سورة عبس بقوله:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾

عبس: أي: كلحَ وقطَّبَ وجهه وأعرض، وهو النبيُّ ﷺ، لأنَّ الأعمى جاءه.

والأعمى: هو ابن أم مكتوم، واسمه: **عمرو**، وقيل: **عبد الله بن شريح القرشي**، وأم مكتوم أم أبيه، وأمه **عاتكة بنت عبد الله المخزومية**، وهو ابنُ خالةِ السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، أسلمَ قديماً بمكة، أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو أشرافَ قريش إلى الإسلام، فقال: يا رسول الله علِّمني ممَّا علمك الله، وكرر ذلك، وهو لا يعلمُ تشاغلَ النبيِّ ﷺ بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعه

لكلامه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت، فكان رسولُ اللهِ ﷺ يكرِمُه بعدَها ويقول إذا رآه: «**مَرْحَباً بِمَنْ عاتبني فيه ربِّي**»، واستخلفه على المدينة مرتين، وكان يؤذِّن لرسول الله ﷺ.

وروى أبو يعلى في مسنده [٣/٢٣] وابن جرير [٣٠/ ٥٠] وابن أبي حاتم: أن رسول الله ﷺ كان بعد ذلك يكرِمُ ابنَ أم مكتوم ويسأله: «**ما حاجتُكَ؟ هل تريدُ من شيءٍ؟**».

فالنبي ﷺ كان مشغولاً بالدعوة إلى الله، وهي وظيفته الأساس التي كلَّفه الله تعالى بها، وكان المسلمون في قلَّةٍ، والدعوة ضعيفة ومطاردة، وكان يرجو إنْ أسلمَ هؤلاء خيراً كبيراً للإسلام في عُسرته ومحنته، فقد كانوا يقفون في طريق الدعوة، ويكيدون ضدها كيداً شديداً، ويصدُّون الناس عنها، فلو أسلموا لانزاحتِ العقبات من طريق الدعوة في مكة، وانتشرت بعد ذلك في ما حولها، ولهذا كره الرسولُ ﷺ قطعه لكلامه، وظهرت الكراهةُ في وجهه الشريف، فعبس وأعرض عنه، ويبدو أنَّه عليه الصلاة والسلام طمعَ في إسلام أحد كبار المشركين، واستشعر في كلامه شيئاً من اللين.

ففي الحديثِ: عن عروة، عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: أُنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسولَ اللهِ ﷺ فجعلَ يقولُ: يا رسولَ اللهِ ﷺ أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعرِضُ عنه، ويُقبلُ على الآخر، ويقول: «**أترى بما أقول بأساً؟**» فيقول: لا. ففي هذا أنزل. [رواه مالك (١/ ٢٠٣) والترمذي (٣٣٣١)].

قال القرطبي: قال علماؤنا: ما فعله ابنُ أمِّ مكتوم كان من سوءِ الأدب، لو كان عالماً بأنَّ النبيَّ ﷺ مشغولٌ بغيره، وأنه يرجو إسلامهم، ولكنَّ الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسِرَ قلوبُ الفقراء من أصحابه، أو ليعلمَ أنَّ المؤمنَ الفقيرَ خيرٌ من الغني الكافر. . وقيل: إنَّما قصد النبيُّ ﷺ تأليفَ الرجل ثقةً بما كان في قلب ابن أم مكتوم من الإيمان، كما قال ﷺ: «**إنِّي لأصلُ الرجلَ وغيرُه أحبُّ إليَّ منه مخافةَ أن يكبَّه اللهُ في النارِ على وجهه**».

وهذا الحديث في صحيح البخاري [٣١٤٥] ولفظه: أعطى رسولُ اللهِ ﷺ قوماً، ومنعَ آخرين، فكأنَّهم عتبوا عليه فقال: «**إنِّي أعطي قوماً أخافُ ظَلَعهم وجَزَعَهم، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعلَ الله في قلوبهم من الخيرِ والغنى، منهم عَمْرو بن تَغْلِب**».

وفي وصف ابن أم مكتوم بالأعمى إشعارٌ بعذره في الإقدام على قطع كلام النبيِّ ﷺ، ودلالة على أنه أحق بالرأفة والرفق.

وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة إجلالٌ له، لإيهام أنَّ مَنْ صدر عنه ذلك غيره، لأنه لا يصدر عنه ﷺ مثله.

ثم وجهتِ الآياتُ الخطابَ إلى النبي ﷺ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾.

أي: وأيُّ شيءٍ يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى؟! لعلَّه يتطهَّر من الذنوب بما يسمع منك.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾.

أو يتعظ فتنفعه الموعظةُ، فلو دريت ما صدر ذلك منك، فإعراضه عليه الصلاة والسلام عن الأعمى كان لتزكيةِ غيره.

وفي قراءة: **(فتنفعُه)** عطفاً على **(يزكَّى، أو يذكَّر)**.

ولا شك أنَّ الالتفاتَ من الغَيْبة إلى الخطاب فيه إيناس بعد الإيحاش، وإقبالٌ بعدَ الإعراض والعتاب، فهو أسلوبٌ فريدٌ متميز دل على أنه سبحانه كره أن يواجه نبيه وحبيبه المصطفى ﷺ بهذا العتاب، ولكنَّه تعالى أرادَ أن يظهر حقيقة الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفعة مبادئها، وأنها وحيٌ من الله تعالى، ليس للنبيِّ ﷺ فيها شيءٌ إلا التلقي والتبليغ، ودلَّتِ أيضاً على أمانته عليه الصلاة والسلام، وأنَّه بلَّغ كل ما أوحى الله إليه، فما كتم منه شيئاً.

وارتفعت نبرة العتاب في الآيات، واشتدت لهجته حتى تحوَّل إلى التعجيب:

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾

أي: أما من استغنى عن الإيمان وعمَّا عندك من العلم، فأنتَ تتعرض لهُ وتُقبل عليه وتصغي إلى كلامه؟! وفي قراءة: **(تصَّدَّى)** بتشديد الصاد.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾

أي: وما يضيرك أن يبقى في رجسه وكفره، فأنتَ لا تُسأل عن ذنبه.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾

أي: يسرع في طلب الخير.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾

أي: يخشى الله تعالى.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

أي: تتشاغل وتُعرض عنه.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾.

﴿كَلَّا﴾ أي: لا تفعل ذلك، ولا تَعُدْ لمثله.

ولقد انفعلت نفسُ الرسول ﷺ لهذا الإرشاد والعتاب حتَّى كان يقولُ لابن أم مكتوم كلَّما أتى إليه: «**مَرْحَباً بِمَنْ عاتبني فيه ربِّي**»، ويدنيه منه، ويبسط له رداءَه كما مرَّ معنا.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إنَّها موعظة، يجب الاتعاظ بها، والعمل بموجبها.



وقد ذكروا أنَّه ﷺ ما عبسَ في وجه فقيرٍ ولا تصدَّى لغني، وتأدَّبَ الناس بذلك أدباً حسناً، وقد رُوِيَ عن سفيان الثوري أنَّ الفقراء كانوا في مجلسه أمراء(١).

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾.

أي: اتعَظ به. وذكر الضميرَ لأنَّ التذكرة في معنى الذكر والوعظ، وهي تذكرة عظيمة كريمة رفيعة عزيزة.

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

عند الله تعالى.

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾.

أي: مرفوعة المنزلة والقدر، مطهرة، لا يمسُّها إلا الملائكة المطهرون.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

وهم الملائكةُ الذين ينتسخونها من اللوح المحفوظ.

وهذا يدل على أنَّ القرآن الكريم أُنْزِلَ أولاً إلى السماء الدنيا دفعة واحدة، ثم نزل على رسول الله ﷺ منجَّماً بواسطة جبريل ﵇ أمين الوحي.

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

أي: عن المعاصي، أو على الله تعالى، **وبررة**: جمع بار.

وفي الحديث الشريف: عن **عائشة** ﵂ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**الماهِرُ**

---

(١) روح المعاني: ٣٠/ ٥٢.

بالقرآنِ مَعَ السفرةِ الكرامِ البررةِ، والذي يقرأُ القرآنَ، ويتتعتعُ فيه، وهو عليه شاقٌّ له أجران» [رواه مسلم (٧٩٨)].

* * *

تكفير وتحقير

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

ثم حملت الآياتُ حملةً شديدةً على الإنسان المعرض عن القرآن الكريم، والذي لا يتأثَّر بمواعظه، ولعلَّه الإنسانُ المشرك الذي تصدَّى النبيُّ ﷺ لدعوته.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾

أي: لُعِنَ وطُرِدَ، ما أشدَّ كفره بالله تعالى وآياته! فهو تعجيبٌ من شدة كفره، ودعاءٌ عليه بأشنع الدعوات، وأردفت الدعاء بالتحقير:

﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

أي: فقدَّره لما يصلح له ويليق به، أو فقدره أطواراً إلى أن أتمَّ خلقه.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم سهَّل خروجه من بطن أمه.

وهو أمر عجيبٌ محيِّر، فقد حيَّرَ الأطباء، إذ كيف يمرُّ الجنينُ في ذلك الممر الضيق، وعنق الرحم لا يتسعُ في العادةِ لأكثر من إبرة لدخوله، فيتسع ذلك العنقُ، ويرتفعُ تدريجيّاً في مرحلة المخاض، حتى ليسع إصبعاً ثم إصبعين ثم ثلاثة فأربعة، فإذا وصل الاتساع إلى خمسة أصابع فالجنين على وشك الخروج(١).

وقد يكونُ المرادُ: سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان، وتيسيره له في هبة العقل، وتمكينه من النظر، أو هو سبيل الهدى والضلال أي سهَّل له الطريقَ الذي يريدُ سلوكه من طريق الخير والهدى وطريق الشر والضلال، بأن أقدره ﷻ على كلٍّ، ومكنه منه، والإقدارُ على المراد نعمةٌ ظاهرةٌ بغض النظر عن خيريته وشرِّيته(٢).

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾.

أي: جعله ذا قبرٍ تُوَارى فيه جثتُه وسوءته، ولم يجعله مطرحاً على الأرض، يستقذره من يراه، وتأكله السباع والطير. ولم يقل: قَبَرَهُ، لأن القابِرَ هو الدافن، يقال: أقبره الله؛ أي صيره بحيث يُقبر، وجعل له قبراً.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾.

أي: بعثه بعد الموت، ويوم النشور هو يوم البعث.

ثم سجلت الآيات على الإنسان تقصيره في حق شكر ما أنعم الله عليه:

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾.

أي: حقّاً لم يؤدِّ هذا الإنسان كل ما أمره الله به، فنِعَمُ الله عليه عظيمة وكبيرة لا تحصى، ولا يستطيع أحد أن يؤدِّي حقَّ شكرها، فلا ينبغي لأحدٍ أن

(١) خلقُ الإنسان بين الطب والقرآن، ص٤٦٠.
(٢) روح المعاني: ٣٠/٥٦.

يستكثرَ طاعته وعبادته، ومرَّ معنا أنه تعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر].

وتأكيداً لهذا المعنى ذكَّرتِ الآياتُ الإنسانَ ببعض نعم الله تعالى عليه، وأمرته أن ينظرَ فيها نظرَ المتفكر، ليعلمَ مدى تقصيره في حق شكرها، واختارت من هذه النعم نعمة الطعام:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾.

أي: فلينظر كيف خلق الله تعالى طعامه؟.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥﴾.

بإنزاله من السحاب، وفي قراءة: **(إنا صببنا)** بكسر الهمزة على الاستئناف.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾.

بالنبات.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧﴾.

كالحنطة والشعير.

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨﴾.

وثماراً كالعنب، وما يقضب من الخضار التي تقطع فينبت أصلها.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠﴾.

أي: ذاتَ شجرٍ كبيرٍ عظيمٍ.

﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١﴾ .

وهو ما تأكله البهائم من العشب.

﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٢﴾ .

أي: هذه الأنواع المذكورة من النعم منفعة لكم ولأنعامكم، فاعرفوا فضل الله عليكم، واذكروا مسؤوليتكم الشخصية أمامه للحساب والجزاء.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾ .

أي: صيحة البعث من القبور، سُميت بذلك لأنها تصخ الآذان بشدتها.
أو: لأنَّ الأسماع تصيخ لها، من قولك: أصاخ إلى كذا، أي: استمع إليه.

﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤﴾ .

لاشتغاله بنفسه، أو لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً.

﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥﴾ .

أي: ومن أمه وأبيه.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ .

ومن زوجته وأولاده.

﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧﴾ .

أي: يشغله شأن نفسه عن شأن غيره.

وفي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ

يقول: «**يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرْلاً**» قلتُ: يا رسول الله! النساءُ والرجالُ جميعاً ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال: «**يا عائشةُ! الأمرُ أشدُّ مِنْ أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ**» [رواه مسلم (٢٨٥٩)]. **غرلاً**: غير مختونين.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

مضيئة مشرقة.

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾.

أصحابها ضاحكون مسرورون.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: سواد وكآبة.

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾.

أي: تعلوها ويغشاها سواد وكآبة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: أولئك الموصوفون بما ذكرهم، الذين جمعوا إلى الكفر الفجور؛ الكفر بحقوق الله تعالى، والفجور بحقوق العباد.

ولا شك أنَّ المشركَ الذي تصدَّى النبيُّ ﷺ له، ومع ذلك أصرَّ على كفره هو مِنْ هؤلاء الكفرة الفجرة.

❁ ❁ ❁



٨١

تفسير سورة التَّكوير

الوَحيُ وَالاستِقَامَةُ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اضطراب النظم الكونية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

بدأ الله تعالى سورة التكوير بقوله:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾.

أي: لُفَّ ضوءُها فذهب، وزال أثره وانتشاره في الآفاق.

وأصل التكوير: جمع الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكويرُ العمامة، وجمع الثياب بعضها إلى بعض، وما يَحدثُ للشمس يحدث للقمر، كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**الشمسُ والقمرُ مكوَّرانِ يومَ القيامةِ**» [رواه البخاري (٣٢٠٠)].

وهذا يدل على أنَّ النظم الكونية تختلُّ وتضطربُ بين يدي الساعة إيذاناً بتبديلها وتغييرها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾.

أي: أظلمت ومُحي نورها، أو: أزيلت من مواقعها وأفلاكها وتناثرت. والأول أوجه لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾ [المرسلات]، فالانكدار من الكدر ضد الصفو.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾.

عن أماكنها، ونسفت فصارت هباءً منبثّاً.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾.

أي: أُهملت وتُركت، **والعشار**: جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها، وهي أَنْفَسُ مالٍ عند العرب.

والمراد بيانُ أنَّ الناسَ في ذلك الوقت يهملون أموالهم ويتركونها من شدة الهول.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾.

أي: جمعت ليقتص لبعضها من بعض، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال النبيُّ ﷺ: «**لتؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يومَ القيامةِ حتَّى يقادَ للشاةِ الجلحاءِ من الشاةِ القَرْناءِ**» [رواه مسلم (٢٥٨٢)].

وهذا تصريحٌ بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها كما يُعاد أهل التكليف من الآدميين، وكما يعادُ الأطفال والمجانين، ومن لم تبلغه دعوة، والقصاص من القَرناء والجَلحاء ليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليفَ عليها، بل هو قصاصُ مقابلةٍ، ثم تردُّ تراباً، فالوحوش النافرة إذا كانت هذه حالها في هذا اليوم فكيف ببني آدم؟!.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾.

فاضت وملئت وصارت بحراً واحداً، لعلَّ سبب ذلك أنه يرسل عَذْبها على مالحها، ومالحها على عذبها، ويرفع الله الحاجز الذي جعله بينهما وأخبر عنه بقوله: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠].

وقد يكون المراد: أوقدت فصارت تضطرم.

وفي قراءة: (**سُجِرَت**) بتخفيف الجيم.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾.

أي: قرنت الأرواحُ بالأجسادِ، أو جُمِعَ الصالح مع الصالح، والفاجر مع الفاجر. وأصل الزوج: المقارن، كزوجي النعل، فأطلق على لازمه، وهو المماثل، قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢].

أو قرن بين الغاوي ومن أغواه من شيطان أو إنسان كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزّخرُف].

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾.

وهي الأنثى التي دُفنت حيةً في التراب، وكان بعض العرب يئدون البناتِ مخافةَ الإملاقِ، أو لحوق العار، وسؤالها توبيخٌ لقاتلها كتوبيخ النصارى بقوله تعالى لعيسى يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. وفي قراءة: (قُتِّلَتْ) بالتشديد.

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ أطفالَ المشركين لا يعذَّبون، وعلى أنَّ التعذيب لا يكون بلا ذنب(١).

ولا شك أنَّ المقصد الأساس لتذكيرهم بهذا الأمر في سياق الأحداث الهائلة التي تكون بين يدي الساعة وفيها، هو تربية نفوسهم، وتقويم اعوجاجهم، وتخليصهم من أدناس الجاهلية وضلالاتها.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾.

أي: صحف الأعمال تُطوى عند الموت وتُنشر لوقت الحساب.

وفي قراءة: (نشِّرت) بالتشديد على معنى التكثير.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾.

أي: أزيلت، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾.

أي: أوقدت إيقاداً شديداً للكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

---

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٤٦٣؛ وتفسير القرطبي: ١٩/ ٢٣٤.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ١٣﴾.

أي: قُرِّبت من المتقين، قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]، وفي ذلك تكريم عظيم للمتقين.

وجواب (إذا) الشرطية في جميع الآيات السابقة:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ١٤﴾.

أي: علمت كل نفس ما عملت من خير أو شر، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

فكلُّ هذه المقدمات والأحداث الكبيرة تمهيد وتوطئة للحساب والجزاء، فعلى الإنسانِ أن يراقبَ نفسه، وينظر في عمله، ليستكثرَ من الخيرات والطاعات، وينأى عن الشرورِ والمعاصي والآثام.

* * *

طريق الاستقامة

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٩﴾.

وهذه الوقائع والأحداث المستقبلة غيب عن الناس، لا يعلمها أحد غير الله ﷻ، ولا سبيلَ إلى العلم بها إلا بواسطة الوحي، فالإنسان مخلوقٌ محدودٌ في

قوته وملكاته، وحتى في كسبه ومشيئته، وتصديقه بهذه الوقائع المستقبلة منوطٌ بتصديقه بظاهرة الوحي، ولهذا اتَّجهت الآيات إلى تأكيدها بالقسم، وتقرير نزول الوحي على النبي ﷺ:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾.

أي: أقسم بالخنس، وهي النجوم التي تظهر في الليل، وتخنس في النهار، فتختفي بنور الشمس.

﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: النجوم السيارة في الفضاء، والتي تظهر ليلاً في أماكنها ومواقعها.

والكناس: الموضع الذي يأوي إليه الوحش، ولهذا قيل: هي بقر الوحش والظباء، والقول الأول أوجه، فلقد أقسم الله تعالى بالنجوم في عدد من الآيات، كما أنَّه أكثر انسجاماً مع سياق الآيات.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: إذا أقبل بظلامه.

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾.

أقبل بنوره وأضاء.

ويمكن أن يكون معنى (**عسعس**): أدبر، فهو من الألفاظ الأضداد، لكنَّ الإقبال هاهنا أنسب، وفي إقبال الصبح روحٌ وحياةٌ بعد الهمود والسكون في الليل.

ويأتي جوابُ القسمِ متناسباً مع المعاني الشعورية الحية للصباح المتنفس بالنور والحياة:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: إن القرآن الكريم وحي من الله، نزل به رسول ملكي كريم عند الله تعالى هو جبريل عليه السلام.

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ أي: ذي قدرة على ما كلِّف به، فلا يعجز عنه، ولا يضعف، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة عند الله تعالى ومنزلة رفيعة.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: مطاع في السماوات، تطيعه الملائكة، فهو من سادة الملائكة وأشرافهم، اصطفاه الله تعالى من بينهم لهذه الرسالة العظيمة، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿أَمِينٍ﴾ أي: على وحي الله تعالى إلى أنبيائه، فصدق الوحي منوط بأمانة الرسول.

وكما أثنت الآيات على أمين الوحي الملكي جبريل عليه السلام أثنت أيضاً على أمين الوحي البشري محمد ﷺ، فعطفت على جواب القسم الأول قوله تعالى:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ .

وهو تكذيبٌ لافتراء المشركين، وفي التعرُّض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم تكذيبٌ لهم بأبلغ وجه، فقد نشأ رسول الله ﷺ بين أظهرهم، فهم أعرفُ الناس به، وأنه أتمُّ الخلق عقلاً، وأرجحهم قيلاً، وأكملهم وصفاً، وأصفاهم ذهناً، فلا يُسنِدُ إليه الجنونَ إلا مَنْ هو مركَّبٌ من الحمق والجنون.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: وبالله لقد رأى محمد ﷺ جبريل على صورته التي خلقه الله عليها بالأفق الواضح.

فقد ثبتَ: أنَّ النبيَّ ﷺ رأى جبريلَ على صورته الملكية مرتين: الأولى: **في الأرض**، والثانية: **ليلة الإسراء والمعراج في السماء**، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم].

وعن **جابر بن عبد الله** الأنصاري رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال وهو يحدِّثُ عن فترة الوحي: «**بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً في السماء، فرفعتُ بصري، فإذا الملكُ الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلت: زمِّلوني**» [رواه البخاري (٤)].

وهذا تأكيد آخر لظاهرة الوحي، فاللقاءُ بين الأمينين الملكي والبشري قد تحقق فعلاً دون لبس أو خفاء.

وكما أدى أمينُ الوحي الملكي الرسالة وبلَّغها، أداها أيضاً الأمينُ البشريُّ وبلغها، ولم يبخل بها:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: وما رسولُ اللهِ ﷺ على ما يخبر به من الوحي ببخيل.

فالضنين: من الضنِّ بكسر الضاد وفتحها بمعنى البخل، فما قصَّر النبيُّ ﷺ في التبليغ والتعليم، وأخبر ما أوحى الله إليه حتى المغيبات من الأخبار.

وفي قراءة: (**بظِنين**) أي: بمتهم من الظِّنة بالكسر، بمعنى التهمة، فالله تعالى بهذا المعنى ينفي اتهامَ الكفرة له عليه الصلاة والسلام.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: ما هو بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع التي تُرجم وتُرمى

بالشهب، وهو نفيٌ لقولهم عن النبي ﷺ: إنَّه كاهن، قال تعالى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء].

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: فأين تعدِلون عن القرآن، وفيه الهدى والرشاد؟!.

أو: أي طريق تسلكون أوضح من هذا الطريق؟! فهو استضلال لهم في إعراضهم عن دعوته عليه الصلاة والسلام، كما يقال لتاركِ الجادَّةِ، الضاربِ في الأرض على غير هُدًى وبصيرةٍ: أين تذهب؟!.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وما القرآنُ إلا موعظة للخلق أجمعين، فرسالته عليه الصلاة والسلام عامةٌ شاملةٌ، تدلُّ على أنه أكمل الناس عقلاً وأرجحهم رأياً.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: لمن شاء منكم أن يسير على طريق الحق والهدى، فيقوِّم نفسه ويهذبها، ويخلِّصها من دنس الجاهلية وآثامها.

ومع أن طريق الاستقامة واضحٌ فلا غنى لكم عن هدايته تعالى وتوفيقه:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

أسأله تعالى الهداية والثبات على الصراط المستقيم.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة الانفطار

الغُرُورُ وَالفُجُورُ فِي سُورَةِ الانْفِطَارِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَٰتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ (١٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩)﴾.

بدأ الله تعالى سورة الانفطار كما بدأ سورة التكوير فقال:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١)﴾.

أي: انشقت، فهو كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: ٩].

فالله تعالى يشقُّها بقدرته ويزيلها، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ .

أي: انقضَّت وتساقطت متناثرة، وزالت عن أفلاكها.

وهذا يدلُّ على حدوث خلل واضطراب في النظم الكونية الدنيوية.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ .

أي: فتح بعضها على بعض، فصارت بحراً واحداً، واختلط العذب بالمالح.

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ .

أي: قُلب ترابها، وبعث موتاها. وجواب **(إذا)** الشرطية:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ .

أي: علمت كل نفس ما قدمت من عمل عملته، وما أخرت منه ولم تعمله، كما في قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [الواقعة: ١٣].

وبعد أن قررت الآياتُ بعضَ ما يقع في يوم الحساب، وجهت خطابها إلى الإنسان المكذّب به بأسلوب الاستفهام على الإنكار والتعجيب:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ .

أي: أي شيء خدعك وجرَّأك على إنكار وتكذيب ما أخبر عنه ربك الكريم، فكرمُهُ يستوجب شكره وطاعته، لا كفره وتكذيبه.

والغرور: سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، وسببه الانهماك في شهوات الدنيا، والاستجابة لوساوس الشيطان، وهو ما حذرنا الله منه بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر].

ومن إنعامه تعالى وإحسانه وكرمه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾.

أي: الذي أخرجك من العدم إلى الوجود، فجعلك سويّاً كامل الأعضاء، وصرفك عن الهيئة والخِلقة المكروهة.

فالتسوية: جعل الأعضاء سوية سليمة معدَّة لمنافعها.

وفي قراءة: (**فعدَّلك**) بالتشديد، أي: فجعلك معتدل القامة منتصباً.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾.

أي: إنْ شاء صورك في صورة قبيحة كصورة قرد أو خنزير، فهو سبحانه قادر على تصوير الإنسان في أي صورة، فهو الفاعلُ لما يريد.

فما أعظمَ فضله على الإنسان! وما أعظمَ جحودَ المكذِّبين بيوم الحساب والجزاء! وهو السبب الأصلي لغرورهم، ولهذا أكده تعالى بأسلوب الإضراب والانتقال فقال:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾.

والمراد من التكذيب بالدين التكذيب بيوم الحساب والجزاء، فإنَّ انسلاخ الإنسانِ عن الشعور بالمسؤولية والجزاء يوقعه بالغرور، ويدفعه إلى الفجور.

وفي قراءة: (**يكذبون**) بالياء.

وهذا الغرور والفجور مسجل عليهم:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾﴾.

أي: رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم ويكتبونها.

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾.

أي: كراماً على الله تعالى يكتبون جميع أقوالكم وأفعالكم.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فلا يخفى عليهم شيءٌ من أعمالكم.

ولا شك أنَّ في تعظيم الكُتَّاب والثناء عليهم تعظيماً لأمر الحساب والجزاء، فهو يربِّي نفس الإنسان ويهذبها، ويجعلها تستشعر الرقابة الدائمة عليها، فَضْلاً عن رقابته تعالى، فَثَمَّة مخلوقات كريمة عليه تلازم الإنسان، وتحصي أقواله وأفعاله، وتسجلها عليه، وتظهر نتيجة ذلك يوم الدين.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

في الجنة.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾.

في جهنم. وفي تنكير النعيم والجحيم ما لا يخفَى من التفخيم والتهويل.

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾.

أي: يقاسون حرَّها يوم الجزاء الذي كذبوا به.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: وما هم بخارجين منها، فهم ماكثون فيها أبداً.

ثم عظَّمت الآيات يوم الدين:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾.

وهو تفخيم بعد تفخيم، وتعظيم بعد تعظيم، فأمره أمر عظيم هائل.

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ أي: لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ أي: والأمر في هذا اليوم لله وحده، لا ينازعه فيه أحد، فلا سلطان لأحد على أحد في يوم الدين كما كان الحال في الدنيا، فالسلطان كله لله تعالى، كما في قوله: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].





٨٣

تفسير سورة المطفِّفين

دِيْوَانُ الشَّرِّ وَالخَيْرِ فِي سُورَةِ المُطَفِّفِيْنَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القيام لرب العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾.

الذين يبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن، مأخوذ من الطفيف وهو القليل، فلا يكادُ يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾.

أي: الذين إذا أخذوا بالكيل من الناس يأخذون حقوقهم وافية تامة.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾.

أي: وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصون الكيل والوزن.

ويبدو أنَّ المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل، لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة، لأنَّهم يدَّعون ويحتالون في الملء، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين.

وهذا الوعيد يلحق من يأخذ لنفسه زائداً، ويدفع إلى غيره ناقصاً، ويتناول الوعيد القليل والكثير، وهذا إذا لم يتب منه، فإن تاب منه وردَّ الحقوق إلى أهلها قُبلت توبته، ومن فعل ذلك، وأصرَّ عليه كان مصرّاً على كبيرة من الكبائر[1].

ولهذا أنكرتِ الآياتُ عليهم، وعَجَّبت من اجترائهم على التطفيف:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾.

هو يوم القيامة، فإنَّ مَنْ ظنَّ ذلك لم يتجاسر على هذه الكبائر، فكيف بمن يتيقنه.

وقد اهتمَّت الآياتُ بأمر الكيل والوزن، لأنَّ عامة الخلق محتاجون إليه، وأمر تعالى بالوفاء فيهما في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

وقوله أيضاً: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

وأهلك الله تعالى أمة هم أمة شُعَيب بسبب كفرهم وتلاعبهم بالكيل والوزن.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

أي: يوم يقومُ الناس من قبورهم لأمره تعالى وجزائه وحسابه، حُفاة عُراة.

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عمر** رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **حتَّى يغيبَ أحدُهم في رشحِهِ إلى أنصافِ أُذنيه**» [رواه البخاري (٤٩٣٨)].

وعن **المقداد بن الأسود** رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**تُدْنَى الشمس يومَ القيامةِ من الخلقِ، حتَّى تكونَ منهم كمقدارِ ميلٍ، فيكونَ الناسُ على**

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٤٧١.

قدرِ أعمالِهم في العَرَقِ، فمنهم من يكونُ إلى كعبيه، ومنهم من يكونُ إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حِقْويه، ومنهم من يلْجِمُه العرقُ إلجاماً»، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه. [رواه مسلم (٢٨٦٤)].

* * *

الفُجّار في سجين

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾.

أي: حقّاً إن مصير الفجار ومأواهم لفي سجين، وهو المكان الضيِّق من السجن، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

أو: إنَّ صحائف أعمالهم لفي سجين، وهو كتاب جامع، هو ديوان الشر، دوّنَ الله فيه أعمال الشياطين والكفرة من الجن والإنس(١).

وعظَّم سبحانه أمر هذا الكتاب وهوَّله بقوله:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾.

أي: مكتوب فيه أعمالهم كالرقم في الثوب، فلا يُنسى ولا يُمحى.

أو: مكتوب عليهم أن مصيرهم إلى سجين.

---

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٤٧٣.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾.

إذا صاروا يوم القيامة إلى السجن والعذاب الأليم.

﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١﴾.

أي: لا يصدِّقون بوقوعه، ويكذِّبون بالحساب والجزاء.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾.

أي: إلا كل متجاوز عن نهج الحق، مبالغ في الآثام والمعاصي.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾.

أي: أكاذيب الأولين.

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾.

﴿كَلَّا﴾ وهو زجر وردع عن هذا القول.

﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بل غلب على قلوبهم وغطّاها ما كانوا يكسبون من المعاصي والآثام.

فللمعاصي آثار سلبية قبيحة على النفس والقلب، فالذنوبُ تسوِّد القلب وتقسِّيه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وفي الحديث: عن **حذيفة** رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوبِ كالحصيرِ عُوداً عُوداً، فأيُّ قَلْبٍ أُشربَها نكت فيه نكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرَها نكتَ فيه نكتةٌ بيضاءُ، حتَّى تصيرَ على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامتِ السماواتُ والأرضُ، والآخرُ أسودُ**

مِرْبادّاً كالكُوزِ مُجَخِّياً (منكوساً) **لا يعرفُ معروفاً، ولا ينكِرُ منكراً، إلا ما أُشْرِبَ مِنْ هواه**» [رواه مسلم (١٤٤)].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ العبدَ إذا أخطأ خطيئةً نكتتْ في قلبه نكتةٌ سوداءُ، فإذا هو نزعَ واستغفر وتابَ صُقلَ قلبُه، فإنْ عادَ زِيْدَ فيها حتَّى تعلوَ على قلبه، وهو الرانُ الذي ذكر الله في كتابه:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» [رواه الترمذي (٣٣٣٤) وقال: حسن صحيح].

وفي قراءة: (**بل رِان**) بكسر الراء وإمالتها.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: حقّاً إن هؤلاء المكذبين بيوم القيامة عن ربهم لمحجوبون.

ففي الآيةِ دليلٌ على ثبوت رؤية الله يوم القيامة، قال مالك بن أنس في هذه الآية: لمَّا حجبَ أعداءه فلم يروه تجلَّى لأوليائه حتى رأوه.

وقال الشافعي: لمَّا حجبَ قوماً بالسخط دلَّ على أنَّ قوماً يرونه بالرضا[1].

وقيل: إنَّهم عن رحمةِ ربهم لمحجوبون وممنوعون، والأول أصح، لأنَّ الرؤيةَ أقوى الكرامات، والحجبُ عنها دليلُ الحجبِ عن غيرها[2].

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾

أي: داخلون فيها، ويقاسون حرَّها.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: ثم يقال لهم توبيخاً وتقريعاً: هذا الذي كنتم به تكذبون في الدنيا.

* * *

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ٢٦١.
(٢) تفسير النسفي: ٦/ ٤٦٤.

الأبرار في عليين

﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين (١٨) وما أدراك ما عليون (١٩) كتاب مرقوم (٢٠) يشهده المقربون (٢١) إن الأبرار لفي نعيم (٢٢) على الأرائك ينظرون (٢٣) تعرف في وجوههم نضرة النعيم (٢٤) يسقون من رحيق مختوم (٢٥) ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (٢٦) ومزاجه من تسنيم (٢٧) عينا يشرب بها المقربون (٢٨) إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦)﴾

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨)﴾.

أي: حقّاً إن مصير الأبرار ومأواهم لفي علِّين، وهي مراتب عالية محفوفة بالجلالة والشرف.

أو: إن صحائف أعمالهم لفي عليين، وهو عَلَمٌ لديوان الخير، الذي تدوَّنُ فيه أعمال الصالحين، عظمه الله وأثنى عليه بقوله:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٢٠)﴾.

أي: مكتوبٌ فيه أعمالهم، أو مكتوب عليهم أنَّ مصيرهم إلى هذه المراتب العالية الشريفة.

﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢١)﴾.

أي: تحضره الملائكة المقربون أو يحفظونه ويشهدون على ما فيه يوم القيامة، وإذا كان هذا حالُ كتابهم، فكيف تكون أحوالهم في النعيم؟!.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ينظرون إلى ما أعد الله لهم من نعيم الجنة، أو ينظرون إلى ربهم سبحانه.

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: بهجة التنعم وحسنه وطراوته.

وفي قراءة: **(تُعْرَفُ)** بضم التاء وفتح الراء، **(نضرةُ)** بالرفع نائب فاعل.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: يسقون من شراب خالص مختوم لم تمسه الأيدي.

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي: مختومة أوانيه بالمسك، أو عاقبة شربه مسك.

وفي قراءة: **(خاتمه)**.

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي: فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله واستباق الخيرات، والانتهاء عن السيئات، فالتنافس في الطاعات أمرٌ محمود، بينما هو مذمومٌ في جمع حطام الدنيا.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: ومزاجُ الرحيقِ من تسنيم، مصدر سنمه إذا رفعه، فهي أرفع شراب في الجنة.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: يشرب منها المقربون صرفاً، وتمزج لغيرهم.

وانتصاب (عيناً) على المدح، أو الحال من (تسنيم).

ثم ذكرت الآيات بعضَ قبائح المشركين كتعليل لوعيدهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: يستهزئون بهم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: وإذا مرَّ المؤمنون بالذين أجرموا يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم استهزاءً بالمؤمنين.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وإذا رجعوا إلى أهلهم رجعوا ملتذين باستخفافهم بالمؤمنين.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: إنَّ المؤمنين لضالون، وهذا يدل على وقاحتهم.

﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

موكَّلين بهم يحفظون عليهم أعمالهم، ويشهدون برشدهم وضلالهم.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

حين يرونهم أذلاء مهانين معذبين.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: والمؤمنون في الجنة يتنعمون، وينظرون إلى الكفار وهم يعذبون.

وتساءلت الآيات في آخر السورة بأسلوب الاستفهام التقريري:

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: هل جُوزي الكفَّار بسخريتهم من المؤمنين في الدنيا؟!.

لا شك أنهم جُوزوا أوفر الجزاء وأعدله بميزان العدل الإلٰهي الذي لا يبخس أحداً شيئاً، والذي لا تطفيف فيه.





٨٤

تفسير سورة الانشقاق

انْقِيَادٌ وَاسْتِسْلَامٌ فِي سُورَةِ الانْشِقَاقِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾﴾.

بدأ الله تعالى سورة الانشقاق بقوله:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾﴾.

لهول يوم القيامة.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾.

أي: سمعتْ لربها وانقادت لأمره، وهي حقيقة وجديرة بالانقياد، فقدرته تعالى لا يستعصي عليها أمرٌ من الأمور، فهو العظيم الذي قهر كل شيء، وذلَّ له كلُّ شيء، ﷻ، فالاستماع هنا مجاز عن الانقياد والطاعة والاستسلام.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾.

أي: بُسطت فأزيلت جبالها، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه].

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾.

أي: وألقت ما فيها من الأموات حتى صارت خالية غاية الخلو، فلم يبق فيها شيء.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾.

أي: وسمعت لربِّها وخضعت لأمره، وهي جديرةٌ بهذا الخضوع والاستسلام. وجوابُ (إذا) محذوف دل عليه سياق الآيات.

ثم وجهت الآيات الخطاب للإنسان تبين له حقيقة الحياة وطبيعتها وشدة الأحوال التي يتقلب فيها وأنه ما خُلق فيها عبثاً:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦﴾.

أي: يا ابن آدم إنك عامل ناصب تلقى ربَّك بعملك، وهو أمرٌ حتم لا مناص منه، وما دام الأمر كذلك فاجعل عملك في عبادته تعالى وطاعته، فإنَّك مسؤول عنه ومحاسب عليه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾.

أي: لا مناقشة فيه، فإن من نوقش الحساب عُذِّبَ كما في الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**ليس أحدٌ يحاسَبُ يوم القيامة إلا هلك**» فقلتُ: يا رسولَ الله، أليسَ قَدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّما ذلكَ العرضُ، وليس أحدٌ يناقَشُ الحسابَ يومَ القيامةِ إلا عُذِّبَ**» [رواه البخاري (٦٥٣٧)].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩﴾.

أي: ويرجع إلى أهله في الجنة مسروراً.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠﴾.

أي: من وراء ظهره.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١﴾.

أي: فسوف يتمنَّى الهلاك.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾.

ويقاسي حَرَّ جهنم. وفي قراءة: (**ويُصلَى**) بضم الياء.

ثم بينتِ الآياتُ بأسلوبِ الاستئنافِ سببَ هذا الهلاكِ والعذاب:

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٣﴾.

أي: إنه كان في **الدنيا** مع أهله بَطِراً فَرِحاً لا يفكر في أمر الآخرة.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: ظَنَّ أنه لن يرجع إلى الله تعالى، ولن يُسأل ويُحاسَب، يقال: حار يحور إذا رجعَ، ومنه الحديث: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِنَ الحَوَرِ بَعْدَ الكَوَرِ**» [رواه مسلم (١٣٤٣)] أي: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿بَلَىٰٓ﴾ أي: ليس الأمر كما ظنَّ، بل يحورُ إلينا ويرجع.

﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ عالماً به وبأعماله، فلا بدَّ أن يُرْجعه ويجازيه عليها.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: أقسم بالشفق، وهو الحمرة التي تُرى بالأفق بعد الغروب، أو البياض الذي يليها، وبغياب الشفق يخرج وقتُ صلاةِ المغرب، ويدخلُ وقت العشاء.

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: وما جَمع وضَمَّ، فالليل يجمع ويضم ما كان منتشراً في النهار، فهو قَسَمٌ بجميع المخلوقات لاشتمال الليل عليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة].

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: إذا اجتمع وتمَّ بدراً. وجواب القسم:

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾

أي: لتركبُنَّ أيها الناس حالاً بعد حال، كما في الحديث الشريف: عن ابن

عباس رضي الله عنهما: «**لتركبُنَّ طبقاً عن طبق حالاً بعد حال**» قال هذا نبيُّكم ﷺ. [رواه البخاري (٤٩٤٠)].

فكل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول.

وفي قراءة: (**لتركبَنَّ**) بفتح الباء.

ويجوزُ أن يكون جمع طبقة، وهي المرتبة، من قولهم: هو على طبقات؛ أي: لتركبن أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدة بعضها أرفعُ من بعض، وهذا المعنى يتّفق مع قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فهو يكابد شدائدَ بعضُها أرفع من بعض، وهي الموتُ وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها، وقد يكونُ المرادُ أحوال الدنيا والآخرة من النطفة إلى الموت ومنه إلى البعث والحساب والجزاء.

وإذا كانت أحوالهم في تغير دائم مستمر:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

بقدرته على بَعْثهم وحسابهم.. فالذي جعلهم يركبون طبقاً عن طبق قادِرٌ على بعثهم للحساب والجزاء.

وهو استفهامُ إنكارٍ وتعجيبٍ من عنادهم وإعراضهم، فالمخلوقاتُ كلها تُذعِنُ لله تعالى، وتستسلمُ لأمره الشرعي إلا الإنسان الكافر الجاحد المعاند.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: لا يخضعون لله ولا يذعنون لأحكام دينه وشرعه.

وهي من آيات سجود التلاوة، واحتج بها أبو حنيفة رحمه الله على وجوبه، فمثل هذا الوعيد لا يكونُ إلا على ترك واجب.

وفي الحديث: **عن أبي سلمة** قال: رأيتُ **أبا هريرة** رضي الله عنه قرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ

ٱنشَقَّتۡ﴾ فسجد بها، فقلت: يا أبا هريرة ألم أرك تسجد؟ قال: لو لم أرَ النبيَّ ﷺ يسجدُ لم أسجد. [رواه البخاري (١٠٧٤)].

ثم بينتِ الآياتُ سبب عنادهم وجحودهم:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢﴾.

أي: يكذِّبون النبيَّ ﷺ حسداً واستكباراً.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣﴾.

أي: بما يُضمرون في صدورهم من الحقد والحسد.

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤﴾.

على عنادهم واستكبارهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ۝٢٥﴾.

أي: غير مقطوع أو غير منقوص.





٨٥

تفسير سورة البُروج

تَأْنِيسٌ وَتَثْبِيتٌ فِي سُورَةِ البُرُوجِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾.

بدأ الله تعالى سورة البروج بقوله:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾.

وهو قَسَم بالسماء ذات النجوم العظام المرتفعة، سُمِّيت بروجاً لارتفاعها وظهورها، قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

أو هي منازِلُ الشمسِ والقمر الاثنا عشر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر].

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾﴾.

هو يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾.

وهما: يوم الجمعة، ويوم عَرَفة.

أقسم الله بهذه الأيام تنويهاً بفضلها، وإظهاراً لشرفها على سائر الأيام. وجوابُ القسم:

﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾.

أي: لقد لُعِنَ أصحاب الأخدود، وهو الشق المستطيل في الأرض، جَمْعه أخاديد.

وقد فصَّل النبي ﷺ خبرهم، ففي الحديث الشريف: عن صهيب رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«كانَ مَلِكٌ في مَنْ كان قبلَكُم، وكان له ساحِرٌ، فلمَّا كَبُرَ قال للملكِ: إنِّي قد كبرتُ، فابعث إليَّ غلاماً أعلِّمه السحرَ.

فبعثَ إليه غلاماً يعلِّمُه، فكانَ في طريقِهِ إذا سَلَكَ راهِبٌ، فقعدَ إليه، وسمَع كلامه فأعجبَه، فكانَ إذا أتى الساحِرَ مَرَّ بالراهِبِ، وقعدَ إليه، فإذا أتى الساحرَ ضربه، فشكى ذلك إلى الراهِبِ، فقالَ: إذا خشيتَ الساحرَ فقل: حبسني أهلِي، وإذا خشيتَ أهلَكَ فقل: حبسني الساحِرُ.

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابَّةٍ عظيمةٍ قد حبستِ الناسَ، فقال: اليومَ أعلَمُ آلساحِرُ أفضلُ أم الراهبُ أفضلُ؟! فأخذَ حجراً فقال: اللهمَّ إنْ كانَ أمرُ

الراهبِ أحبَّ إليكَ مِنْ أمرِ الساحر فاقتلْ هذه الدابةَ، حتى يمضيَ الناسُ، فرمَاها فقتلها، ومضى الناسُ. فأتى الراهبَ فأخبره، فقال له الراهِبُ: أي بنيَّ أنتَ اليومَ أفضلُ مني، قد بلغَ من أمرِكَ ما أرى، وإنك ستُبتلى، فإن ابتليتَ فلا تدلَّ عليَّ.

وكان الغلامُ يُبرِئُ الأكمَهَ والأبرصَ، ويداوي الناسَ من سائر الأدواءِ، فسمعَ جليسٌ للملكِ كان قد عَمِيَ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هاهنَا لكَ إنْ أنتَ شفيتني، فقال: إنِّي لا أشفي أحداً، إنَّما يشفي اللهُ، فإنْ أنتَ آمنتَ باللهِ دعوت الله فشفاك، فآمنَ باللهِ فشفاهُ الله.

فأتى المَلِكَ، فجلسَ إليه كما كان يجلِسُ، فقال له الملك: مَنْ ردَّ عليكَ بصرَكَ؟ قال: ربِّي، قال: ولكَ ربٌّ غيري؟! قال: ربِّي وربُّك الله. فأخذه، فلم يزل يعذبه حتَّى دلَّ على الغلام، فجِيْءَ بالغلام، فقال له الملك: أيْ بني قد بلغ من سحركَ ما تبرئُ الأكمهَ والأبرصَ وتفعلُ وتفعلُ؟ فقال: إني لا أشفي أحداً، إنَّما يشفي اللهُ. فأخذه، فلم يزل يعذِّبه حتَّى دلَّ على الراهب، فجيءَ بالراهبِ، فقيلَ له: ارجعْ عن دينك، فأبى. فدعا بالمنشارِ، فوضِعَ المنشارُ في مفرقِ رأسِهِ، فشقَّه، حتى وقعَ شِقَّاهُ. ثم جيءَ بجليس الملكَ، فقيل له: ارجع عن دينكَ، فأبى، فَوُضِعَ المنشارُ في مفرق رأسه فشقَّه به حتى وقع شقاه.

ثم جِيْءَ بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبلَ، فإذا بلغتُم ذِروتَه، فإنْ رجعَ عن دينه، وإلَّا فاطرحوه. فذهبوا به، فصعدوا به الجبلَ، فقال: اللهمَّ اكفنيهم بما شئتَ. فرجفَ بهم الجبلُ فسقطوا، وجاءَ يمشِي إلى الملك، فقال له الملكُ: ما فعلَ أصحابُكَ؟ قال: كفانيهم اللهُ.

فدفعه إلى نفرٍ من أصحابِهِ فقال: اذهبوا به، فاحملوه في قرقور (سفينة صغيرة) فتوسَّطوا به البحر، فإن رجعَ عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهمَّ اكفنيهم بما شئتَ، فانكفأتْ بهم السفينةُ، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابُكَ؟ قال: كفانيهم الله.

فقال للملك: إنكَ لست بقاتلي حتى تفعلَ ما آمرُكَ به، قال: وما هو؟ قال: تجمعُ الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتصلِبُني على جِذْعٍ، ثم خُذْ سهماً من كنانتي، ثم ضعِ السهمَ في كبدِ القوسِ، ثم قل: بسم الله رب الغلام. ثم ارمني، فإنكَ إذا فعلتَ ذلك قتلتني.

فجمع الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصلبه على جِذْع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهمَ في كبدِ القوسِ، ثم قال: بسم الله ربِّ الغلامِ، ثم رماه، فوقع السهمُ في صَدْغِهِ، فوضَعَ يَده في صدغه في موضع السهم، فماتَ. فقال الناس: آمنَّا بربِّ الغلامِ، آمنَّا بربِّ الغلامِ، آمنَّا برَبِّ الغلام، فأتي الملك فقيل له: أرأيتَ ما كنتَ تحذَرُ؟ قد والله نزلَ بك حذركَ، قد آمنَ الناسُ.

فأمر بالأخدودِ في أفواه السِّكَكِ فَخُدَّتْ، وأضرم النيران، وقال: مَنْ لم يرجعْ عن دينه فاحموه فيها (أي: أقمحوه فيها) ففعلوا! حتى جاءتِ امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها فتقاعستْ أن تقعَ فيها، فقال لها الغلامُ: يا أماه! اصبري، فإنَّكِ على **الحق**» [رواه مسلم (٣٠٠٥)].

وعظمت الآياتُ أمرَ تلك النار:

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾.

أي: ذات الوقود من الحطب وأبدان الناس، وهي بدل اشتمال من الأخدود.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾.

أي: إذ هم قاعدونَ حولها حين أحرقوا المؤمنين بها.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾.

أي: وهم شاهدون لما يفعلون بالمؤمنين، وهذا يدل على غِلظتهم وقسوتهم.

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾.

أي: وما أنكروا منهم، وما عابوا عليهم إلا أن يؤمنوا بالله الغالب الذي يخشى عذابه، المحمود في كل حال، الذي يُرجى ثوابه، فالاستثناءُ يدل على براءتهم عمَّا يُعاب وينكر بالكُلِّيَّة.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

فهو الذي يستحقُّ أن يُرجى ثوابه، ويُخشى عذابه.

ففيه وعيدٌ عظيم للكافرين ووعد للمؤمنين.

قال علماؤنا: أعلمَ اللهُ ﷻ المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ما كان يلقاه مَنْ وحَّدَ الله قبلهم من الشدائد، يُؤنسهم بذلك، وذكر لهم النبيُّ ﷺ قصةَ الغلام، ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسَّوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق، وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته. وكذلك الراهبُ صبر على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار[(١)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ أي: إن الذين عذَّبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات، ثم لم يرجعوا عن كفرهم وإجرامهم.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: فلهم عذاب جهنم بكفرهم، ولهم عذاب الحريق بما أحرقوا المؤمنين، فالجزاء من جنس العمل.

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: انظروا إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ٢٩٣.

وفي مقابل ما أعدَّ الله تعالى لأعدائه من الحريق بيَّن ما أعد لأوليائه من النعيم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

وهو النجاة من الشر والظفر بالخير.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

أي: إن بطشه وانتقامه من الظلمة والجبابرة لشديد قوي كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

خوطب النبيُّ ﷺ بهذا الوعيد إيذاناً بأنَّ لكفار قومه نصيباً كبيراً من بطشه وانتقامه، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

وممَّا يدل على شدة بطشه وانتقامه:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾.

أي: يُبدئ الخلق ثم يعيده بلا مُمانع ولا مُدافع.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وهو الساتِرُ للعيوب، الغفَّار للذنوب، المتودد إلى أوليائه بالمغفرة.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

أي: العظيم في ذاته ﷻ وصفاته وأفعاله، فمالك العرش وخالقه، وهو أعظم المخلوقات، عظيم في ذاته وصفاته وأفعاله ﷻ.

وفي قراءة: (**المجيدِ**) بالكسر صفة للعرش.

وكيف لا يكون عظيماً في ذاته وصفاته وأفعاله وهو:

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

لا يمتنع عليه شيء يريده، ويؤكد ذلك ما فعله في طواغيت الأمم السالفة.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾.

أي: خبر الجموع الكافرة الذين كذَّبوا الأنبياء، وعارضوا دعوتهم،وما أنزل الله بهم من العذاب الذي لم يردَّه عنهم أحد.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾.

وأمثالهم من الطواغيت والظلمة.

ومع ذلك لا يزال الذين كفروا من قومك في تكذيب:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾.

أي: بل هم أشد منهم في الكفر والطغيان، فإنَّهم مغمورون في تكذيب القرآن الكريم، وهم أولى منهم في استحقاق العذاب، فقد سمعوا قصتهم ورأوا آثار هلاكهم.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

فهو عالم بهم، وقادر عليهم، فهم لا يفوتونه، ولا يعجزونه سبحانه.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

وهو رد لكفرهم، وإبطال لتكذيبهم، فالقرآن كتاب شريف فريد في نظمه ومعانيه، لا يحق تكذيبه والكفر به.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

لا تصل إليه الشياطين، أو محفوظ في الملأ الأعلى، فلا تلحقه زيادة أو نقصان، ولا تحريف ولا تبديل. وفي قراءة: (**محفوظٌ**) بالرفع نعتاً **للقرآن**.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة الطارق

القَوْلُ الفَصْلُ فِي سُورَةِ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾.

بدأ الله تعالى سورة الطارق بقوله:

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾.

أقسم الله تعالى بالسماء وبالطارق، وهو نجم بيِّنه بقوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾.

أي: المضيء الذي يثقب الظلام بضوئه، سُمِّي طارقاً لأنه يظهر ليلاً.

وجواب القسم:

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ يحفظ عملها، ويُحصي ما تكسب من خير أو شر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار].

أو: يحفظها من الآفات، وفي قراءة: **(لَمَا)** بالتخفيف، فتكون **(إن)** مخففة من الثقيلة، أي: إن كل نفس لعليها حافظ يحفظها.

ولما بيَّن سبحانه للإنسان أنَّ عليه رقيباً من الله حثه على النظر والتدبر، لكي يعرف أنه مسؤول عن عمله، وأنه تعالى ما خلقه عَبَثاً ولا سدى:

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾

أي: فلينظرِ الإنسانُ نظرَ تَفَكُّر واعتبار من أي شيء خلقه ربه.

﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾.

أي: مدفوق مصبوب في الرحم.

﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾.

أي: يخرج من بين صُلب الرجل وترائبه، ومن بين صُلب المرأة وترائبها.

والصلب: العمود الفقري في الظهر، **والترائب**: أضلاع الصدر.

ومن الثابت علميّاً: أنَّ الخصية في الرجل والمبيض في المرأة يتكونان عند التخلُّق في هذه المنطقة، ثم تنزل الخصيةُ تدريجيّاً حتى تستقرَّ في كيس الصفن خارجَ الجسم في أواخر الشهر السابع من الحمل، بينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة. ومع هذا فإنَّ تغذيةَ الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب تبقى من حيث أصلها من بين الصلب والترائب[١].

---

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص١١٦.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾.

أي: إنَّ الله الذي قَدِرَ على خلق الإنسان ابتداءً قادِرٌ على بعثه بعد الموت.

أو: إن الله قادر على رد الماء إلى مقره الذي خرج منه من بين الصلب والترائب.

والمعنى الأول أظهر؛ لقوله بعد ذلك:

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾.

أي: يوم تكشف وتظهر خفايا القلوب والضمائر وأسرارها، وهو يوم القيامة، وأصل الابتلاء: الاختبار.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾.

أي: فما للإنسان في ذلك اليوم من قوة في نفسه ولا ناصر من غيره.

ثم أقسم الله مرة ثانية:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾.

أي: ذات المطر، سُمِّي به لأنه يجيء ويرجع ويتكرر.

وفيها إشارة إلى ما يسمَّى بدورة المياه في الطبيعة، فمياه الأمطار تعودُ بواسطة التبخر والرياح إلى السماء لتنزل مرة ثانية على الأرض بمشيئته تعالى وقدرته.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾.

أي: تتصدع وتنشق عن النبات والشجر. وجواب القسم:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾.

أي: إنَّ القرآن فاصل بين الحق والباطل فهو الفرقان بينهما.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾ .

أي: باللعب والباطل، فكله جد محض، فمن حقه أن يُهْتَدى به، وأن يكون مهيباً في الصدور، معظماً في القلوب، وإنَّ كل محاولة لإطفاءِ نوره وإبطاله فاشلة خاسرة.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾ .

أي: إن الكافرين يحتالون ويعملون المكايد لإبطال أمره وإطفاء نوره، كما في قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ .

أي: وأُبطل كيدهم، وأجازيهم عليه، فلن يستطيع أعداء الإسلام مهما بلغ كيدهم ومكرهم أن يبطلوا رسالة الإسلام.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ .

أي: فمهِّل الكافرين المستهزئين، لا تشتغل بالانتقام منهم، ولا تستعجل هلاكهم، أمهلهم إمهالاً يسيراً.

ويُلحظ في التعبير الإيناس الإلٰهي للرسول ﷺ، كأنه هو صاحب الأمر وصاحب الإذن، وكأنه هو الذي يأذن بإمهالهم... فهو الود العطوف والإيناس اللطيف يمسح على الكرب والشدة والعناء والكيد(١).



---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٣٨٨١.



تفسير سورة الأعلى

التَّسْبِيحُ وَالتَّذْكِيرُ في سُورَةِ الأعْلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾.

بدأ الله تعالى سورة الأعلى مخاطباً النبيَّ ﷺ بقوله:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾.

أي: نزِّهْ ربك عمَّا لا يليق بكماله وجلاله وعظمته.

أو: نزه اسمه تعالى، وصُنْهُ عن الابتذال والتلفظ به في محلٍّ لا يليق به، واذكره على وجه الخشوع والتعظيم، فكما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته عن النقائص، يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لذلك عن النقائص أيضاً، قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ولهذا سَنَّ النبيُّ ﷺ للمصلِّي وهو في أعلى حالاتِ الخشوع والتعظيم، في ركوعه وسجوده، أن يقول: **سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى.**

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾.

أي: الذي خلق كل شيء فأحكمه وأتقنه وبلَّغه غايةَ كماله المناسب له.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾.

أي: والذي جعل الأشياء على مقاديرَ مخصوصةٍ في أجناسها وأنواعها وأفرادها وصفاتها، فوجه كل واحد منها إلى ما يناسبه في حياته ومعاشه كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه].

وفي قراءة: (قَدَرَ) بالتخفيف من القدرة على جميع الأشياء.

وأقرب مثال على كمال قدرته وحكمته:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾.

أي: أنبت ما ترعاه الدواب غضّاً رطباً.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

فجعله بعد ذلك يابساً ضارباً إلى السواد، ومع ذلك فهو لا يزال كما خلقه تعالى مرعًى، فهو مرعًى عندما كان غضّاً طريّاً نديّاً، ومرعًى بعد أن أصبحَ غثاء أحوى.

وبعد أن أمرت الآياتُ النبيَّ ﷺ بالتسبيح، حملتْ له بشارتين عظيمتين من الله، تدلان على عنايته تعالى به، ومكانته العالية الرفيعة عنده:

البشارة الأولى:

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾.

أي: سنقرأ عليك آيات القرآن الكريم على لسان جبريل فلا تنسى.

وهذا بشارة من الله لنبيه ﷺ أن يحفظ عليه الوحي حتى لا ينفلتَ منه شيء[1]، وهو كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القِيامَة].

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: إلا ما شاء الله نسيانه بأن تُنسخ تلاوته.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ ومن جملة ما يعلم سبحانه حرصُك على حفظ ما يُوحى إليك.

والبشارة الثانية:

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾.

أي: ونشرعُ لك شريعةً سمحةً ميسرة لا حرج فيها ولا عسر، فالإسلام دين يسر، وشريعته شريعة سمحة لا عسر فيها، وكان ﷺ يقول: «**أحبُّ الدِّيْن إلى اللهِ الحنيفيَّةُ السمحةُ**» [رواه أحمد (٢١٠٧) والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٧) وإسناده صحيح لغيره، كما قال في الفتح (١/ ٩٤)].

أو: نوفقك توفيقاً حسناً مستمرّاً للطريقة اليسرى في كلِّ باب من أبواب الدين، ويندرج فيه تيسير تلقي الوحي وتبليغه.

أو: نوفقك للأمور الحسنة في الدنيا والآخرة من النصر وعلو المنزلة في الدنيا، والرفعة في الجنة.

---

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٤٩٤.

وما دام الأمر كذلك:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾.

أي: فذكِّر حيث تنفع التذكرة.

قال ابن كثير في تفسير الآية: ومن هاهنا يؤخذ الأدبُ في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله.

ففي الآية توجيهٌ لطيف للنبي ﷺ حتى لا يبالغَ في تذكير المعاندين المبالغين في الكفر، الذين لا يُرْجى منهم خير، فلا يتعب نفسه في دعوتهم، ولا يعرِّضها للتلف أسفاً عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله أيضاً: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

وقوله أيضاً: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

أي: سيتعظ ويقبل التذكرةَ من يخشى الله تعالى، فخشيته تهذِّب النفسَ، وترقق القلبَ.

وقد يتذكر مَنْ يرجوه إلا أن تذكر الخاشي أبلغ من تذكر الراجي، فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلقت بالخشية والرجاء(١).

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾.

أي: أشقى الكفرة لشدة عداوته رسولَ اللهِ ﷺ كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/٢٠.

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

وهي نار جهنم، أما الصغرى فهي نار الدنيا.

ففي الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**نارُكم هذه التي يوقدُ ابنُ آدمَ جزءٌ من سبعينَ جزءاً من حَرِّ جهنَّم**» قالوا: واللهِ إنْ كانت لكافيةً يا رسولَ اللهِ، قال: «**فإنَّها فُضِّلَتْ عليها بتسعةٍ وستين جُزْءاً كلُّها مثل حرِّها**» [رواه مسلم (٢٨٤٣)].

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ثم لا يموتُ فيها فيستريح، ولا يحيا حياةً طيبة تنفعه.

و(**ثم**) للتراخي الرتبي، فالموتُ متراخٍ عن صلي النار في مراتب الشدة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

أي: من طهر نفسه من دنس الكفر والمعاصي.

أو: من كان عمله زاكياً خالصاً لله تعالى.

أو: من أدى زكاة الفطر.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

أي: صلَّى صلاة العيد أو الصلوات الخمس، فذِكر الله عند الصلاة أمرٌ محمودٌ مشروع، وهي حجة على وجوب تكبيرة الافتتاح، وأنها من شروط الصلاة لا من أركانها، لأن الصلاة عطفت عليها.

ولا يفعل أكثرهم ما يؤدي إلى الفلاح في الآخرة:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾.

وهي فانية زائلة كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة]. وفي قراءة: (**يؤثرون**) بالياء.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾.

والآخرةُ خيرٌ في نفسِها وأدومُ من الدنيا.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨﴾.

أي: إنَّ مضمون هذا الكلام لفي الكتب المتقدمة التي أنزلت قبل القرآن.

﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [النجم].





٨٨

تفسير سورة الغاشية

مَوْعِظَةٌ وَتَذْكِرَةٌ فِي سُورَةِ الغَاشِيَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾.

أي: قد أتاك حديثُ يوم القيامة التي تَغْشى الناس وتعمُّهم بأهوالها وأفزاعها، فأخبارُ يوم القيامة من الغيب الذي لم يعلمه النبيُّ ﷺ حتى أعلمَه الله به.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾.

أي: ذليلة، والمراد أصحاب الوجوه الذين كذبوا بيوم القيامة.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾.

أي: قد عملَتْ عملاً كثيراً تعبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية، فعملها في الدنيا لم يدفع عنها عذاب يوم القيامة، لأنه كان لغير الله تعالى أو غير موافق لأحكام دينه، مثل: عمل الرهبان وأصحاب الصوامع من أهل الكتاب.

روي عن الحسن قال: لمَّا قدم عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه الشامَ أتاه راهبٌ شيخ كبير متقهل (متشعِّث) عليه سواد، فلمَّا رآه عمر بكى، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك؟ قال: هذا المسكينُ طلبَ أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، وقرأ قول الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾[1].

وفي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ أحدثَ في أمرنا هذا ما ليسَ مِنْهُ فهو رَدٌّ**» [رواه البخاري (٢٦٦٧)].

قال ابن حجر: «وهذا الحديثُ معدودٌ من أصول الإسلام وقاعدةٌ من قواعده، فإنَّ معناه: مَن اخترعَ في الدين ما لا يشهدُ له أصلٌ من أصوله، فلا يلتفتُ إليه، فقوله: «ردٌّ» أي: باطل غير معتد به»[2].

وينسحبُ قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ على الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف الذي رواه **أبو سعيد الخُدري** رضي الله عنه قال: بينما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسماً إذ أتاه ذو الخويصرةِ، وهو رجلٌ من بني تميم، فقال: يا رسولَ اللهِ اعدل. فقال: «**ويلكَ ومنْ يعدِلُ إذا لَمْ أعدِلْ، قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدلُ**» فقال عمر: يا رسول اللهِ ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال: «**دعه فإنَّ له أصحاباً يحقِرُ أحدُكُم صلاته مع صلاتِهِم، وصيامَه مع صيامهم، يقرؤون القرآنَ، لا يجاوزُ تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرقُ السهمُ من الرميَّة**» [رواه البخاري (٣٦١٠)].

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٧.

(٢) فتح الباري: ٥/ ٣٠٣.

وقد يكون المعنى المراد: أنها تعمل في النار عملاً تتعب فيه كجرِّ السلاسل وحمل الأغلال والخوض في النار. وفي قراءة: (تُصْلى) بضم التاء.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾.

أي: متناهية في الحرارة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. فهذا شرابهم، وأما طعامهم:

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾.

وهو نبتٌ وشوكٌ لاطئٌ بالأرض، وهو أخبث طعام وأبشعه، وهو سم قاتل إذا يبس لا تقربه دابة.

والعذاب ألوان، والمعذَّبون طبقات، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع، فلا تناقض بين الآيات.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

فلا نفع فيه، إذ المقصود من الطعام أحدُ الأمرين؛ وهما: دفع الجوع، وإفادة السِّمَن، وهما منتفيان عن الضريع.

وانتقلت الآياتُ في المقابل إلى وصف أحوال المُنَعَّمين يوم القيامة:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾.

أي: متنعمة ذات بهجة وحُسن.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾.

أي: لسعيها في الدنيا راضية في الآخرة، لمَّا رأت ثوابه، فهي تستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع، شعور الرضا عن عملها حين ترى رضا الله عنها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾.

أي: عالية المحل والقدر.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾.

أي: لغواً أو كلمة ذات لغو، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة].

وفي قراءة: **(لا يُسمع)** بياء مضمومة على التذكير، و**(لا تُسمع)** بالتاء المضمومة على التأنيث.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾.

أي: عيون كثيرة يجري ماؤها ولا ينقطع، والتنكير للتعظيم.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣﴾.

أي: مرفوعة المكان ليشرف المؤمن الجالس عليها على ما حوله من النعيم.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤﴾.

أي: وأقداح موضوعة بين أيديهم.

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥﴾.

أي: ووسائد ومرافق مصفوفة بعضها إلى بعض.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

أي: وبسط فاخرة مبسوطة ومفرقة في المجالس.

هكذا هيأت الآياتُ بهذه الموعظة وما فيها من ترهيب وترغيب النفوس والقلوب لقبول الحق والإذعان له، فعادت بها من عالم الآخرة إلى عالم الدنيا المحسوسة المحيطة بها تذكِّرها بكمال قدرة الله تعالى الدالة على وحدانيته:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾.

أي: أفلا ينظرون نظر التفكر والاعتبار إلى الإبل كيف خُلقت خلقاً دالّاً على كمال قدرة خالقها وحكمته وحسن تدبيره.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾.

رفعاً بعيدَ المدى دالّاً أيضاً على كمال قدرة مبدعها ورافعها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾.

أي: وإلى الجبال الشامخة العالية كيف نُصبت على الأرض وأُرسيت.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: بُسطت ومُهِّدت.

فمَن غيرُ اللهِ يخلقُ مثل الإبل، ويرفع مثل السماء، وينصب مثل الجبال، ويمهد مثل الأرض؟!.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فذكرهم بالأدلة الدالة على كمال قدرة الخالق ليتفكروا فيها، إنما أنتَ مذكر، ليس عليك إلا التبليغ، ولا مسؤولية عليك إن لم يتذكروا ويتعظوا.

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: بمُسَلَّط فتُكْرِهَهم على الإيمان، فهو كقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قٓ: ٤٥].

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾.

ولكن من تولى منهم وكفر بعد التذكير فإنَّ للهِ الولاية عليه والقهر.

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾.

فالله يعذبه العذاب الأكبر، وهو عذاب النار، وإنَّما قال: (**الأكبر**) لأنهم عذبوا في الدنيا بأنواع من العذاب، مثل: الجوع والقحط والقتل والأسر، فكانتِ النارُ أكبرَ من هذا كله.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: رجوعهم. وأفاد تقديم الظرف التشديد بالوعيد، فإن إيابهم ليس إلا إلى الجبار القهار المقتدر على الانتقام. وفي قراءة: (**إِيَّابهم**) بتشديد الياء.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

فنحاسبهم على أعمالهم، ونجازيهم بها جزاء أمثالهم.

و(**على**) لتأكيد الوعيد لا للوجوب، إذ لا يجب على الله شيء.

والجدير بالذكر أن النبيَّ ﷺ كان يقرأ بـ (**سبح اسم ربك الأعلى**)، و(**هل أتاك حديث الغاشية**) في العيدين وفي الجمعة. [رواه مسلم (٨٧٨)].

ولعلَّ سر ذلك ما فيهما من تسبيح وموعظة وتذكرة.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة الفجر

إِهْلاَكُ الطُّغَاةِ وَالجَبَابِرَةِ فِي سُورَةِ الفَجْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

بدأ الله تعالى سورة الفجر بالأقسام التالية:

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾.

وهو انفجارُ النور في الصباح كقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨].

والمراد: جنسُ الفجرِ أو فجر يوم مخصوص هو أول ذي الحجة أو يوم

عرفة أو يوم النحر أو الجمعة، وقد يكونُ المرادُ صلاة الفجر.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾.

أي: عشر ذي الحجة، وقد ورد في فضلها: ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ما العملُ في أيامِ العشر أفضلَ منها في هذه**» **قالوا: ولا الجهادُ؟ قال:** «**ولا الجهادُ، إلا رجلٌ خرجَ يخاطِرُ بنفسِهِ ومالِهِ فلم يرجعْ بشيءٍ**» [رواه البخاري (٩٦٩)].

أو العشر الأواخر من رمضان، فقد وردَ في فضلها: ما روته السيدة **عائشة** رضي الله عنها قالت: **كان النبيُّ ﷺ إذا دخلَ العَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وأحيا ليلَهُ، وأيقظَ أهلَه.** [رواه البخاري (٢٠٢٤)].

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾.

هو في الأصل العدد، منه شفع، ومنه وتر، وفي المعنى المراد أقوالٌ: الأشياء كلها شفعها ووترها، أو الخلق، لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

والخالق لأنه فرد، أو شفع الليالي العشر ووترها، أو شفع الصلاة ووترها، أو عشر ذي الحجة وأيام منى الثلاثة، وفي الحديث الشريف: عن **عمران بن الحصين** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عن الشفع والوتر، فقال: «**هي الصلاةُ بعضُها شفعٌ، وبعضُها وتر**» [رواه أحمد (٤/ ٤٣٧) والترمذي (٣٣٤٢) وفي إسناده راوٍ مبهم].

وأخرج **النسائي** في الكبرى [١١٦٠٨]: من حديث **جابر** ـ رفعه ـ قال: «**العشرُ عَشْرُ الأضحى، والشفعُ يومُ الأضحى، والوترُ يومُ عرفة**».

وفي قراءة: **(والوِتر)** بكسر الواو.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾.

أي: إذا يمضي، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣].

أو: يُسرى فيه، كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم، وهو قسم بالليل على العموم، أو قسم بليلة معينة هي ليلة مزدلفة التي يُسرى فيها من عرفات.

ثم قررت الآياتُ فخامةَ الأشياء المقسم بها، وكونها مستحقة لأن تُعظَّم بالإقسام بها، للدلالة على تعظيم المقسم عليه وتأكيده، بقوله تعالى:

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾.

أي: هل فيما أقسمتُ به مقنع لذي عقل، سُمِّي بذلك لأنه يحجر صاحبه عن ما لا ينبغي، كما سمي عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن القبائح.

وجوابُ القسم محذوفٌ لكي يذهبَ الخيالُ في تقديره كل مذهب، وتقديره: ليهلكنَّ الله الطغاة والجبابرة، دلَّ عليه قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾.

وهم قوم هود الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية. زاد في تعريفهم فقال:

﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾.

أي: قبيلة إرم ذات البناء الرفيع، أو ذات الخيام والعمد، أو ذات الأجسام الطوال، أو ذات القوة والثبات، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾.

أي: مثل عاد في قوتهم وشدتهم.

﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩﴾.

أي: وثمود الذين قطعوا الصخر بوادي القُرى، وجعلوا منه بيوتاً لأنفسهم.

فجابوا: قطعوا، ومنه: فلان يجوبُ البلاد أي يقطعها، قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾.

أي: ذي الجنود والجيوش التي تشدُّ ملكه.

أو: الذي كان يعذب الناس بالأوتاد تجبُّراً منه وطغياناً.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١﴾.

أي: تجاوزوا الحد بكفرهم وظلمهم.

﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾.

أي: فنشروا فيها الفساد، فالطغيان يؤدي إلى فساد البلاد والعباد، فهو يفسِدُ الضمائر والنفوس، ويجعلها مرتعاً خبيثاً لتحقيق رغبات الطغاة والجبابرة، فلا بدَّ من تطهير الأرض منهم.

ففي الحديث الشريف: «**إنَّ اللهَ ﷻ يملي للظالم، فإذا أخذَه لم يُفْلِتْه**» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. [رواه مسلم (٢٥٨٣)].

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾.

أي: أوقع بهم العذاب على أبلغ الوجوه، إذ الصبُّ يشعِرُ بالدوام، والسوط يدل على زيادة الإيلام.

وكان الحسنُ إذا قرأ هذه الآية يقول: إنَّ عندَ اللهِ تعالى أسواطاً كثيرةً فأخذهم بسوط منها(١).

---

(١) تفسير الخازن: ٦/٥٠٨.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: إنه تعالى يرصد أعمال بني آدم، وهو عالم بما يصدر منهم، فيجازيهم عليها؛ إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

ثم بيَّنَ تعالى أنَّ كثرةَ المال والجاه الذي يعطيه الله للطغاة والجبابرة ليست دليلاً على كرامتهم، فإنَّ الكافرَ الذي لا يؤمنَ بيوم الحساب والجزاء هو الذي يرى الكرامةَ بكثرة المال، والإهانة بقلَّته:

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾.

أي: فأما الإنسانُ الكافِرُ إذا اختبره ربه بالغنى فأكرمه ونعَّمه بالجاه والمال، فيقول: ربي فضلني بما أعطاني.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: ضيَّقَ عليه، وقتَّر رزقه.

وفي قراءة: **(فقدَّر)** بالتشديد.

﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أي: أذلني بالفقر.

ونفى الله كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره، لأنَّ كل واحد منهما اختبارٌ للعبدِ، أيشكر أم يكفر، ويصبر أم يجزع؟ كما في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فالإكرامُ والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وقلته، فهما بتقدير الله وحكمته، فقد يوسِّع على الكافر لا لكرامته، ويضيِّق على المؤمن لا لهوانه، فالله يعطي الدنيا مَنْ يحبُّ ومن لا يحب، لهوانها وحقارتها، قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، ولا يُعطي الآخرة إلا من يحب.

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾: أي: ليس الأمر كذلك.

﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي: بل هناك شَرٌّ من هذا القول، وهو أنَّ الله يوسِّع عليهم فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم، وهذا دليل على سقوطهم في الابتلاء.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ولا يحض بعضكم بعضاً على طعام المسكين.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾.

أي: وتأكلون الميراث أكلاً شديداً، والمراد: أنهم يأكلون نصيبهم ونصيب غيرهم.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

كثيراً شديداً مع حرص وشهوة.

وفي قراءة: (**يكرمون، يحاضون، يأكلون، يحبون**) بالياء.

وفي يوم القيامة تظهر نتيجة الابتلاء، ويندم الساقطون فيه ندماً شديداً:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾.

أي: حقّاً إذا زلزلت الأرضُ وحرِّكت تحريكاً شديداً، ودُقَّتْ وكُسرت مرة بعد مرة.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: لفصل القضاء على الوجه اللائق بجلاله وكماله، من غير

تكييف ولا تشبيه. أو: جاء أمر ربك بالمحاسبة والجزاء.

﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: والملائكة يصطفون صفاً بعد صف.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَۚ﴾ لعرض ما فيها من أنواع العذاب.

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**يؤتى بجهنَّم يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ يجرُّونها**» [رواه مسلم (٢٨٤٢)].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ أي: يومئذٍ يتَّعظ الإنسانُ، ومن أين له منفعة الموعظة، فهي توبةٌ وموعظةٌ غيرُ مقبولةٍ في غير وقتها، أو يتذكر أعماله فيندم عليها.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾.

أي: قدمتُ الخيرَ والعملَ الصالح لحياتي في الآخرة التي لا موت فيها، فهي الحياة الحقيقية.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: ليس أحدٌ أشدَّ عذاباً من تعذيب الله من عصاه وكفر به.

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: ليس أحدٌ أشدَّ قبضاً ووثقاً من قبض الله ووثقه للمجرمين.

وفي قراءة: (**لا يُعذَّب، ولا يوثَق**) بالفتح على البناء للمفعول، والمعنى: لا يعذَّب عذابَ هذا الكافر أحدٌ ولا يوثق وثاقه أحد.

هذا مصيرُ الجبابرة والطغاة، وأما مصير المؤمنين الصالحين فدلت عليه الآيات بقوله تعالى لما يقال لكل واحد منهم:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: المطمئنة بذكر الله، والمصدقة بوعده ووعيده، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

أو: التي تؤمن بلقاء الله، وترضى بقضائه، وتقنع بعطائه، فقد أخرج الطبراني وابن عساكر: عن **أبي أمامة** رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ علَّمه أن يقولَ: «**اللهمَّ إني أسألُكَ نفْساً مطمئنةً، تؤمِنُ بلقائِكَ، وترضى بقضائِكَ، وتقنعُ بعطائِكَ**».

أو: الخاضعةُ لأمرِه تعالى والمصدقةُ برسالةِ نبيِّه، فلا يخالِجُها فيه شكٌّ.

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ارجعي إلى جواره وثوابه، وما أعدَّ لعباده في جنته، راضية عن الله، ورضي الله عنها وأرضاها. يقال لها هذا عند الاحتضار أو في يوم القيامة.

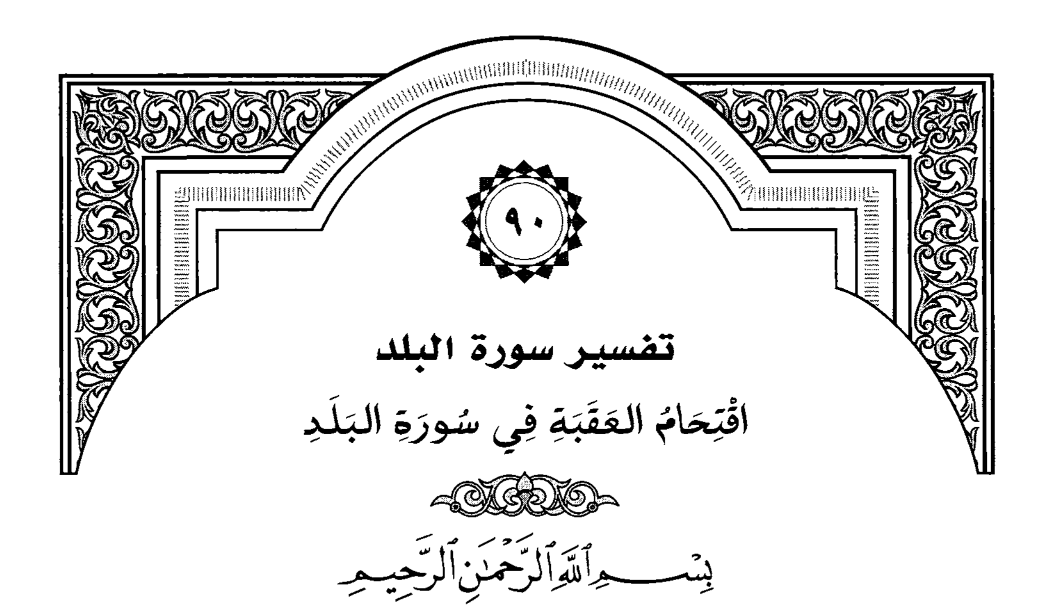
وقد يكونُ المراد: ارجعي إلى صاحبك وجسدك، فهو أمرٌ للأرواح أن ترجعَ إلى الأجساد عندما يبعثها الله يوم القيامة من القبور.

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

أي: ادخلي مع عبادي وفي جملتهم، وادخلي جنتي، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

أسأله تعالى أن يجعلنا منهم.

❁ ❁ ❁



٩٠

تفسير سورة البلد

اقْتِحَامُ العَقَبَةِ فِي سُورَةِ البَلَدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾

أقسم الله تعالى في أول سورة البلد فقال:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾.

وهي مكة المكرمة.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾.

أي: وأنتَ يا محمَّدُ مقيمٌ به، نازلٌ فيه، فكأنه عظَّم حرمة مكة من أجل أنه ﷺ مقيمٌ بها، ففيه إظهارٌ لمزيدِ فضله، وإشعارٌ بأنَّ شرفَ المكانِ بشرف أهله(١).

---

(١) تفسير الخازن وتفسير البيضاوي: ٦/ ٥١٣.

أو: مثلك على عظم حرمتك يستحلُّ بهذا البلد، يعني مكة، كما يستحل الصيد في غير الحَرَم؟! فقد كان رسول الله ﷺ في مكة يكابد من أذى المشركين، ففي الآية تثبيت لرسول الله ﷺ وبعثٌ له على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيبٌ من حالهم في عدوانهم[١].

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

أو: وأنتَ حِلٌّ مما صنعت في هذا البلد من قتل أو غيره.

أو: أنت حِلٌّ بهذا البلد غير محرم في دخوله؛ يعني عام فتح مكة.

قال ابن كثير في تفسيرها: وأنتَ يا محمَّدُ يحلُّ لك أن تقاتِلَ به، وقال مجاهد: ما أصبت فيه فهو حلال لك. وقال الحسن: أحلَّها الله له ساعة من نهار.

وقد ورد هذا المعنى في الحديث الشريف: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ يومَ افتتح مكة: «**لا هجرةَ بعدَ الفتح، ولكنْ جهادٌ ونيةٌ، وإذا استُنْفِرْتم فانفروا، فإنَّ هذا بلدٌ حَرَّمَ اللهُ يومَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، وهو حرامٌ بحرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ، وإنَّه لم يحلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحلَّ لي إلا ساعة من نهارٍ، فهو حرامٌ بحرمةِ اللهِ إلى يوم القيامةِ، لا يُعْضَدُ شوكُه، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، ولا يلتَقطُ لقطته، إلا مَنْ عرَّفها، ولا يُختلى خلاه**» قال العباس: يا رسولَ اللهِ إلا الإذخر، فإنَّه لقينهم ولبيوتهم. قال: «**إلا الإذخر**» [رواه البخاري (١٨٣٤)].

واعتُرِضَ على هذا القول بأنَّ السورةَ مكيةٌ، وأنَّ هذا كان عند فتح مكة في السنة الثامنة بعد الهجرة.

وأجابوا عن هذا الاعتراض بأنَّ المرادَ من قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ في المستقبل، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر] ومثله واسعٌ في كلام العرب، تقول لمن تَعِدُه الإكرامَ والحباء: أنت مكرَّمٌ محبوٌّ، لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة[٢].

---

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٥١٣.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٦٠.

ففي هذا المعنى إشارة إلى أن عاقبة الاحتمال والمكابدة إلى الظفر والفتح، فالغرض تسليته ﷺ عمَّا يكابد من أذى قريش وتبشيره بالفتح والنصر.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾.

أي: وأقسم بوالد وما ولد، والمراد: كل والد وما ولد، أو آدم وذريته، أو إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، فهم الذين أقاموا في مكة المكرمة، والله تعالى أقسمَ بالبلدِ الحرام وبمن سكن فيه من الأنبياء العظام عليهم الصلاة والسلام. وجواب القسم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾.

أي: في تعب ومشقة، وأصل **الكبد**: الشدة، ومنه تكبَّدَ اللبن: غلظ وخثر واشتد، ومنه الكبد لأنه دم تغلَّظ واشتد، ويقال: كابدتُ هذا الأمرَ، أي: قاسيتُ شدته(١).

فالإنسان يكابد منذ بداية حياته شدائدَ الدنيا، ثم يكابدُ ما بعدَها من شدائد الآخرة، فحياته سلسلة متواصلة من الشدائد، فهو يعاني من المشقة ألواناً وضروباً كثيرة منذ استهلاله صارخاً إلى أن يكبر ويصير رجلاً، ثم هو بعد ذلك كله يمرضُ ويموتُ، ويلقى في قبره، وفي آخرته ما يلقى من المصاعب والمتاعب، ولو كان الأمرُ له لما اختار هذه الشدائد. ودلَّ ذلك على أنَّ له خالقاً خلقه، وقدر عليه هذه الأحوال الشديدة، فكيف يَظُنُّ أنه خُلِقَ سدًى، وأن الله تعالى لن يسأله عن عمله، ولن يجازيه عليه.

ولهذا قال تعالى منكراً على أمثال هذا الإنسان ومعجِّباً من حاله:

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٦٢.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾.

أي: أيحسب أنَّ الله تعالى لن يقدر على بعثه بعد موته ومحاسبته.

وهو يستكبر بماله ويستطيل بكثرة نفقاته:

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾.

أي: كثيراً، من تلبَّد الشيءُ إذا اجتمع. وفي قراءة: **(لُبَّداً)** بتشديد الباء.

ولا شك أن كثرة إنفاقه تبيِّنُ سبب تكذيبه وطغيانه، فالترف من أكبر أسباب الضلال والطغيان.

وقد يكونُ مرادُ الآيةِ تهديد أحد رؤساء المشركين من قريش الذين كان النبي ﷺ يكابد من أذاهم ما يكابد، وكانوا ينفقون أموالهم في عداوته عليه الصلاة والسلام.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

حين ينفق ما ينفق رياءً وافتخاراً أو عدواناً على النبي ﷺ.

ولا بد لهذا المستطيل بماله أن يُذكَّرَ بضعفه وشدة حاجته، وافتقاره إلى ربه، وذلك بتعريفه ببعض نعم الله تعالى عليه:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

أي: وبينا له طريقي الخير والشر، والحق والباطل، **فالنجد**: العلو، وجمعه نجود، ومنه سُمِّيت نجد لارتفاعها، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. وقيل: هديناه الثديين ليتغذّى بلبنهما.

وعليه في مقابل هذه النعم أن يشكرَ الله عليها، ويستعملها في طاعته وعبادته.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾.

أي: أفلا اقتحم العقبة. **والاقتحام**: الدخول في الأمر الشديد، والمراد من **العقبة**: سبيل النجاة والفوز يوم القيامة. والمعنى: أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير؟.

وقد يكون المراد من العقبة مجاهدة نفسه، وحملها على السير في نجد الخير وطريقه.

وهي عقبة كأداء، صعبة شديدة، ولهذا عظمها، وبيَّن أهم الأسباب المساعدة على اقتحامها وتجاوزها فقال:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: عتق رقبة بتحريرها، وتخليصها من الرق والعبودية، فالإسلامُ دينُ الحرية، وإعتاقُ المملوكِ من أعمال البر، ضربه الله تعالى مثلاً لمجاهدة النفس، وحملها على السير في طريق الفلاح.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَنْ أعتقَ رقبةً أعتقَ اللهُ بكلِّ عضوٍ منها عضواً من أعضائِهِ مِنَ النَارِ، حتَّى فَرجه بفرجه**» [رواه مسلم (١٥٠٩)].

وفي قراءة: (**فكَّ رقبةً**) فعل ماض ومفعول به.

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾.

أي: ذي مجاعة وشدة. **والسغب**: الجوع.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

أي: ذا قرابة، فالصدقةُ على القريب المحتاجِ أفضلُ منها على غير القريب، وفيها أجران: أجرُ القرابةِ وأجرُ الصدقةِ.

وفي الحديث الشريف: أنَّ امرأةَ عبدِ اللهِ بن مسعود سألت النبيَّ ﷺ: أيجزئُ عنِّي أن أنفقَ على زوجي وأيتامٍ لي في حِجْري؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**نعم، ولها أجرانِ: أجرُ القرابةِ، وأجرُ الصدقةِ**» [رواه البخاري (١٤٦٦)].

وبيَّن رسول الله ﷺ فضل مَنْ يعولُ يتيماً ويطعمه فقال: «**أنا وكافِلُ اليتيمِ في الجنَّةِ هكذا**» **وقال بأصبعيه السبابة والوسطى**. [رواه البخاري (٦٠٠٥)].

وفي قراءة: (أو أَطْعَمَ) بغير ألف وبفتح الميم.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

أي: بلغَ الغايةَ في الجوعِ، حتَّى كأنه وقع على التراب ولصق به.

ولا تنفعه هذه القُرَب وتساعده على اقتحام العقبة والوصول إلى رضوان الله ورحمته، إلَّا إذا فعلها وهو مؤمن بالله تعالى:

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر عن المعاصي، وعلى الطاعات والمحن التي يُبتلى بها المؤمن.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: برحمة الناس والشفقة على الضعفاء.

فالإسلامُ دينُ الإحسان والرحمة، وجاء بحرف العطف (ثم) للدلالة على أهمية الإيمان، وتباعده في الرتبة والفضيلة، لا في الوقت، إذ هو السابقُ على غيره، ولا يثبتُ عملٌ صالح إلا به(١).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾.

أي: أولئك المتَّصفون بهذه الصفات أصحابُ اليمينِ الذين يؤتَون كتابهم بأيمانهم، أو أصحاب اليُمن والخير.

---

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٥١٦.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾.

أي: هم أصحابُ الشمال أو الشؤم.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: مطبقة عليهم أبوابها، من أوصدتُ البابَ: إذا أطبقته وأغلقته. فلا يخرجون منها، ولا يأتيهم من خارجها روحٌ ونسيمٌ.

وفي قراءة: (موصدة) بغير همز.





٩١

تفسير سورة الشمس

تَزْكِيَةُ النَّفْسِ فِي سُورَةِ الشَّمْسِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

بين الله تعالى في سورة الشمس ضرورة تزكية النفس، وخطورة إهمال ذلك بالأقسام التالية:

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾.

أي: وضوئها، **والضحى**: حين ترتفع الشمس ويصفو ضوءها.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾.

أي: تَبِعَها، ففي أول الشهر يظهر القمر بعد غروب الشمس.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

أي: جلا ظلمةَ الليل بضيائه، وكشفها بنوره. وهو كناية عن غير مذكور لكونه معروفاً.

أو: جلَّى الشمسَ وأظهرها، فإنَّ الشمسَ تتجلَّى في النهار وتظهر.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾.

أي: يغشى الشمس ويسترها وينشر الظلام.

فحاصل هذه الأقسام الأربعة يرجع إلى الشمس في الحقيقة.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

أي: ومن بناها، وإنَّما أوثرت (ما) على (من) لإرادةِ معنى الوصفية، كأنَّه قال: والسماء والقادر العظيم الذي بناها.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

أي: بسطها وسطحها ليتمكَّن الناس من العيش عليها.

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

أي: وما خلق فيها وجعل فيها من الملكات والمواهب.

﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾.

أي: فجعل فيها نوازع للشر وللخير، ففي طبيعة الإنسان استعدادٌ مزدوج للخير والشر، وجعله تعالى قادراً على سلوك سبيل الخير أو الشر كما مرَّ معنا في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقوله أيضاً: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

والإلهام ما يحصل في النفس من دون اكتساب، فنوازع الفجور والتقوى كامنة في نفس الإنسان، وهي من أسباب ابتلائه واختباره، وعليه أن ينمِّيَ جانب الخير، ويقمعَ جانب الشر، وذلك بمجاهدة نفسه، وهو الجهاد الأكبر الذي يلازم الإنسان طول حياته.

فتكوين النفس البشرية وما جعل الله فيها من أسرار من الأدلة الظاهرة على كمالِ قدرته تعالى وحكمته، كالأدلة الظاهرة في خلق الشمس والقمر والأرض والليل والنهار. وجواب هذه الأقسام:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾.

أي: لقد أفلحَ من زكَّى نفسَه وطهَّرها من الشرور والآثام.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

أي: أخفاها بالشرور والآثام، والمراد: أنه أهمل تزكيتها حتى غلبت عليها نوازع الشر وغمرتها.

فتزكيةُ النفس أمرٌ ضروري وهام في حياة الإنسان، دلَّت على أهميته وضرورته كثرةُ الأقسام المؤكدة له في صدر السورة، وأهم وسائله المحققة له: أداء العبادات على وجهها الصحيح المشروع كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ومنها: الإكثار من ذكره تعالى، واللجوء إليه بالدعاء والضراعة:

ففي الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من العجزِ والكسلِ، والجُبْنِ والبُخْلِ، والهرم وعذاب القبرِ، اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أَنتَ خيرُ مَنْ زكَّاها، أنتَ وليُّها ومَوْلاها، اللَّهم إني أعوذُ بكَ**

من عِلْم لا ينفعُ، ومِنْ قلبٍ لا يَخْشَعُ، ومن نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، ومِنْ دعوةٍ لا يُسْتَجَابُ لها» [رواه مسلم (٢٧٢٢)].

ويؤدي إهمال تزكية النفس إلى الطغيان والكفر والفجور:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾.

أي: بطغيانها، فالحامِلُ لهم على تكذيبِ نبيِّهم صالحٍ طغيانُ الشر على نفوسِهم، حتى دسَّاها وغمرها وغلب عليها.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾.

أي: حين قتلَ الناقةَ المعجزةَ أشقى رجل في ثمود، وأكثرها طغياناً وإجراماً وشرّاً.

وفي الحديث الشريف: أن عبد الله بن زمعة سمع النبيَّ ﷺ يخطبُ وذكر الناقةَ والذي عقرها فقال: «**إذ انبعثَ أشقاها؛ انبعث لها رجلٌ عزيزٌ، عارِمٌ، منيعٌ في رَهْطِهِ مثل أبي زَمْعَةَ**» [رواه البخاري (٤٩٤٢)]. قوله (**عارم**): كثير الشر.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾.

أي: اتركوا ناقة الله، واتركوا شربها، لا تتعرضوا لها بسوء، ولا تمنعوها عن الماء يوم شربها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي: فكذبوا رسول الله صالحاً عليه السلام فيما جاءهم به، فقتلوا الناقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر].

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: أهلكهم ربهم هلاكَ استئصالٍ

بسببِ ذنبهم، فسوَّى الدمدمةَ عليهم جميعاً، أو أطبق عليهم العذابَ حتَّى لم ينفلتْ منه أحد.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ۝١٥﴾.

أي: لا يخافُ اللهُ تبعةً من أحدٍ في هلاكهم، فهو القوي القاهر ﷻ. وفي قراءة: **(فلا)** بفاء العطف.





تفسير سورة الليل

تَوْفِيقٌ وَخُذْلَانٌ فِي سُورَةِ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾.

أدَّى وجودُ نوازع الخير والشر في نفوس الناس إلى اختلاف أعمالهم، وهو ما أكده تعالى بالقسم في أول سورة الليل.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١)﴾.

أي: يغطِّي بظلامه المكونات ويسترها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠].

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢)﴾.

أي: ظهر ووضح.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾.

أي: والقادر العظيم الذي خلق الذكر والأنثى. أو: وخلق الذكر والأنثى.

وجواب القسم:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

أي: إن أعمالكم لمختلفة ومتباعدة، فمن فاعل خير، ومن فاعل شر.

ثم فصَّلت الآيات الاختلاف بين الأعمال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾.

أي: فأما من أنفقَ ماله في سبيل الله، واتقى المعاصي، وصدَّق بالكلمة الطيبة الحسنى، وهي: لا إلـٰه إلا الله، أو صدَّق بالجنة كما في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾.

أي: فسنوفقه لعمل الخير والصلاح أو للجنة، وهما متلازمان؛ لأنَّ عملَ الخير يؤدِّي إلى الجنة، أو فسنهيِّئه للخلة التي تؤدي إلى يُسر وراحة.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾.

أي: وأما من بخل في النفقة في طاعة الله، واستغنى بشهوات الدنيا عن ثواب الله تعالى، فلم يرغب فيه. أو: واستغنى بماله فطغى وتجبر.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

أي: فسنيسره للشرِّ والعمل الذي يؤدي إلى العسر والعذاب.

فالله سبحانه يجازي مَنْ قصدَ الخير بالتوفيق له، ومَنْ قصدَ الشر بالخذلان، وكل ذلك مقدَّرٌ بقدر وعلم سابق.

ففي الحديث الشريف: عن **علي** رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ في جنازةٍ، فأخذَ شيئاً، فجعلَ ينكتُ به الأرضَ فقال: «**ما مِنْكُم مِنْ أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مقعدُهُ مِنَ النارِ ومَقْعَدُهُ من الجنَّةِ**» قالوا: يا رسول الله أفلا نتكلُ على كتابنا، ونَدَعُ العملَ؟ قال: «**اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له، أمَّا مَنْ كانَ مِنْ أهلِ السعادةِ فيُيَسَّرُ لعملِ أهلِ السعادةِ، وأمّا مَنْ كانَ من أهلِ الشقاءِ فييسَّرُ لعملِ أهلِ الشقاءِ**» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ الآية. [رواه البخاري (٤٩٤٩)].

فمصير الإنسان محجوب عنه، وعليه أن يجتهدَ في عمل ما أُمر به، واجتناب ما نُهي عنه، فقد منعهم النبيُّ ﷺ من ترك العمل، وأمرهم بما يجبُ على العبدِ من العبادة والطاعة، ونظير ذلك الرزق المقدر مع الأمر بالكسب، والأجل مع الإذن بالتداوي.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾.

أي: وما يغني عنه ماله الذي بخل به وطغى بسببه وتجبر، إذا هلك وسقط في القبر أو في جهنم، **فتردَّى**: من الردى وهو الهلاك. ولا عذر له حينئذٍ، لأنَّ الله تعالى بيَّن له طريق الخير والرشاد، وميزه عن طرق الضلال.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾.

أي: إنَّ علينا أن نبيِّن طريق الهدى، ونقيم بذلك الحجة على الناس.

واكتفى بذكر طريق الهدى، لأنَّ كل طريق آخر يخالفه لا بدَّ أن يكون من طُرُق الضلال، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣﴾.

أي: وإن لنا كمال السلطان والملك في الحياة الآخرة والأولى، فلا يضرنا ضلالُ الضالِّين، ولا ينفعنا اهتداءُ المهتدين.

أو: إنَّ لنا ثواب الدنيا والآخرة كما في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٤].

ثم أوردت الآياتُ موازنةً بين حالتين متضادتين تأكيداً لما سبق في قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]:

الأولى: لرجل من أغنياء المشركين استغنى بماله وتجبَّر وتكبَّر:

﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤﴾.

أي: تتلهَّب.

﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥﴾.

أي: إلا الشقي المصرُّ على تكذيبه وكفره.

﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾.

أي: الذي كذَّب رسلي، وأعرضَ عن طاعتي.

وهذه نار موصوفةٌ بعينها، ولأهل النار منازلُ ودَرَكاتٌ، فليس في الآية حجةٌ لمن زعم من أهل الإرجاء أنه لا يدخل النار إلا كافر، فلو كان كل مَنْ لا يشركُ لا يُعذَّبُ لم يكن في قوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] فائدة.

والثانية: لرجل من أغنياء المسلمين استعمل ماله في طاعة الله والتقرب إليه:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧﴾.

أي: التقي الحريص على تقوى الله وطاعته.

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾.

أي: الذي يطلبُ عندَ الله أن يكون زاكياً طاهراً، لا رياء في عمله ولا سمعة.

أو: الذي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩﴾.

أي: وما لأحدٍ عنده من يد يكافئه عليها.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠﴾.

أي: لكنَّ فعله طلباً لرضوان ربه. فهي شهادة رفيعة من الله تعالى بإخلاص هذا الرجل في ما أنفق من مال، وأنه ما أنفقه إلا في سبيل الله تعالى.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾.

أي: ولسوف يعطيه الله العطاء الذي يرضيه، وتقر به عينه، كما قال سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

وهو **أبو بكر الصديق** ﵁ بإجماع المفسرين، أنفق ماله لتخليص المستضعفين من المسلمين، أعتق قبل أن يهاجرَ إلى المدينة ست رقابٍ، بلال سابعهم؛ وهم: عامِرُ بن فُهَيرة، والنهدية وابنتها، وجاريةُ بني مؤمل، وأم عبيس، وزنيرة. حتى قال له أبوه: يا بنيَّ إنِّي أراكَ تُعْتِقُ رقاباً ضعافاً، فلو أنكَ إذا ما فعلتَ أعتقت رجالاً جُلْداً يمنعونك، ويقومون دونك! فقال أبو بكر ﵁: يا أبتِ إنِّي إنَّما أريدُ اللهَ ﷻ. فنزلتْ هذه الآيات[1].

قال ابن كثير ﵀ في ختام تفسيره للسورة: أي ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ من

---

(١) سيرة ابن هشام، باختصار.

اتصف بهذه الصفات. وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنَّ هذه الآيات نزلت في **أبي بكر الصديق** رضي الله عنه؛ حتى إنَّ بعضهم حكى الإجماعَ من المفسرين على ذلك، ولا شك أنَّه داخلٌ فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، ولكنه مقدم الأمة، وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنَّه كان صِدِّيقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحدٍ من الناس عنده منَّة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود ـ وهو سيدُ ثقيفٍ ـ يوم صلح الحديبيةِ: أما واللهِ لولا يدٌ لكَ عندي لم أجزكَ بها لأجبتُكَ. وكان الصديق قد أغلظَ له في المقالةِ، فإذا كان هذا حاله مع ساداتِ العربِ ورؤساء القبائل فكيفَ بِمَنْ عداهم؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾.





تفسير سورة الضحى

إِنْعَامٌ وَإِكْرَامٌ فِي سُورَةِ الضُّحَى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾

أظهر الله تعالى في سورة الضحى المكانة الرفيعة التي أكرم بها النبيَّ ﷺ، وأكد ذلك بالقسم فقال:

﴿وَٱلضُّحَىٰ (١)﴾.

أي: وهو وقت الضحى في صدر النهار حين ترتفع الشمس.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢)﴾.

أي: إذا سكن، ففيه تسكنُ الأصوات، وتهدأ الحركات.

أو: أقبل ظلامه واشتدَّ.

أو: غطى النهار مثلما يُسَجى الرجل بالثوب.

وجواب القسم:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

أي: ما تركك ربك وما أبغضك.

وفي قوله: **(ما ودعك)** من اللطف والتعظيم ما لا يخفى، فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب، ومن تعزُّ مفارقته.

وفي حذف المفعول في قوله: **(وما قلى)** لطف أيضاً به ﷺ، وشفقة عليه، حتى لا يواجه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى[1].

وورد في سبب نزولها: أنَّ رسول الله ﷺ اشتكى فلم يقم ليلتين أو ثلاثة، فجاءت امرأةٌ فقالت: يا محمَّدُ إنِّي لأرجو أن يكونَ شيطانُكَ قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. [رواه البخاري (٤٩٥٠)].

وبعد أن أخبره تعالى بأنَّه لا يزالُ يواصله ويكرمه في الدنيا، بشَّرهُ بأنَّ ما سيعطيه في الآخرة أجَلُّ وأعظم من ذلك، فقال:

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾.

أي: وما أعدَّ الله لك في الآخرة من المقام المحمود والحوض المورود والخير الموعود خيرٌ لك وأعظم من الذي أعطاك في الدنيا، فلا يزالُ رسول الله ﷺ يترقَّى بفضل الله تعالى عليه في الرفعة والكمال في الدنيا والآخرة.

---

(١) روح المعاني: ٣٠/ ١٩٩.

قال ابن عباس: أُرِيَ النبي ﷺ ما يفتح الله على أُمته بعده فسُرَّ بذلك، فنزل جبريل بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[1].

فالدار الآخرة خيرٌ للنبيِّ ﷺ من هذه الدار، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام أزهدَ الناس في الدنيا، وأعظمَهم لها اطِّراحاً، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولمَّا خُيِّر ﷺ في آخر عمره بين الخُلْد في الدنيا وبين صيرورته إلى الله ﷻ اختار الرفيق الأعلى، وفضله على هذه الدنيا الدنية كما قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية.

وجاءت بعد البشارة العدة الكريمة:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾.

أي: ولأنتَ سوف يُعطيك ربك فترضى بما تُعْطى.

فالعطاءُ كائنٌ لا محالة وإنْ تأخَّر لحكمةٍ، وهو شامِلٌ لما أعطاه الله في الدنيا من كمال الخَلْقِ والخُلق، وظهور الأمر، وإعلاء الدين، ولِما ادخر جل وعلا له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من المواهب والمقامات الرفيعة، التي لا يحيطُ بها إلا الله ﷻ. وعن علي والحسن: هو الشفاعةُ في أمته حتَّى يرضى.

وفي الحديث الشريف: أنَّه ﷺ قال: «**لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجَّل كُلُّ نبيٍّ دَعْوته، وإنِّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامةِ، فهي نائلةٌ إنْ شاءَ الله مَنْ ماتَ مِنْ أُمتي لا يشركُ بالله شيئاً**» [رواه مسلم (١٩٩)].

وكان جعفر بن محمد بن علي يقول: إنَّكم يا معشرَ أهل العراق تقولون: أرجى آيةٍ في القرآن: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وإنَّا أهلَ البيتِ نقول: أرجى آيةٍ في كتاب الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[2].

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٩٥.

(٢) تفسير الخازن: ٦/ ٥٢٧.

ثم بيَّنَ تعالى أنَّ نعَمه على النبيِّ ﷺ دائمةٌ لا تنقطعُ، فكما أحسن إليه فيما مضى يحسِنُ إليه فيما يُستقبل، فقال:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

أي: ألم يعلمك الله يتيماً حين مات أبوك ولم يخلِّف لك مالاً ولا مأوى، فجعل لك مأوًى تأوي إليه، فآواك إلى جدِّكَ عبد المطلب، ثم إلى عمك أبي طالب وكفاك المؤونة.

فـ (**يجدك**) من الوجود الذي هو بمعنى العلم، وقيل: هو من قولهم: درة يتيمة، والمعنى: ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فآواك إليه وأيدك وشرَّفك بنبوته، واصطفاك لرسالته[١].

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

أي: ووجدك ضالّاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة، فهداك إليها كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

أو: وجدك بين أهل الضلال فعصمك من ذلك، وهداك إلى الإيمان، وعرَّفك طريق الخير والرشاد. ولا يجوزُ أن يفهم به عدول عن حق ووقوع في غي، فقد كان رسول الله ﷺ من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان وقاذورات أهل الفسق والعصيان[٢].

وقد يكون المعنى: وجدك غافلاً عمَّا يراد بك من النبوة فهداك، أي

---

(١) تفسير الخازن: ٦/٥٢٨.

(٢) تفسير النسفي: ٦/٥٢٨.

أرشدك، والضلال هنا بمعنى الغفلة كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

أي: ووجدك فقيراً ذا عيال فأغناك بمال خديجة، أو بغنى النفس.

كما في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**ليس الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، ولكنَّ الغنى غنى النفس**» [رواه البخاري (٦٤٤٦)].

وإنَّما يحصل غنى النفس بغنى القلب، بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره، فيتحقق أنه المعطي المانع، فيرضى بقضائه ويشكره على نعمائه، ويفزع إليه في كشف ضرَّائه، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه تعالى(١).

وبعد أن ذكَّره ربه بفضله العظيم عليه، وجهه إلى هذه الآداب العالية الرفيعة، ووجه المسلمين من ورائه ﷺ:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾

أي: لا تحقر اليتيمَ ولا تذلَّه، ولا تعبس في وجهه، ولا تغلبه على ماله وحقه لضعفه، ولكنْ أحسِنْ إليه وتلطَّفْ به.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾.

أي: لا تزجره، ولا تغلظ له القول، وردَّه برفق ولين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

أو: لا تنهر السائل والمسترشد في العلم.

---

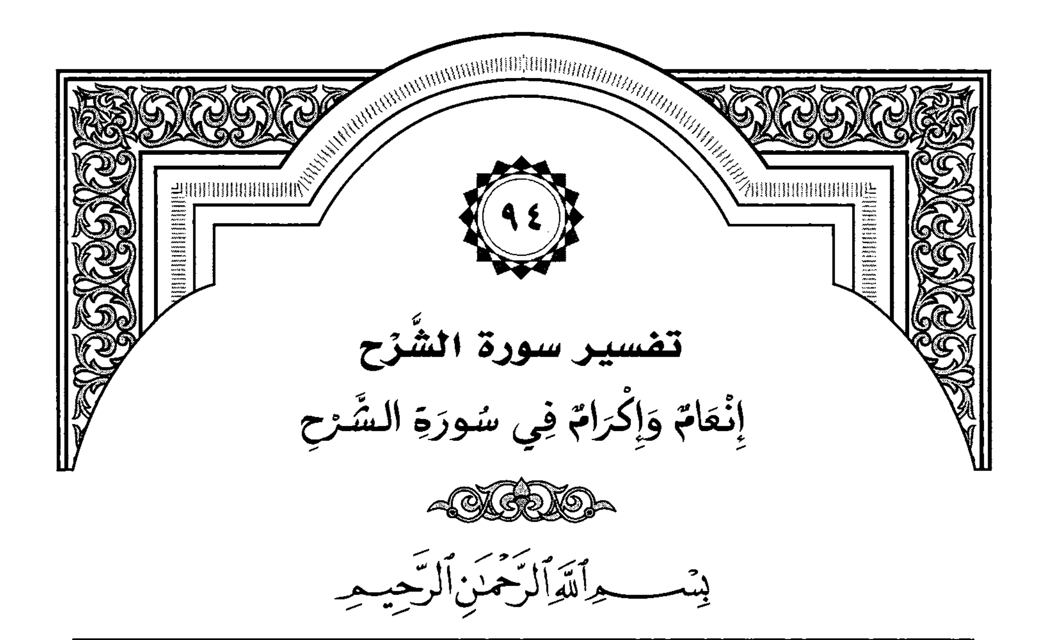
(١) فتح الباري: ١١/ ٢٧٣.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

أي: بلِّغ ما أرسلتَ به، وحدِّث بالنبوة، وادعُ إليها، وهي أجلُّ النعمِ.

أو: هي جميع الخيرات، والتحدُّثُ بها شكرُها، وكان علماءُ المسلمين يرونَ أنَّ مِنْ شكرِ النعمة أن يحدِّثَ بها ولا يكتمها.





٩٤

تفسير سورة الشَّرح

إِنْعَامٌ وَإِكْرَامٌ فِي سُورَةِ الشَّرْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

ثم ذكَّرت الآياتُ النبيَّ ﷺ في سورة الشرح بالأسلوب نفسه بنعمة خفيَّة خَصَّه الله تعالى بها كان لها أثر كبير في حياته:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾.

أي: قد شرحنا لك صدرك، فهو استفهامٌ أريدَ به التقرير، أي: نوَّرناه، وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً بما أودعنا فيه من الحِكَم، وما أزلنا عنه من الضيق والحرج، حتى وَسِعَ مناجاةَ الحق، ودعوة الخلق كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أو: نوَّرناه بالإيمان كما في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

أو: يسَّرنا لك تلقِّي الوحي بعد أن كان يشقُّ عليك.

والمراد من كل ذلك الشرح المعنوي، وثبت أيضاً الشرحُ الحسي لصدره الشريف عليه الصلاة والسلام؛ فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أتاه جبريلُ وهو يلعبُ مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقةً، فقال: هذا حظُّ الشيطانِ منك، ثم غسله في طست من ذهب بماءِ زمزمَ، ثم لأَمَهُ، ثم أعادَهُ في مكانه. وجاء الغلمانُ يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: إنَّ محمداً قد قُتِلَ، فاستقبلوه وهو منتقع اللونِ. قال أنس: وقد كنتُ أرى أثرَ ذلك المخيطِ في صدره. [رواه مسلم (١٦٢)].

كما ثبت أيضاً ليلةَ الإسراء والمعراج؛ ففي حديث المعراج: عن أنس بن مالك، عن **مالك بن صعصعة** رضي الله عنه: أنَّ نبيَّ الله ﷺ حدثه عن ليلة أسري به قال: «**بينما أنا في الحطيمِ مضطجعاً إذ أتاني آتٍ، فقدَّ** (فشق) **ما بينَ هذه إلى هذه**» فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثُغْرَةِ نحره إلى شِعْرَتِهِ، «**فاستخرجَ قلبي، ثم أُتيتُ بطستٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً، فغُسل قلبي، ثم حُشِي، ثم أتيتُ بدابة...**» [رواه البخاري (٣٨٨٧)].

قال ابن حجر رحمه الله: «وقد استنكرَ بعضهم وقوعَ شقِّ الصدر ليلة الإسراء وقال: إنّما كان ذلك وهو صغير في بني سعد، ولا إنكار في ذلك، فقد تواردت الرواياتُ به، وثبتَ شقُّ الصدرِ أيضاً عند البعثة كما أخرجه أبو نُعيم في «الدلائل»، ولكلٍّ منها حكمةٌ»[(١)].

﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢﴾.

أي: حططنا عنك ذنبك الذي تراه ذنباً، وهو شعوره عليه الصلاة والسلام أنه مقصِّر في حقِّ شكره تعالى على فضله العظيم عليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [محمد: ١٩].

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٢٠٤.

أو: خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها.

﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾.

أي: أثقله، فقد أنزل الله تعالى عليه قولاً ثقيلاً، كان تَلَقِّيه يَثقل عليه في ابتداءِ أمره جدّاً، فيسَّره الله عليه، وعوَّده على تَلَقِّيه، وقواه على تحمله وتبليغه.

﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾.

بالنبوة وغيرها، مثل: قَرن اسمه عليه الصلاة والسلام باسمه ﷻ في كلمتي الشهادة، وجعل طاعته طاعته، وصلى عليه في الملأ الأعلى، وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، وخاطبه بالألقاب، كـ: يا أيُّها النبي، ويا أيها الرسول، ويا أيها المدثر، وذكره في كتب الأولين، وأخذ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يؤمنوا به إن أدركوا زمانه.

وقد أشار حسان بن ثابت رضي الله عنه إلى عظيم قدره بقوله:

أغرُّ عليه للنبوّةِ خاتِمٌ مِنَ اللهِ مشهودٌ يلوحُ وَيَشْهَدُ
وضمَّ الإلٰهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمِهِ إذا قال في الخَمْسِ المؤذِّنُ: أشْهَدُ

وبعد كل هذا الإكرام والإنعام بشره تعالى باليسر بعد العسر:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥﴾.

أي: فإنَّ مع العسر الذي أنتَ فيه يُسْراً عظيماً، فلا تيئس من فضل الله تعالى. وجيء بلفظ (مع) لغاية مقاربة اليسر العسر.

ثم استأنفت الآياتِ وَعْدَها:

﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٦﴾.

أي: يُسراً آخر، هو يسر الفتوح والتمكين في الأرض أو يسر الآخرة.

ولا شكَّ أنَّ النكرةَ المعادةَ (**يُسراً**) ظاهرها التغاير، بينما المعرفة (**العسر**) إذا أعيدت كانت الثانيةُ عينَ الأولى، فصار المعنى: إنَّ مع **العسر** يسرين، قال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أبشروا فقد جاءكم اليسرُ، لن يغلبَ عسرٌ يسرينِ**» [رواه الطبري (٣٠/ ٢٣٦)].

وقال ابن مسعود: لو كان العُسْرُ في جُحْرٍ لطلبه اليُسْرُ حتَّى يدخلَ عليه ويُخرِجَه، إنَّه لن يغلبَ عسرٌ يسرينِ[١]. [رواه الحاكم (٢/ ٢٥٥) والبيهقي في الشُّعَب (٧/ ٢٠٦)].

ويروى عن الشافعي أنه قال:

صبراً جميلاً ما أقربَ الفَرَجَا … مَنْ راقبَ اللهَ في الأمورِ نَجَا

مَنْ صَدَقَ الله لَمْ يَنَلْهُ أذًى … وَمَنْ رجاهُ يكونُ حَيْثُ رَجَا

وعوَّده على تلقيه، وقوَّاه على تحمله وتبليغه، وعليك وأنت تنتظر فرَجَ اللهِ وتيسيره أن تستمرَّ على عبادته وطاعته:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

أي: إذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الحق، أو إذا فرغت من صلاتك فتوجه إلى الله بالدعاء والاستغفار والتسبيح، واجعل رغبتك إلى الله وحده، أو إذا فرغت من الفرائض فاشرع في النوافل.

ومهما قيل في معنى الآية فكلُّها تبعث النبيَّ ﷺ على الاجتهاد في العبادة، وألا يخلي وقتاً من أوقاته منها؛ فكلَّما فرغ من عبادة أتبعها بأخرى، وهو توجيه أيضاً للمؤمنين من وراء النبي ﷺ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لأكرهُ أن أرى أحدَكُم فارغاً سبهللاً (عاطلاً عن أي عمل) لا في عملِ دنياه، ولا في عمل آخرتِهِ[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٥٣٢.

(٢) المرجع السابق: ٦/ ٥٣٤.



تفسير سورة التين

تَقْوِيمٌ وَتَنْكِيسٌ فِي سُورَةِ التِّيْنِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

بدأ الله تعالى سورة التين بالأقسام التالية:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾.

أقسم الله بالتين، وهو الثمرة المعروفة التي تُؤكل، وبالزيتون وهو ثمرةُ شجرةٍ مباركة، قال الله فيها: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

أقسم الله بهما لما فيهما من المنافع والمصالح الدالة على قدرة خالقهما.

أو: هما جبلان مشهوران بكثرة أشجار التين والزيتون في بلاد الشام، بُعِثَ فيهما كثيرٌ من الأنبياء والمرسلين، ويقوِّيه قوله تعالى بعده:

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾.

وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام، سمي سينين لحسنه وبركته.

﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾.

أي: الآمن، وهو مكة المكرمة.

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه مَحالٌّ ثلاثةٌ بعث الله في كل واحد منها نبيّاً مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، **فالأول**: محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس، التي بعث فيها عيسى ابن مريم عليه السلام. **والثاني**: طور سنين، وهو طور سيناء، الذي كلّم الله عليه موسى بن عمران. **والثالث**: مكة، وهو البلد الأمين، الذي مَنْ دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمد ﷺ. وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير (يعني: بيت المقدس)، واستعلنَ من جبال فاران (يعني: جبال مكة)».

وجواب القسم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾.

أي: في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه، فخُصَّ بانتصاب القامة، وحُسن الصورة، وجودة العقل، وغير ذلك من الخصائص والصفات الظاهرة والخفية.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾.

أي: ثم رددناه إلى النار، لأنَّه لم يشكر ربه، ولم يستعمل هذه النعمة في طاعته وعبادته.

ومن المعلوم: أنَّ النار دركات بعضها أسفل من بعض، فبعد هذا الحسن والنضارة يكون مصيره إلى النار، لأنه جحد نعمة الله تعالى، وأعرض عن طاعته

وشكره، فالشكرُ يؤدِّي إلى دوام النعمة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

بينما يؤدي الجحود والكفران إلى الحرمان منها، ولهذا قال بعضهم في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾: أي: رددناه إلى أرذل العمر، فيضعف بدنه، وينقص عقله كالضعفاء والمرضى والزمنى، قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يسٓ: ٦٨].

وقد كان رسول الله ﷺ يأمر بالاستعاذة من أرذل العمر، ففي الحديث الشريف: عن **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه كان يأمرُ بهؤلاءِ الخمس، ويحدِّثهن عن النبيِّ ﷺ: «**اللهمَّ إني أعوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ، وأعوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، وأعوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ، وأعوذُ بِكَ مِنْ فتنةِ الدنيا، وأعوذُ بِكَ من عذابِ القبرِ**» [رواه البخاري (٦٣٧٠)].

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ يقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ العَجْز والكَسَلِ والجُبْنِ والهَرَمِ والبُخْل، وأعوذُ بِكَ مِنْ عذاب القبر، ومن فتنةِ المحيا والمماتِ**» [رواه مسلم (٢٧٠٦)].

ولا شك أن الاستعاذة من الهرم استعاذةٌ من الرد إلى أرذل العمر، لما يطرأ على الإنسان فيه من الخرف، واختلال العقل، وتشويه بعض المنظر، والعجز عن كثير من الطاعات.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم لا يردُّون إلى النار أو إلى أسفل سافلين، ولا تقبح صورهم، بل يزدادون بهجة إلى بهجتهم وحُسناً إلى حسنهم.

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: فلهم ثوابٌ غيرُ منقطع على طاعتهم وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة، ومعاناة ما فيها من المشقات.

فاللهُ تعالى يكتُبُ للذين استمروا على العمل الصالح حتى بلغوا سن

الضعف والشيخوخة مثلَ الثواب الذي كانوا يعملونه قبل ذلك، كان ابن عباس ﷺ يقول: مَنْ قرأَ القرآنَ لم يردَّ إلى أرذلِ العُمُرِ(١).

ثم التفتتِ الآياتُ إلى الإنسان المكذِّب بيوم الحساب والجزاء تسأله موبِّخةً:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾.

أي: فما الذي يحملك على هذا الكذب؟! أو فما سبب تكذيبك بعد هذا البيان القاطع والبرهان الساطع بيوم الدين؟! إنَّ خلْقك من نطفة، وتقويمك، ثم تنكيسك إلى أن تبلغ أرذل العمر أوضحُ دليلٍ على قدرةِ الخالق وحكمته، فما الذي يحمِلُكَ على إنكار قدرته تعالى على بعثك للحساب والجزاء؟!.

وقد يكون الخطاب موجَّهاً إلى النبيِّ ﷺ ويكون المعنى: فمن ينسِبُكَ إلى الكذب بعد هذا الدليل؟! فـ (ما) بمعنى (من).

أو: من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، ويحكم بينك وبين مكذبيك، وينتصف للمظلوم في الدنيا ممَّن ظلمه؟!.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

أليس الذي فعل ذلك من الخلق والرد بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً، ومَنْ كان كذلك كان قادراً على البعث والجزاء، والحكم بينك وبين مكذبيك، والانتصاف للمظلوم ممَّن ظلمه.

وفي سنن الترمذي [٣٣٤٧]، وأبي داود [٨٨٧]: عن **أبي هريرة** ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ قرأ** ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، فقرأ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ **فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين**».

❁ ❁ ❁

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٥٦٣.



تفسير سورة العَلَق

سُجُودٌ وَطُغيانٌ فِي سُورَةِ العَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

جمع الله للإنسان الكمالَ الماديَّ والمعنويَّ، فكما خلقه في أحسن تقويم خلق فيه قابليةَ التعليمِ، فقال مخاطباً أفضل الناسِ وأكملَهم خَلْقاً وخُلقاً:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾.

أي: اقرأ مفتتحاً باسم ربك الذي خلق كل شيء.

أو: اقرأ القرآن مستعيناً باسم ربك على حَمْلِ أعباء النبوة والرسالة.

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾.

أي: جُمع علقة، وجمعها لأنَّ الإنسان في معنى الجمع، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة].

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾.

أي: الزائد في الكرم على كل كريم، فإنَّه تعالى ينعِمُ بلا عوض، فهو الكريمُ وحدَه على الحقيقة، ويحلم عن عباده، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه.

وكرر الأمرَ بالقراءة للتبليغ، فلا يكفي أن يقرأ القرآن لنفسه، بل عليه أن يقوم بتبليغه.

ومما يدل على كمال كرمه تعالى وإحسانه:

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾.

أي: الذي علَّم الكتابة بالقلم، فالكتابةُ نعمة عظيمة، استقام بها أمر الإنسان في دينه ودنياه، فالقلمُ كان ولا يزال أوسعَ وأعمقَ أدواتِ التعليم أثراً في حياة الإنسان.

وإبراز هذه الحقيقة بالرسول الأمي ﷺ الذي لم يكن كاتباً يؤكد أنَّ القرآنَ وحي من الله تعالى ليس للنبي عليه الصلاة والسلام فيه إلا التلقي والتبليغ.

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾.

فدل على كمال كرمه وفضله، فعلَّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

هكذا بيَّن سبحانه وتعالى بهذه الكلمات مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه، فنقله من أخس المراتب إلى أعلاها، تقريراً لربوبيته، وتحقيقاً لأكرميته، فأول الواجبات التي أوجبها عليه معرفة الله تعالى، وهذه الآيات الكريمات المباركات أول شيء نزل من القرآن الكريم.

ففي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها زوج النبيِّ ﷺ قالت: كانَ أولُ ما بُدِئَ به رسولُ اللهِ ﷺ الرؤيا الصادقةَ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءتْ

مثلَ فَلَقِ الصبحِ، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، فكان يلحقُ بغار حراءٍ، فيتحنَّثُ فيه (**والتحنُّثُ**: التعبد) الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجة، فيتزودُ لمثلها، حتى فجئه الحقُّ، وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أنا بقارئ**» قال: «**فأخذني فغطَّني حتَّى بلغَ مني الجهدَ، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطَّني الثانيةَ حتَّى بلغَ مني الجهدَ، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثالثةَ، حتى بلغَ مني الجهدَ، ثم أرسلني فقال**: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾» فرجع بها رسول الله ﷺ ترجفُ بوادِرُهُ، حتى دخلَ على خديجةَ فقال: «**زمِّلوني زمِّلوني**» فزمَّلوه حتى ذهبَ عنه الروعُ، فقال لخديجة: «**أي خديجة، ما لي؟ لقد خشيتُ على نفسي**» فأخبرها الخبر، قالت خديجةُ: كلا، أبشر؛ فواللهِ لا يخزيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لتصلُ الرحمَ، وتصدقُ الحديث، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتكسِبُ المعدومَ، وتقري الضيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ... [رواه البخاري (٤٩٥٣)].

ولا شك أنَّ نزول الوحي من أعظم النعم التي تفضَّل بها تعالى على عباده، ولهذا زجرت الآيات وردعت من كفر بهذه النعمة وطغى:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾.

أي: حقّاً إنَّ الإنسان ليتجاوز الحَدَّ ويستكبر عن عبادة ربه وطاعته.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾.

أي: أن رأى نفسه غنياً.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.

أي: إنَّ إلى ربك المرجع والمصير في الآخرة.

ففيها تهديد وتحذير لهذا الإنسان ولأمثاله من عاقبة الطغيان.

وذكرت الآيات بأسلوب التعجيب صورة من صور طغيانه:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

وهو رسول الله ﷺ، وفائدة التنكير في قوله: **(عبداً)** تدل على أنه كامل العبودية لله ﷻ.

وقد نزلت هذه الآيات في أبي جهل، أشدِّ أعداءِ النبي ﷺ، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمَّداً يصلِّي عندَ الكعبة لأطأنَّ على عنقه، فبلغ النبيَّ ﷺ فقال: «**لو فعله لأخذته الملائكةُ**» [رواه البخاري (٤٩٥٨)].

وأخرج النسائي في الكبرى [١١٠٦١]: من طريق أبي حازم، عن أبي هريرة نحو حديث ابن عباس، وزاد في آخرِه: فلم يفجأهم منه إلا وهو ـ أي: أبو جهل ـ ينكصُ على عقبيه، ويتقي بيديه.

وعَظه الله تعالى بهذه الآيات أولاً موعظة لطيفة فقال:

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

أي: فما ظَنُّكَ إن كان هذا الذي تنهاه على الهدى والحق.

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾.

أي: ودعا إلى تقوى الله، وأنتَ تزجُرُه وتتوعده على صلاته.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

أي: أرأيتَ إن كان ذلك الناهي مكذِّباً بالحق، ومعرضاً عنه.

وتقدير نظم الآيات: أرأيتَ الذي ينهى عبداً إذا صلَّى، وهو على الهدى آمراً بالتقوى، بينما الناهي مكذِّبٌ معرضٌ عن الإيمان، فما أعجبَ هذا؟!.

وقد يكون المعنى أيضاً: أخبرني عمَّن ينهى بعضَ عبادِ اللهِ عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدًى فيما ينهى عنه، أو آمراً بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان، أو إنه كان على التكذيب للحق والتولي عن الصواب؟.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

أي: بأنَّ الله يرى ذلك الفعل ويجازيه عليه.

ثم زجره تعالى زجراً شديداً وتوعده وعيداً بليغاً فقال:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع له عن نهيه عن عبادة الله، وأمره بعبادة الأصنام.

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ أي: لئن لم ينته عن ما هو فيه لنأخذنَّ بناصيته، فنطويها مع قدميه، ونطرحه في النار، كما في قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

والسفع: القبض الشديد، والجذب. **والناصية**: مُقَدَّم الرأس، وخصَّها بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته.

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

أي: كاذبةٍ في قولها، خاطئة في فعلها، والمراد أنَّ صاحبها كاذب خاطئ.

وذهب بعض الدارسين المعاصرين إلى أنَّ المراد الناصية نفسها، وهي أعلى الجبهة حيث يستتر الفَصُّ الجبهي الأمامي من المخ المسؤول عن شخصية الفرد، والمتحكم في تصرفاته وأفعاله، فالقشرة الأمامية الجبهية هي الموجهة لبعض تصرفات الإنسان التي تدل على شخصيته مثل الصدق والكذب والصواب والخطأ وتحثُّ الإنسان على فعل الخير أو الشر.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

أي: فليستنصر بأهل مجلسه وعشيرته.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: سندعو ملائكةَ العذاب الغلاظ الشداد الذين قال تعالى فيهم: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ وهو ردع آخر للناهي.

﴿لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ أي: لا تطعه في ترك الصلاة، واسجد لله تعالى، وتقرَّب منه.

كما في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ مِنْ ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثروا مِنَ الدعاءِ**» [رواه مسلم (٤٨٢)].

وهذه الآيةُ من آيات سجودِ التلاوة، ففي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّه قال: سجدَ رسولُ اللهِ ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾. [رواه مسلم (٥٧٨)].

ولا شك أن في السجود غاية العبودية والتذلل لله جل جلاله.

❁ ❁ ❁



٩٧

تفسير سورة القَدْر

لَيْلَةُ الشَّرَفِ وَالسَّلَامِ فِي سُورَةِ القَدْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾.

عظَّمَ الله الوقتَ الذي أَنزل فيه القرآن الكريم، فقال:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾.

أي: في ليلة تقدير الأمور وقضائها، كما في قوله تعالى: ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدُّخان].

سُمِّيت ليلةَ القدر لما تكتب فيها الملائكة من الأقدار.

أو: لعظم خطرها، وشرفها على غيرها من الليالي.

أو: لأنَّ العمل الصالح يكون فيها ذا قدر عظيم.

ومرَّ معنا: أنَّ القرآن الكريم نزل على النبيِّ ﷺ مفرقاً على مدى عمر الدعوة من حياة النبي ﷺ، فعظَّم اللهُ القرآنَ، فأسندَ إنزاله إليه، كما عظَّم الوقتَ الذي أنزله فيه، وهو ليلة القدر.

وشوَّقَ النبي ﷺ إليها فقال:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾.

أي: لم تبلغ درايتُكَ غايةَ فضلها.

ثم بيَّن ذلك بقوله:

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٌ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٍ ۝٣﴾.

خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

وسبب ارتفاع فضلها إلى هذه الغاية: إنزالُ القرآن العظيم فيها، فهي ليلةٌ عظيمةٌ شريفةٌ، يَشْرُفُ مَنْ أتى فيها بالطاعات، ويعظم قدرُه عند الله تعالى، ولا يعلمُ مقدارَ فضلها إلا الله جَلَّ جَلَالُهُ، وله سبحانه أن يخصَّ ما شاء بما شاء باعتبار الزمان والمكان وكيفية الأداء، فالصلاةُ في جماعةٍ تفضُلُ صلاةَ المنفردِ بسبع وعشرين ضعفاً، فلا حَجْرَ على فضله تعالى، ولا اعتراض عليه، فهو الحكيم العليم.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «سننه» [٤/ ٣٠٦]: عن مجاهد: أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاحَ في سبيل الله تعالى ألفَ شهرٍ، فعجبَ المسلمونَ من ذلك، وتقاصرتْ إليهم أعمالُهم، فأنزل الله تعالى السورة.

وذكر الإمام مالك في «الموطأ» [١/ ٢٦٣/ ١٥]: أن النبيَّ ﷺ أُرِي أعمار الأمم كافة، فاستقصر أعمار أمته، وخاف ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرُهم في طول العمر، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر.

واستأنفتِ الآياتُ تبيِّنُ ما ينزل فيها من الرحمات والبركات والخيرات:

﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٍ ۝٤﴾.

﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، خُصَّ بالذكر لزيادة شرفه،

وقيل: ملك عظيم، وقيل: طائفةٌ من الملائكة لا تراهم الملائكةُ إلا في تلك الليلة، يتنزَّلون فيها بالسلام على المؤمنين، وذكروا أنَّ جبريل لا يدعُ أحداً من المؤمنين إلا سلَّم عليه وصافحه، وعلامة ذلك رقةُ القلبِ، ودمعُ العين.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: يتنزلون بإذن ربهم، فأمر تنزلهم أمر عظيم.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: من أجل كل أمر تعلَّق به التقديرُ في تلك الليلة، أو من كل أمر من أمور الخير والبركة والسلام.

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

أي: ما هي إلا سلام إلى وقت طلوع الفجر، فهي ليلةُ السلام، لا يقدِّرُ الله فيها إلا السلام، أنزل الله فيها القرآن الكريم لينشرَ السلام بين شعوب الأرض، وفي أطراف المعمورة، بينما يقدِّر في غيرها السلام والبلاء.

وفي قراءة: (**مطلِع**) بكسر اللام.

وقد ورد لليلة القدر علاماتٌ أكثرُها لا تظهر إلا بعد أن تمضيَ:

منها: ما في «**صحيح مسلم**» [٧٦٢]: عن زِر بن حُبيش قال: سألتُ **أُبي بن كعب** رضي الله عنه فقلت: إنَّ أخاكَ ابنَ مسعود يقول: مَنْ يَقُمِ الحولَ يصبْ ليلةَ القدرِ، فقال: رحمه الله، أرادَ ألا يتَّكلَ الناسُ، أما إنَّه قد علمَ أنها في رمضانَ، وأنَّها في العشرِ الأواخر، وأنَّها ليلةَ سبعٍ وعشرينَ. ثم حلفَ لا يستثني أنَّها ليلة سبع وعشرين. فقلتُ: بأيِّ شيءٍ تقولُ ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالعلامة أو بالآيةِ التي أخبرنا رسولُ الله ﷺ أنها تطلعُ يومئذٍ لا شعاعَ لها.

ولابن خزيمة [٢١٩٠]: من حديث **ابن عباس** رضي الله عنهما مرفوعاً: «**ليلةٌ طلقةٌ لا حارةٌ ولا باردةٌ، تصبحُ الشمسُ يومها حمراءَ ضعيفةً**».

ولأحمدَ [٥/٣١٨]: من حديث **عبادة بن الصامت** رضي الله عنه مرفوعاً: «**إنَّ الشمسَ في صبيحتها تخرجُ مستويةً ليس لها شعاعٌ مثل القمر ليلةَ البدرِ**».

وهي في رمضان، وتُلْتمس في العَشْرِ الأواخرِ في الوتر منه، وفي الحديث الشريف: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قامَ ليلةَ القدرِ إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» [رواه مسلم (٧٦٠)].





تفسير سورة البيِّنة

دِيْنُ القَيِّمَةِ فِي سُورَةِ البَيِّنَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

بيَّن الله تعالى في أول سورة البينة عنادَ وجحودَ الكفار، وإصرارَهم على الكفر بعد نزول القرآن الكريم، فقال:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾.

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: من اليهود والنصارى.

﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ومن المشركين، وهم عبدة الأصنام والأوثان.

﴿مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: منتهين عن كفرهم ومنفصلين عنه وإن أتتهم البينة. فقوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ لَفْظه لفظُ المستقبلِ ومعناه الماضي.

والبَيِّنة: رسولُ اللهِ محمد ﷺ الذي بيَّن لهم الحق وميَّزه عن الباطل.

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾.

أي: يتلو القرآنَ المطهر من الباطل والكذب والزور، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت].

وقوله أيضاً: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾ [عبس].

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾.

أي: في تلك الصحف مكتوباتٌ مستقيمة ناطقة بالحق، قائمة بالحجة، ومع ذلك فإنَّ أكثرهم لم ينتفع بها، وأعرض عنها.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾.

أي: وما تفرقوا عن الحق، إلا من بعد ما جاءهم الحق وقامت عليهم الحجة، وبلغتهم الدعوة ببعثة النبي ﷺ. فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

فقد كانَ أهلُ الكتابِ قبل بعثة النبي ﷺ ينتظرونها ويقولون: لا ننفكُّ عمَّا نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يُبْعَثَ النبيُّ الموعود، الذي كتب عندهم في التوراة والإنجيل. فلمَّا بُعثَ، كفر أكثرُهم به، وأعرضَ عن دعوته، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فكفر الكافرين من أهل الكتاب بدعوة النبيِّ ﷺ أقبحُ وأشنعُ من كفر المشركين من عبَّاد الأوثان، ولهذا أفردهم سبحانه بالذكر بعد أن جمع بينهم

وبين المشركين، للدلالة على شناعة حالهم، وقُبح كفرهم، فما أمروا في كتبهم إلا بعبادة الله وحده:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير رياء ولا نفاق.

﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: مائلين عن العقائد الباطلة إلى عقيدة التوحيد.

﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة عليهم.

﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ للمستحقين لها.

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: دين الملة المستقيمة التي شرعها الله تعالى؛ وهي الشريعة الإسلامية، فهي صراطُ اللهِ المستقيم، وحبلُه المتين، ودينُه القويم، فالتزموا بها، وتمسَّكوا بأحكامها، فإنَّ الإعراضَ عنها يؤدي إلى الهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾.

أي: شر الخليقة التي برأها الله تعالى وذرأها، لأنهم أعرضوا عن الشريعة القيِّمة.

وأما الذين تمسَّكوا بأحكامها وساروا على منهجها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾.

وفي قراءة في الموضعين: (البريئة) بالهمزة على الأصل، من بَرَأ الله الخلق؛ أي: خلقهم.

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فقبل أعمالهم.

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما تفضَّلَ عليهم، وأنعم عليهم.

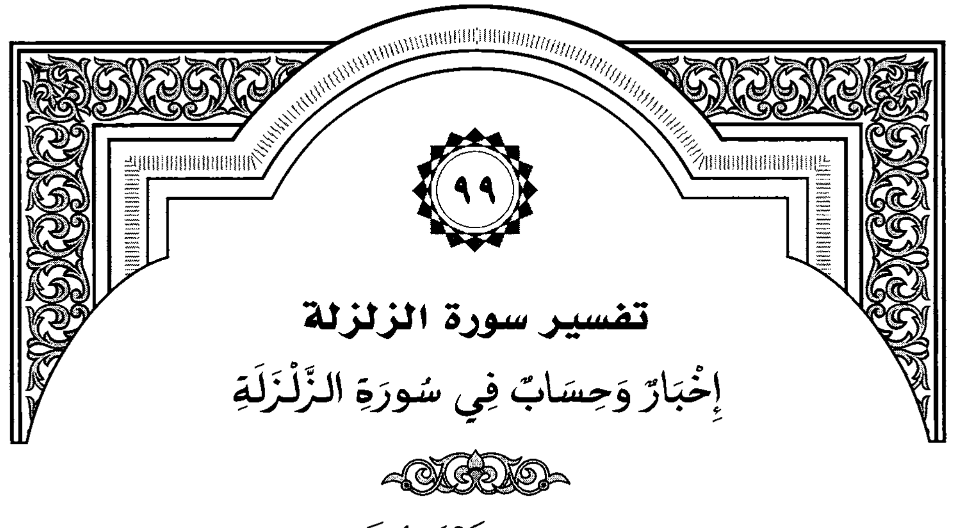
أو: ورضوا عنه فيما شرع لهم وقضى، فهو التسليمُ والإذعان لأمره الشرعي والقدري.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أي: ذلك الرضا لمن خاف ربه وعظَّمه، والتزمَ أحكام دينه القويم، فإنَّ الخشيةَ مِلاكُ الأمرِ، والباعث على كل خير.

ولا شك أنَّ منهم أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه، ففي الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ لأُبي: «**إنَّ الله أمرني أَنْ أقرأَ عليكَ**: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾» قال: وسمَّاني؟ قال: «**نعم**» فبكى. [رواه البخاري (٣٨٠٩)].

وبكاؤه رضي الله عنه إما فرحاً وسروراً بذلك، وإما خشوعاً وخوفاً من التقصير في شكر تلك النعمة.





تفسير سورة الزلزلة

إِخْبَارٌ وَحِسَابٌ فِي سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾

يُنْطِقُ اللهُ الأرضَ يوم القيامة فتشهد بما عُمِلَ عليها من خير أو شر:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١)﴾.

أي: إذا حُرِّكت الأرض تحريكاً عنيفاً متداركاً، وهو الزلزال الشديد العجيب المخصوص بها الذي ليس بعده زلزال.

ويبدو أن هذا الزلزال يحدثُ عند النفخة الثانية لقوله تعالى:

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)﴾.

أي: أخرجت الأرض موتاها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤].

ويمكن أن يكونَ هذا الزلزالُ في الدنيا، ويكونُ المرادُ من أثقالها: كنوزها

المدفونة فيها؛ لما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تقيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدِها أمثالَ الأسطوانِ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ، فيجيءُ القاتلُ فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيءُ القاطِعُ فيقول: في هذا قَطَعْتُ رحمي، ويجيءُ السارقُ فيقول: في هذا قُطِعَتْ يدي، ثم يَدَعُوْنَهُ، فلا يأخذونَ منه شيئاً**» [رواه مسلم (١٠١٣)].

ويستنكرُ الإنسانُ أمرها فبعد أن كانت قارَّةً ساكنةً ثابتةً تغيرت حالها واضطربت:

﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾.

أي: ما لها زلزلت هذه الزلزلة الشديدة وأخرجت ما في بطنها؟!.

﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤﴾.

أي: في هذا اليوم ينطقها الله تعالى، فتخبر بما عُمِلَ عليها من خير أو شر.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥﴾.

أي: وإخبارُها بسبب إيحاء ربك إليها، وأمره إياها بالتحديث.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦﴾.

أي: يصدرون عن قبورهم إلى أرض المحشر متفرقين، ليروا جزاء أعمالهم.

أو يصدرون عن موقف الحساب متفرِّقين ذات اليمين إلى الجنة، وذات الشمال إلى النار، ليروا جزاء أعمالهم.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

والذرة: أصغر الأشياء، فليس مؤمنٌ ولا كافر عمل خيراً أو شرّاً في الدنيا إلا أراه الله تعالى إياه يوم القيامة.

وهذا يدل على دِقَّةِ الحساب وشموله واستقصائه كل الأعمال، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

فأما **المؤمن** فيريه حسناته وسيئاته، فيغفر له من سيئاته، ويثيبه بحسناته، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١].

وأما **الكافِرُ** فيريه حسناته وسيئاته، فيرد حسناته، ويعذبه بسيئاته، قال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهذه الآيةُ من جوامع الدين الحاوية لفوائده أصلاً وفرعاً، ففي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن الحُمُر[1] فقال: «**لم ينزل فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة:** ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾» [رواه البخاري (٤٩٦٣)].

فالآية ترغِّبُ في الخير مهما كان قليلاً، كما قال النبي ﷺ: «**مَنِ استطاعَ منكم أن يستترَ مِنَ النارِ ولو بشقِّ تمرةٍ فليفعلْ**» [رواه مسلم (١٠١٦)].

فالله جل وعلا لا يظلم أحداً شيئاً وهو القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

❁ ❁ ❁

---

(١) **الحُمُر**: جمع حمار، وهي الدابة التي تُركب وتحمل الأثقال.



١٠٠

تفسير سورة العاديات

صِرَاعٌ وَحِسَابٌ فِي سُورَةِ العَادِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

الصراع في نفس الإنسان بين نوازع الخير ونوازع الشر أمر واقع مؤكد، أكده تعالى بقوله في سورة العاديات:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾.

أقسمَ بخيل الغزاة تعدو فتضبح ضبحاً، وهو صوت أنفاسها عند العَدْوِ.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾.

أي: فالتي توري النار بحوافرها، وتقدح قدحاً.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾.

أي: فالتي تغيرُ على العدو في وقت الصبح.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾ .

أي: فهيَّجن بذلك الوقت غباراً.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ .

أي: فتوسطن بذلك الوقت جمعاً من جموع العدو، وهذا يدل على شدة الصراع في نفس الإنسان بين نوازع الخير ونوازع الشر. وجواب القسم:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ .

أي: إنه لنعمة ربه لكفور أو لبخيل.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ .

أي: وإنَّ الله شاهدٌ على كونه كنوداً، أو إن الإنسان شاهد على نفسه بما صنع.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ .

أي: وإنه لحب المال لقوي مبالغ فيه، فهو قوي شديد في حب المال وإيثار الدنيا، كما في الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لو كانَ لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لابتغى ثالثاً، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلَّا الترابُ، ويتوبُ اللهُ على مَنْ تابَ**» [رواه البخاري (٦٤٣٦)].

وإنَّ الإيمانَ بالحسابِ والجزاءِ يقوِّي في نفس الإنسان نوازع الخير، ويقمعُ نوازع الشر:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾ .

أي: إذا بُعث الموتى من القبور.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾.

أي: ومُيِّز ما في الصدور من خير وشر كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾.

أي: إنَّ ربهم لعليمٌ بما أعلنوا وما أسروا، ومجازيهم على أعمالهم من خير أو شر.





تفسير سورة القارعة

مَوَازِينُ الأَعْمَالِ فِي سُورَةِ القَارِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

عظَّمَ الله أمرَ يوم القيامة وهولَ شأنها فقال:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾.

وأصل القرع الصوتُ الشديد، ومنه قوارعُ الدهر، وسُمِّيت القيامةُ بذلك لأنها تقرعُ القلوبَ بأهوالها وشدائدها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾.

أي: لاعلمَ لك بكنهها، فكيفما قدرت هولها وشدتها فهي أعظم من ذلك.

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾.

أي: المتفرق، وشبَّه الناسَ بالفراش لكثرتهم واضطرابهم وضعفهم واختلافهم.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

أي: كالصوف المندوف المتفرق، وذلك لأنها تتفرق أجزاؤها، وتنسف في ذلك اليوم حتى تصيرَ كالصوف المتطاير عند الندف كما في قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة].

وبعد أن عظَّم تعالى أمر القيامة، وهوَّل شأنها بيَّنَ أحوالَ الناس فيها:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾.

أي: فأما من رجحت حسناته على سيئاته فهو في عيشة ذات رضا، يرضاها صاحبها لأنها في الجنة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾.

أي: وأما من رجحت سيئاته على حسناته.

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾.

أي: فمسكنه النار، سُمِّي المسكنُ أمّاً على التشبيه، لأن الأم مأوى الولد ومَفْزعه.

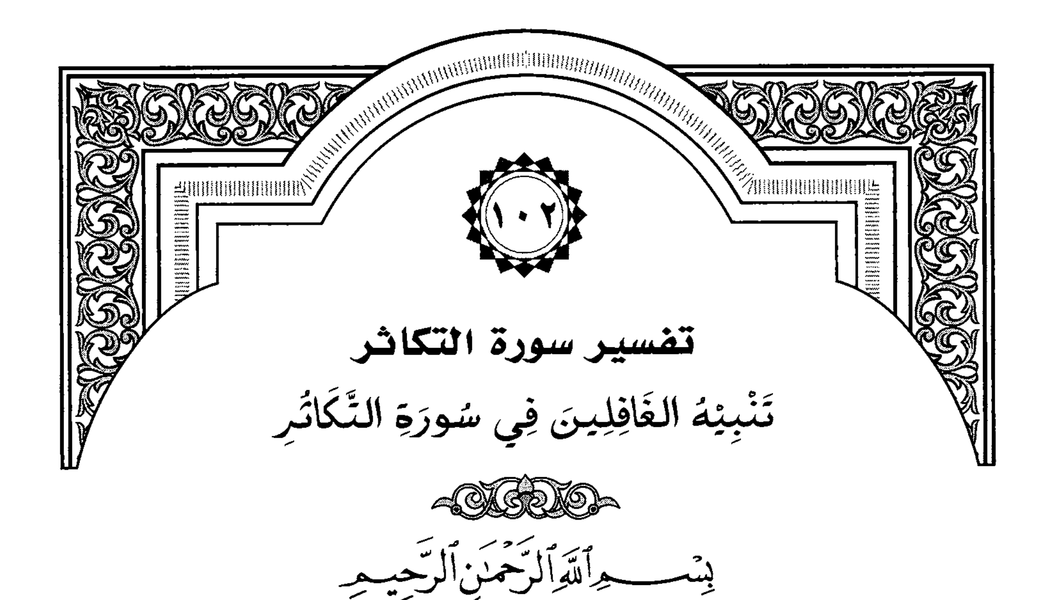
﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾.

أي: الهاوية، والهاء للسكت.

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

أي: حارَّة بلغت النهاية في الحرارة.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة التكاثر

تَنْبِيهُ الغَافِلِينَ فِي سُورَةِ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾

بيَّنَ الله تعالى في سورة التكاثر أنَّ حبَّ المالِ والرغبةَ في كثرته أهمُّ أسباب الغفلة عن الله تعالى وطاعته، فقال:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾.

أي: شغلكم التباهي بكثرة المال، والتباري به عن طاعة الله، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفي الحديث الشريف: عن مُطرف، عن أبيه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال: «**يقولُ ابنُ آدمَ: مالي مالي، وهل لكَ يا ابنَ آدمَ منْ مالِكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدَّقتَ فأمضيتَ**» [رواه مسلم (٢٩٥٨)].

﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾.

أي: وتمادى بكم ذلك حتى حضركم الموت، وزرتم المقابر، ودفنتم فيها.

والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، وأشارتِ الآيةُ إلى البعث من القبور، فكأنه تعالى قال: حضرتم في المقابر زواراً ترجعون منها بعد البعث والحساب إلى منازلكم من الجنة أو النار كرجوع الزائر إلى منزله.

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ الله ﷺ دخلَ على رجلٍ يعودُهُ فقال: «**لا بأسَ طهورٌ إنْ شاءَ الله**» فقال: كلا، بل هي حُمَّى تفورُ على شيخٍ كبيرٍ حتى تُزِيْرَهُ القبورَ. قال النبيُّ ﷺ: «**فَنَعَمْ إذاً**» [رواه البخاري (٥٦٦٢)].

وفي تفسير ابن كثير: عن ميمون بن مهران قال: كنتُ جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ فلبث هُنَيهةً ثم قال: يا ميمونُ؛ ما أرى المقابر إلا زيارةً، وما للزائرِ بدٌّ من أن يرجعَ إلى منزله.

قال القرطبي رحمه الله: «لم يأتِ في التنزيل ذكرُ المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتُها من أعظم الدواء للقلب القاسي، لأنَّها تذكِّرُ بالموتِ والآخرة، وذلك يحمل على قِصَر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها»[١].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: زار النبيُّ ﷺ قبرَ أُمه فبكى وأبكى مَنْ حوله، فقال: «**أستأذنتُ رَبِّي في أَنْ أستغفرَ لها فَلَمْ يُؤْذَنْ لي، وأستأذنتُه في أن أزورَ قبرَها فأذنَ لي، فزوروا القبورَ فإنَّها تذكِّرُكم الموتَ**» [رواه مسلم (٩٧٦)].

وأخرج ابن ماجه [١٥٧١] بإسناد صحيح: عن **ابن مسعود** رضي الله عنه: أنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**كنتُ نهيتُكم عن زيارةِ القبورِ فزورُوْها، فإنَّها تزهِّدُ في الدنيا، وتذكِّر الآخرةَ**».

وبعد أن واجهتهم الآيات بهذه الحقيقة توعدتهم وأنذرتهم لينتبهوا من غفلتهم:

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/ ١٧٠.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه، معناه: لا ينبغي أن يكونَ جميعُ سعيكم وهمكم للدنيا فقط، وتغفلون عن أمر الآخرة.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت، وصدق من قال: الناسُ نيامٌ، فإذا ماتوا انتبهوا.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

وهو إنذار بعد إنذار ليخافوا وينتبهوا من غفلتهم.

أو: كلا سوفَ تعلمون ما ينزل بكم من العذاب في القبر، ثم كلا سوف تعلمون ما ينزِلُ من العذاب في الآخرة، فتضمنت السورةُ القولَ في عذاب القبر.

والإيمان به واجب، والتصديق به لازم، كما قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ، كما تضمنه قوله تعالى أيضاً: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقوله أيضاً في فرعون وآله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وذكرنا عند تفسيرها أنَّ الإمام البخاري في صحيحه، بوَّب كتاب الجنائز فقال: باب ما جاء في عذاب القبر. وذكر هذه الآية وعدداً من الأحاديث الشريفة.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾.

أي: حقّاً لو تعلمون ما ينتظركم بعد الموت كعلمكم ما تستيقنونه الآن في حياتكم الدنيا لشغلكم ذلك عن التفاخر والتكاثر، ونبهكم من غفلتكم.

وجواب (لو) محذوف، حُذف للتفخيم والتهويل.

ثم بيَّن سبحانه ما أنذرهم به وأكده بالقسم فقال:

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾.

أي: لترون الجحيم يوم القيامة. كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

وفي قراءة: **(لَتُرون)** بضم التاء.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾.

أي: رؤية عين ومشاهدة محسوسة وواقعة، فلعل الأولى لرؤيتها من بعيد، والثانية عند ورودها أو المرور على الصراط فوقها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم].

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

أي: لتسألن عن النعيم الذي ألهاكم، وجعلكم من الغافلين، أو عن شكر ما أنعم الله به عليكم.

وللمفسرين في المرادِ بالنعيم أقوالٌ كثيرة، أصحُّها أنه عام في كل نعيم، لقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** ﷺ قال: خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ أو ليلةٍ فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «**ما أخرجَكُما مِنْ بيوتِكُما هذه الساعة؟**» قالا: الجوعُ يا رسولَ اللهِ. قال: «**وأنا والذي نفسِي بيده لأخرجني الذي أخرجَكُما، قوموا**».

فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلمَّا رأته المرأةُ قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسولُ اللهِ ﷺ: «**أينَ فلانٌ؟**» قالتْ: ذهبَ يستعذِبُ لنا من الماءِ. إذ جاء الأنصاريُّ فنظرَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وصاحبيه، ثم

قال: الحمدُ للهِ، ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافاً مِنِّي، فانطلقَ، فجاءَهم بِعِذْقٍ فيهِ بُسْرٌ وتَمْرٌ ورُطَبٌ. فقال: كلوا من هذا. وأخذَ المُدْيةَ فقالَ له رسولُ اللهِ ﷺ: «**إيَّاكَ والحلوبَ**» فذبحَ لهم.

فأكلوا من الشاةِ ومِنْ ذلك العِذْقِ، وشَرِبُوْا، فلمَّا أَنْ شَبعُوا وَرَوُوْا قال رسولُ اللهِ ﷺ لأبي بكرٍ وعمرَ: «**والذي نَفسِي بيدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هذا النعيمِ يومَ القيامةِ، أخرجَكُم مِنْ بيوتِكُم الجوعُ، ثم لم ترجعوا حتَّى أصابكم هذا النعيم**» [رواه مسلم (٢٠٣٨)].

والمرادُ من السؤالِ السؤالُ عن القيام بحق شكره.

وفي جامع الترمذي [٢٤١٧]: عن **أبي بَرْزة الأسلمي** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يسألَ عَنْ أربعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فيم أَفناه، وعن جَسَدِهِ فيم أبلاه، وعَنْ مالِهِ من أين اكتسبه، و فيم أنفقه، وعن عِلْمه ما عمل فيه**».





تفسير سورة العَصْر

الإِنْسَانُ وَالزَّمَانُ فِي سُورَةِ العَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

العمر أهم ما يُسأل عنه الإنسان، فالوقتُ في الإسلام هو الحياة، وما عرف الحياةَ حقَّ المعرفة إلا المؤمنون الصالحون، وهو ما أكده تعالى بقوله:

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾﴾.

وهو قَسَمٌ بالزمان مطلقاً، تنبيهاً على أهميته، فهو خزانة أعمال العباد، ورأس مال حياتهم، وأكثرُ الناسِ يضيعونه كما جاء في الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغُ**» [رواه البخاري (٦٤١٢)].

فالحياة تجارة، فمن استعملها في طاعة الله فهو الرابحُ، ومن استعملها في غيرِ ذلكَ فهو الخاسر المغبون، ورحم الله القائل: مَنْ فاته مزيدُ ربحٍ وهو قادِرٌ على دَرْكِهِ فهو مغبونٌ، فاملأ خزائن أوقاتك بكنوزِ أعمالك، ولا تدعها فارغةً عن كنوزك التي هي أسباب نجاتك.

قال النبيُّ ﷺ: «**اغتنمْ خَمْساً قبلَ خَمْسٍ: شبابَكَ قبل هَرَمِكَ، وصحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وغناكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وفراغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وحياتَكَ قبلَ موتِكَ**» [رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/٣٠٦) وابن المبارك في «الزهد» بسندٍ صحيح][(١)].

وقد يكونُ قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ قسماً بعصر معيَّن، قالوا: هو عصر الرسول ﷺ، فهو أنضرُ العصورِ وأفضلُها وأشرفُها، أقسم الله تعالى بزمانه كما أقسم بمكانه في قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد].

أو هو زمانه و زمان أمته إلى يوم القيامة، ففي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمعَ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّما بقاؤكم فيما سلَفَ قبلكم من الأمم كما بين صلاةِ العصرِ إلى غروبِ الشمسِ، أوتي أهلُ التوراةِ التوراةَ فعملوا، حتَّى إذا انتصفَ النهارُ عَجِزُوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أُوتي أهلُ الإنجيلِ الإنجيلَ، فعملوا إلى صلاة العَصْرِ، ثم عَجِزُوا، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أُوتينا القرآنَ، فعملنا إلى غروبِ الشمسِ، فأعطينا قيراطينِ قيراطينِ، فقال أهلُ الكتابَيْن: أيْ ربنا أعطيتَ هؤلاءِ قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحنُ كنا أكثرَ عملاً؟ قال الله ﷻ: هل ظلمتُكُم مِنْ أجرِكُم من شيءٍ؟ قالوا: لا. قال: فهو فضلي أوتيه مَنْ أشاء**» [رواه البخاري (٥٥٧)].

ويمكن أن يكونَ المرادُ: وقتَ العصر من النهار، فكما أقسم الله بالضحى من النهار أقسم بعصره.

أو: المراد صلاة العصر، التي هي الصلاة الوسطى التي نوَّه الله تعالى بها في قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وجواب القسم:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ لفي خسران ونقصان، والمراد جنس الإنسان، فهو في خسران مستمر، وهو تضييع عمره، فكل لحظة تنقص من عمره.

---

(١) انظر: قيمة الزمن عند العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى (ن).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهم ليسوا في خسران، فكل ما مَرَّ من عمر الإنسان في طاعة الله وعبادته فهو في خير وصلاح، أولئك الذين اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وفازوا وأفلحوا، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: وأوصَى بعضهم بعضاً بالتمسك بالحق والثبات عليه والاستقامة.

والمراد به: الحق في جميع أمور الحياة المقابل للضلال، فهو يشمل الحق في الاعتقاد والعبادة والمعاملة والأخلاق، قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: وتواصوا بالصبر عن المعاصي التي تميل إليها النفس، وعلى البلايا والمصائب التي يُبتلى بها العباد.

وليس المراد من الصبر حَبْسَ النفس فقط على المكروه، بل هو تلقي ما يأتي من الله ﷻ بالرضا باطناً وظاهراً، فكأنَّ في التواصي بالحق رتبة العبادةِ التي هي فعل ما أمر، وفي التواصي بالصبر رتبةُ العبودية التي هي الرضا بما قدَّر.

وكان الصحابة يقرأ بعضهم على بعض هذه السورة كلَّما التقوا، فقد أخرج الطبراني في «الأوسط» [٥/ ٢١٥] والبيهقي في «الشُّعَب»: عن عبد الله بن حفص قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرَّقا حتى يقرأ أحدُهما على الآخر سورةَ ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، ثم يسلِّمُ أحدُهما على الآخر.

وكان الإمام الشافعيُّ رحمه الله يقول: لو تدبَّرَ الناسُ هذه السورة لوسعتهم.

❁ ❁ ❁



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

توعَّد الله تعالى في سورة الهُمَزة الأغنياء المستكبرين الذين يسخرون من الناس، فقال:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾.

أي: هلاك لكل طعَّانٍ عيَّابٍ، اعتاد على الطعن في الناس وانتقاصهم وإظهار عيوبهم.

وأصل **الهمز**: الكسر والقبض على الشيء بالعنف، والمراد هنا الكسر من أعراض الناس، والغضُّ منهم، والطعن فيهم، ويدخل فيه مَنْ يحاكي الناسَ بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منه[١].

(١) تفسير الخازن: ٦/٥٦٦.

وقد توعَّدَ الله أمثال هؤلاء الناس بعدد من الآيات؛ منها قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

ومنها أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾﴾.

أي: جمع بعضه على بعض، وجعله عدَّةً للنوازل.

أو: عَدَّه مرةً بعد أخرى حبّاً له، وشغفاً به، فهو من العدد.

وفي قراءة: **(جمَّع)** بالتشديد.

وإنما وصفه بهذا الوصف، لأنه يجري مجرى السبب والعلة في الهمز واللمز، فهو بإعجابه بما جمعَ من المال يستصغِرُ الناس، ويسخرُ منهم، وتنكيرُ **(مالاً)** للتحقيرِ، فمهما كان ماله كثيراً فهو قليل وحقير.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾.

أي: يظنُّ أنه يخلد في الدنيا ولا يموت بسبب كثرة ماله.

فالمال طوَّل أمله في الحياة، ومنَّاه الأماني البعيدة، فهو يشيد البنيان، ويؤسس المصانع، ويزرع المزارع، ولا يدري أن أجله قريب، فالأجلُ أقربُ إلى الإنسان من أمله.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** ﵁ قال: خطَّ النبيُّ ﷺ خطوطاً فقال: «**هذا الأملُ، وهذا أجلُه، فبينما هو كذلك إذا جاءه الخَطُّ الأقربُ**» [رواه البخاري (٦٤١٨)].

ورواه الترمذي [٢٣٣٤] بلفظ: «**هذا ابنُ آدمَ، وهذا أجلُه**» ووضعَ يَدَهُ عِنْدَ قفاه، ثم بسطها وقال: «**وثمَّ أملُه**».

وقال الحسن رحمه الله: ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيه أشبه بشكٍّ لا يقينَ فيه من الموت، ومعناه: أنَّ الناسَ لا يشكُّونَ بالموتِ مع أنَّهم يعملونَ عمل من يظنُّ أنه يخلدُ في الدنيا ولا يموت[١].

﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤﴾.

﴿كَلَّا﴾ أي: لا يخلِّده ماله، فهو ردع له عن حسبانه.

﴿لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي: ليُطرَحَنَّ في النار التي تأكل اللحوم وتكسر العظام.

والمعنى: يا أيها الهُمَزةُ اللمزة الذي يأكل لحومَ الناس، ويكسِرُ من أعراضهم، إنَّك ستطرح بالحطمة، التي تحرق اللحومَ، وتكسِرُ العظام.

وعظَّم سبحانه أمرها وهوَّله فقال:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥﴾.

فهي نارٌ لا كسائر النيران.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦﴾.

أي: هي نارُ اللهِ التي أوقدها سبحانه، فلا يقدر أحد أن يطفئها.

﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧﴾.

أي: التي تحرقُ كلَّ شيءٍ، حتى تنتهي إلى القلوب، وتستولي عليها.

---

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٥٦٦.

أو: التي يبلغُ ألمُها إلى القلوب التي تكمن فيها الكبرياء وبواعث الهمز واللمز.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾.

أي: مطبقة مغلقة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [البلد].

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾.

أي: أُطبقت عليهم الأبواب، ثم شُدَّت بأوتاد من حديد حتى يرجِعَ عليهم غمُّها وحرُّها.

وفي قراءة: (**عُمُدٍ**) بضمتين، جمع عمود.





تفسير سورة الفيل

تَحْطِيمُ أَصْحَابِ الفِيْلِ فِي سُورَةِ الفِيْلِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾

أهلك الله أصحابَ الفيل الذين أرادوا هدم بيته الحرام في العام الذي ولد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾.

أي: ألم تعلم وتُخْبَر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟!.

والاستفهامُ للتقرير، والخطابُ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، ويرادُ به العموم، ومعناه: قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع منَّتي عليكم.

وقصةُ أصحابِ الفيل كانت إرهاصاً وتوطئةً لمولده ﷺ، ولمَّا نزلت هذه السورةُ وتلاها عليهم النبيُّ ﷺ كان في المشركين من أهل مكةَ عددٌ كبيرٌ مِمَّنْ أدرك أحداثها.

فالمرادُ تذكيرهم بما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله تعالى وقدرته وعزته، وتعجيبٌ من كفر المشركين، الذين شاهدوا هذه العظمة من آيات الله

تعالى، كما أنَّ فيها تثبيتاً للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو يواجه أذى المشركين وعنادهم، فعنايتُهُ تعالى بنبيه عليه الصلاة والسلام أقوى وأتم من عنايته ببيته الحرام، فكأنه تعالى قال: أنا الذي فعلتُ ما فعلتُ بأصحاب الفيل تعظيماً لك وتشريفاً لقدومك، وإذ قد نصرتُكَ قبل قدومك فكيف أتركك بعد ظهورك(١)؟!.

ويؤيد الإرهاصَ قصةُ القرامطة الذين استحلوا حرمة البيت الحرام في موسم حج عام (٣١٧هـ) وقتلوا كثيراً من الحجاج، وألقوا جثثهم في بئر زمزم، وقلعوا الحجر الأسود، وأخذوه معهم، وبقي عندهم إلى أن ردُّوه بأمر من الخليفة الفاطمي في مصر بعد اثنين وعشرين عاماً.

وقصة أصحاب الفيل باختصار: أنَّ أبرهةَ الحبشي الذي كان يحكم اليمن في ذلك الوقت بنى كنيسةً بصنعاء، وسمَّاها القُلَّيس، ليصرفَ إليها الحاجَّ عن بيت الله الحرام، فخرجَ رجلٌ من كنانة، فقعد فيها ليلاً (أي: تغوَّط فيها) فأغضبَ أبرهةَ ذلك، وحلفَ ليهدمنَّ الكعبةَ، وخرج بجيش كبير، ومعه فيلٌ قوي، ولمَّا وصل إلى أرض الحرم تهيأ للدخول، وعبَّأ جيشه، وقدَّمَ الفيلَ فبرك، ولم يتزحزح. ثم أرسل الله طيراً تحمل حجارة، فرمتهم بها فهلكوا جميعاً.

ومرَّ معنا في الحديث الشريف في صُلْحِ الحديبية: أنَّ النبيَّ ﷺ لما كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركتْ به راحلتُه، فقال الناسُ: حَلْ حَلْ، فألَحَّت، فقالوا: خلأتِ القصواءُ (أي: حَرَنَتْ) فقال النبيُّ ﷺ: «**ما خلأتِ القصواءُ، وما ذاك لها بِخُلُقٍ، ولكن حَبَسَها حابِسُ الفيل**» ثم قال: «**والذي نفسي بيده لا يسألونني خِطةً يعظِّمون فيها حرماتِ اللهِ إلا أعطيتهم إياها**» ثم زجرها فوثبت. [رواه البخاري (٢٧٣١)].

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾.

أي: ألم يجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة المشرفة في تضييع

---

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٥٧٣.

وإبطال، فلم يصلوا إلى ما أرادوا، بل رجع كيدهم عليهم وهلكوا.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾.

أي: جماعات جماعات من هاهنا ومن هاهنا.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾.

أي: من طين متحجِّر، فهي كالحجارةِ التي أنزلها الله على قوم لوط عندما أهلكهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

أي: كتبنٍ أكلته الدوابُّ، ثم راثته.

شبَّه تعالى تقطُّع أجسادهم وتفرقها بتفرق أجزاء الرَّوْث.





تفسير سورة قريش

الطَّعَامُ وَالأَمْنُ فِي سُورَةِ قُرَيْشٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾

ولما ردَّ الله الحبشةَ عن مكة عظَّمتِ العربُ قريشاً، وقالوا: أهل حرم الله، قاتل عنهم وكفاهم مؤونةَ عدوِّهم؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم ذكَّرهم بها وأمرهم بشكره وعبادته، فقال:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾.

أي: أهلك اللهُ أصحابَ الفيلِ نعمةً منه على قريشٍ، فائتلفوا واجتمعوا في مكة المكرمة آمنين.

فالإيلاف: مصدرُ آلف رباعيّاً. **والإلافُ**: مصدر أَلِفَ ثلاثيّاً.

ورأى بعضُهم أنَّ هذه السورةَ متصلةٌ بالتي قبلها في المعنى، كأنه تعالى يقول: أهلكتُ أصحابَ الفيل لتأتلفَ قريشٌ وتجتمعَ.

ثم فخَّم تعالى أمر الإيلاف وعظمه بقوله:

﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾﴾.

وكان لهم رحلتان للتجارة: يخرجون إلى الشام في الصيف، وإلى اليمن في الشتاء، فـ (**رحلة**) منصوبة بإيقاع الفعل عليها.

وقرئت: (**ليلاف**) بغير همز، و(**لإلاف**) دون ياء.

و(**إلافهم**) دون ياء، و(**إلْفهم**) بلام ساكنة وليس قبلها ياء.

وبعد أن ذكّرهم تعالى بما خصَّهم من النعم، أمرهم بعبادته والقيام بشكره:

﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾.

وهو الكعبة المشرفة، قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾.

أي: الذي تفضّل عليهم بنعمة الغنى، ونعمة الأمن، فلا يصيبهم ما يصيب غيرهم من الجوع والخوف، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ولا شك أنّ نعمه تعالى عليهم كثيرةٌ لا تُحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهاتين النعمتين: الأمن والطعام، فدل ذلك على أنهما من نعم الله الجليلة، التي تستوجبُ شكره، وشكرُه لا يكون إلا بعبادته سبحانه وحده كما شرع وأمر على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة الماعُون

عَلَامَاتُ المُكَذِّبِينَ بِالدِّيْنِ فِي سُورَةِ المَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾.

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١﴾.

أي: هل عرفتَ الذي يكذِّبُ بيوم الجزاء والحساب مَنْ هو؟.

فهو استفهامٌ يرادُ به المبالغة في التعجيب من حال المكذب بيوم القيامة، يخاطِبُ الله تعالى به كلَّ إنسانٍ عاقلٍ، أو هو تشويق المخاطب إلى معرفة صفات المكذِّب بالدين ليحترز منها ويتجنبها.

﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢﴾.

أي: فذلك الذي يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً بجَفْوة وأذًى، ويردُّه بخشونة فلا يعطيه حقه ولا يواسيه.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝﴾.

أي: لا يطعمه، ولا يأمر بإطعامه، وهذا غاية البخل، فهو يبخل بماله وبمال غيره.

فالإقدام على إيذاءِ الضعيف، ومنعِ المعروفِ، من أبرز علامات المكذِّب بالحساب والجزاء. فالمنسلخون عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى انسلخوا في الحقيقة عن المشاعر الإنسانية الكريمة، وتغلَّبت عليهم الأثرةُ والأنانيةُ وحبُّ الذات والسمعةُ والرياءُ، ولهذا توعَّدهم تعالى بقوله:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾.

أي: غافلون لاهون غير مبالين بها، فهم ساهون عن فعلها بالكلية.

أو: يؤخرونها عن وقتها، وقد جاء في الحديث الشريف: أنَّ هذا من علامات المنافقين، فعن **أنس بن مالك** ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**تلك صلاةُ المنافِقِ يجلسُ يرقبُ الشمسَ، حتى إذا كانت بينَ قرني الشيطانِ قام فنقرها أربعاً، لا يذكُرُ اللهَ فيها إلا قليلاً**» [رواه مسلم (٦٢٢)].

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝﴾.

أي: يصلُّونها رياءً وسمعةً ليراهم الناس، ويثنوا عليهم، فهم كما قال تعالى في المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾.

أي: ويمنعون ما يتعاور في العادة بين الناس من متاع البيت كالفأس والقدر والدلو.

فهم لم يحسنوا عبادةَ ربهم، ولا أحسنوا إلى خَلْقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهم لمنع الزكاة وأنواع النفقات الواجبةِ أولى.

فالآية تزجرُ عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة، فإنَّ البخلَ بها غايةُ البخل، قال العلماء: يستحب أن يستكثر الرجل في بيته مما يحتاج إليه الجيران، فيعيرهم، ويتفضل عليهم، ولا يقتصر على الواجب[1].



(١) تفسير الخازن: ٦/ ٥٧٩.



تفسير سورة الكَوْثر

إِعْطَاءٌ وَشُكْرٌ فِي سُورَةِ الكَوْثَرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ٣﴾.

أمر الله تعالى النبيَّ ﷺ بإخلاص العبادة لله، ومساعدة المحتاجين، شكراً على ما أعطاه، وذلك في مقابل الذين لم يحسنوا عبادة الله، ولا أحسنوا إلى خلقه.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ١﴾.

أي: إنا أعطيناك الخيرَ الكثيرَ من العلم والعمل وشرف الدنيا والآخرة.

فقد حدَّث أبو بشر: عن سعيد بن جبير، عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال في الكوثر: هو الخيرُ الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر: قلتُ لسعيد بن جبير: فإنَّ الناسَ يقولون: هو نهرٌ في الجنة، فقال سعيد: النهرُ الذي في الجنة من الخيرِ الذي أعطاه الله إياه. [رواه البخاري (٤٩٦٦)].

وأصلُ **الكوثر** فَوْعَلٌ من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد وكثير في القدر والخطر كوثراً، فهو الفضائل الكثيرة التي فُضِّل بها عليه الصلاة

والسلام على جميع الخلق، فقد أعطي: النبوة، والكتاب، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأتباع، والإسلام، وإظهاره على الأديان كلها، والنصر على الأعداء، وكثرة الفتوح في زمنه وبعده.

وأولى الأقوال في الكوثر الذي عليه جمهور العلماء: أنَّه نهر في الجنة كما جاء مبيناً في الحديث:

فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: بينا رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ بين أظهُرِنا إذ أغفى إغفاءةً، ثم رفعَ رأسَهُ متبسماً، فقلنا: ما أضحككَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**أُنزلتْ عليَّ آنفاً سورةٌ**» **فقرأ** ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

ثم قال: «**أتدرون ما الكوثَرُ؟**» فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنَّه نهرٌ وَعَدنيه ربِّي** عز وجل**، عليه خيرٌ كثيرٌ، هو حوضٌ تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيتُهُ عددُ النجوم، فيختلجُ العبدُ منهم** (أي: ينتزع ويقتطع) **فأقول: ربِّ إنَّه من أمتي. فيقول: ما تدري ما أحدثتْ بعدَكَ**» [رواه مسلم (٤٠٠)].

وعن **أنس** رضي الله عنه أيضاً قال: لما عُرِجَ بالنبيِّ ﷺ إلى السماء قال: «**أتيتُ على نهرٍ حافتاهُ قبابُ اللؤلؤ مجوَّفاً، فقلتُ: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكَوْثَرُ**» [رواه البخاري (٤٩٦٤)].

ولما سُئلت **السيدة عائشة** رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ قالت: هو نهرٌ أُعطيه نبيُّكم ﷺ؛ شاطئاه عليه درٌّ مجوَّفٌ، آنيته كعددِ النجومِ. [رواه البخاري (٤٩٦٥)].

قال ابن حجر رحمه الله: «ثبت تخصيصه بالنهرِ من لفظِ النبيِّ ﷺ فلا مَعْدلَ عنه»(١).

قال الشيخ محيي الدين النووي: «قال القاضي عياض: أحاديثُ الحوضِ

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٧٣٢.

صحيحةٌ، والإيمانُ به فرضٌ، والتصديقُ به من الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة، لا يتأول، ولا يُختلف فيه، وحديثُه متواترُ النقلِ»(١).

والإعطاء إيتاءٌ على جهة التمليك، وفيه إشارة إلى أن المُعْطى وإن كان كثيراً في نفسه، فهو قليل بالنسبة إلى شأنه عليه الصلاة والسلام، بناءً على أن الإيتاءَ لا يستعمل إلا في الشيء العظيم، والإعطاءُ يستعمل في القليل والكثير(٢).

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾.

أي: فاعبد ربك الذي أعزك بما أعطاك مراغماً للمشركين الذين يعبدون غير الله تعالى، وانحرْ له وباسمه مخالفاً لعبدة الأوثان، وتصدَّق على المحاويج، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام].

ولهذا كان النبيُّ ﷺ يصلِّي صلاةَ العيدِ في يوم الأضحى ثم يذبحُ أضحيته.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

أي: إن عدوك ومبغضك هو المنقطع عن كل خير.

أو: هو الذي لا عقب له.

أو: هو الضعيف الحقير، وأنتَ الأعزُّ الأشرفُ، تبقى ذريتُك وحسنُ صيتكَ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة.

وأصل **البتر**: القطع، وشاع في قطع الذنب، وقيل لمن لا عقب له: أبتر،

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٥٨٢.
(٢) انظر: روح المعاني: ٣٠/ ٣١٥.

على الاستعارة، والأبترية معللة بالبغض فتدور معه، والظاهر أنه انقطع نسل كل من كان مبغضاً له عليه الصلاة والسلام حقيقة[1].

والجملة كالتعليل لمفهوم الكلام؛ فكأنه قيل: إنا أعطيناك ما لا يدخل تحت الحصر من النعم، فصلِّ وانحر خالصاً لوجه ربك، ولا تكترثْ لقول الشانئ الكريه، فإنَّه هو الأبتر لا أنت.

فالله سبحانه يبتر شانئ رسول الله ﷺ من كلِّ خيرٍ، وهو يعمُّ جميعَ من اتصف بذلك.



(١) روح المعاني: ٣٠/ ٣١٧.



١٠٩

تفسير سورة الكافرون

إِعْلَانُ البَرَاءَةِ فِي سُورَةِ الكَافِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾

دعا المشركون رسولَ اللهِ ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنةً، ويعبدون الله سنةً، فأنزل الله هذه السورة، يأمرُ النبيَّ ﷺ أن يعلنَ إخلاصه في عبادة الله واستقامته على دينه.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾.

وهم كفرةٌ مخصوصون، علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾.

أي: لستُ عابداً ما تعبدون، فلا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾.

أي: ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة الله وحده.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾.

أي: ولا أنا عابد في الحال معبودكم.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾.

أي: ولا أنتم في الحال بعابدين معبودي.

فكل واحدٍ منهما يصلحُ أن يكون للحال والاستقبال، ولكن يختص أحدُهما بالحال، والثاني بالاستقبال، وقد يكونُ المراد التكرار ليفيد التوكيدَ، وكلَّما كانتِ الحاجةُ إلى التوكيد أشدَّ كان التكرار أحسن، ولا موضعَ أحوجُ إلى التوكيد والتكرار من هذا الموضع[1]، قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

أي: لكم شرككم الذي أنتم عليه، ولي ديني الذي أنا عليه، وهو الإسلام لله تعالى وحده، فهو الدين عند الله.

وسَمَّى دينهم ديناً، لأنهم اعتقدوه، وتولَّوه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].



---

(١) تفسير الخازن: ٦/ ٥٨٧.



تفسير سورة النَّصر

تَسْبِيحٌ وَاسْتِغْفَارٌ فِي سُورَةِ النَّصْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾.

أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يكثر في آخر حياته من التسبيح والاستغفار:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾.

أي: إذا أظهر الله دينه، وفُتحت مكة وسائر بلاد الشرك.

فالمراد من المجيء الحصول، فقد فُتحت مكة في العام الثامن من الهجرة.

فعن **ابن عباس** رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ خرجَ في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثماني سنين ونصف من مَقْدمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون حتى بلغ الكديد (وهو ماء بين عُسفان وقُديد) أفطر وأفطروا. [رواه البخاري (٨/ ٣)].

وعن **عروة بن الزبير** قال: لما سار رسول الله ﷺ عام الفتح، فبلغَ ذلك قُريشاً، خرجَ أبو سفيان بن حرب وحَكِيْمُ بنُ حزامٍ وبُدَيل بن ورقاء يلتمسون الخبرَ عن رسول الله ﷺ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرَّ الظهران، فإذا هم بنيران كأنها

نيران عَرَفة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ لكأنَّها نيرانُ عرفة. فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرٍو. فقال أبو سفيان: عمرو أقلُّ من ذلك. فرآهم ناسٌ من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسول الله ﷺ، فأسلم أبو سفيان.

فلمَّا سار قال ﷺ للعباس: «**احبس أبا سفيان عند خَطْم الجبل حتَّى ينظُرَ إلى المسلمين**».

فحبسه العباس، فجعلتِ القبائلُ تمرُّ مع النبيِّ ﷺ، تمرُّ كتيبةً كتيبةً على أبي سفيان، فمرَّت كتيبةٌ فقال: يا عباسُ مَنْ هذه؟ فقال: هذه غفارُ، قال: ما لي ولغفار؟! ثم مرَّتْ جُهَينةُ، قال مثل ذلك، ثم مرَّت سعد بن هذيم، فقال مثل ذلك، ومرت سُليم، فقال مثل ذلك.

حتَّى أقبلتْ كتيبةٌ لم يُرَ مثلها قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار، عليهم سعدُ بنُ عبادة معه الراية، فقال سعدُ بن عبادة: يا أبا سفيان، اليومُ يومُ الملحمةِ، اليومُ تستحلُّ الكعبةُ. فقال أبو سفيان: يا عباسُ حبَّذا يوم الذمارِ (أي: تمنَّى أن يكونَ له يدٌ فيحمي قومه ويدفع عنهم).

ثم جاءت كتيبةٌ، وهي أقلُّ الكتائب فيهم رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابه، وراية النبيِّ ﷺ مع الزبير بن العوام، فلمَّا مرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعدُ بنُ عبادةَ؟ قال: «**ما قال؟**» قال: قال كذا وكذا. فقال: «**كذبَ سعدٌ، ولكن هذا يومٌ يعظِّم اللهُ فيه الكعبةَ، ويومٌ تكسَى فيه الكعبةُ**».

قال: وأمر رسول اللهِ ﷺ أن تركزَ رايتُهُ بالحَجُوْنِ. [رواه البخاري (٤٢٨٠)].

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾.

أي: ورأيت الناسَ يدخلون في الإسلامِ جماعاتٍ كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: فقل: سبحان الله حامداً له.

أو: فنزهه تعالى حامداً له.

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ تواضعاً له وشكراً.

وفي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: كان رسولُ اللهِ ﷺ يكثِرُ مِنْ قولِ: «**سبحان اللهِ وبحمدِهِ، أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه**» قالت: قلتُ: يا رسولَ اللهِ أراكَ تكثرُ مِنْ قول: سبحان الله وبحمدِه، أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه. قال: «**خَبَّرني ربِّي أني سأرى علامةً في أمتي، فإذا رأيتُها أكثرتُ مِنْ قولِ: سبحان اللهِ وبحمدِهِ، أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه. فقد رأيتُها: إذا جاء نصر اللهِ والفتحُ، فتحُ مكةَ. ورأيتَ الناسَ يدخلونَ في دينِ اللهِ أفواجاً. فسبِّحْ بحمدِ ربكَ واستغفرْه إنَّه كان تواباً**» [رواه مسلم (٤٨٤)].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ أي: إنَّه لا يزالُ كثيرَ القبولِ للتوبة من المسبِّحين والمستغفرين، يتوبُ عليهم ويرحمهم.

وإذا كان رسولُ الله ﷺ وهو المعصومُ يؤمَرُ بالاستغفارِ فما الظنُّ بغيره؟!.

وجاء في الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: كان رسول اللهِ ﷺ يكثِرُ أنْ يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانكَ اللهمَّ ربنا وبحمدِكَ، اللهمَّ اغفرْ لي**» يتأوَّل القرآن. [رواه مسلم (٤٨٤)]. أي: يفعل ما أُمِر به في القرآن.

والجديرُ بالذكر أنَّه عليه الصلاة والسلام علمَ مِنْ هذه السورة قُرْبَ أجلهِ:

فعن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: كانَ عمرُ يدخِلُني مع أشياخِ بدرٍ فكأنَّ بعضَهم وجدَ في نفسِهِ، فقال: لِمَ تُدْخِلُ هذا معنا، ولنا أبناءٌ مثلُه؟ فقال عمر: إنَّه مِنْ حيثُ علمتُم. فدعاني ذات يومٍ فأدخلني معهم، فما رأيتُ أنَّه دعاني يومئذٍ إلا ليريَهم. قال: ما تقولون في قولِ الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾؟ فقال بعضُهم: أَمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتح علينا، وسكت بعضُهم فلم يقلْ شيئاً. فقال لي: أكذلك تقولُ يا ابنَ عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقولُ؟ قلت: هو أجلُ رسولِ اللهِ ﷺ أعلمَه له، فقال عمر: ما أعلمُ منها إلا ما تقولُ. [رواه البخاري (٤٩٧٠)].

❁ ❁ ❁



تفسير سورة المَسَد

خُسْرَانٌ وَعَذَابٌ فِي سُورَةِ المَسَدِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾

عادت بنا الآياتُ في سورة المسد إلى أوَّل مراحل الدعوة في مكة المكرمة.

ففي الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: لما نزلتْ ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء ٢١٤] خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى صعد الصفا فهتف: «**يا صباحاه**»[1] فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «**أرأيتُم إنْ أخبرتُكُم أنَّ خيلاً تخرجُ مِنْ سفح هذا الجبلِ أكنتم مصدِّقيَّ؟**» قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «**إني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد**» قال أبو لهبٍ: تبّاً لكَ ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾. [رواه البخاري (٤٩٧١)].

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١﴾.

أي: خاب وخسرَ صاحبُها، وقد هلك وتحقق خسرانه وهلاكه.

---

(١) **يا صباحاه**: كلمة اعتادوا قولها عند وقوع أمر عظيم ليجتمعوا ويتأهبوا له.

والتباب: هو الخسار المُفضي إلى الهلاك، وفي الآيةِ إخبارٌ بعد دعاء، والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه.

وفي قراءة: **(أبي لهْب)** بسكون الهاء.

والمرادُ من **اليد** صاحبها، وهو أبو لهب، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب عم النبيِّ ﷺ، وعدل عن الاسم إلى الكنية لما فيه من الشرك، ووافقت كنيتُه مآلَه، ومآله إلى النار، والنار ذات لهب. مات بعد وقعة بدر بالعدسة، فاجتنبه أهله مخافةَ العدوى، وكانت قريشٌ تتقيها كالطاعون، فبقي ثلاثاً حتى أنتن، فحفروا له حفرةً ودفعوه بعود حتى وقع فيها، ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه، فكان الأمرُ كما أخبر الله تعالى.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾.

أي: ما أغنى عنه ماله وما كسب منه.

أو: ما كسب مِنَ أولاد، لأن ولد الإنسان من كسبه.

﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣﴾.

أي: ناراً تلتهب عليه. وهو وعيد كائن لا محالة وإن تراخى وقته.

وفي قراءة: **(سيُصَلَّى)** بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾.

وهي أم جميل بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان، كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، فهي تحمِلُ الحطب، فتلقيه على زوجها ليزدادَ عذاباً على ما هو فيه من العذاب. وكانت في غاية العداوة لرسول الله ﷺ، تحمِلُ الشوكَ والحَسَكَ فتطرحه بالليل في طريق رسول الله ﷺ لتؤذيه بذلك.



وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم: عن قتادة ومجاهد: أنها كانت تمشي بالنميمةِ، فالحطبُ مستعارٌ للنميمةِ، لأن النميمةَ توقد الشر بين الناس.

وقد يكون المعنى: أنها كالحطب في مصيرها إلى النار، والجزاء من جنسِ العملِ.

وقرأ عاصم: (**حمَّالةَ الحطب**) نصباً على الذم، أي: أذم حمالة الحطب، وقرأ الآخرون: (**حمَّالةُ**) بالرفع.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

أي: في عنقها حبل ممَّا مُسِدَ وفُتِلَ من الحبال، وهذا يدل على شدته وغلظته، فالآية تبين حالها في نار جهنم.

وعن قتادة: أنَّه كان في جيدها قلادةٌ من وَدَعٍ، وقال الحسن: من خرز، وقال ابن المسيب: كانت قلادةً فاخرةً من جوهر، وأنها قالت: واللات والعزى لأنفقنَّها على عداوةِ محمد، ولعلَّ المرادَ على هذا أنها تكونُ في نارِ جهنَّم ذات قلادة من حديد ممسودٍ بدل قلادتها التي كانت لها في الدنيا، ويؤيِّدُ ذلك أنه سبحانه قال: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ ولم يقل في عنقها، مع أنَّ العنقَ يذكر مع الغل كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾ [يسٓ: ٨] فالجِيْدُ يذكر مع الحلي، ففي الآية تهكم بها وتحقير لها[(١)].

أخرج ابن أبي حاتم: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لمَّا نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراءُ أمُّ جميلٍ بنتُ حرب ولها وَلْولةٌ، وفي يدها فهر (حجر) وهي تقول:

مذمَّماً أبينا، ودينَه قلينا، وأمرَه عصينا

ورسولُ اللهِ ﷺ جالسٌ في المسجدِ ومعه أبو بكر، فلمَّا رآها أبو بكرٍ قال: يا رسولَ اللهِ قد أقبلتْ، وأنا أخافُ عليكَ أن تراكَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّها**

---

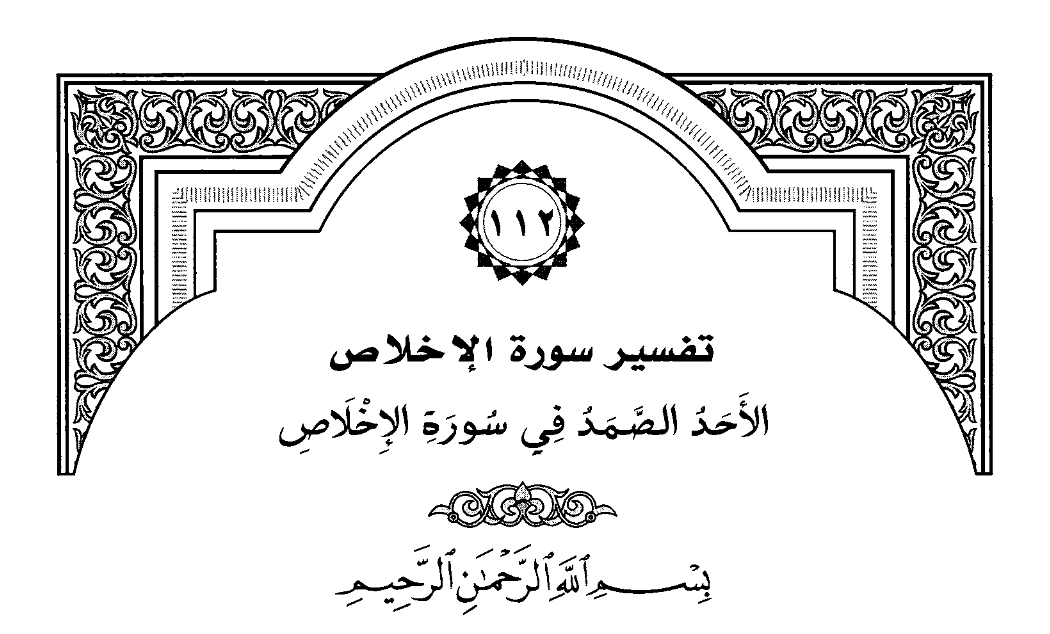
(١) انظر: روح المعاني: ٣٠/ ٣٢٩

لَنْ ترانِي» وقرأ قرآناً اعتصمَ به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

فأقبلتْ حتَّى وقفت على أبي بكر ولم ترَ رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكرِ، إنِّي أُخبِرْتُ أنَّ صاحبك هجاني، قال: لا وربِّ هذا البيت ما هجاك، فولَّت وهي تقولُ: قد علمتْ قريشٌ أني ابنةُ سيدها.

أورده ابن كثير في تفسير هذه السورة، ثم قال: قال العلماءُ: وفي هذه السورة معجزةٌ ظاهرةٌ ودليلٌ واضحٌ على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيَّض لهما أن يؤمنا ولا واحدٌ منهما لا باطناً ولا ظاهراً، لا سرّاً ولا علناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة.





تفسير سورة الإخلاص

الأَحَدُ الصَّمَدُ فِي سُورَةِ الإِخْلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه: أنَّ المشركين قالوا: يا محمَّدُ انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة. [أخرجه أحمد (٥/ ١٣٤) والترمذي (٣٣٦٤) والطبراني في الأوسط (٣٠/ ٣٠٢) وأبو يعلَى (٢٠٤٤)].

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

أي: الشأنُ هذا، وهو أنَّ الله واحدٌ لا ثانيَ له، فـ (هو) ضميرُ الشأنِ، ومحلُّه الرفعُ على الابتداء، خبره الجملةُ بعده، والسرُّ في تصديرها به التنبيه على فخامةِ مضمونها، مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير(١).

أو الذي سألتموني عنه هو الله الواحد في الألوهية والربوبية، الموصوف بصفات الكمال والعظمة، المنفرد عن الشَّبه والمِثْلِ والنظير، فلا يوصَفُ أحدٌ

(١) روح المعاني: ٣٠/ ٣٤٥.

بالأحدية غير الله تعالى، فلا يقال رجلٌ أحدٌ، ودرهمٌ أحد، بل (**أحدٌ**) صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشاركه فيها أحد.

وفي كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي: قال الحَلِيمي: (**الأحد**) هو الذي لا شبيه له ولا نظير، كما أنَّ (**الواحد**) هو الذي لا شريك له ولا عديد، ولذلك سَمَّى الله ﷻ نفسه بهذا الاسم لَمَّا وصف نفسه بأنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ فالمراد بالأحدية عدمُ إمكان الشركة، وعدم تصورها ولو بوجه من الوجوه.

وقد ابتعد سيد قطب رحمه الله كثيراً عن هذا المعنى، وأخطأ في التعبير عندما قال: إنها أحديةُ الوجودِ، فليس هناك حقيقةٌ إلا حقيقته، وليس هناك وجودٌ حقيقيٌّ إلا وجوده.

ولا شكَّ أنَّ الله موجودٌ أزلاً وأبداً وجوداً مطلقاً، ووجوده لا ينفي وجودَ مخلوقاته التي دلت عليه، إلا أنَّ وجودها مقيَّدٌ بمكانٍ وزمانٍ وكمية وكيفية، ووجوده تعالى منزَّه عن جميع ذلك.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.

أي: الله السيد المصمود إليه في الحوائج، من صمد إليه إذا قصد، فهو الذي يَصْمُدُ إليه كلُّ مخلوق، ولا يُسْتغنَى عنه، وهو الغني عمَّا سواه، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

فهو السيد المقصود في جميع الحوائج، المرغوب إليه في الرغائب، المستعان به عند المصائب وتفريج الكُرَب، الكامل في جميع صفاته وأفعاله، المتناهي في السؤدد والشرف والعلو والعظمة والكمال والإحسان، الدائم الباقي بعد فناء خلقه، الذي لا تعتريه الآفات ولا تغيره الأوقات.

فكل هذه المعاني يدل عليها لفظ (**الصمد**)، فعلى هذا يقتضي ألا يكون في

الوجود صمدٌ سوى الله تعالى العظيم القادر على كل شيء، وأنه اسمٌ خاص بالله تعالى انفرد به، له الأسماء الحسنى والصفات العليا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفي «**صحيح البخاري**»: باب قوله: الله الصمد، قال أبو وائل: هو السيِّدُ الذي انتهى سؤدده.

وفي تفسير ابن كثير: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ قال ابن عباس: هو السيِّدُ الذي قد كملَ في سؤدده، والشريفُ الذي قد كملَ في شرفه، والعظيمُ الذي قد كمل في عظمته، والحليمُ الذي قد كمل في حلمه، والعليمُ الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾.

أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، كما قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فكل مولود محدث وجسم، وهو قديم لا أول لوجوده، وليس بجسم، لأنَّ الجسمَ اسم للمتركب الحادث.

فالآية تكذِّب جميع أصناف المشركين من العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والنصارى الذي قالوا: المسيحُ ابنُ الله، واليهود الذين قالوا: عزيرٌ ابن الله. فنفت عنه إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لم يتقدمه والد كان عنه، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

أي: ولم يكن له من خلقه مثل ولا نظير ولا شبيه.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى: كذَّبني ابنُ آدمَ، ولم يكنْ له ذلكَ، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأمَّا**

تكذيبهُ أيايَ فقوله: لن يعيدَني كما بدأني، وليسَ أول الخلقِ بأهونَ عليَّ من إعادتِهِ، وأما شتمُه إيايَ فقوله: اتخذَ اللهُ ولداً، وأنا الأحدُ الصمدُ، لم ألدْ، ولم أولدْ، ولم يكن لي كفواً أحد» [رواه البخاري (٤٩٧٤)].

وعن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «**أيعجزُ أحدُكم أن يقرأَ ثلثَ القرآن في ليلة؟**» فشقَّ ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيقُ ذلكَ يا رسول الله؟ فقال: «**الله الواحِدُ الصمدُ ثلثُ القرآنِ**» [رواه البخاري (٥٠١٥)].

قال ابنُ حجر: «**ثلث القرآن**» حَمَله بعضُ العلماء على ظاهره، فقال: هي ثلث باعتبار معاني القرآن، لأنه أحكام وأخبار وتوحيد، وقد اشتملت على القسم الثالث فكانت ثلثاً لهذا الاعتبار، ويُستأنس لهذا بما أخرجه **أبو عبيد**: من حديث أبي الدرداء قال: جزأ النبيُّ ﷺ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ جزءاً من أجزاء القرآن.

وقال القرطبي: اشتملت هذه السورةُ على اسمين من أسماء الله تعالى يتضمنان جميع أصناف الكمال لم يوجدا في غيرها من السور، وهما: **الأحد الصمد**[1].

وورد في فضلها عن **عائشة** رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلمَّا رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**سلوه لأيِّ شيءٍ يصنعُ ذلك؟**» فسألوه فقال: لأنَّها صفةُ الرحمنِ، فأنا أحبُّ أن أقرأ بها. فقال رسول الله ﷺ: «**أخبروه أنَّ الله يحبُّه**» [رواه مسلم (٨١٣)].

لقد انطوت هذه السورةُ الجليلةُ مع قصرها على الأسس الكبرى لعقيدة التوحيد.



(١) فتح الباري: ٩/ ٦١.



تفسير سورة الفَلَق

الاستِعَاذَةُ باللهِ مِنْ أسبَابِ الشَّرِّ في سُورَةِ الفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

أخرج الترمذي [٢٠٥٨] وحسنه، والنسائي، وابن ماجه [٣٥١١]: من حديث **أبي سعيد** رضي الله عنه قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يتعوَّذُ من الجانِ وعينِ الإنسانِ حتى نزلت المعوَّذاتُ، فأخذَ بها، وترك ما سواها.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾.

أي: قل ألتجئُ وأعتصمُ وأحترزُ برب الفلق.

وهو يعم جميعَ المخلوقات، فإنَّه تعالى فلقَ: أي شق وفرق بنور الإيجادِ عنها، سيما ما يخرجُ من أصلٍ كالعيون من الجبال، والأمطارِ من السحابِ، والنباتِ من الأرض، والأولادِ من الأرحام، وخُصَّ عُرفاً بالصبح، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام].

فتعليقُ العياذِ باسم **الرب** المضاف إلى **الفلق** المنبئ عن النور عقب الظلمة، والسعة بعد الضيق، والفَتْق بعد الرتق، عِدَة كريمة بإعادة العائذ مما يعوذ منه، وتقوية لرجائه بذكر بعض نظائره[(١)].

والإعاذةُ من المضار تربيةٌ وتزكيةٌ، ولهذا أضيف الفلق إلى الرب الذي هو وحده قادرٌ على تغيير الأحوال، وتقليب الأطوار، وكذلك المربوبُ لا يستغني في شيء من أحواله عن الرب جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾.

أي: من شر ما خلق من الإنسان والجن.

أو: من شر كل مخلوق قام به الشر.

فالشرُّ مسند في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى خَلْق الرب تعالى الذي هو فِعلُه وتكوينه، فإنَّه لا شرَّ فيه بوجه ما، فإن الشرَّ لا يدخل في شيء من صفاته وأفعاله، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسماً، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، تعالَى ربنا وتقدَّس عن ذلك.

وما يفعله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خيرٌ محض، إذ هو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شرّاً بالنسبة إليه، فالشر وقع في تعلُّقه بهم، وقيامه بهم لا في فِعْله القائم به تعالى، فإنه خالق الخير والشر، فالسارق إذا قُطعت يده فقَطْعُها شرٌّ بالنسبة إليه وخيرٌ محض بالنسبة إلى عموم الناس، وخير بالنسبة إلى متولِّي القطع أمراً وحكماً، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، إذا عرفتَ هذا عرفتَ معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**لبيكَ وسعديكَ، والخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك**» [رواه مسلم (٧٧١)][(٢)].

---

(١) روح المعاني: ٣٠/ ٣٥٨.

(٢) انظر: تفسير المعوذتين، لابن قيم الجوزية.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾.

أي: ومن شر ليل إذا أظلم، **والغسقُ**: الظلمةُ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء ٧٨].

ويسمَّى القمرُ غاسقاً في حال خسوفه، ويؤيده ما جاء في الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: أخذ النبيُّ ﷺ بيدي فنظرَ إلى القمر فقال: «**يا عائشةُ، استعيذي بالله مِنْ شرِّ هذا، فإنَّ هذا هو الغاسِقُ إذا وقبَ**» [رواه الترمذي (٣٣٦٦) وقال: حديث حسن صحيح].

والسببُ الذي لأجله أمر الله تعالى بالاستعاذة من شرِّ الليل، وشرِّ القمر إذا وقب، هو أنَّ الليل إذا أقبلَ مَحَلُّ سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشرُ الشياطين.

ففي الحديث الشريف: عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا كانَ جُنْحُ الليل ـ أو أمسيتم ـ فكفُّوا صبيانَكُم، فإنّ الشياطينَ تنتشرُ حينئذٍ، فإذا ذهبَ ساعةٌ من الليلِ فخلّوهم، فأغلقوا الأبوابَ، واذكروا اسمَ اللهِ، فإنَّ الشيطانَ لا يفتحُ باباً مغلقاً، وأوْكوا قِرَبَكُم، واذكروا اسمَ الله، وخمِّروا آنيتَكُم، واذكروا اسم اللهِ، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً، وأطفئوا مصابِيْحَكُم**» [رواه البخاري (٥٦٢٣)].

ورحم الله ابنَ قيم الجوزية عندما قال: فتأمَّل الاستعاذةَ بربِّ الفلق من شرِّ الظلمة، ومن شرِّ ما يحدثُ فيها، ونزول هذا المعنى على الواقع يشهد بأنَّ القرآن بل هاتان السورتان من أعظم أعلام النبوة وبراهين صدق رسالة محمد ﷺ، ومضادة لما جاءت به الشياطين من كل وجه.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾.

أي: ومن شرِّ النفوس السواحر اللاتي يعقدن عُقَداً في خيوط، وينفثن عليها، **والنفث**: النفخ مع ريق.

وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر وظهور أثره[(١)].

وقد ثبتَ: أنَّ النبيَّ ﷺ قد تعرَّضَ لمثل هذا الأذى، ففي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: سَحَرَ رسولَ اللهِ ﷺ رجلٌ من بني زُريق يقال له: لبيدُ بنُ الأعصم، حتَّى كان رسولُ اللهِ ﷺ يُخيَّلُ إليه أنه كان يفعلُ الشيءَ وما فعله، حتَّى إذا كنْتُ يوماً أو ذاتَ ليلةٍ وهو عندي دعا ودعا، ثم قال: «**يا عائشةُ؛ أشعرتِ أنَّ الله أفتاني فيما استفتيتُه فيهِ؟ أتاني رجلانِ فقعدَ أحدُهما عندَ رأسي، والآخرُ عند رجليَّ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجعُ الرجلِ؟ فقال: مَطْبوبٌ، قال: مَنْ طبَّه؟ قال: لبيدُ بنُ الأعصم، قال: في أيِّ شيءٍ؟ قال: في مُشْطٍ ومُشَاطةٍ وجُفِّ طلعِ نخلةٍ ذكرٍ. قال: وأينَ هو؟ قال: في بئرِ ذروانَ**» فأتاها رسولُ اللهِ ﷺ في ناسٍ من أصحابه، فجاء فقال: «**يا عائشةُ، كأنَّ ماءَها نقاعة الحنَّاءُ، وكأنَّ رؤوسَ نخلها رؤوسُ الشياطين**» قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: «**قد عافاني الله فكرهتُ أن أثيرَ على الناسِ فيه شرّاً**» فأمرَ بها فَدُفِنَتْ. [رواه البخاري (٥٧٦٣)].

والسحر الذي أصابه عليه الصلاة والسلام كان مرضاً عارضاً من الأمراض شفاه الله منه، ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه ما، فإنَّ المرض يجوز على الأنبياء، وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته، ونيل كرامته، وأشد الناس بلاءً الأنبياء، فليس ببدع أن يُبتلى النبيُّ ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر.

وقد ثبت في «**صحيح مسلم**» [٢١٨٦]: عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه: أنَّ جبريلَ أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا محمَّدُ أشتكيتَ؟ قال: «**نعم**» قال: باسم الله أرقيكَ، مِنْ كُلِّ شيءٍ يؤذيك، وَمِنْ شرِّ كلِّ نفسٍ أو عينِ حاسدٍ اللهُ يشفيك، باسم الله أرقيك.

---

(١) تفسير النسفي: ٦/٦٠٨.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه، وذلك بمباشرة أسباب الشر قولاً وفعلاً، كأن ينظر إلى المحسود ويوجِّه نفسه الخبيثة نحوه على وجه الغضب، فإنَّ نفسَ الحاسد تتكيَّفُ بكيفية خبيثة، قد تؤثر في المحسود، وتجلب له شرّاً قد يصل إلى حدِّ الإهلاك إذا وافق قدر الله تعالى.

وحقيقة الحسد: تمني زوال النعمةِ عن المحسود، وقد يكونُ معه سَعْيٌ، فلذلك أمر الله تعالى بالتعوُّذ منه.

وقيَّده تعالى بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الإنسانَ قد يكونُ عنده حسدٌ لكنه يخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه من الوجوه، فللحسد ثلاث مراتب:

أولاها: تَمَنِّي زوال النعمة عن المحسود، وسواء أردتها لنفسك أم لا، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعينُ بها على الفساد وإيذاء الخلق، فلا يضرك كراهتك لها، ومحبتك لزوالها من حيث هي آلةُ الفسادِ.

وثانيها: تَمَنِّي استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يُحدثَ الله لعبده نعمة.

وكلاهُما حسد مذموم.

وثالثها: حسدُ الغِبْطة، وهو تمنِّي أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن يتمنَّى زوال النعمة عنه، فهذا لا بأسَ به، ولا يعابُ صاحبه، فهو من المنافسة؛ كما في الحديث الشريف: أن النبيَّ ﷺ قال: «**لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ؛ فهو يقومُ به آناءَ الليل، وآناءَ النهارِ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً؛ فهو ينفِقُه آناءَ الليلِ، وآناءَ النهار**» [رواه البخاري (٧٥٢٩) ومسلم (٨١٥)].

والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأنَّ شر هؤلاء أشد، وختم بالحسدِ، ليُعلمَ أنه شرها، وهو أول ذنب عُصي الله به عندما حسدَ إبليسُ آدم، وأبى أن يسجدَ له.

ومرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

وقول النبي ﷺ: «**العينُ حَقٌّ، ولو كانَ شيءٌ سابقَ القدر سبقته العينُ، وإذا استُغْسِلتم فاغتسلوا**» [رواه مسلم (٢١٨٨)].

وقد اشتملت هذه السورة على قواعد نافعة هامة لا غنى للعبد عنها في دينه ودنياه، ودلَّت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثيرٌ، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنَّفْث في العقد، أسأله تعالى أن يعيذنا من شرهم.





تفسير سورة النَّاس

الاسْتِعَاذَةُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ فِي سُورَةِ النَّاسِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ④ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ⑤ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ⑥﴾.

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾.

أي: قل ألتجئ وأحتمي برب الناس.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ②﴾.

أي: مالكهم ومدبِّر أمورهم.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③﴾.

أي: معبودهم.

وأضيف الرب إلى الناس خاصة ـ وإن كان رب كل مخلوق ـ تشريفاً لهم،

ولأنَّ الاستعاذةَ من شر المُوَسْوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر المُوَسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلٰههم ومعبودهم[(١)].

وكرر الله تعالى الاسم الظاهر، ولم يوقع المضمر موقعه، تحقيقاً لهذا المعنى، وتقوية له، ولم يعطف بالواو لما فيها من معنى المغايرة، والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة.

فالمستعاذ به هو الله ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾.

فمن كان اللهُ ربَّهم ومَلِكَهم وإلٰههم فهم جديرون ألا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجؤوا إلى غير حماه، فهو كافيهم، وحَسْبهم وناصرهم ووَلِيُّهم، فكيف لا يلتجئُ العبدُ عند النوازل ونزول عدوه إلى ربه ومالكه وإلٰهه؟!.

وقدَّم الربوبيَّة لعمومها وشمولها لكل مربوب، وأخَّر الإلٰهية لخصوصها، لأنَّه سبحانه إنما هو إلٰهُ مَنْ عبده وحده، واتخذه دون غيره إلٰهاً.

وقد اشتملت هذه الإضافاتُ الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معانيَ أسمائه الحسنى:

- فإنَّ **الرب**: هو القادر، الخالق، البارئ، المصور، الحي، القيوم، العليم، السميع، البصير، المحسن، المنعم، الجواد، المعطي، المانع، المقدِّم، المؤخِّر، الذي يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

- وأما **الملك**: فهو الآمر، الناهي، المعزُّ، المذلُّ، الذي له من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى: كالعزيز، الجبار، المتكبر، الحكم، العدل، الرافع، الخافض، المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير، مالك الملك، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى المَلِك.

- وأما **الإلٰه**: فهو الجامع لجميع صفاتِ الكمالِ ونعوتِ الجلالِ، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى.

---

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٦١٠.

فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشر الداخل في الإنسان، بينما تضمنت سورة الفلق الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد، وهو شر من خارج الإنسان(١).

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ أي: من شر الشيطان المُوَسوس. سُمِّي بفعله مبالغة، لأن الوسوسة شغله الذي هو عاكف عليه، وهي الصوت الخفي.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ أي: الرجاع الذي يتوارى ويختفي عند ذكر الله تعالى.

وحقيقة اللفظ تفيد الاختفاء بعد الظهور، فليس المراد مجرد الاختفاء، فإنَّ العبدَ إذا غفل عن ذكر الله جَثَم على قلبه الشيطان، وبذر فيه أنواعَ الوسواس، التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكرَ العبدُ ربَّه، واستعاذَ به انخنس وانقبض؛ قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وجيء بلفظ فعال للمبالغة دون الخانس والمنخنس، إيذاناً بشدة هروبه ورجوعه، وعظم نفوره عند ذكر الله تعالى، وذلك دأبه وديدنه.

وتأمل كيف جاء بناءُ (**الوسواس**) مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً، كما جاء بناء (**الخَنَّاس**) على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل، فكلما ذكر الله تعالى انخنس، ثم إذا غفل عاوده بالوسوسة، فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنييهما(٢).

وبعد أن بيَّن تعالى وسوسته بيَّن محلَّها فقال:

---

(١) انظر: تفسير المعوذتين، لابن قَيِّم الجَوْزِيَّة.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾.

وهذا يدل على أنَّ الله تعالى جعل للشيطان دخولاً في جوف العبد، ونفوذاً إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مَجْرى الدم، وقد وكِّل بالعبد، فلا يفارقه إلى الممات.

دلَّ على ذلكَ الحديث الشريف: عن **صفية بنت حيي** رضي الله عنها قالت: كان النبيُّ ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمتُ لأنقلبَ، فقام معي ليقلبني ـ وكان مسكنُها في دار أسامةَ بن زيدٍ ـ فمرَّ رجلان من الأنصار، فلمَّا رأيا النبيَّ ﷺ أسرعا، فقال النبيُّ ﷺ: «**على رِسْلِكُمَا، إنَّها صفيةُ بنتُ حُيَي**» فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: «**إنَّ الشيطانَ يجري من الإنسانِ مجرى الدم، وإنِّي خشيتُ أن يقذِفَ في قلوبكُما شرّاً**» أو قال: «**شيئاً**» [رواه مسلم (٢١٧٥)].

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

أي: إنَّ الوسواسَ الخنَّاسَ يوسوس للجنِّ كما يوسوس للإنس.

وقد يكون المعنى: إنَّ الذي يوسوس نوعان: إنس وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضاً يوسوس إلى الإنسيِّ، فشياطين الإنس والجن يشتركون في الوحي الشيطاني، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام ١١٢].

ففي الآية دليل على الاستعاذة من شرِّ نوعي الشياطين: شياطين الإنس، وشياطين الجن، نسأل الله أن يعيذَنا منهم.

❁ ❁ ❁



الخاتمة

هكذا ختم الله تعالى القرآن العظيم الذي هو حبله المتين، وصراطه المستقيم، مَنْ تمسَّكَ به سلمَ وأمِنَ، ومن زاغ عنه خَسِرَ وندم، وتخطفته شياطينُ الإنس والجن.

أسأله تعالى أن يوفِّقنا لتلاوته، وتدبُّر آياته، والعمل به آناء الليل وأطرافَ النهار، وأن ينوِّرَ به قلوبنا وقبورنا، ويجعله ربيعَ قلوبنا، ونورَ أبصارنا وبصائرنا، وجلاءَ همومنا وأحزاننا. اللهمَّ آمين.

وصلِّ اللَّهم وسلِّم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، والحمد لله أولاً وآخراً.

* * *

تم إعداد هذا التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم في مكة المكرمة بتاريخ (٥/ ٦/ ١٤١٧هـ)، الموافق لـ (١٧/ ١٠/ ١٩٩٦م).

وأعيد النظر فيه بمكة المكرمة أيضاً بتاريخ (١/ ١٢/ ١٤٣٠هـ)، الموافق (١٨/ ١١/ ٢٠٠٩م).

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الفقير

إلى عفو ربه ومرضاته

عبد الحميد محمود طهماز

المصادر والمراجع

● **أولاً: من كتب السُّنَّة:**

١ ـ **بذل المجهود في حل أبي داود**، المكتبة الإمدادية، ط ٣.

٢ ـ **الترغيب والترهيب**، للمنذري، الطبعة القطرية.

٣ ـ **تيسير الوصول**، للشيباني، طبعة مصطفى البابي الحلبي.

٤ ـ **صحيح البخاري مع فتح الباري**، الطبعة السلفية.

٥ ـ **صحيح مسلم**، تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي.

٦ ـ **سنن أبي داود**، ط: دمشق، عزت دعاس.

٧ ـ **سنن النسائي**، ط: إحياء التراث العربي.

٨ ـ **جامع الترمذي**، دار إحياء التراث.

٩ ـ **سنن ابن ماجه**، تحقيق وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي.

١٠ ـ **الموطأ**، تحقيق وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي.

● **ثانياً: من كتب التفسير:**

١١ ـ **أضواء البيان**، للشنقيطي، المطابع الأهلية، الرياض.

١٢ ـ **البحر المحيط**، لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر.

١٣ ـ **تفسير الآلوسي** (روح المعاني)، دار الفكر ـ بيروت، إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٤ ـ **تفسير أبي السعود** (إرشاد العقل السليم)، للعمادي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، دار الفكر.

١٥ ـ **تفسير البيضاوي** (مع مجموعة التفاسير)، دار إحياء التراث ـ بيروت.

١٦ ـ **تفسير البيضاوي وحاشية الكازروني عليه**، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع ـ بيروت.

١٧ ـ **تفسير التحرير والتنوير**، للطاهر ابن عاشور، الدار التونسية.

١٨ ـ **التفسير الحديث**، لمحمد عزة دروزة، طبعة عيسى البابي الحلبي.

١٩ ـ **تفسير الخازن** (مع مجموعة التفاسير)، دار إحياء التراث ـ بيروت.

٢٠ ـ **تفسير الطبري** (جامع البيان)، دار المعرفة، دار الفكر ـ بيروت.

٢١ ـ **تفسير الفخر الرازي** (التفسير الكبير)، دار الفكر، الطبعة الأولى.

٢٢ ـ **تفسير القرطبي** (الجامع لأحكام القرآن)، ط: وزارة الثقافة في مصر.

٢٣ ـ **تفسير ابن كثير**، طبعة دار الفكر العربي.

٢٤ ـ **تفسير ابن كثير (المختصر)**، للصابوني، طبعة دار القرآن الكريم ـ بيروت.

٢٥ ـ **تفسير النسفي** (مع مجموعة التفاسير)، دار إحياء التراث ـ بيروت.

٢٦ ـ **تنوير الأذهان من تفسير روح البيان**، لإسماعيل حقي، اختصار الصابوني، دار القلم.

٢٧ ـ **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، لطنطاوي جوهري.

٢٨ ـ **حاشية الجمل على الجلالين** (المسمى بالفتوحات الإلـٰهية).

٢٩ ـ **حاشية الشهاب على البيضاوي**.

٣٠ ـ **حاشية الصاوي على الجلالين**، طبعة البابي الحلبي.

٣١ ـ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، للسيوطي، دار المعرفة.

٣٢ ـ **زاد المسير في علم التفسير**، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي.

٣٣ ـ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، للنيسابوري، المطبوع على هامش جامع البيان.

٣٤ ـ **فتح القدير**، للشوكاني، دار المعرفة ـ بيروت، مكتبة المعارف بالرياض.

٣٥ ـ **في ظلال القرآن**، لسيد قطب، ط٩، دار الشروق ـ بيروت، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣٦ ـ **قرة العينين على الجلالين**، محمد أحمد كنعان، المكتب الإسلامي.

٣٧ ـ **المحرر الوجيز**، لابن عطية، الطبعة القطرية.

٣٨ ـ **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، للبقاعي، ط١، الهند.

- **ثالثاً: مراجع مختلفة:**

٣٩ ـ **أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية**، لعبد الله الطريقي.

٤٠ ـ **إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس**، لعبد الحميد طهماز.

٤١ ـ **إنارة الدجى في مغازي خير الورى**، حسين المشاط المكي، ط: دار المنهاج.

٤٢ ـ **الأنساب والأولاد**، لعبد الحميد طهماز.

٤٣ ـ **البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة**، للشيخ العَزامي، ط١.

٤٤ ـ **التأمين في الشريعة والقانون**، لشوكت عليان.

٤٥ ـ **جريدة المسلمون**، عدد (١٩٠).

٤٦ ـ **حياة الصحابة**، للكاندهلوي، دار القلم ـ دمشق.

٤٧ ـ **حياتنا والموعد المجهول**، لعبد الحميد طهماز، دار القلم ـ دمشق.

٤٨ ـ **خلق الإنسان بين الطب والقرآن**، للدكتور محمد علي البار.

٤٩ ـ **الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم.**

٥٠ ـ **دائرة معارف القرن العشرين**، لبطرس البستاني، دار المعرفة.

٥١ ـ **دراسات تاريخية عن صموئيل الثاني.**

٥٢ ـ **دراسات تاريخية من القرآن الكريم**، الدكتور محمد بيومي مهران.

٥٣ ـ **رد المحتار على الدر المختار**، لابن عابدين، دار إحياء التراث.

٥٤ ـ **ردود على أباطيل**، للشيخ محمد الحامد، طبعة قطر.

٥٥ ـ **الزواج في الإسلام**، لعبد الحميد طهماز، مكتبة البيت.

٥٦ ـ **السيدة الأولى خديجة أم المؤمنين، سبَّاقة الخلق إلى الإسلام**، لعبد الحميد طهماز، دار القلم ـ دمشق.

٥٧ ـ **سيرة نبي الهدى والرحمة.**

٥٨ ـ **سيرة ابن هشام**، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة.

٥٩ ـ **الشفا**، للقاضي عياض، وشرحه، لملا علي القاري، مطبعة المدني ـ القاهرة.

٦٠ ـ **الصراع بين العرب وأوروبة.**

٦١ ـ **طفل الأنبوب والتلقيح الصناعي**، لمحمد علي البار.

٦٢ ـ **عائشة أم المؤمنين**، لعبد الحميد طهماز.

٦٣ ـ **العسل فيه شفاء للناس**، لنزار الدقر.

٦٤ ـ **العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد**، لعبد الحميد طهماز.

٦٥ ـ **علم الفلك**، لمحمد رضا مدور.

٦٦ ـ **الغارة على العالم الإسلامي**، لشاتليه.

٦٧ ـ **القرار المكين**، للطبيب مأمون شقفة، ط١.

٦٨ ـ **قصص الأنبياء.**

٦٩ ـ **الكنز المرصود في قواعد التلمود**، يوسف نصر الله، دار القلم ـ دمشق.

٧٠ ـ **لسان العرب**، لابن منظور.

٧١ ـ **اللسان العربي والإسلام معاً في معركة المواجهة.**

٧٢ ـ **مؤتمر تفسير سورة يوسف**، للشيخ عبد الله العلمي.

٧٣ ـ **مباحث في علوم القرآن**، لصبحي الصالح، دار العلم للملايين ـ بيروت.

٧٤ ـ **مجلة أخبار العالم الإسلامي**، العدد (١٠٤٦ ـ ١١٠٧).

٧٥ ـ **مجلة البحوث الإسلامية**، العدد السادس.

٧٦ ـ **مجلة العلم**، العدد (٢١).

٧٧ ـ **مجلة المعرفة**، المجلد التاسع.

٧٨ ـ **محمد في الكتاب المقدس**، للأب داود بنيامين كلداني، ترجمة فهمي شما.

٧٩ ـ **المسيح إنسان أم إلٰه**، لمرجان.

٨٠ ـ **معاذ بن جبل**، لعبد الحميد طهماز.

٨١ ـ **المعجم الوسيط.**

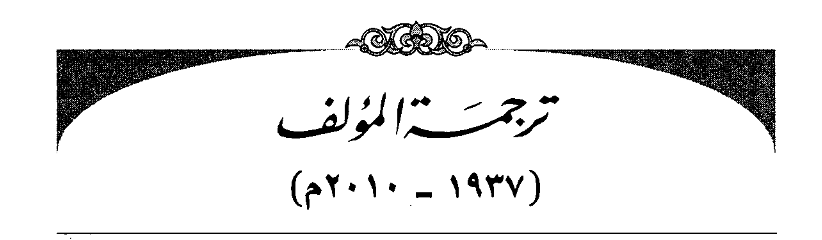
٨٢ ـ **المغني**، لابن قدامة.

٨٣ ـ **المغني في الضعفاء**، للذهبي.

٨٤ ـ **المقدمة لكتاب تفسير الأحلام.**

٨٥ ـ **نظرات في كتاب الحلال والحرام**، لعبد الحميد طهماز.

❁ ❁ ❁



ترجمة المؤلف

(١٩٣٧ ـ ٢٠١٠م)

• هو: **عبدُ الحميد بن محمود بن عبد القادر طهماز**، وُلد في مدينَة حماة عام (١٩٣٧م) من عائلة تمتدُّ فروعها في عدد من المحافظات السُّورية، ونشأ بها، وتلقَّى تعليمه في مدارسها.

وعقب حصوله على شهادة الثانوية العامة، ذهب إلى دمشق بقصد الالتحاق بكلية الطبِّ في جامعتها، لكنَّ بعضَ زملائه شجَّعوه على الالتحاق بكلية الشَّريعة، والتي كانت قد افتتحت حديثاً، فالتحق بها عام (١٩٥٥م) رغم معارضة كثيرٍ من أهله وأقاربه، وتلقَّى فيها العلوم الشرعية على أيدي خيرة أساتذتها، مثل: الدكتور مصطفى السِّباعي، ومصطفى الزَّرقا، ومحمد المبارك، والدكتور محمد منتصر الكتاني، والدكتور فتحي الدُّريني وغيرهم، كما كان يختلف إلى بعض علماء دمشق ويحضر حلقاتهم العلمية.

• وعقب تخرُّجه من الجامعة وحصوله على إجازتها العلمية عام (١٩٥٩م)، رجع إلى حماة، وتمَّ تعيينه من قبل وزارة التربية والتعليم مدرِّساً للتربية الإسلامية في مدارسها، وهناك توثَّقت صلتُه بالشَّيخ محمد الحامد رحمه الله، أحد كبار علماء حماة، ومجدِّد نهضتها الدينية، وقد شكَّلَتْ هذه الصِّلة منعطفاً جديداً في حياته، وكان لها أبلغ الأثر في سيرته العلمية والسُّلوكية، فلازم الشيخ ملازمةً كاملةً، ولم يكد ينقطع عن مجالسه ودروسه العلمية العامة والخاصة، كما كان يصاحبه في أسفاره، وقد أجازه شيخه في العلوم الشرعية، كما أجازه في طريقته في السُّلوك، وتلقَّن منه الذِّكر على الطريقة النقشبندية.

• وعندما مرض الشيخ محمد الحامد رحمه الله مرضَه الذي تُوفِّي به، استلم

بالنيابة عنه مسجد السلطان تدريساً وخطابة، وعقب وفاة شيخه عام (**١٩٦٩م**) قامت إدارةُ الأوقاف بتعيينه رسميّاً مدرِّساً وخطيباً في المسجد خلفاً لشيخه، فسار على منهجه العلمي، والتزم بوصاياه وطريقته، فكان يُلقي في المسجد درساً يوميّاً عدا يوم الخميس من كلِّ أسبوع، في علوم شرعية متنوِّعة، فخصَّص يومين للفقه يشرحُ بهما كتاب «**الهدية العلائية**» في الفقه الحنفي، ويومين للتفسير يعتمد فيه على كتاب «**تفسير الخازن**» مع الرجوع إلى أمهات كتب التفسير، ويومين للسيرة والحديث، قرأ فيهما «**الشفا**» للقاضي عياض و«**حياة الصحابة**» للكاندهلويِّ، وشرع بتدريس «**صحيح البخاري**»، كما كان له درسٌ أسبوعيٌّ خاصٌّ بعد العصر يقرأ فيه من «**إحياء علوم الدين**» للغزاليِّ، ودرس آخر في النَّحْو يقرأ فيه من كتاب «**مغني اللَّبيب**» لابن هشام.

وفي عام (١٩٨٠م) غادر سورية إلى المملكة العربية السعودية، على أمل أن يعود في أقرب فرصة ممكنة، فعمل في الرِّياض مُعيداً في معهد تعليم اللُّغة العربية لغير النَّاطقين بها، لمدة ثلاثة أعوام، ثم انتقل إلى المدينة المنورة مدرِّساً في معهدها العلميِّ لمدة عامين، ثم نُقِلَ إلى نجران، فأقام بها عامين وبضعة أشهر.

وفي عام (١٩٨٨م) استقرَّ به المقام في مكَّة المكَرَّمة، حيث عمل محاضراً في معهد إعداد الأئمة والدُّعاة التابع لرابطة العالم الإسلاميِّ لحوالي العشرة أعوام.

• وقد أولى التأليفَ عنايةً خاصَّةً، وأثرى المكتبة الإسلامية بعددٍ من الكتب القيمة في مواضيع مختلفة، كالتَّفسير والفقه والسِّيرة والتراجم، حيث بدأ بالتأليف في حياة شيخه وبتشجيع منه:

ـ فألَّف رسالةً في «**أحكام الحيض والنفاس**»، والذي يُعَدُّ من أصعب أبواب الفقه.

ـ ومن أهم مؤلَّفاته في الفقه كتاب «**الفقه الحنفي في ثوبه الجديد**»، وهو كتاب في خمسة مجلَّدات متوسطة الحجم، بيَّن فيه الأحكام الشرعية على

مذهب أبي حنيفة بأسلوبٍ سهلٍ ومُيَسَّر، مع ذكر أدلتها من الكتاب والسُّنَّة، حيث خصَّصَ **المجلَّد الأول** لفقه العبادات، **والثَّاني** للأحوال الشخصية والالتزامات والتبرُّعات، **والثالث** لنظام الحُكم والقضاء والعقوبات، **والرابع** للمعاملات، **والخامس** للقضاء وغيره من المباحث، وفي آخره مختصر في الفقه الأكبر (العقيدة).

ـ ومن مؤلَّفاته في التفسير «**التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم**» في ثمانية مجلدات، بدأ بتأليفه إبّان إقامته في المدينة المنوَّرة، فكان أول كتاب صدر منه: «**النبي ﷺ وأزواجُه في سورة الأحزاب**»، واستمرَّ في إصداره متفرِّقاً على حسب ما يفتح الله عليه من موضوعات السُّوَر الكريمة، إلى أن اكتمل تفسيراً كاملاً لجميع سور القرآن الكريم، بعد ما يزيد على عشرة أعوام، ويقوم أسلوبه على إبراز الموضوع الأساس لكلِّ سورةٍ من سُوَر القرآن الكريم، والذي ترتبط به وتدور حوله جميع موضوعاتها الفرعية.

ـ ومن مؤلفاته في السيرة: «**سيرة النبيِّ ﷺ من القرآن الكريم والسُّنَّة الصحيحة**»، اعتمد فيه على ما جاء في القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية الثابتة من سيرته ﷺ، وأعرض عمَّا ورد في كثير من كتب السِّيرة من أخبار ليس لها سَنَدٌ ثابتٌ.

ومن مؤلفاته في التراجم:

ـ «**السيدة عائشة، أم المؤمنين وعالمةُ نساء الإسلام**».

ـ «**عبد الله بن عباس، الإمام الحَبْرُ عالم العصر**».

ـ «**أنس بن مالك، الخادم الأمين والمحبُّ العظيم**».

ـ «**أبو موسى الأشعريُّ، الصحابيُّ العالم المجاهد**».

ـ «**معاذ بن جبل، إمام العلماء ومعلِّم الناس الخير**».

ـ «**السيدة خديجة، أم المؤمنين وسبَّاقة الخَلْق إلى الإسلام**».

ـ «**أبو عبد الرحمن السلمي، شيخ قرَّاء الكوفة**».

ـ «**العلَّامة المجاهد الشيخ محمد الحامد**».

وقد اتبع في التعريف بهؤلاء الأعلام أسلوب المحدِّثين، والمنهج العلمي الدقيق الذي التزموه لتحقيق الروايات التاريخية، وردِّ الروايات الضعيفة والمكذوبة، التي امتلأت بها بعض كتب المؤرِّخين، وخصوصاً في الأحداث التي حصلت بين الصحابة ﷺ.

وقد كان ﷺ حريصاً على قول كلمة الحقِّ، وردِّ ما يسمعه أو يقرؤه من آراء يراها مخالفةً للصَّواب، لا يخاف في ذلك لومةَ لائم، وهذا أمر يشهد به كلُّ من عرفه وصحبه، وقد حفلت كثير من مؤلَّفاته بمثل هذه الردود، وبيان ما يراه من الحقِّ والصواب.

وقد ألَّف كتابه عن السيدة عائشة ﷺ ردّاً على تطاول بعض المؤلِّفين عليها، واتهامها بأنها كانت سبب الفتنة التي حدثت بعد مقتل عثمان ﷺ.

كما كانت ترجمته لكلٍّ من الصَّحابيَّين الجليلين: عبد الله بن عباس وأبي موسى الأشعري ﷺ، إتماماً لهذا الموضوع، وتوضيحاً لموقفيهما من الأحداث التي حصلت في عهد علي ﷺ.

ـ وألَّفَ رسالة في الدفاع عن صحيح البخاري بعنوان: «**الصحيح أنَّ كلَّ ما في صحيح البخاري صحيح**»، للردِّ على بعض المشكِّكين بصحة بعض الأحاديث المروية فيه.

ـ وألَّف رسالة بعنوان: «**نظرات في كتاب الحلال والحرام في الإسلام**»، بَيَّنَ فيها حكمَ بعض المسائل الفقهية التي رأى أنَّ مؤلفه الشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله جانَبَ فيها الصواب.

ـ وله رسالة بعنوان: «**النُّور والسِّراج المنير**»، ردَّ فيها على مَنْ يزعم أنَّ ذات الله تعالى إنَّما هي نور، كما ردَّ فيها على من يقول بأنَّ النبيَّ ﷺ مخلوقٌ من نور.

ـ كما أَلَّفَ رسالةً بعنوان «**أمهات الأنبياء**»، ردَّ فيها على مَنْ يقول بعدم

نجاة والدة النبيِّ ﷺ، وأثبتَ أنَّ أمهات الأنبياء المذكورات في القرآن الكريم كُنَّ جميعاً على دين التوحيد.

• توفي الشيخ رحمه الله في الرياض يوم الجمعة ليلة السبت بتاريخ (١٥/ ٢/ ١٤٣١هـ، الموافق ٢٩/ ١/ ٢٠١٠م)، عن عمر يناهز (٧٣) عاماً، وصُلِّي عليه في مسجد الراجحيِّ، ودُفن في مقبرة النسيم.



فهرس الموضوعات

- تفسير سورة الذاريات: العِبَادَةُ والرِّزْقُ في سُورَةِ الذَّارِيَاتِ ٥
- مقسمات الرزق ٥
- القول المضطرب ٧
- المستغفرون بالأسحار ٩
- الأسباب السماوية للرزق ١٠
- ضيف إبراهيم ١٢
- عبر وعظات ١٥
- الفرار إلى الله ١٧
- الحكمة من الخلق ١٩
- تفسير سورة الطور: مُطَارَدَةُ الضَّلَالِ في سُورَةِ الطُّورِ ٢١
- مصير المكذبين ٢١
- الفضل والعدل ٢٤
- المطاردة والحصار ٢٨
- تفسير سورة النجم: الوَحْيُ وَالإِنْذَارُ في سُورَةِ النَّجْمِ ٣٣
- استقامة النبي ﷺ على الحق ٣٣
- لقاء الأمينين ٣٥
- تحقيق الوحي وتأكيده ٣٧
- صرعى الأوهام والشهوات ٤١
- كبائر الذنوب ٤٥

- التحذير من كبيرة العُجب ٤٦
- الانتفاع بسعي الآخرين ٤٧
- إنذار وسجود ٥٠

• **تفسير سورة القمر: الإِنْذَارُ بالسَّاعَةِ في سُورَةِ القَمَرِ** ٥٥
- انشقاق القمر ٥٥
- المنتصر بالله تعالى ٥٩
- تيسر القرآن للذكر ٦١
- إثبات القدر ٦٨

• **تفسير سورة الرحمن: التَّذْكِيرُ بالنِّعَمِ في سُورَةِ الرَّحْمٰنِ** ٧١
- أعظم النعم ٧١
- توبيخ وإنكار ٧٤
- تفصيل النعم ٧٥
- حاجز بين البحرين ٧٧
- فناء المخلوقات وضعفها ٧٩
- التذكير بمصير الكافرين ومصير المؤمنين ٨٢

• **تفسير سورة الواقعة: الأَصْنَافُ الثَّلاثَةُ في سُورَةِ الوَاقِعَةِ** ٨٩
- تحقيق القيامة وتأكيد وقوعها ٨٩
- مصير المقربين يوم القيامة ٩٢
- أحوال أصحاب اليمين في الجنة ٩٦
- الترف والضلال في أصحاب الشمال ٩٩
- الإيجاد والإمداد ١٠٢
- القسم العظيم ١٠٧
- توبيخ الضالين المكذبين وتحدِّيهم ١١٠

- أحوال المحتضرين ١١٢

• **تفسير سورة الحديد: الإِنْفَاقُ وَالإِمْسَاكُ في سُورَةِ الحَدِيدِ** ١١٥

- تسبيح المخلوقات ١١٥

- الإنفاق في سبيل الله ١١٩

- الأجر والنور ١٢٢

- طول الأمل وقسوة القلوب ١٢٥

- الصديقون والشهداء ١٢٧

- حقيقة الحياة الدنيا ١٢٩

- الرضا بالقدر ١٣٢

- الحق والقوة ١٣٤

- البخل والحسد ١٣٦

• **تفسير سورة المجادلة: الشَّكْوَى والنَّجْوَى في سُورَةِ المُجَادِلَةِ** ١٣٩

- السميع البصير ١٣٩

- الظهار وحكمه ١٤١

- النجوى المحرمة ١٤٤

- من آداب المجلس ١٤٨

- حزب الشيطان ١٥١

- حزب الله تعالى ١٥٤

• **تفسير سورة الحشر: أَحْدَاثٌ وعِبَر في سُورَةِ الحَشْرِ** ١٥٩

- الحشر الأول ١٥٩

- أموال بني النضير ١٦٣

- المستحقون للفيء ١٦٥

- كذب وخذلان ١٦٩

- التقوى والمحاسبة ١٧٢

• تفسير سورة الممتحنة: البَرَاءَةُ والبَيْعَةُ فِي سُورَةِ المُمْتَحِنَةِ ١٧٧

- تحريم موالاة الكافرين ١٧٧

- البراءة ١٨٠

- بر وعدل ١٨٣

- تحريم المؤمنات على الكفار ١٨٥

- البيعة ١٨٩

• تفسير سورة الصف: بِشَارَةٌ وَتِجَارَةٌ فِي سُورَةِ الصَّفِّ ١٩٣

- المقت الخالص ١٩٣

- بشرى عيسى عليه السلام ١٩٦

- ظهور الإسلام ١٩٩

- التجارة والجهاد ٢٠١

• تفسير سورة الجمعة: حَامِلُو الرِّسَالَةِ في سُورَةِ الجُمُعَةِ ٢٠٥

- الفضل الكبير ٢٠٥

- المعرضون عن حمل التوراة ٢٠٩

- تكليف وتحذير ٢١١

• تفسير سورة المنافقون: المُعْرِضُونَ عَنْ حَمْلِ الرِّسَالَةِ فِي سُورَةِ المُنَافِقُونَ ... ٢١٥

- تكذيب المنافقين ٢١٥

- الأعز والأذل ٢١٨

- الاشتغال بالأموال والأولاد ٢٢١

• تفسير سورة التغابن: الخَاسِرُونَ في سُورَةِ التَّغَابُنِ ٢٢٣

- توبيخ الكافرين ٢٢٣

- الزعم الباطل ٢٢٦
- التسليم لقضاء الله ٢٢٨

• تفسير سورة الطلاق: التَّقْوَى والتَّيْسِيرُ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ ٢٣١
- الطلاق للعدة ٢٣١
- التقوى في معاملة المطلقات ٢٣٥
- حساب وعذاب ٢٤٠

• تفسير سورة التحريم: أَزْوَاجُ الأَنْبِيَاءِ في سُورَةِ التَّحْرِيمِ ٢٤٣
- قصة تحريم العسل ٢٤٣
- عتاب وتأديب ٢٤٦
- التوبة النصوح ٢٤٩

• تفسير سورة الملك: الخَلْقُ والتَّدْبِيرُ في سُورَةِ المُلْكِ ٢٥٥
- الحياة والاختيار ٢٥٥
- الكواكب زينة ورجوم ٢٥٧
- حسرة وندامة ٢٥٩
- الخسف والحاصب ٢٦١
- المصارحة بالحقيقة ٢٦٥

• تفسير سورة القلم: الاسْتِدْرَاجُ فِي سُورَةِ القَلَمِ ٢٦٩
- صاحب الخُلق العظيم ٢٦٩
- تحقير المكذِّبين وفضح عيوبهم ٢٧٣
- قصة أصحاب الجنة ٢٧٥
- التوبيخ والتحدي ٢٧٩
- الأمر العظيم ٢٨١
- الصبر لحكم الله ٢٨٤

- العين حق ٢٨٦

• **تفسير سورة الحاقة: الحَقُّ الثَّابِتُ فِي سُورَةِ الحَاقَّةِ** ٢٨٩
- تعظيم يوم الحق ٢٨٩
- قوارع وعبر ٢٩٠
- بين يدي الواقعة ٢٩٣
- أصحاب اليمين ٢٩٥
- أصحاب الشمال ٢٩٧
- تنزيل رب العالمين ٣٠٠

• **تفسير سورة المعارج: تَحْقِيرُ المُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّيْنِ فِي سُورَةِ المَعَارِجِ** ٣٠٣
- العذاب الواقع ٣٠٣
- المكرمون يوم القيامة ٣٠٧
- أمانيُّ خادعة ٣١٠

• **تفسير سورة نوح: دَعْوَةٌ وَدُعَاءٌ فِي سُورَةِ نُوحٍ** ٣١٣
- الإنذار من العذاب الأليم ٣١٣
- استمرار الدعوة ٣١٥
- المَكْر الكبير ٣١٩
- الدعاء ٣٢٠

• **تفسير سورة الجن: الجِنُّ المُؤْمِنُونَ فِي سُورَةِ الجِنِّ** ٣٢٣
- المستمعون للقرآن الكريم ٣٢٣
- سفه وضلال ٣٢٦
- الحرس والشهب ٣٢٨
- الرخاء والأمن ٣٣٠
- بطلان الكهانة والتنجيم ٣٣٣

• تفسير سورة المزمل: قِيَامُ اللَّيْلِ فِي سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ ٣٣٥
- تأنيس وملاطفة ٣٣٥
- المهمة الثقيلة ٣٣٨
- بعث النار ٣٤١
- تخفيف قيام الليل ٣٤٤
• تفسير سورة المدثر: التَّبْلِيغُ وَالتَّذْكِرَةُ فِي سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ ٣٤٧
- الإنذار ٣٤٧
- المعاند المكذب ٣٥٠
- خزنة جهنم ٣٥٤
- الحمر النافرة ٣٥٩
• تفسير سورة القيامة: النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ فِي سُورَةِ القِيَامَةِ ٣٦١
- يوم القيامة والنفس اللَّوَّامة ٣٦١
- التأنِّي عند نزول الوحي ٣٦٥
- رؤية الله يوم القيامة ٣٦٨
- الفراق والمساق ٣٧٠
• تفسير سورة الإنسان: الشَّاكِرُ والكَافِرُ فِي سُورَةِ الإِنْسَانِ ٣٧٥
- الأصل الضعيف ٣٧٥
- أعمال الشاكرين ٣٧٨
- بشارة ونعيم ٣٨١
- تثبيت وإرشاد ٣٨٧
• تفسير سورة المرسلات: الإِعْذَارُ وَالإِنْذَارُ فِي سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ ٣٩١
- الوعيد الواقع ٣٩١
- الخلق والكفت ٣٩٥

- دخان وشرر ٣٩٧
- الجمع والمصير ٣٩٩
• تفسير سورة النبأ: تَهْوِيْلُ يَوْمِ القِيَامَةِ فِي سُورَةِ النَّبَأ ٤٠٣
- الخبر العظيم ٤٠٣
- إنعام وإحكام ٤٠٥
- يوم الفصل والحق ٤٠٧
- تعظيم وتهويل ٤١١
• تفسير سورة النازعات: الطَّامَّةُ الكُبْرَى وَالطُّغْيَانُ في سُورَةِ النَّازِعَاتِ ٤١٣
- البعث والجزاء ٤١٣
- المعرفة والخشية ٤١٦
- الطامة الكبرى ٤٢٠
• تفسير سورة عبس: الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ فِي سُورَةِ عَبَسَ ٤٢٣
- عتاب وموعظة ٤٢٣
- تكفير وتحقير ٤٢٨
• تفسير سورة التكوير: الوَحْيُ وَالاسْتِقَامَةُ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ ٤٣٣
- اضطراب النظم الكونية ٤٣٣
- طريق الاستقامة ٤٣٧
• تفسير سورة الانفطار: الغُرُورُ وَالفُجُورُ فِي سُورَةِ الانْفِطَارِ ٤٤٣
• تفسير سورة المطففين: دِيْوَانُ الشَّرِّ وَالخَيْرِ فِي سُورَةِ المُطَفِّفِيْنَ ٤٤٩
- القيام لرب العالمين ٤٤٩
- الفُجَّار في سجين ٤٥١
- الأبرار في عليين ٤٥٤

- تفسير سورة الانشقاق: انْقِيَادٌ وَاسْتِسْلَامٌ فِي سُورَةِ الانْشِقَاقِ ٤٥٩
- تفسير سورة البروج: تَأْنِيسٌ وَتَثْبِيتٌ فِي سُورَةِ البُرُوجِ ٤٦٥
- تفسير سورة الطارق: القَوْلُ الفَصْلُ فِي سُورَةِ الطَّارِقِ ٤٧٣
- تفسير سورة الأعلى: التَّسْبِيحُ وَالتَّذْكِيرُ في سُورَةِ الأعْلَى ٤٧٧
- تفسير سورة الغاشية: مَوْعِظَةٌ وَتَذْكِرَةٌ فِي سُورَةِ الغَاشِيَةِ ٤٨٣
- تفسير سورة الفجر: إِهْلَاكُ الطُّغَاةِ وَالجَبَابِرَةِ فِي سُورَةِ الفَجْرِ ٤٨٩
- تفسير سورة البلد: اقْتِحَامُ العَقَبَةِ فِي سُورَةِ البَلَدِ ٤٩٧
- تفسير سورة الشمس: تَزْكِيَةُ النَّفْسِ فِي سُورَةِ الشَّمْسِ ٥٠٥
- تفسير سورة الليل: تَوْفِيقٌ وَخُذْلَانٌ فِي سُورَةِ اللَّيْلِ ٥١١
- تفسير سورة الضحى: إِنْعَامٌ وَإِكْرَامٌ فِي سُورَةِ الضُّحَى ٥١٧
- تفسير سورة الشرح: إِنْعَامٌ وَإِكْرَامٌ فِي سُورَةِ الشَّرْحِ ٥٢٣
- تفسير سورة التين: تَقْوِيمٌ وَتَنْكِيسٌ فِي سُورَةِ التِّيْنِ ٥٢٧
- تفسير سورة العلق: سُجُودٌ وَطُغْيَانٌ فِي سُورَةِ العَلَقِ ٥٣١
- تفسير سورة القدر: لَيْلَةُ الشَّرَفِ وَالسَّلَامِ فِي سُورَةِ القَدْرِ ٥٣٧
- تفسير سورة البينة: دِيْنُ القَيِّمَة فِي سُورَةِ البَيِّنَةِ ٥٤١
- تفسير سورة الزلزلة: إِخْبَارٌ وَحِسَابٌ فِي سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ ٥٤٥
- تفسير سورة العاديات: صِرَاعٌ وَحِسَابٌ فِي سُورَةِ العَادِيَاتِ ٥٤٩
- تفسير سورة القارعة: مَوَازِينُ الأَعْمَالِ فِي سُورَةِ القَارِعَةِ ٥٥٣
- تفسير سورة التكاثر: تَنْبِيهُ الغَافِلِينَ فِي سُورَةِ التَّكَاثُرِ ٥٥٥

- تفسير سورة العصر: الإِنْسَانُ وَالزَّمَانُ فِي سُورَةِ العَصْرِ ٥٦١
- تفسير سورة الهمزة: تَحْطِيمُ المُسْتَكْبِرِينَ فِي سُورَةِ الهُمَزَةِ ٥٦٥
- تفسير سورة الفيل: تَحْطِيمُ أَصْحَابِ الفِيْلِ فِي سُورَةِ الفِيْلِ ٥٦٩
- تفسير سورة قريش: الطَّعَامُ وَالأَمْنُ فِي سُورَةِ قُرَيْشٍ ٥٧٣
- تفسير سورة الماعون: عَلَامَاتُ المُكَذِّبِينَ بِالدِّيْنِ فِي سُورَةِ المَاعُونِ ٥٧٥
- تفسير سورة الكوثر: إِعْطَاءٌ وَشُكْرٌ فِي سُورَةِ الكَوْثَرِ ٥٧٩
- تفسير سورة الكافرون: إِعْلَانُ البَرَاءَةِ فِي سُورَةِ الكَافِرُونَ ٥٨٣
- تفسير سورة النصر: تَسْبِيحٌ وَاسْتِغْفَارٌ فِي سُورَةِ النَّصْرِ ٥٨٥
- تفسير سورة المسد: خُسْرَانٌ وَعَذَابٌ فِي سُورَةِ المَسَدِ ٥٨٩
- تفسير سورة الإخلاص: الأَحَدُ الصَّمَدُ فِي سُورَةِ الإِخْلَاصِ ٥٩٣
- تفسير سورة الفلق: الاسْتِعَاذَةُ بِاللهِ مِنْ أَسْبَابِ الشَّرِّ فِي سُورَةِ الفَلَقِ ٥٩٧
- تفسير سورة الناس: الاسْتِعَاذَةُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ فِي سُورَةِ النَّاسِ ٦٠٣
- خاتمة ٦٠٧
- المصادر والمراجع ٦٠٩
- ترجمة المؤلف ٦١٥
- فهرس الموضوعات ٦٢١

❁ ❁ ❁